محمد أبو الغــــار

على هامش الرحلة..

مقدمة للأديب

الطيب الصالح

على هامش الرحلة

محمد أبو الغار



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٣

إهــــداء

إلى أبى أحمد أبو الغار الذى علمنى واضاء لى

الطريق وإلى أمى شفيقه عبد الهادى التى أعطتنى

حنان الدنيا كلها

الغلاف : إيهاب شاكر

الإخراج الفنى : أميمة علو أحمد

مقدمة

بقلم الأديب الكبير

الطيب صالح

من شبين الكوم إلى ستكهولم

عرفني بهذا الأنسان المتميز الدكتور محمد أبو الغار ، صديقي الأستاذ محمود سالم ، الكاتب و الصحفيّ المعروف. ومنذ أن جلست معه أوّل مّره ، أدركت أن هذا رجلٌ من طراز غير عاديّ. كنت قد سمعت الكثير عن نبوغه و شهرته العلميّه الواسعه، ولما تحادثت معه ، وجدت إنساناً متواضعاً دمثاً ودوداً ، يخفي تحت بساطته الظاهره و أبتسامته الحيّه ، علماً غزيراً ، و عقلاً حادّ الذكاء ، و تجربة حياتيّة كبيره.

ثم ألتقيت به فى داره الجميلة رغم بساطتها ، فرأيت مكتبته العامره بالكتب فى شتىّ العلوم و الفنون بعدة لغات ، ورأيت الجدران مزيّنة بلوحات فنّيّه، منتقاة بعناية ، وكلّها تعكس ذوقاً رفيعاً و معرفة عميقة بالّرسم.

وتأكد لي بعد ذلك ، من لقاءاتنا المتعدّدة ، خلال زياراتي المتكرّره للقاهره ، أن هذا الرجل العالم الأديب المستنير ، هو من طراز العلماء العرب المسلمين الأوائل أيّام كانت الحضارة العربيّه الأسلاميّه فى أوج أزدهارها. أولئك العلماء أمثال أبن سينا و

أبن رشد، اللّذين كانت عقولهم تتّسع لشتّى أنواع المعرفه ، و أريحيتهم الذهنيّه و تسامحهم الروحى ، يستطيعان أن يجمعا شمل الأفكار المتناقضه و المؤثرات المتضاربه.

ولا أبالغ أذا قلت أن الدكتور محمّد أبو الغار ، فيه سماتٌ كثيره من سمات رجال عصر التنوير الأوروبى الذين يوصف الواحد منهم بأنه Renaissance man رجل من عصر التنوير هذا رجل مضىء، فمن أين له كل هذا الضوء؟

ربّما يجد القارىء الأجابه عن هذا السؤال، فى هذا الكتاب الممتع الذى يروى فيه الدكتور أبو الغار أطرافاً من قصة حياته الحافله. وهو يسمّيه بتواضعه المعهود (على هامش الرحله)، و يشير منذ البدايه إلى السبب الذى حفزه على الكتابه:-

و ربّما كان من أهم الأسباب الّتى حفزتنى لكتابة هذه الأوراق ، هو ندرة الكتب الّتى دوّنها أفراد من جيلى لم ينتموا إلى فكر أو تنظيم معّين ، ولم يكونوا أيضا من رجال الثوره أو أعوانها أو اضيروا من قوانينها أو قراراتها.

الكتاب فى نظرى ، أوسع من ذلك بكثير وأهم من ذلك بكثير. أنه يروى ثلاث قصص رئيسيه. أولاً قصة عائلة من الريف المصرى. عائلة من الطبقة الوسطى ، ولكنّها ليست مترفه بأى حال من الأحوال ، بل هى تصلح أن تكون نموذجاً للعائلة المصريه.

يبدأ الدكتور أبو الغار القصه بالحديث عن جدّه لأبيه الحاج محمد أبو الغار الذى كان تاجراً للقطن فى مدينة شبين الكوم ، و يصفه بأنه كان متوسط الحال ، تتحسّن أحواله أحياناً و تسوء أحياناً أخرى. وكان على قدر من التعليم الذى كان صعب المنال فى ذلك الزمان.

كان جدّ الكاتب وكذلك جدّته ، متقدّمين على زمانهما ، فى منتصف عشرينات القرن ، فأدخلا بناتهما المدارس الّتى كانت متاحة فى ذلك الزمان ، الأمر الذى

أعطاهنّ منّ قدراً من التعليم أعانهن فى حياتهن الزوجيّه فيما بعد ، لأنهن خرجن من المدارس إلى بيت أبويهنّ الى أن تزوّجن.

أما الأبن الوحيد الذى هو والد الكاتب ، فقد تعلّم الى أن اكمل المرحله الثانويّه ، ثم أتّم تعليمه الجامعىّ فى كلية التجاره بجهده الخاص وهو يعمل. وقد عُيّن فى بنك التسليف الزراعىّ فى المنوفيه أوائل الثلاثينيات من القرن الماضى ، فى حكومة اسماعيل صدقى. بعد ذلك صار والده بعد ثورة يوليو مديراً لبنك التسليف الزراعى فى القاهره.

كانت جدّته لأبيه وجدته لأمه أختين شقيقتين ، ولكن عائلة أمه كانت ميسورة اكثر ، و متفتحه اكثر من عائلة أبيه. كان جَده لأمه وكيلاً لشركة (ماركونى) الأيطاليهّ للأتصالات اللاسلكيهّ فى مدينة السويس. وكانت مدينة السويس كما يصف الدكتور محمد أبو الغار ، مدينة (كوزموبوليتان) ، اختلطت فيها شتى الجنسيات الأوربية الوافده مع المواطنين المصريين مع جنسيات عربية أخرى وافده ، مكونين مزيجاً جذاباً يسوده الود والتسامح. وكان المجتمع يتقّبل التأثير الأوروبىّ بهدوء و دون افتعال أو توتّر.

فى هذه البيئه الجديده نشأت والدة الكاتب ، فنالت قسطاً حسناً من التعليم ، وتشرّبت بعض السلوكيات الحديثه، ولم يكن غريباً أن تتعلّم العزف على البيانو. وقد تزوجت من والد الكاتب ، وهو أبن خالتها عام ١٩٣٧ . وفى عام ١٩٤٠ وُلد الدكتور محمد أبو الغار ، صاحب هذه السيره.

كان من حسن حظ الكاتب أنّه تربّى فى بيئة مثل هذه ، وهى كما سوف يجد القارىء ، مزيجّ من البيئة المصريّة الريفيّه بقيمها المتأصّله ، و البيئة الحضريّه التى دخلت عليها بعض المؤثرات الأوروبيّه. ولا بد أنّ بذور نبوغه جاءت من تلك البيئه. وأخذ منها أيضاً الخصال الجميله التى تميّز بها ، كما ذكرت من قبل.

القصّه الثانيه فى هذه الدراما الهادئه ، التى يرويها الكاتب بخليط من الموضوعيّه و الحذق الفنى الأدبى ، هى قصة الدكتور محمد أبو الغار نفسه. قصة رحلته المثيره فى طلب العلم ، من شبين الكوم ، الى القاهرة ، فإلى كوبنهاجن وستكهولم فإلى العالم الواسع.

وهى رحلة مثيرة بحق ، فقد دخل كلية الطب بجامعة القاهره وهو فى السادسه عشر من العمر. ونال شهادة الدكتوراه وهو فى السابعه و العشرين من العمر. تخصّص فى الولاده و أمراض النساء ، وأصبح بعد ذلك كما هو معروف ، من أشهر العلماء فى العالم فى قضيّة الأخصاب وأطفال الأنابيب.

و القصّتان ، قصة عائلة الكاتب ، وقصته الشخصّيه ، مرتبطتان أرتباطا وثيقا بطبيعة الحال ، بقصة مصر نفسها خلال الخمسين أو الستين عاماً الأخيره.

وُلد عام ١٩٤٠ ، فى أوج أستعار الصراع بين القوى الأوروبيّه أثناء الحرب العالمية الثانيه. وتفتح عقله على الحياه فى آخر أيام العهد الملكىّ فى مصر. وكانت لأسرته صلة بعيدة بالقصر ، فقد كان أحد أخواله متزوجاً من أبنه خال ناريمان ، الزوجه الثانيه للملك فاروق. وكان فى الثانية عشر من عمره حين قامت الثوره المصريّه بقيادة الزعيم جمال عبد الناصر وكان هو و أسرته مؤيدين للثوره ومبادئها. ثم شهد الأحداث السياسيّة الأليمه فى حياة مصر ، عدوان عام ٥٦ ، وهزيمة عام ٦٧ . وهو يصف فى كتابه الأثر العميق الذى تركته تلك الهزيمه فى نفسه. ثم شهد الأنتصار المصرىّ العربىّ على اسرائيل فى حرب عام ٧٣ .

ولا أطيل عليك أيها القارىء ، ولكننى أختم هذه المقّدمة بالقول ، أن فى هذه السيرة الممتعه العظيمة الأهميّه ، ثلاث أفكار كبيره كلّها تشغلنا اليوم.

أولاً قضيّة التنميه والتغيير فى مجتماعتنا العربية و المسلمه ، وقد فهمت من قراءة الكتاب أن الدكتور محمد أبو الغار يرى أن التغيير يجب أن يَدفع به الشعب نفسُه فى

مناخ من الديمقراطية و الحريه. وأبو الغار نفسه أشتراكى التوجه ، وكان من حسن حظه أنه عاش فى السويد ، التى يعتبر نظامها الأجتماعى أرقى نظام فى العالم. وقد أبتدعت السويد كما هو معروف نوعا من الأشتراكيه ، يُعتبر طريقا ثالثا ، بين الطريق الشيوعى السوفييتى الذى تميز بالقسوة فى التطبيق ولم يكن للشعب خيار فيه ، والطريق الرأسمالى الأمريكى بقوته و عنفه هو أيضاً ، وعدم اكتراثه بالضعفاء فى المجتمع ، والأعتماد على قوى السوق الشرسه لأحداث التوازن المطلوب.

ثانياً التفاعل الحضارىّ بين مجتماعتنا التقليديّه والأفكار الحديثه الوافده من أوروبا (أو أمريكا). ويتّضح من قراءة الكتاب أن الدكتور محمد أبو الغار يرى أن ذلك أيضا يجب أن يترك للشعوب المعنيّة تأخذ ما تشاء وترفض ما تشاء. وواضح من وصفه لجدّيْه وجدّتيْه و أعمامه و أخواله و عماته و خالاته ، أن هولاء الناس ، وهم فى رأيه يمثلون غالبية الشعب المصرى ، وبالتالى يمثلون المجتمعات العربيّه الأخرى، لديهم من الحكمه و القدره على التمييز، ما يمكنهم من معرفة الذى ينفعهم والذى يضرّهم.

ثالثا ، أننى أعتبر سيرة الدكتور محمد أبو الغار نفسه ، مثلاً واضحاً على أن العقل العربىّ المسلم قادر على أستيعاب أكثر أنواع العلوم و التكنولوجيا تعقيداً ، وهضمها، على قدم المساواه، مع النابغين و العبقريين فى أى بقعه فى العالم. وهذا العقل العربىّ قادر على أحداث الـ Synthesis المطلوب لأنشاء حضارة جديدة، ترتكز على موروثنا الحضارى العميق الجذور و حكمتنا البعيدة الغور و يستفيد من الأفكار الحديثة الوافده علينا.

وفى الختام أقول دون تردّد ودون مجامله أن كتاب (على هامش الرحله) للدكتور محمد أبو الغار، كتاب بديع يجد فيه القارىء متعة وفائدة عظيميْن. ولعل ما يزال فى صدر الدكتور محمد أبو الغار كتابٌ آخر ، يتحدث فيه عن مغامراته الفكريّه و الروحيه بأسهاب اكثر ، بأسلوبه السّهل العميق ، وعقله الرصين المبدع.

تقديم

أعتقد أنه من واجبى تجاه القارىء أن أوضح أننى عندما شرعت فى كتابة هذه الأوراق لم أقصد أن أكتب سيره ذاتية لأننى لا أعتقد أن سيرة حياتى تستحق أن تنشر فى كتاب و لكننى أردت أن أكتب عن مجموعة من الأحداث التى سمعتها من أبائى و أجدادى و التى عايشتها بنفسى و كلها تحكى أحداثاً حقيقية و تجسد شخصيات من لحم ودم عاشت بيننا و أثرت فينا ولكن فى النهاية وجدت أن ما كتبته هو نوع من السيره الذاتية ولكن الوطن يلعب فيها دور البطوله.

وعندما أتكلم عن أحداث قديمه فمن الصعب أن يفرق الانسان بين ما يتذكره من طفولته أو يكون قد سمعه عن طفولته ففى كثير من الأحيان تختلط الذاكرة القديمة ببعض الحكايات التى يسمعها الطفل من الكبار فتعلق بذهنه و ذاكرته كأنها أحداث رآها بعينه و عاصرها بنفسه وقد تكون بعض الأحداث المنقوله فيها شىء أو كثير من الخيال و التصور لمن حكى الحكاية أو لمن استمع إليها و تخيلها بطريقته الخاصه. قادنى هذا إلى أن أكون حذراً فى وصف أحداث على أنها حقائق وحاولت أن أفرق بين ما سمعته وما شاهدته و عاصرته بنفسى وهو ما كنت قد دونت عنه الكثير فى أوراقى الخاصه فى وقت الحدث و عدت إليها عندما كتبت هذه الأوراق.

و ربما كان من أهم الأسباب التى حفزتنى لكتابة هذه الأوراق هو ندرة الكتب التى دونها أفراد من جيلى لم ينتموا إلى فكر أو تنظيم معين ، ولم يكونوا أيضاً من رجال

الثوره أو أعوانها أو اضيروا من قوانينها أو قراراتها. فخارج نطاق المؤلفات الأكاديمية التاريخيه هناك العشرات من الكتب التى تحكى عن مصر فى النصف الثانى من القرن العشرين ويشكل البعض منها مجموعة قيمة من الإصدارات، ولكن معظم المؤلفات كتبت بأقلام الجيل الذى تم تكوينه وتشكل فكره قبل الثوره ،أى كان عمره عشرون عاماً أو أكثر عند قيام الثوره وكثير من هذه الكتب عبرت عن وجهة نظر كتابها من منطلق علاقة الفكر الذى ينتمى إليه سواء كان يعبر عن فكر الطبقه التى كانت تحكم مصر قبل الثوره أو فكر مجموعة الأحزاب القديمه أو الأخوان المسلمين أو الماركسين و بعض فصائل اليسار. هناك مجموعة أخرى من الكتب للذين إشتركوا فى صنع الثوره من ضباط الصف الأول و الثانى أو من المدنيين الذين ساندوا الثوره أو اختلفوا معها و هؤلاء أيضاً عبروا عن وجهة نظرهم التى اختلفت بإختلاف مواقعهم و علاقتهم مع نظام الحكم على مدى سنوات.

أما جيل الثورة نفسه و الدى تربى فى احضان ثورة يوليو وكان عمره أقل من خمسة عشرة عاماً حين قامت الثوره ، وهؤلاء أبناء الثورة الحقيقيين الذين تربوا فى مدارسها و استمعوا إلى أفكارها ليل ونهار، وتشكل وجدانهم بكلمات قائدها و عاشوا ولادتها و نموها و مجدها و انهيارها فلم يكتبوا كثيراً ، حقيقة أن هناك من هذا الجيل عدد من الروائيين و الشعراء و الصحفيين و السينمائيين النابهيين الذين عبروا بالأدب و الشعر و النقد و الدراما عن أفكارهم ، ولكن .. أين الانسان المصرى العادى إبن الثورة؟ لا أعتقد أنه قد حكا حكاينه بعد و خاصة إذا كان هذا المصرى لم يحمل معه موروثاً عائلياً أو فكراً ثقافياً خاصاً من قبل الثورة ، و إنما شكلته ثقافه وفكر الثورة ، لذا عكفت على أوراقى القديمة و كتبت هذا المخطوط و دفعت به إلى المطبعه لعل فيه ما يجده القارىء إضافة.

و أخيراً أود أن أشكر بعض الأصدقاء الذين أطلعوا على المخطوط و أبدوا بعض الملاحظات القيمه .

جدى وجدتى

فى وسط الدلتا وفى مدينة شبين الكوم ولد وعاش ودفن جدى الحاج محمد أبو الغار. وكان تاجرا للأقطان متوسط الحال تتحسن أحواله المادية أحيانا وتسوء أحيانا أخرى، وكان على قدر من التعليم الذى كان صعب المنال فى ذلك الزمان، فقد ولد فى منتصف العقد السابع من القرن التاسع عشر فكان مولده قبل الاحتلال البريطانى لمصر ببضع سنوات ، وقدر له أن يتعلم قدرا من الفرنسية يستطيع به أن ينمى تجارته حين كانت الفرنسية هى لغة المعاملات في تجارة القطن فى ذلك الزمان.

وقد بنى جدى بيته على الشارع الرئيسى أمام محطة القطار ، وكان من دورين أحدهما على الشارع ، وبالرغم من أن جدى لم يكن من الأغنياء أو أصحاب الأراضى إلا أنه كان محبوبا وله شعبية كبيرة بين أهل بلدته. وكان بيته مكانا لعقد المصالحات وحل الخلافات بين كثير من أهل البلدة. ولا أعتقد أنه كانت له طموحات سياسية أو اقتصادية وربما كان يفضل حياة التاجر البسيط.

ويمثل جدى الشخصية المصرية التقليدية فى ذلك الزمان بمميزاتها وعيوبها. فقد كان مثل ابناء طبقته على قدر كبير من الاستقامة وحسن الخلق والمعاملة ، وكانت علاقته طيبة بالجيران والأصدقاء وبزملائه من التجار وزبائنه. وكانت ثقافته العامة هى موروث الثقافة المصرية الذى يتناقله الشعب جيلا بعد جيل ، وكانت ثقافته

محدودة بقراءة الأهرام يوميا وكان شراء هذه الجريدة يعتبر شيئا قليل الحدوث فى الريف ، وبدخول الإذاعة أصبحت نشرة الأخبار مصدرا هاما من مصادر المعرفة له. وقد كان جدى شديد التدين و لإيمان يؤدى فرائض الإسلام ويلتزم بتعاليمه ولم أسمعه أبدا يتحدث عن الدين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فكان الدين عنده تعاليم وإيمان ونظام خاص بينه وبين ربه ، وبالإضافة إلى الصلاة كان يستمع للقرآن كل مساء فى الراديو. أما عن الثقافة العامة خارج صحيفة الأهرام فتتكون من الموروث الثقافى المنقول عبر الاجيال، فلم أرى فى منزله ومقتنياته كتابا واحدا باستثناء القرآن الكريم. ولكن يجب أن أعترف بأن قراءته للجريدة كانت شاملة فكان يقرأ الأهرام سطرا سطرا وكلمة كلمة ، وقد شاهدت بنفسى وشاركت الأحفاد فى القراءة له بعد أن ضعف بصره ، وكان يحتفظ بالجريدة حتى يأخذها جار أو صديق له فى اليوم التالى. وكانت ولازالت الجريدة الجيدة مصدراً هاماً وأساسياً للثقافة العامة بالإضافة للناحية الإخبارية.

أما موقفه السياسى فكان مثل معظم المصريين فى ذلك الوقت الذين يتمتعون بحس وطنى عال ولكنهم كانوا يحجمون عن المشاركة السياسية الفعالة إلا فى فترات نادرة وفى ظروف تاريخيه خاصة. وأعتقد أن جدى كان متعاطفا مع الحزب الوطنى القديم فى بداية القرن ثم أصبح متعاطفا مع الوفد، وبعد الثورة كان قد قارب الثمانين ولم تعد له اهتمامات سياسية. ولا أعرف أنه انضم إلى حزب ، ولكنه كان يدلى بصوته للوفد فى الانتخابات العامة. ويحكى أن جدى قد ساعد بعض الفلاحين بالاختفاء فى منزله هرباً من الجنود الإنجليز بعد حادثة دنشواى حين تدفق كثير من الفلاحين فى اتجاه شبين الكوم ، وكان منزله فى أول الطريق الموصل لدنشواى وهى قرية قريبة من شبين الكوم ، وأذكر أن حديثا دار بعد خمسين عاما من هذه الحادثة حول تكدير جدتى لجدى على هذا العمل المفروض أنه وطنى ، وعاتبته على عدم

تقديره لخطورة الموقف وتبعات هذه المساعدة وما قد يترتب عليها من مخاطر على أسرته ومستقبله، وقد كان أيضا يفتح باب منزله أثناء المظاهرات الصاخبة فى ثورة ١٩، والتى كانت تمر من الشارع الرئيسى أمام منزله، حتى يحتمى بعض الشباب الفار من طلقات الرصاص أو هراوات الجنود الإنجليز، ولكن لا يعنى ذلك أنه شارك مشاركة فعلية فى هذه المظاهرات.

وأعتقد أن التهز السياسى فى خلال حكم المماليك ثم حكم أسرة محمد على وأخيراً الاحتلال الإنجليزى قد ألقى بظلاله على التكوين الفكرى ومنهج الحياة للمصريين الذى عاشوا النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وعند بداية التحديث المصاحب للأحتكاك بالغرب بدأت المحاولات الأولى للفكاك من هذا القهر الذى سببه كلاً من الحاكم المحلى والمستعمر البريطانى فى مصر.

وقد كانت هذه المحاولات مقصورة على القاهرة التى عاد أليها المبعوثون المصريون لفرنسا والتى توجد بها المدارس العليا ، وقد كانت هناك مدرستين للتحديث : أولهما متأثرةً بالحضارة الغربية و الثانيةً محاولة لاعادة تفسير وتطوير التفكير السلفى، أما فى الريف حيث عاش جدى فكانت القاهرة بعيده عنهم ، ولم تصل ارهاصات التغيير إلا إلى كبار الملاك المتنورين نسبياً والذين كانت لهم بيوت بالقاهرة وعلاقات وثيقة مع الحركة السياسية والفكرية.

لم يكن جدى يعمل فى هذه الفترة فقد كان قد تخطى الخامسة والسبعين. وكان يجلس فى الشمس ويذهب للجامع ويتحدث إلى أحفاده، وقد كان مقلا فى الأكل، وعلمت أنه طوال عمره لم يدخن أو يشرب حتى الشاى أو القهوة، وكان أيضا مقلا فى الكلام يجيد الاستماع والإنصات، وقلما يبدى رأيا أو تعليقاً، وكان نظره قد ضعف بشدة فأصبح يعتمد على أحد أحفاده فى قراءة الأهرام له كل يوم.

ولقد كان جدى وجدتى بمقاييس هذا العصر تقدميين للغاية، فلقد ذهبت جميع عماتى فى عشرينات القرن العشرين إلى المدرسة، وتعلمن جميعا القراءة والكتابة بطريقه جيدة وخرجن من المدرسة فقط ليتزوجن، وكان ذلك فى سن مبكرة فى حدود الخمسة عشر عاما، وتزوجن جميعا فى شبين الكوم باستثناء العمة الصغرى التى تزوجت فى الصعيد. وبقيت عمة لى استمرت فى التعليم الثانوى واضطرت أن تسافر لتسكن فى مدرسة داخلية خارج المحافظة لاستكمال تعليمها الثانوى. وكان ذلك حدثا كبيرا فى العائلة بل وفى المدينة كلها ، واختلفت الآراء هل يصح أن تسافر بنت الحاج محمد أبو الغار وحدها وتسكن فى بلد بعيد لتكمل تعليمها الثانوى ، وربما كانت عمتى سعاد من أوائل الفتيات اللاتى أتممن تعليمهن الثانوى من بنات المنوفية. ولقد كانت الضغوط على جدى وجدتى لمنعها من السفر قوية للغاية. ولكن فى النهاية انتصر صوت العقل، وانتصرت الأفكار التقدمية، وأخذ الأب القرار الخطير والهام بسفر ابنته متحملاً كل المسئولية. وقد كان، وسافرت العمة ونجحت فى الدراسة الثانوية والتى كانت فى هذه الآونة ست سنوات للفتيات وخمس سنوات للفتيان، ويقال أن السنة الإضافية كانت لإعطاء الفتاه دروساً إضافية فى الحياكة والطبيخ وفنون رعاية الأسرة، ويقول البعض الآخر أن السبب الحقيقى هو عدم قدرة المرأة على الاستيعاب والتحصيل بنفس درجة قدرة الرجل مما يستدعى إضافة هذه السنة. ولا أدرى متى ألغيت هذه السنة الإضافية، ربما كان ذلك فى نهاية الأربعينات، ولا أدرى من هو وزير المعارف المستنير الذى قام بإلغائها، ومن الواضح أن تحجيم وضع المرأة والاعتقاد بعدم استجابتها للتعلم والقدرة على اتخاذ القرار له جذور عميقة فى وجدان هذا الشعب رجالا ونساء، ويتبلور هذا الأمر فى وجدان الحكام بصفة أكثر وضوحا ورسوخا. وتمر الأيام وتنهى عمتى دراستها الثانوية بنجاح وتفوق وتبدأ المعركة الكبرى. فهذه الفتاه ترغب فى استكمال دراستها الجامعية فى القاهرة المحروسة أم

الدنيا، والتى يختلط فيها الرجال بالنساء، فما بالك بفتاة ريفية تذهب للعاصمة وحدها ربما لأول مرة !.

وقد وقف والدى وهو الابن الأكبر فى صف عمتى، وشرح أهمية التعليم. ولكن التعليم فى الجامعة كان أكبر مما تصوره الأب، فوافق أخيرا على دخولها فى القاهرة كلية المعلمات العليا فى القسم الداخلى للفتيات لمدة أربع سنوات ، وفى تلك الآونة كانت الأحوال المالية للأسرة تكفى حاجتها بالكاد، فكان دخول هذه الفتاه التعليم الجامعى يشكل عبئا جديدا على الأسرة والتى تحملته حتى أنهت العمة دراستها لتصبح من أوائل الخريجات من بنات المنوفية، ولتصبح المسئولة عن التعليم فى المنوفية فيما بعد. أما والدى فكان الولد الوحيد والابن الأكبر، وقد إهتمت جدتى بتعليمه اهتماما كبيرا، إذ كان محور حياتها وكيانها ، ويذكر والدى أنه كان يذاكر حتى دراسته الثانوية على ضوء لمبة الجاز، المعروفة بنمرة خمسة، ضوؤها ضعيف، وكانت أمه تجلس خلفه حتى انتهاء المذاكرة خشية أن ينام فجأة ويسقط الكتاب على اللمبة فيحدث حريق. مما كان يعتبر من الحوادث المتكررة آنذاك، فلم تكن الكهرباء قد وصلت بعد إلى عواصم المحافظات.

وكان من حسن الطالع لمحافظة المنوفية أن تأسست فيها فى أوائل القرن العشرين جمعية خيرية سميت باسم جمعية المساعى المشكورة، وقد كرست هذه الجمعية جهودها فى التعليم، فأنشأت المدارس ومن ضمنها أول مدرسة ثانوية فى المنوفية، وهى واحدة من أوائل المدارس الثانوية التى تأسست فى القطر المصرى كله.

عندما نقرأ عن الكم الهائل من الجمعيات الأهلية فى أوروبا وأمريكا، والتى تقوم بدور عظيم فى تقديم الخدمات الأساسية لشعوبها، لوجدنا أن هذا ليس تقليدا غربيا فقط ، بل كان تقليداً مصرياً راسخاً فى أوائل هذا القرن، فقد تكونت هذه الجمعية بروؤس أموال أغنياء المنوفية والتى ساهم الجميع فى إنشائها بمبالغ متراوحة من

التبرعات قد تكون قروشا قليلة فى بعض الأحيان. ولا أرى اليوم ولا أسمع عن مشروع خيرى حقيقى يستمر نصف قرن من الزمان كما كان يحدث فى الماضى. هل هناك فارق فى الانتماء للوطن وحبه بين أغنياء الماضى وأغنياء الحاضر؟! هل كانوا فى الماضى ينظرون للمستقبل بأمل كبير فى التقدم ، ثم تضاءل الأمل فى المستقبل فى أيامنا هذه؟! ، أم كانت الوطنية وحب الوطن عبادة كما كانوا يقولون، والآن تأثر الناس بما يسمى بالعولمة ، أو على الأقل تأثر بذلك كبار الأغنياء والذين لهم قدم هنا وقدم هناك يستعدون للرحيل وتغيير الوطن عند أى شعور بالخوف أو الخطر على أموالهم؟ هل هذا تأثير أموال النفط، حيث أن كثيرا من أغنياء اليوم تكونت أموالهم بشكل مباشر أو غير مباشر من أموال النفط وأموال المصريين العاملين فى بلاد النفط؟ أم هم كأغنياء الخليج يستثمرون أموالهم فى الغرب ويمتلكون بيوتا فيه ويتعلمون أيضا فى معاهده ، ويأكلون ويشربون كما يأكل الشباب فى الغرب، وعندما يرد التفكير فى المرأة أو الحب أو الأدب أو الثقافة أو المساواة والعدل، فهم غلاة المتشددين المتمسكين بالأفكار السلفية!.

ربما كان أغنياء الماضى كلهم من المنتجين الزراعيين أو الصناعيين، وكانت مصر مستقبلهم وأملهم وحياتهم ومماتهم مهما كانت أفكارهم أو ديانتهم أو انتماؤهم الحزبى. أما اليوم فيا حبذا لو كان لى موضع قدم فى الخارج أقفز إليه عند أول أزمة، حتى لو كان هذا الموضع جواز سفر أجنبى أحصل عليه بطريقة غير شرعية أو نصف شرعية!

هكذا تعلم والدى فى شبين الكوم حتى نال شهادة البكالوريا فى العشرينات. وكانت الخطوة التالية هى أن يدخل الجامعة وكان ذلك مستحيلا من الناحية الاقتصادية فالحياة فى القاهرة مكلفة ومصاريف الجامعة مرتفعة وكانت شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) شهادة محترمة جدا فى هذا الوقت ويعتبر الحاصل عليها قد أصاب

قدرا عظيما من التعليم. وذهب أبى إلى القاهرة بحثا عن عمل ومحاولة للدخول للجامعة وبعد البحث والتقصى وجد أن كلية التجارة تقدم محاضراتها ودروسها فى المساء فقط فقدم أوراقه وقبل. ويحكى والدى أنه حصل على وظيفة مدرس فى مدرسة خاصة بالزيتون فكان يعمل هناك فى الصباح ثم يسرع بركوب القطار ومنه إلى كلية التجارة فى باب اللوق ويعود لمنزله وهو حجرة فى شقة يؤجرها الطلاب المغتربون- ، وبعد سنتين وحين انتقل للسنة الثالثة بالكلية غيرت الكلية النظام وأصبحت الدراسة نهارية فاستقال من التدريس وتفرغ للكلية لمدة عامين حصل بعدها على البكالوريوس وكان تخرجه فى عام ١٩٣١ ، وفى هذا العام حدث انهيار فى بورصة نيويورك وصاحبه انهيار البورصات العالمية وكساد عالمى أدى إلى توقف العمل فى مصر وازدياد البطالة فكان من الصعب أن يجد عملا، إلا أن الحكومة المصرية قررت أن تنشئ بنكا للتسليف الزراعى يكون له فروع فى جميع المحافظات ويساعد الفلاحين والملاك فى الحصول على القروض ، وكذلك مستلزمات الزراعة من أسمدة وبذور وأماكن لتخزين المحاصيل حتى البيع، وقد أخبرنى والدى أن خريجى دفعته ذهبوا لمقابلة عبد الله فكرى أباظة باشا وكان رئيساً لنادى التجارة ـ كنقيب التجاريين اليوم ـ فأخذ مجموعة منهم لمقابلة إسماعيل صدقى باشا وكان رئيساً للوزراء ووزيراً للمالية، وطلب صدقى باشا أن تكون المقابلة فى المساء فى وزارة المالية ليكون عنده من الوقت ما يسمح له بالتحدث لهذه المجموعة من الشباب وقد كان، وبعد مفاوضات وضغوط من أباظة باشا وافق رئيس الوزراء على تعيين خمسة عشر خريجاً بترتيب تخرجهم فى فروع بنك التسليف الزراعى المختلفة من أنحاء القطر وكان والدى من ضمن المعينين وانتقل والدى ليعمل فى بنك التسليف فى المنوفية ثم فى البحيرة وتزوج من والدتى. وهى بنت خالته، عام ١٩٣٧ .

وهكذا عاش جدى ومات مصريا بسيطا جميلا فيه كل مميزات وخصائص المصريين فى ذلك الزمان من حسن الخلق والمعاملة والاستقامة، وكان يتمتع بسكينة

وإيمان شديدين ، وكانت له أيضا عيوب المصريين، فلم تكن له طموحات أكثر من حياة بسيطة وكريمة ولم يشارك أو يفكر فى محاولات جادة فى العمل العام قد تؤثر أو ترفع من شأن الأمـة ، وإنما كان تفكيره ينحصر فى محاولة تعليم أولاده الذكور والإناث وكان ذلك يعتبر عملا تقدميا ويعبر عن نظرة مستقبلية.

أما جدتى فكانت مملكتها الوحيدة بيتها وأولادها وبالرغم من أنها كانت تجيد القراءة إلا أننى أعتقد أنها لم تقرأ جريدة فى يوم من الأيام، لم يكن لها أية اهتمامات سياسية، ولم يكن يعنيها أويثير اهتمامها أيه احداث محلية أو حتى حرب عالمية مالم يؤثر ذلك بشكل مباشر على بيتها ، كانت تخشى من أى نشاط عام لزوجها أو أولادها ولا تريد أى مجازفة حتى لو كانت محسوبة. كانت تهاب الملك والإنجليز وضباط الثورة وأى حاكم مصرى أو أجنبى، وكانت تحمل الموروث المصرى القديم الزاخر بالخوف من السلطة والشعور بالأمان كلما ابتعدت عنها. ولا أدرى ما هى الحوافز القوية التى شجعتها على الاهتمام الشديد وإعطاء الأولوية لتعليم أولادها فى عشرينات القرن العشرين حين كان التعليم شيئا ثانويا وغير هام وصعب المنال بالإضافة لتكلفته المادية الباهظة نسبيا. وكان هذا التصرف نادرا خاصة فى الريف.

وكانت جدتى التى لا تغادر منزلها أبدا هى المسئولة عن أعمال المنزل، فكان الفرن على السطوح حيث كانت تقوم بتحضير العجين وإتمام الخبيز تعاونها سيدة عجوز من القرية المجاورة. وكانت رحلتى إلى سطوح بيت جدى شيئا جميلا ورائعا بالنسبة لى وأنا فى مرحلة الطفولة فى نهاية الأربعينات حين كنت أزور البلدة فى الإجازة الصيفية، وكنت أتمتع بمشاهدة عشة الفراخ المليئة بالدجاج والتى تجمع منها جدتى البيض كل صباح وأشاهد بمتعة شديدة عشة أخرى للأرانب. وفى الركن يقبع برج صغير للحمام. وفى وسط السطح تمتد حبال الغسيل لنشر الملابس والتى تخرج من حجرة الغسيل الموجودة فى الركن الآخر المقابل لبرج الحمام وكنت أشاهد عملية

غسيل الملابس والتى تجرى فى طشت كبير و بجواره إناء اسطوانى الشكل له حمالة يسهل منه رفعه ونقله ويسمى أروانه وكان يتم تسخين الماء بواسطة أقراص الجلة المصنوعة من روث الحيوانات. وكانت الحياة فوق السطوح حافلة بكل مظاهر الإثارة لطفل قاهرى مثلى فكانت جدتى تقضى معظم وقتها بين خبز العيش وبين رعاية الطيور والغسيل ونشره وجمعه وكانت أم سعيد خادمتها وصديقتها ومساعدتها فى كل شىء. وكان هذا السطوح بمثابة عالم مسحور لى كطفل يزور الريف مرة أو مرتين كل عام ولعدة أيام.

شبين الكوم وطفولتى

وحقيقة الأمر أن شبين الكوم من الناحية النظرية هى عاصمة لمحافظة المنوفية ويطلق عليها بندر ، ومن الناحية العملية فهى أبعد ما تكون عن المدينة ، فمنزل جدى هذا يقع فى وسط المدينة وكان يضاء بالكهرباء ، ويبدو أن وصول المياه الحكومية له كان فى أواسط الأربعينات ، لأننى أتذكر أن طلمبة الماء التى تدار باليد وتضخ المياه من بئر تحت المنزل كانت موجودة فى الدور الأرضى، ولكننى لم أرها تستخدم أبدا، وقد أزيلت بعد بضع سنوات ربما بعد أن تأكد جدى أن المياه القادمة فى المواسير من محطة المياه الحكومية سوف تستمر ولن تنقطع. وكان الدور الأرضى به شرفة واسعة بها كنبه إستانبولى، نسبة إلى استنبول، وأمامها نافذتان لكل منها شيش خشبى ذو فتحات عريضة يسمح لمن بالداخل أن يرى كل ما يحدث فى الشارع دون أن يراه من يمر أمام المنزل. وقد كانت جدتى قبل الغروب تجلس على الكنبة، وتشاهد ما يحدث فى الشارع، لمدة ساعة أو أكثر كل يوم. وكان الباعة الجائلون يحدثونها من خلف الشيش، ويمكن أن تفتحه قليلا إذ طال الحديث، أما إذا رغبت فى الشراء والفصال والحديث الذى قد يطول إلى ساعة أو أكثر فينتقل البائع إلى داخل المنزل حتى تتم الصفقه.

أما الصالة في الدور الأرضي فتتوسط المنزل، ويوجد رف خشبي عال فوق مستوى الرأس عليه راديو يعلوه غطاء من قماش البفتة البيضاء. وكان هذا الراديو يدار مرتين يوميا، في الساعة الثانية والنصف ظهرا، لسماع نشرة الأخبار، وفي الساعة الثامنة مساء لسماع القرآن يليه أخبار الثامنة والنصف. وفيما عدا ذلك فالراديو مغلق طوال اليوم.

أما باقي غرف الدور الأرضي فإحداهما حجرة جدي والأخرى حجرة عمتي، التي كانت تسكن في بيت العائلة قبل زواجها، وحجرة ثالثة لعمة أخرى متزوجة وتقطن هذه الحجرة هي وزوجها شيخ المعهد الديني بشبين الكوم. أما الدور الثاني، فكان الوصول إليه من سلم داخلي. وكان هذا الدور لا يفتح إلا للزوار أو الضيوف، وبه حجرة نوم للضيوف وحجرة للطعام لم أرها تستخدم أبدا، ولا أظن أن احداً تناول فيها الطعام خلال نصف قرن، وحجرة أخرى كانت تسمى حجرة المسافرين، وهي صالون لاستقبال الضيوف كان يستخدم مرة أو مرتين كل عام. والحجرة الأخيرة كان بها طاقم أنتريه ومكتبة جميلة بها مجموعة من كتب التراث ودواوين الشعر يملكها زوج عمتي المقيم في نفس المنزل.

كان شارع المحطة الذي يقع فيه بيت جدي شارعا هادئا فهو مواز للسكة الحديد وأمامه مباشرة منزل ناظر المحطة والذي هو متصل بالمحطة ويعتبر جزء منها وكانت تمر بالشارع بعض عربات الحنطور وكثير من عربات الكارو المحملة بالخضراوات من القرى القريبة من شبين الكوم ، حيث تمر من تحت نفق يمر أعلاه القطار، وتنطلق إلى داخل شارع سعد زغلول وهو الشارع التجاري في المدينة والعمودي على محطة القطار. وكانت الدواب بكافة أنواعها تمر أيضا أمام المنزل تتجه إلى القرى المحيطة بالمدينة، وحركة عربات الكارو والدواب تنشط في الصباح الباكر وعند الغروب ، أما في وسط النهار وأثناء الليل فيخيم على الشارع هدوء نسبي

حيث لا توجد محلات تجارية ولا مساكن كثيرة، فالشارع يحده من ناحية سور السكة الحديد ومن الناحية الأخرى عدة منازل بسيطة. هذا الشارع لم يكن مغطى بالإسفلت أو على الأقل كان ذلك منذ سنوات بعيدة، لأن الشارع كان مغطى بطبقة سميكة من التراب تتحول إلى بركة من الطين عند سقوط الأمطار ويصبح المرور فى الشارع شبه مستحيل إذا حاولت ذلك بأى نوع من الملابس والأحذية المعروفة، وكانت تمر أيام بعد انتهاء الأمطار ليجف الشارع مرة أخرى. ولحسن الحظ فإن أيام المطر معدوده كل عام. وكان هذا الشارع الهادئ نسبيا يتحول إلى كرنفال كبير يوم الخميس حيث يكون هو يوم السوق الأسبوعى. فمنذ الصباح الباكر يأتى الباعة ويفترشون الشارع أو على الرصيف أمام منزل جدى وينصبون تنده تحميهم من الشمس الحارقة. وكان كل شئ يباع فى هذا السوق ما عدا الحيوانات الكبيرة الحجم كالبقر والجمال فهى تباع فى سوق خاص فى القرية المجاورة والمرور إليه بنفق تحت السكة الحديد، وكان كل تاجر له مكان مخصص فى الشارع وعلى الرصيف المقابل لبيت جدى كان تاجران للأقمشة يقتسمان الرصيف ، وكانت الفرجة من نافذة شرفة الدور الأرضى على السوق متعة كبيرة ، فأمامك ترى مسرحا عظيما يلعب عليه ممثلين عظام بعضهم طبيعى فى تمثيله وبعضهم يعتقد أنه فعلا على مسرح ، وكان الحوار الذى يدور بين البائع والمشترى متعة وقد يستمر الحوار ساعة أو أكثر وقد لا ينتهى بشراء ولا بيع. وكان الشارع مقسما تقسيما يبدو أنه باتفاق ودى بين التجار إلى تخصصات ، فباعة الأقمشة متجاورين، وباعة الخضار والفاكهة فى مكان أخر أما باعة الفراخ والحمام والبط فلهم ركن خاص. ويبدو أن الفلاحين فى القرى المجاورة كانوا يذهبون إلى سوق الخميس فى شبين الكوم كل أسبوع لشراء حاجياتهم، وكان الزحام يشتد عند اقتراب المواسم ، حتى إذا حل رمضان أو العيد وعند حلول الغروب وفى دقائق معدودات ينفض السامر وترفع البضائع ويتحرك موكب التجار خارج المدينة للسفر

لمدينة أخرى حيث يقام سوق اليوم التالى ، وأعتقد أن هذه الأسواق كانت الملجأ الأول والأخير وربما الوحيد للشراء للفلاحين فى هذه الأيام.

كنت أقضى عدة أيام قد تمتد إلى أسبوعين خلال الاجازة الصيفية فى هذا المنزل، وكنا نلعب الكرة الشراب فى الشارع بصفة منتظمة. وكان من ضمن المتع الجميلة ركوب الدراجات التى نستأجرها وننطلق بها فى الطريق الزراعى المتجه إلى طنطا لعدة كيلو مترات قبل أن نعود. أما المتعة الكبرى فكانت مكتبة البلدية، وهى مكتبة عامة تحتل جزءا من مبنى البلدية، وبها صالة جميلة للقراءة والاطلاع، وكنت أذهب إليها واقضى ساعات كل يوم، وفيها تعرفت على توفيق الحكيم لأول مرة، وكنت أشعر بمتعة فائقة أثناء قراءته لدرجة أننى حاولت وأنا فى حوالى الثالثة عشرة من عمرى أن أكتب رواية، فأكتشفت بعد أن كتبت عدة صفحات أننى فى حقيقة الأمر قد كتبت نسخة من آخر ما قرأت للحكيم. لست أدرى ما آل إليه الحال فى هذه المكتبة وهل لا زالت محتفظة برونقها ونظافتها وكتبها الجميلة المجلدة. وأذكر أننى أقنعت زوج عمتى، صاحب المكتبة الصغيرة الموجودة بالدور الثانى لمنزل جدى، بأننى يجب أن أنظمها وأعمل لها فهرس، وفعلا قمت بذلك، ولست أدرى هل قمت فعلا بعمل فهرس مفيد أم أننى قلبتها فقط رأسا على عقب. لا أذكر على وجه الدقة أسماء الكتب التى كانت بالمكتبة ولكننى أذكر أننى أعجبت بكتاب المستطرف فى كل فن مستظرف، وكان كتابا كبيرا، ومادة الكتاب مطبوعة داخل إطار وحوله هامش عريض من كل النواحى ، وعلى هذا الهامش كتاب آخر مطبوع لمؤلف آخر، وحين سألت عرفت أن كثيرا من الكتب القديمة كانت تطبع بطريقة كتابين فى كتاب واحد.

وقد اشتريت نسخة من المستطرف منذ سنوات قليلة من معرض الكتاب بالقاهرة، وكان قد طبع طبعة جديدة بدون الكتاب الآخر، وأيضا بعد حذف الكثير منه ، وبعد أن تم اجراء جراحة حديثة له نتج عنها بتر أجزاء وفقرات من الكتاب اعتبرها الناشر

والمحقق الحديث لا تليق بهذا العصر أو رآها مخلة بالآداب والقيم الحالية ، حقاً لقد إختلت الأمور فمن سرق الملايين وهرب بها يتم التفاوض معه وملاطفته لان ما فعله لم يعد يعتبر جريمة فى هذا الزمان ، بينما تعتبر بعض الكتب التى نشرت منذ مئات السنين اهداراً للقيم ، ولست أدرى كيف يحكم ناشر أو رقيب على كتاب نشر منذ مئات السنين وقرأه الآلاف على مر العصور وهو موجود فى المكتبات العامة والخاصة بطبعته الاصليه. ويعطى لنفسه الحق المطلق فى حذف ما لا يعتقد أنه مناسب للقارئ! وبالرغم من رغبتى الشديدة فى إعادة قراءة أجزاء هذا الكتاب حتى أتعرف على ذوقى فى هذه الفترة من العمر وهل كنت محقا فى الإعجاب به وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى أم أن ذوقى وإحساسى قد تغير، إلا أننى لم أستطع لأسباب نفسية أن أقرأ هذا الكتاب، بسبب التغيير الذى طرأ عليه فى هذا الزمن العجيب.

وكان زوج عمتى الشيخ عبد المجيد يس أزهريا حصل على شهادة العالمية من الأزهر ، وتعرف على والدى حين كانا طلبة فى نفس الوقت فى القاهرة، للدراسه ، ثم شاءت الظروف أن يعين مدرسا فى المعهد الأزهرى الثانوى فى شبين الكوم فإستمرت العلاقة و إنتهت بزواجه من عمتى. وكنت أقول له دائما عمى الشيخ، وكان رجلا بسيطا مرحا ذا نكتة شديد التأنق فى ملبسه فكان يفصل الجبة والقفطان عند ترزى شهير بالقاهرة ، وكان يشترى الصوف الإنجليزى الفاخر لجبته وكانت عمامته غاية فى الأناقة. وبعد عدة سنوات أصبح شيخا للمعهد الدينى (بمثابة ناظر المدرسة الثانوية) لسنوات طويلة وكانت له نشاطات اجتماعية كثيرة ، فكان صديقا لمطران الكنيسة القبطية فى المنوفية وكانا يتزاوران دائما وكل منهم يحمل مودة وحب شديد تجاه الآخر ، ولم يكن ذلك بغرض التصوير لإظهار الوئام بين عنصرى الأمة !، ولا كان ذلك للوجاهة السياسية بل كان حبا وتعاطفا نابعا من القلب.

وكان عمى الشيخ رجلا اجتماعيا يذهب للنادى البحرى وهو نادى الموظفين حيث يقابل كبار الموظفين والأعيان فيتسامرون ويتحاورون حول مشاكل البلدة فى حب

ووئام. وكنا نذهب إلى النادى معه حيث نلعب تنس الطاولة والبلياردو فى صالة خاصة لذلك ، وكان بالنادى بار يقدم المشروبات الروحية لمن يريد من أعضاء النادى وبالطبع لم يكن عمى الشيخ يتناول الخمر ولكنه لم يثر ضجة ولم يمتنع عن الذهاب للنادى ولا أثار مشكلة، فكل مسئول عن تصرفاته. وكان صديقا لشيخ الأزهر لأن شيوخ المعاهد الدينية كانو قلة فى ذلك الوقت ، وكان يزوره بين حين وآخر. وأذكر مرة اننى عدت للقاهرة معه فى القطار وكانت جلستنا فى ديوان أنيق وقطع القطار المسافة من شبين الكوم للقاهرة وهى حوالى ٨٠ كم فى ساعتين ونصف. وقرر عمى الشيخ أن يأخذنا فى نزهة فى القاهرة فصحبنى أنا وابنه وهو فى مثل عمرى حيث ركبنا مترو مصر الجديدة، وكان أنيقا ونظيفا حتى نهاية الخط ثم مشينا بضعة دقائق وجلسنا فى كازينو بسيط وأنيق يطل على الصحراء ففى هذا الوقت (أوائل الخمسينات) كانت مصر الجديدة لاتزال صغيرة. وهذا العم هو صاحب المكتبة التى حاولت أن أعمل لها فهرسا وأنظمها. رحمه الله كان شيخا متفتحا عالما بدينه ومحبا لدنياه وللناس وللحياة.

عائلة أمى

أما عائلة أمى فكانت مختلفة تماما رغم أن جدتى لأبى وجدتى لأمى شقيقتين ، فجدتى لأمى كان زوجها ـ جدى ـ وكيلا لشركة «ماركونى» الإيطالية للتلغرافات فى مدينة السويس ، وكانت المدينة تعج بالأجانب بعضهم مقيم وبعضهم عابر مع السفن أو مقيم لفترات قصيرة، وكان هو المسئول عن إرسال وتلقى وتوزيع التلغرافات من مكتبه الخاص بالمدينة. وقد كانت حياة جدتى لأمى فى هذه المدينة، التى تتمتع بطابع ما يسمى بالكوزموبوليتان، مختلفة تماما عن جدتى فى شبين الكوم فكانت جدتى هذه تخرج من المنزل وهو على مدخل قناة السويس وتجلس مع أصدقائها يدخنون النرجيلة على شاطئ البحر الأحمر ، وكانت لها صداقات كثيرة مع مصريين

واجانب من أهل السويس، وأعتقد أن حياتها فى السويس كان لها أثر كبيرعلى تفكيرها وطريقة تربيتها لأولادها.

وفى أوائل الثلاثينيات أنشأت الحكومة هيئة للاتصالات تابعة لها فى نفس توقيت وظروف إنشاء الإذاعة المصرية، وجد جدى نفسه بلا عمل، إذ فقد توكيله وألغيت المكاتب الخاصة. فانتقلت العائلة للقاهرة واشترت منزلا من ثلاثة طوابق فى شارع الخليج المصرى قرب ميدان السيدة زينب ، وافتتح جدى معهدا خاصا لتعليم التلغراف للحاصلين على شهادة الكفاءة (ما يوازى الإعدادية الآن) وتدريبهم ، وذلك تمهيداً لتعيينهم فى مكاتب التلغراف والتليفونات الحكومية التى بدأ افتتاحها فى أنحاء المملكة المصرية. ونجح المعهد ولكن جدى توفى بعد انتقاله إلى القاهرة بفترة قصيرة وأدار المعهد ابنه الأكبر والذى لم يكن له مهارة وخبرة أبيه بالإضافة إلى التطور وانتشار التليفونات التى حدت من استخدام التلغراف وقد كانت تربية جدتى لأمى لأولادها مختلفة تماما عن جدتى لأبى ، ولكن الأمر لم يختلف بالنسبة للتعليم فأمى وخالاتى تعلمن جميعاً فى المدارس حتى تزوجن ، ولكن التعليم اختلف، فلقد ذهبت أمى بالإضافة إلى مدرستها الحكومية فى اوائل الثلاثينيات إلى معهد مسائى تديره سيدة إيطالية لدراسة تفصيل وحياكة الملابس بالطرق الحديثة والتى أجادتها أمى واستعملتها طوال حياتها لتفصيل ملابس أنيقة حتى فساتين الأفراح لاخوتى تمت حياكتها فى المنزل باستخدام باترونات من مجلات عالمية للموضة.

وكان تعليم الموسيقى والعزف على البيانو جزءا هاما تتدرب عليه الفتيات فى عائلة أمى، وقد أجادت أمى عزف البيانو وقراءة واستخدام النوتة الموسيقية ، وكان البيانو جزءا هاما من جهازها هى وأخواتها البنات عند الزواج. لست أدرى من أين جاءت هذه التقاليد فلم تكن عائلة جدتى بالعائلة الأرستقراطية أو العائلة الغنية. ربما كانت الحياة لعدة سنوات فى السويس لها تأثير على جدتى وطريقة تفكيرها، فلقد كان

الفرق هائلا بين الجدتين الشقيقتين فى طريقة الحياة ، ولكنهما اشتركا فى اهتمامهما الشديد بتعليم أولادهما وكان ذلك شيئا غير مألوف فى أوائل القرن العشرين فى هذه الطبقة من الشعب. وقد نالت أمى قدرا أكبر من الثقافة العامة وذكرت لى أنها شاهدت جميع أفلام عبد الوهاب وأم كلثوم فى السينما فى ثلاثينات القرن الماضى.

وباستثناء الخال الأكبر فقد تعلم أخوالى تعليما جامعيا أتموه فى نهاية العشرينات وأوائل الثلاثينات ، وأصبح أحدهم واحدا من كبار المحامين فى مصر. أما أصغر أخوالى فبعد أن تخرج من الجامعة رفض أى وظيفة وقرر أن يفتح مدرسة خاصة، وفعلا فتح مدرسة ابتدائى من أربع حجرات فى دور بمنزل فى أحد الشوارع الصغيرة فى السيدة زينب ، وقام بحملة دعاية لمدرسته وكبرت المدرسة وانتهى به الأمر بعد عشرة سنوات بأن أصبح صاحب أكثر من عشر مدارس خاصة كبيرة منها اثنتان من المدارس الثانوية الكبرى ، وأصبح له وضع اجتماعى كبير ومركز متميز فى مجال التعليم، وقد كان يعشق الوجاهة والأناقة ، كما وكانت له تطلعات سياسية فبعد نجاحه الكبير فى مجال التعليم قرر دخول عالم السياسة مرشحاً نفسه للبرلمان، وحيث أنه لم يكن ينتمى لأى حزب ولم تكن له ميول سياسية معينة فدرس فرصته فى النجاح وكان ذلك فى الانتخابات التى تلت الحرب العالمية الثانية والتى قاطعها الوفد فرشح نفسه عن حزب السعديين وساعده فى الحملة مدرسوا مدارسه وتلاميذها ونجح عن دائرة السيدة زينب واستمر عضوا لمدة خمس سنوات.

وقد كان لهذا الخال طموحات وأفكار كثيرة، فقد قرر السفر إلى أوروبا عام ١٩٤٦ للسياحة ولم تكن السياحة والسفر للخارج واردة فى فكر للمصريين آنذاك ، وكان السفر مقصورا على العائلة المالكة وكبار الأرستقراطين، وحتى كبار ملاك الأراضى لم يكن الترحال إلى أوروبا ضمن برامجهم.

وقد شعر هذا الخال بأهمية الصحافة وقدرتها على التأثير ، فقرر إصدار مجلة أسبوعية وجذب لها عدداً من الصحفيين المرموقين ولكنها لم تستطع المنافسة فتوقفت عن الصدور بعد عدة شهور. وركز خالى على التعليم فانتشرت سلسله مدارسه لتغطى القاهرة واشترى مبنى كبير فى الجيزة بالقرب من حديقة الحيوان وحوله إلى مدرسة للغات فى وقت كانت مدارس اللغات مقصورة على الهيئات والإرساليات الأجنبية، ولاحت فرصة الصعود إلى أعلى عندما أعلنت خطبة الملك فاروق على ناريمان فى نهاية الأربعينات وكانت زوجة خالى بالصدفة بنت خالة ناريمان فتعرف خالى على الملك وأصبح يدعى إلى السراى ورشح لوزارة المعارف بعد حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ فى واحدة من الوزارات المتتالية التى استمرت كل منها بضعة أيام. وبعد الثورة اعتبر هذا الخال من رجال العهد البائد وتدريجيا فقد نفوذه وصودرت مدارسه ووضع تحت الحراسة ومات وهو يستمع لخطاب عبد الناصر يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٧!.

وقد رحلت عن الدنيا جدتى لأمى فى منتصف الخمسينات وكان عمرى أربعة عشر عاما، ولكنى أذكر عنها الكثير فقد كانت تجلس على الكنبة فى الصالة الكبيرة فى منزلها فى السيدة زينب وأمامها منضدة رصت عليها أدوات القهوة مما كان شائعا فى البيوت وقتذاك. وعلى مقربة منها تجلس على الأرض على كليم صغير خادمة جدتى الخاصة والمسئولة الأولى عن رعايتها ومساعدتها حيث كانت حركتها صعبة وهى أيضا تلبى طلباتها التى تتلخص أساسا فى إحضار قلة المياه من صينية القلل الموضوعة بجوار النافذة من الداخل وكانت جدتى تهتم بأناقة هذه الصينية فكان لكل قلة غطاء له لون خاص وكانت الصينية بما فيها تغطى بمفرش دانتيلا ليمنع الذباب من الاقتراب وكانت تضع بعض من ماء الورد فى الصينية وكانت تعطى الأوامر المستمرة لخادمتها بتنفيذ تعليمات خاصة بالعناية بعدة القهوة وصينية القلل.

وكان عندها سيدة أخرى للطبيخ والنظافة العامة للمنزل ، وأعتقد أن جدتى فى الفترة التى عاصرتها فيها ولا زلت أتذكرها كانت فى بحبوحة من العيش ليس بسبب

ميراث أو إيراد من عائلتها أو زوجها وإنما من عناية أولادها بها والذين أصبحوا من الميسورين وكانوا جميعا كرماء مع أمهم من التكفل بكل احتياجاتها المادية إلى المداومة على زيارتها والسؤال عنها، وكان ابنها المحامى الكبير يقطن فى شقة بذات البيت فكان دائم السؤال والزيارة والعناية بها، وكان كريما معها وعطوفا عليها عطفا ملحوظا.

وكان هذا الخال متزوجا من سيدة أرسطوقراطية أبوها رئيس هيئة البريد وحاصل على رتبة البكوية، وكانت قد تعلمت فى المدارس الفرنسية و تعتبر نفسها أعلى مكانة من زوجها وعائلته المنتمية للطبقة المتوسطة، فكانت تأنف من الحديث مع أخوات زوجها وتتكبر عليهم، كان الخال عطوفا وكريما مع اخوته، مما كان يجعله فى موقف حرج بين زوجته وأخواته. وكانت الزوجة تهوى شراء التحف وخاصة الفرنسية ، وكنت أرى فى ذلك الحين بيت خالى شديد الفخامة وملئ بالتحف الجميلة المبهرة، غير أن نظرتى تغيرت حينما بلغت الثلاثين من عمرى فأصبحت أرى أن بيت خالى ليس جميلا وأن معظم مقتنياته هى نتاج فن ردئ لا يمثل أياً من المراحل الجميلة للفن وكان أبعد ما يكون عن ذوقى بعد نضوجه وتعرفه على المدارس الفنية. وهذا الخال لم ينجب أطفالا وزاد ذلك من المشاكل النفسية لزوجته وكانت العلاقة بينها وبين أمى شبه مقطوعة فكانت أمى ترفض التعامل مع من تتكبر عليها وكانت شديدة الحساسية تجاهها بالرغم من عدم حدوث أى مشاكل خاصة بينهما وبالرغم من العلاقة الحميمة بينها وبين أخيها.

وفى نفس الوقت كان خالى سخيا فى الإنفاق بالتبرع لعائلات كثيرة من الفقراء وعلى أوجه الخير المختلفة. ولست أدرى لماذا كان يثير مشاكل كثيرة مع سائقه أو مع بواب منزله على بضعة قروش مما جعل من الصعب عليه أن يجد سائقا مناسبا يوافق على العمل معه ويقبل طريقة حسابه. وكان عنده سيارة أمريكية كبيرة اشتراها جديدة

موديل ١٩٥٠ وكان لا يعرف ولا يرغب فى تعلم قيادة السيارات وكان استعماله للسيارة قليل للغاية وكان يأمر سائقه بالسير على سرعة لا تتجاوز ٣٠ كم فى القاهرة و ٦٠ كم فى طريق الإسكندرية وكان السائقون يتذمرون منه ولكنه كان شديد الخوف من الطريق وحوادثه فى وقت كانت الحوادث فيه نادرة والطرق خالية والعربات قليلة. وكانت زوجته تعامل خدمها بكثير من الترفع والتعالى مما جعلهم يتركون خدمتها، وكانت دائمة البحث عن طباخ أو خادمة. وفى أوائل الأربعينات بنى بيتا فى المنيل فى وسط الحقول وسمى الشارع باسمه وبعد عشر سنوات غيرت المحافظة اسم الشارع فحزن حزنا شديدا وحاول قدر استطاعته الإبقاء على اسمه على الشارع ولكنه لم يتمكن من ذلك.

وقد توفيت زوجة خالى بعد أن أصيبت بمرض فقدان الذاكرة لعدة سنوات فتزوج وهو فى الخامسة والسبعون من سيدة بسيطة تصغره بعشرين عاما وعاشا سويا حتى توفى عن عمر قارب التسعين عاما. وكان خالى قد تبرع بالجزء الأكبر من ثروته إلى مسجد بجوار بيته الصيفى بالأسكندرية واستمر سنوات طوال يدفع اموالاً طائلة لشيخ هذا المسجد الذى كان يثق فيه ثقه عمياء ، وللأسف الشديد أتضح أن هذا الشيخ كان نصاباً شديد الموهبة احتال على الكثيرين بدوعى التبرع للمسجد وللمحتاجين عبر سنوات طوال!

أما عن خالاتى، فتزوجت أحداهن من معاون إدارة وكان هذا منصب فى وزارة الداخلية يتيح لصاحبه أن يكون نائباً لمأمور المركز بصفة مدنية وليست له رتبة ولا يرتدى ملابس الشرطة ، وترقى فى وظيفته لصبح مأمورا وتنقل كمأمور فى عدة مراكز فى الفيوم وكفر الشيخ وأسوان.

وكنا نزور خالتى مرة كل عامين حيث تقطن فى بيت المأمور ، وقد كان عمرى حوالى ثلاثة عشر عاما حين ذهبنا للزيارة لمدة أسبوع فى مركز طاميه بالفيوم ، ولا

زلت أذكر منزل المأمور الكبير وعدد الخفراء الذين يعملون كخدم ومساعدين بالمنزل ، وأتذكر أنني ذهبت مع زوج خالتي مرة في المرور الليلي على النقط المختلفة بسيارة المركز وانتهى بنا المطاف عند أحد العمد في الساعة الثانية صباحا حيث أقام وليمة ضخمة للمأمور ، وبالطبع كان العمدة يعلم مسبقا بميعاد التفتيش المفاجئ !.

ولم يكن زوج خالتي له ميول سياسية أو وطنية واضحة وكان مدمنا لقراءة روايات أرسين لوبين البوليسية والتي أعتقد أنه لم يقرأ غيرها ، ولكن الظروف التي لا أعلمها أحالته فجأة إلى بطل قومي، ففي أوائل الأربعينات أجريت الانتخابات العامة وكالعادة زورت الانتخابات ضد مرشحي الوفد في كافة الدوائر ، وكانت الشرطة أيضا كالعادة هي المزور الأساسي بعد تلقي التعليمات من الداخلية ، وكان زوج خالتي في ذلك الوقت مأمورا في مركز ملوي بمحافظة المنيا وصدرت له الأوامر بالتزوير ، ولسبب غير معروف فوجئ الجميع بأنه غادر مقر عمله إلى القاهرة وعقد مؤتمرا صحفيا في مقر جريدة المصري لسان حال الوفد ليعلن فيها حقائق وتفاصيل التزوير الذي تم في دائرته وأسماء من اتصلوا به من الداخلية لتنفيذ هذا التزوير !، وبالطبع كان هذا هو مانشيت جريدة المصري وبعض الصحف المعارضة الأخرى وأصبح اسمه على كل لسان ولقب بالبطل وبنصير الديموقراطية وبالطبع تم إيقافه عن العمل والتحقيق معه وفصله وعاد إلى القاهرة فعينه الوفد في وظيفة صورية في مقر الحزب ليتقاضى مرتبا منها. وبعد أن عاد الوفد للحكم بعد بضع سنوات أعيد تعيينه واستلم عمله كما كان في وزارة الداخلية وظل مأموراً حتى أحيل على المعاش في عام ١٩٥٤ ضمن حركة أطلق عليها التطهير. وكانت خالتي وزوجها وأولادها يقيمون في بيت جدتي خلال العطلة الصيفية للأب وهي شهر ونصف. وكنت أتعجب لطريقه حياة زوج خالتي المخالفة تماما لما تعودت عليه من أبي أو أخوالي المحافظين للغايه. فقد كان يستيقظ متأخراً ويدخن عدة سجائر في السرير وهو يشرب القهوة ، ويكون جاهزا

لتناول إفطاره وغذائه حوالى الثالثة بعد الظهر ثم يتصفح الجريدة اليومية ويبدأ فى قراءة إحدى روايات أرسين لوبين والتى كان بالتأكيد يعيد قراءتها من جديد حتى يحين الغروب فيخرج من المنزل حوالى الساعة السابعة مساء وأعلم أنه يعود متأخراً وكانت هذه هى حياته اليومية طوال الإجازة. وكان لطيف المعشر وأتذكر أننى طلبت منه أن أخرج معه فوافق وخرجنا نتمشى فى وسط القاهرة ثم انتهى بنا المطاف فى دار سينما صيفية تسمى سان جيمس وأعتقد أنها كانت فى شارع الألفى بوسط القاهرة. وخلف الصالة فى السينما كانت توجد فراندة كبيرة جدا على ارتفاع ثلاث أمتار من الأرض وعليها مناضد للعشاء بحيث تتناول عشاءك وتشاهد الفيلم وبالطبع قبل العشاء تناول زجاجة من البيرة المثلجة بينما طلب لى عصير ليمون. وبعد العشاء وانتهاء الفيلم أخذنى للمنزل وصعدت بمفردى الساعة الثانية عشر مساء وانطلق هو يكمل سهرته. وعندما أحيل للمعاش كانت سنه قد قاربت الخمسين عاما فدرس الحقوق وتخرج منها وساعده خالى للعمل فى مكتبه، ولا أعتقد أنه حقق أى نجاح فى المحاماة وأخيرا ساعده والدى فى الحصول على وظيفة فى القسم القانونى لشركة بترول مصرية واستمر فى عمله بنجاح حتى احيل إلى المعاش فى السن القانونى.

والغريب أننى لم أر أحدا يتحدث إليه أو يفاتحه فى ما قام به لإعلان تزوير الانتخابات وهو لم يكن حريصا على التكلم عن هذا الموضوع بالرغم من أن الظروف بعد الثورة كانت مواتية لاعتبار ان ما فعل كان عملاً بطولياً ! ومن معرفتى الوثيقة بزوج خالتى بعد ذلك وحديثى معه خلال الستينات لم أتوصل لمعرفة السبب، وما أنا متأكد منه أنه لم يفعل ما فعله برشوة أو من قبيل ذلك بحيث أقدم على هذا التصرف الخطير! ، كما يبدو أن هذا سيبقى سرا حيث أننى بحثت فى مذكرات المؤرخين ومذكرات رجال الوفد المعاصرين لهذه الحادثة فلم أجد لها أى ذكر!.

وهاهى العائلة الكبيرة تتفرع، فلى ٤ عمات و٣ خالات و٤ أخوال كلهم تزوجوا وكلهم أنجبوا واحد عدا واحد وأعتقد أن عماتى من أهل شبين الكوم وأولادهم يختلفون

عن أخوالى وأولادهم، ربما فى التربية والمكان والجو العام وربما اختلاف أفكار كل جدة ، ولا أعتقد أنه كانت هناك علاقة وثيقة بين جدتى من الأب وجدتى من الأم برغم انهما كانتا شقيقتين ، و ربما كان تباعد المسافة فى إقامة كل منهما السبب، فالمائة كيلو مترا التى تفصل القاهرة عن شبين الكوم فى أوائل القرن كانت تعتبر حاجزا كبيرا يحول دون التواصل وكان السفر يعتبر مشقة كبيرة ويستلزم استعدادات ضخمة حتى لهذه المسافات القصيرة !، ولم يكن هناك وسائل اتصال تليفونية، فقد دخل أول تليفون فى بيتنا بالقاهرة عام ١٩٤٨ وفى منزل جدى بشبين الكوم فى نهاية السبعينات.

ومما لا شك فيه أن طموح أهلى فى القاهرة وتطلعاتهم كانت أكثر وأكبر - كمشاكلهم - من أهل شبين الكوم ، وبدأت هذه الظاهرة تختفى فى الجيل الرابع ويتساوى الجميع جيل أولادى فأهل أمى كانوا ولا يزالوا أكثر قدرة على التأقلم مع الواقع وتغيرات المجتمع فى عصر الانفتاح ، ولم أر أيا من أولاد عماتى استطاع أن يتأقلم مع الأنواع الجديدة من الأعمال ، بينما ثبت بعض أبناء الجيل الرابع من ناحية أمى أقدامه فى مجال ما يسمى بالبيزنيس وبعضهم سافر للخارج وبعضهم يعمل فى أوروبا والآخر هاجر إلى أمريكا مما يؤكد عندى أن التربية والأفكار تتسرب من جيل إلى جيل ، ولا يستطيع الأب والأم بمفردهما أن يغيروا من أولادهم إلا فى حدود ، لأن الآباء والأمهات مهما حاولوا فلن يستطيعوا أن يتخلصوا مما تربوا عليه ومن تأثير المجتمع الذى قد يكون أقوى من ارادتهم جميعاً.

حكايات طنط أمينة

على عهد طفولتى وأنا أرى طنط أمينة وهى سيدة ضخمة طولا ووزنا يفوق وزنها مائة وخمسين كيلو جراما، تتحرك بصعوبة بالغة وتلبس نظارة ذات زجاج سميك للغاية ، وكانت تأتى لزيارتنا وتمكث عدة أيام قد تطول إلى أسابيع. وكانت سيدة

محبة للحياة عندها من الأحاديث والنكات والذكريات كم هائل تجيد إلقائها وتحويرها ووضعها فى ثوب شيق. وقد تزوجت مرتين ولم ينجح زواجها مرة وتوفى الزوج فى المرة الثانية. وطنط أمينة هى بنت خالة والدتى وكانت رقيقة الحال ليس لها مورد ثابت غير معاش شديد الضآلة ورثته عن زوجها. وأعطاها خالى شقة صغيرة فى الدور الأرضى بمنزل يملكه فى شارع القصر العينى أقامت فيه حتى بلغت الثمانين من عمرها. وقد لعبت هذه السيدة دورا كبيرا فى إطلاق العنان للخيال عند كثير من أطفال العائلة فكانت تحكى لنا قصصا تدعى أنها حقيقية بينما كانت هى بطلتها أو كانت شاهد عيان عليها وفى الأغنب كانت هذه الحكايات فى معظمها من وحى خيالها كما فهمت عندما اشتد عودى.

وكانت طنط أمينة تتنقل من بيت إلى بيت عند الأقارب حيث تمكث أيام أو أسابيع حسب الظروف تسلى نفسها وتسلى مضيفيها. وكان ذلك فى أيام ما قبل التليفزيون حيث كان الحديث والنقاش والحكى طقساً اجتماعياً هاماً وجميلا ، ولم يكن الراديو يعطل الحديث بل كانت الموسيقى وحتى الغناء يمكن أن يكون خلفية للحديث، ولم يكن أحد يستمع إلى الراديو طوال الوقت كما هو حاصل الآن فى التليفزيون. ولا أعتقد أن طنط أمينة كانت سوف تكون لديها فرصة فى إلقاء حديثها المشوق وحكاياتها الممثلة بالعينين واليدين لو أنها عاشت فى عصر التليفزيون، وربما كانت لا تجد نفس الترحيب بالإقامة لمدة طويلة عند الأقارب فيما لو عاشت حتى الآن ، ويبدو أن التليفزيون قد غير من العلاقات الاجتماعية تغييرا شديدا ، وأضعف الحوار بين أفراد الأسرة ، وأصبح من العادى والطبيعى أن يستمر التليفزيون يعمل طوال الليل والجميع جالسون أمامه لا يتحركون. وربما كانت هذه الظاهرة أشد وطأة فى الريف حيث تجلس العائلة على الأرض أمام بيتها تشاهد أى شئ حتى انتهاء الإرسال. الفلاح الذى كان يستيقظ لصلاة الفجر ثم يتجه إلى حقله أصبح يصحو متعبا من السهر الدائم.

وبدخول الفيديو والأقمار الصناعية ازداد الأمر سوءا فأصبح المتاح فوق الطاقة، وأصبح هذا الجهاز الجهنمي أداة قوية تستخدمها الحكومات لتغيير مفاهيم الشعوب والإقناع بأى شئ تعرضه من وجهة نظرها ، أن حكومات العالم الثالث سعيدة جدا بهذا الاختراع الجبار الذى سهل لها كثيراً من الأمور! ، ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، فها هو الجهاز يتطور ويلتقط آراء وأفكار أخرى من مجتمعات مختلفة!، وفى القريب سوف يستطيع الجهاز بدون استخدام أطباق أو موصلات خاصة أن يستقبل أى شئ من أنحاء العالم ، وسوف يختار المشاهد ما يريده وسوف تفقد حكومات العالم الثالث السيطرة على الموقف، وسوف تصاغ وتشكل الأرواح والعقول من الخارج بالأقوى والأكثر جاذبية. وعندما يأتى هذا اليوم، وأعتقد أنه قريب، سوف تحدث ثورات شعبية وتطورات هائلة فى عالمنا الثالث بتأثير هذا الجهاز العجيب الذى أدمنته البشرية. وسوف يظل تأثيره الأكبر الطاغى فى الولايات المتحدة والعالم الثالث حيث لا يوجد بديل آخر لتلقى المعرفة واستغلال الوقت. اما فى أوربا فالتليفزيون ليس له هذا التأثير الجبار ، فالراديو و الصحف و الندوات و قراءة الكتب و الإجتماعات منافسون أقوياء للتليفزيون.

رحم الله طنط أمينة التى كانت أظرف وأرق من معظم المسلسلات التليفزيونية الحالية علاوة على أنها كانت تنهى عروضها مبكرا حتى ينام الجميع.

المنيا عروس الصعيد

ولقد ولدت فى سنة ١٩٤٠ بينما جيش المحور يجتاح أوروبا الغربية ويستعد للهجوم على روسيا وبينما الجيش الإيطالى يمرح فى ليبيا. فى هذه الفترة ولمدة خمس سنوات كان والدى يعمل مديرا لبنك التسليف فى المنيا ، وكان من الطبيعى أن تحضر أمى للولادة فى القاهرة بجوار أمها، وفى هذه الأثناء شن الألمان بعض الغارات على الإسكندرية والقاهرة فأصاب الرعب الكثيرين وهاجرت بعض العائلات التى لها

أصول ريفية إلى الريف فهاجرت أسرتنا إلى شبين الكوم ، وعاشت هناك عدة شهور حتى عاد الهدوء للقاهرة وتوقفت الغارات الجوية الألمانية ، وفى هذه الفترة ولدت فى شبين الكوم فى المنزل الذى استأجره والدى على فرع من النيل المسمى بحر شبين ، وقد قيل لى أن الطبيب الذى قام بالولادة مكث ساعات طويلة بالمنزل يساعد أمى حيث كانت الولادة متعسره . ولا أعلم بالتحديد كم شهر مكثت العائلة فى هذه الهجرة الداخلية والتى أراها غريبة وغير مفهومة، كيف يترك الإنسان بيته ومدينته ليسافر لبلد آخر خوفا من بعض قنابل بسيطة لم تؤذ أحدا ولم تسبب الا خسائر طفيفه . أنا أفهم أن يهاجر الإنسان خوفا على حياته من حرب حقيقة مدمرة يصاب فيها ويموت الآلاف، ألا إذا كانت دعاية جوبلز الموجهة لنا عبر الأثير أصبحت من القوة والتأثير بحيث أصابتنا جميعا بالهلع ، وبعد الولادة عدنا إلى بيتنا فى المنيا .

وقد تقلدت دفعة تخرج والدى جميعها مناصب مديرى فروع البنك فى مصر خلال بضع سنوات حيث أنهم كانوا الوحيدين من ذوى المؤهلات العليا بالبنك . وكانت المنيا تسمى فى ذلك الوقت عروس الصعيد، فقد اهتمت الأسر الغنية بالجزء الإفرنجى من المدينة . وتسلم أبى عمله كمدير لبنك التسليف فى المنيا وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره . وكان منصبا هاما وزاد من أهميته تركيبة عملاء البنك فى المنيا ، فمعظمهم من كبار الملاك ويحملون لقب الباشاوية ولهم نفوذ كبير فى الحكومة والأحزاب ، وبالرغم من صلتهم الوثيقة بالأرض والفلاحين وعادات وتقاليد الصعيد إلا أن جزءا كبيرا منهم كان على صلة وثيقة بالثقافة الغربية، فبعضهم كان من خريجى أعرق الجامعات البريطانية والفرنسية ، وبعضهم أتى بزوجة أوروبية لتعيش فى المنيا . وكانت هذه الطبقة تعيش فى برجها العاجى ولها قصورها الجميلة الأنيقة وناديها الاجتماعى الفخم ذو الحدائق الغناء، وبعضهم كان يزاول رياضات شديدة الندرة عالية التكاليف محصورة فى طبقات وفئات محدودة حتى فى بلاد الغرب .

وهكذا وجد والدى وهو الرجل الذى نشأ فى عائلة بسيطه أنه بالمثابرة والتعليم قد أصبح رجلا مرموقا يركب سيارة أمريكية كبيرة يملكها البنك ، ويقودها سائق البنك ويسكن فى بيت أنيق على النيل. وأعتقد أن مرتبه لم يكن يتعدى الثلاثون جنيها شهريا فى ذلك الحين. ولكنه كان كافيا لأن يعيش فى بحبوحه من العيش ، وكانت ادارة البنك فى القاهرة تهتم بأن يظهر مديرها فى أى مكان بمظهر لائق حتى لا يسهل الضغط عليه من كبار المزارعين ، ولم يكن أبى قد درس اللغة الإنجليزية أو الفرنسية خارج نطاق الدراسه الثانويه أو كلية التجارة، ولكنه كان يجيد الإنجليزية اجادة تامه ويستطيع أيضا التعامل بالفرنسية إلى حد كبير وإجراء حوار معقول بها ، قد كانت فترة العمل بالمنيا لمدة ٦ سنوات فرصة له للتدريب وتحسين اللغات فى هذا المجتمع الذى يتعامل الكثير من اغنيائه بالإنجليزية والفرنسية. بالرغم من أن هذا المجتمع الصغير كان مجتمعا تلعب فيه المرأة دورا مهما وتشارك فى الحياة الاجتماعية على غير العادة فى مجتمعات الصعيد، إلا أن أمى عزفت عن المشاركة مع أبى فى النشاطات الاجتماعية والثقافية ، ولا أدرى لماذا لم تشارك أمى فى ذلك ولست أعرف إجابة دقيقة على هذا السؤال ؛ فربما يعود ذلك إلى عدم معرفتها بلغة أجنبية ، حيث كان هذا المجتمع يرطن بالإنجليزية والفرنسية فى كثير من الأحيان، وكان اعتزازها بنفسها كبيرا جدا فلم تكن تريد أن تحس بأنها فى مرتبة أدنى من هؤلاء الكبار، وربما كان أبى لا يريد لها ذلك ويمنعها بطرق غير مباشرة. فى النهاية كان أبى يذهب وحده لحضور الاحتفالات والمقابلات الاجتماعية وتعرف على هذا المجتمع عن قرب وكان هذا جزءا من عمله. ويبدوا أن إنشاء هذا البنك الزراعى فى عام ١٩٣١ كان عملا اقتصاديا هاما ساعد على المحافظة على الثروة الزراعية وتحسين الإنتاج بها. ولقد سمعت كثيرا من الحكايات عن كبار الملاك فى المنيا وعن ما حدث للجالية الألمانية والإيطالية الصغيرة أثناء الحرب العالمية حيث حددت إقامتها خوفا من وجود جواسيس للمحور داخلها. وأتذكر أن والدى كان يأخذنى معه

وأنا فى الرابعة أو الخامسة من عمرى فى بعض مروره الصباحى بالسيارة على شون البنك وفروعه الصغيرة فى القرى. ولما كان نفوذ وثروة كبار الملاك ووضعهم السياسى والاجتماعى غاية فى القوة وكانت صلاتهم بالبلاط الملكى والمجتمع السياسى والحكم فى القاهرة وثيقة ، فقد اعتبروا أن لهم الحق فى استثنائهم من بعض القيود أو الشروط فى تعاملهم مع البنك ، واعتقدوا أن فى استطاعتهم الضغط بسهولة على مدير هذا البنك الناشئ فى محافظتهم ولكن قوة وصلابه رئيس البنك بالقاهرة (الشيشينى باشا) أعطت الحماية الكافية لمديرى الفروع فى اتخاذ القرارات السليمة ومنعت أى ضغط أو عقاب يصل إلى المديرين بسبب النفوذ الطاغى السياسى والاقتصادى لعملاء البنك، وحيث لم يكن هناك محل لممارسة أية ضغوط للقواعد و النظم فقد رضخ كبار الملاك وتقبلوها بسهولة، واستمر التعامل مع البنك بالأصول المصرفية المتعارف عليها. أين هذا مما نراه الآن فى مجتمعنا حيث نسمع و نرى كل يوم ما يحدث بالبنوك من إهدار لمليارات من قروض لا ترد، وفساد يفوق كل تصور، وتدخل وحماية للفاسدين للضغط على مديرى البنوك الذين اصبح الكثير منهم من كبار الفاسدين؟!.

ولقد ذهبت فى زيارة إلى المنيا فى السبعينات لإلقاء محاضرة علمية فى نادى الأطباء ووجدتها فرصة سانحة لزيارة البيت الذى عشت فيه الخمس سنوات الأولى من عمرى، فوجدت البيت مازال جميلا متماسكا يطل على النيل العظيم، وهو مطلى باللون الطوبى الرصين والجميل معا وحاولت أن أبحث عن جارتنا طنط أولجا التى لا أتذكر منها شيئا ، ولكنى سمعت عنها الكثير من أمى ، فكانت هى الصديقة الحميمة لها خلال ست سنوات عاشتها هناك، وكانت هى المرافقة والمساعدة لها فى الأزمات وخاصة أزمتان صحيتان مررت بهما فى مرحلة الطفولة. الأولى كانت حروقاً شديدة بالرقبة والصدر أثر انسكاب ماء يغلى عليهما، ويحكى ـ ولست أدرى مدى صحة هذه

الواقعة أن أمي وأبي خرجا لزيارة أحد الأصدقاء ، وكانت الخادمة تستغل هذه الفرصة لدعوة صديقها المكوجي للمنزل، وكانت تعد له الشاي بالمطبخ تاركة الماء يغلي بينما تداعب المكوجي بالصالة، وتسللت وأنا في الرابعة من عمري إلى المطبخ وجذبت إناء الماء المغلي فسقط على رقبتي وصدري وأصبت بحروق بالغة استمر علاجها أسابيع طوال. والمرة الثانية عندما أصبت بحمى التيفود ولم يكن لها علاج ناجح في ذلك الوقت فكانت نسبة الوفيات بسببها مرتفعة وقد استمرت الحمى والنقاهة عدة أسابيع حتى شفيت، وكانت أمي تدعو لي ليل نهار بالشفاء ، وكانت تذهب مع طنط أولجا للكنيسة لإحضار بعض التعاويذ والأحجبة لوضعها تحت وسادتي لتساعدني على الشفاء، وكانت تدعو قارئا للقرآن في الحجرة لعل ذلك يساعدني. وقد أحضرت طنط أولجا القسيس مرتين لزيارتي والدعوة لي بالشفاء عندما اشتدت العلة، ولا أدري هل ما تزال مثل هذه العادات موجودة في مصر؟، وهل مازال ممكنا أن تطلب أمي المسلمة من صديقتها القبطية أن تتوسط لها لإحضار القسيس للصلاة والدعوة لي بالشفاء؟ وهذا بالطبع يعني أن أمي كانت مقتنعة تماما بأن لهذا القسيس بركات ، وأن صلته بالله وثيقة وأن دعوته سوف تكون مستجابة! ، لقد كان التدين ـ ومازال ـ سمة أصيلة وأساسية في تكوين المصريين، لا أظن أن بعض المراجع القديمة قد بالغت عندما ذكرت أن قدماء المصريين قد اخترعوا الأديان قبل ظهور الأديان السماوية بزمن طويل، وبالرغم من اختلاف طقوس الإسلام عنها في المسيحية إلا أن المصريين قد وحدوا بين كثير من الطقوس والعادات التي يمارسها المسلمون والأقباط، فمازلت أتذكر بعض زملائي وزميلاتي المسلمين في كلية الطب خريجي مدارس التوفيقية وشبرا الثانوية عند زياراتهم المتكررة لكنيسة سانت تريزا وخاصة قبل الامتحانات!.

وطوال فترة مرضي واشتداده ظلت أمي مقتنعة بفعالية قراءة القرآن مع دعوات وبركات وأحجبة القسيس ، وكان هذا يعني لديها أن الطريق لاسترضاء الله ليس

طريقا واحدا، هل مـازال المصـريون يفكرون بنفس الطريقـة وهل مـازالت الأسـرة المسلمة تتبرك بأحجبة الكنيسة؟ ما هو مدى تأثير التطورات السياسية الهائلة وتأثير التغيرات التى حدثت فى الفكر الإسلامى ودخول الإسلام السياسى بقوة وعنف إلى العقل والشارع المصرى. ماذا حدث لملايين المصريين البسطاء بعد أن هاجروا مؤقتا لدول الخليج أحادية الديانة وعادوا بأفكار جديدة وملابس مختلفة وطريقة مغايرة نحو فهم وممارسة الطقوس الدينية. هل مازال يعتقد هؤلاء المصريين بأن القسيس ممكن أن يجلب البركة أم أن القسيس أصبح شيئا منفرا يجب الابتعاد عنه؟

لقد عشت طوال عمرى مؤمنا بأن الدين لله والوطن للجميع، وبالرغم من يقينى التام بأن الدين مكون أساسى وهام للغاية فى الشخصية المصرية طوال تاريخها، إلا أننى لم أكن أتصور أن يتم التلاعب بهذا المكون الأساسى الذى أضفى على الشخصية المصرية عبر التاريخ هدوءا وصفاء وحكمة ساعدت على عدم ذوبان هذه الشخصية تحت الضغوط الخارجية المتتالية، الآن ينشرون الصور لرجال الدين الإسلامى والمسيحى يأكلون على مائدة واحدة كدليل وحيد على الوحدة الوطنية !!.

لا أريد أن أخرج عن السياق ولكن تصرف أمى أثناء مرضى كان يبدو شيئا عاديا وطبيعيا يتكرر كل يوم منذ نصف قرن فى بيوتنا المصرية ، ولكننى من كل قلبى أود أن نعود إلى ما كنا عليه وأن تزول غمة التوتر الذى يظهر بين الحين والحين كلما لعبت أهواء السياسة بالدين!، أو جرى توظيف الدين لقهر البشر والتسلط عليهم!، وأرجو أن يكون الحب و الصفاء نابعاً من القلب وليس بنشر صور رجال الدين الأسلامى و المسيحى يأكلون و يتعانقون تعبيراً عن الوحدة الوطنى!.

أعود إلى أمى التى كانت تحيك لنا معظم الملابس، وكانت تقضى وقت فراغها فى العزف على البيانو وزيارة الجيران والاستماع للراديو وربما قراءة الجريدة، ولا أعتقد أنها كانت تقرأ الكتب. وكانت أمى حتى بلغت الستين من عمرها ترتدى الملابس

الأوروبية العادية، فكانت غير محجبة وكانت تلبس فى الصيف بلوزات بنصف كم وجيبات على مستوى الركبة، وكانت متدينة بمفاهيم هذه الفترة فكانت تصلى الفروض بانتظام وكانت تصوم رمضان وأدت فريضة الحج، فلم يكن الهوس الدينى قد حل على منطقتنا بعد، فكانت تذهب إلى السينما مع والدى حين يكون هناك فيلم تعتقد أنه يستحق المشاهدة.

وأعتقد أن فترة المنيا والتى استمرت أول خمسة أعوام من عمرى كانت طفولة سعيدة باستثناء المرتين اللتين مرضت فيهما مرضا شديدا. وكانت إجازة الصيف لمدة شهر أو أكثر نقضيها فى بيت جدتى لأمى فى القاهرة ، وكانت الإقامة تمتد أحيانا لشهرين أو ثلاثة وكان والدى يعود لعمله فى المنيا وأبقى أنا وأخوتى وأمى فى القاهرة. وكان السفر إلى القاهرة بالقطار ولا أعتقد أننى أتذكر منظر محطة المنيا، ولكن عندى بعض الصور الفوتوغرافية التى شاهدتها فيما بعد تشهد بأنها كانت محطة نظيفة وأنيقة وغير مزدحمة، وأعتقد أن ركوب القطار والذى كان يتكون من دواوين لها مقاعد جلدية وثيرة وعلى جدران القطار توجد صور فوتوغرافية جميلة لآثار الأقصر أتذكر منها صورة رائعة لمعبد الأقصر وأخرى لأبى سمبل. مما كان يجعل السفر متعه، ولا أتذكر على وجه الدقة ماذا كنا نفعل خلال الإجازة فى القاهرة، ربما كنا نذهب لحديقة الحيوان وربما كنا نلعب فى بيت الجدة فى القاهرة.

وبرغم أن أمى كانت تقضى وقتها فى أعمال البيت تساعدها خادمة ويأتى عم جاد للتنظيف مرة كل أسبوع، إلا أن النظافة كانت عند أمى شيئا مقدسا فكانت تعنى بنظافة كل شبر فى المنزل حتى الجدران التى كانت يتم غسلها بصفة منتظمة، والزجاج يلمع دائماً وتنفض الشبابيك بشيشها يوميا، ولا أزال أتذكر دروس النظافة الشخصية التى كنت أتعلمها منها وفى كثير من الأحيان لا أحبها وأعتبرها أكثر مما ينبغى ، فكان لقص الأظافر ميعاد معين كل أسبوع وكان للحمام اليومى طقوس

شديدة الدقة، ولست أدرى مصدر هذه التقاليد، هل إنتقلت لأمى من والدتها أثناء إقامتها فى السويس؟

بدايات التعليم

وبنهاية الحرب العالمية فى عام ١٩٤٥ نقل والدى ليكون مديرا لبنك التسليف الزراعى فى القليوبية ، وفى بنها استقر والدى فى العمل لمدة عامين، وفى هذه الفترة بلغت السابعه من عمرى، وأذكر أن بعض الأحداث لازالت عالقة فى ذهنى وربما كانت استعادتها والحديث عنها سببا فى تذكرى إياها. كنا أيضا نسكن على النيل فى منزل مدير البنك وكان القرب الشديد من القاهرة سببا فى كثرة سفرنا للإقامة فيها عند جدتى ، ولم تكن الفترة كافية لعقد علاقات وطيدة مع الجيران، وقد بدأت المرحلة التعليمية الأولى فى هذه الفترة وكانت أمى لديها اهتمام شديد بتعليمى كاد أن يصل إلى أن يكون حالة مرضية ، وبعد دراسة المستوى التعليمى فى بنها رأت أن المدارس المتاحة فى منها أقل من المستوى الذى ترتضيه لابنها ، فقررت أن أتعلم فى المنزل ولا أدخل روضة الأطفال وإنما السنة الأولى الابتدائية مباشرة ، فورا وكان السن المطلوب للقبول ثمانى سنوات بعد قضاء ثلاث سنوات بروضة الأطفال لسكان المدن أو الكُتاّب لسكان الريف، وكانت الدراسة الابتدائية أربع سنوات تليها الشهادة الابتدائية ثم الدراسة الثانوية خمس سنوات تنتهى بالشهادة التوجيهية وهى المسماة بالثانوية العامة حاليا.

وقد تعاقدت والدتى مع مدرسة خاصه تأتى لى فى المنزل لتدريس اللغة العربية والحساب كل يوم لمدة ٣ ساعات ، وكانت مدرسة قاسية لم أرها مرة واحدة تبتسم، وكانت تعاقبنى طوال الوقت بالضرب بالمسطرة ، وكنت أكرهها بشدة وأنتظر بفارغ الصبر انتهاء الدرس لألعب، وكنت أحاول أن أذاكر الدرس قدر استطاعتى حتى أتفادى معاملتها القاسية والسيئة ، ولكن هيهات. ووضعت أمى خطة منزلية حتى

أدخل السنة الأولى الابتدائية وعمرى سبع سنوات بدلا من ثمانى سنوات ، وكان على أن أجتاز امتحانا عاما فى بنها وعمرى ستة أعوام ونصف فى اللغة العربية والحساب، وذهبت للامتحان بعد استعداد تام مع المدرسة الرهيبة وكانت النتيجة هى رسوب مدو فى اللغة العربية والحساب، وقد أصيب أبى وأمى بصدمة كبيرة وطلبوا معرفة سبب هذا الرسوب العظيم ، ففوجئوا بأننى قد نقلت ورقة الأسئلة بالكامل أو كما يقولون نقل مسطرة فى ورقة الإجابة ولم أجب على أى سؤال، وكانت هذه هى النهاية مع المدرسة التى علمتنى اللغة العربية والحساب ولم تعلمنى كيف أجيب على الامتحان ، وأنا لم أصل للسابعة من عمرى بعد. وذهبت أمى باكية منهارة إلى جدتى فى القاهرة لتحكى لها مصيبة الرسوب الكبير، وعقد اجتماع كبير للعائلة فى منزل جدتى فى القاهرة لحل هذه المشكلة الكبرى لطفل فى السادسة والنصف من عمره، وكانت أمى على وشك الانهيار وتم استدعاء خالى صاحب المدارس الخاصة وعضو البرلمان على عجل، وطلبت منه جدتى أن يحل مشكلة حفيدها وابن ابنتها الاثيرة وهى أصغر أولادها جميعا فأتى خالى بالحل السعيد ، وهو أن يعقد لى امتحانا خاصا يؤهلنى للقبول فى السنة الأولى الابتدائية بإحدى مدارسه الخاصة، ولا يؤهلنى هذا الامتحان لدخول المدارس العامة الحكومية والتى كانت والدتى تريدنى أن أدخلها، وتم الاتفاق على أنه بعد نجاحى فى السنة الأولى يمكن أن أنتقل لمدرسة حكومية. وقد عشت مع جدتى فى بيتها بشارع الخليج بالسيدة زينب عدة أسابيع بعد الرسوب العظيم وفشلى فى اللحاق بالسنة الأولى الابتدائية فى المدرسة الحكوميه ، وكانت هذه هى مهمة عاجلة تم إيفادى لها من بنها، وكنت أتلقى درسا خاصا فى الصباح وآخر فى المساء لعلى أنجح فى الامتحان الذى سوف يكون فى مدرسة خالى. وأعتقد أن نجاحى كان قد تم ضمانه مسبقا فى الاجتماع الموسع للعائلة ، والذى تعهد فيه خالى بأننى سوف أدخل أولى ابتدائى، ولكن الوسواس كان يملأ صدر أمى فصممت على أن أتلقى دروسا من أحسن المدرسين وأن أذهب لأعيش وحدى مع جدتى وأنا لم أصل للسابعة

بعد حتى لا أفقد فرصتى فى التعليم. من الصعب أن أعرف ماذا كان مستواى العلمى فى هذا الوقت وهل أضافت هذه الرحلة المبكرة للقاهرة والدروس المكثفة شيئا لى.غريب هذا البلد الذى يضغط على أطفاله الصغار ويعصرهم عصراً بينما أقرانهم فى الغرب فى هذا السن يمرحون ويلعبون ويتمتعون بطفولتهم وأيضا يتعلمون!.

ودخلت مدرسة المعهد العلمى الابتدائية الخاصة بفم الخليج وكان يجلس بجوارى فى نفس التختة ابن خالى صاحب ومدير المدارس ، وقد تزاملنا حتى التخرج من كلية الطب فى نفس العام. وكان أوتوبيس المدرسة يوصلنا صباحا ويعود بنا بعد انتهاء الدراسة. وكنا نسكن فى جزيرة الروضة فى نهاية شارع الأخشيد على بعد أمتار قليلة من قصر المنسترلى ومقياس النيل العتيق، ولا أذكر كثيرا عن هذا البيت سوى أنه كان فى شارع هادئ للغاية ملئ بأشجار الفيكس الضخمة والتى تظلل الشارع تماما، كانت له رائحة جميلة بفضل الكم الهائل من الأشجار والنباتات المزهرة، ولا أتذكر اسم أحد من جيراننا فى هذا الوقت. وقد تركنا هذه الشقة بعد أقل من عامين وكان ذلك فى عام ١٩٤٩ ، وكان البيت جديدا ولكنه لم يكن مطلبا من الخارج، وكان يعتبر بعيدا عن عمل أبى فى باب اللوق والذى ترقى وأصبح مديرا لأحد الأقسام الكبيرة بالبنك الرئيسى فى القاهرة. وبالرغم من أن هذه كانت ترقية هامة صحبها ارتفاع فى المرتب إلا أنه أصبح موظفا كبيرا فى آلة ضخمة له فيها ورؤساء أكبر بكثير ، وأصبح يذهب للبنك فى الأوتوبيس ، ولم يعد له سيارة بسائق ولم يعد أحد يعرفه فى القاهرة بعد أن كان نجما كبيرا فى المنيا أو بنها. وقد حصل مرة أخرى على سيارة بسائق عندما أصبح مديرا عاما للبنك بعد ذلك ببضع سنوات.

ويبدو أن أمى كانت سابقة لجيلها فى الضغط على طفل صغير حتى يتفوق فى التعليم وما كانت تفعله كحاله متفرده أصحب هو الشغل الشاغل للأم والأب فى الضغط على الأطفال فى هذه الأيام. وإذا قارنا أطفال أوربا باطفالنا المصريين لوجدنا

أن الطفل الأوربى يتعلم فى هدوء ويتمتع بطفولته من لعب ومرح ، وفى النهاية فأن الطفل الأوربى حينما يصل لمرحلة الشباب يكون قد أكتمل نضوجه واصبح شغوفاً بكثير من الهوايات التى تصقله كانسان يلم بجمع فنون المعرفة ومحباً لأنواع الفنون المختلفه و ثقافته العامه تفوق بكثير اقرانهم من المصريين.

وترجع هذه الرغبة العارمة من الأهل بأن يحقق الطفل قفزات هائلة لعدم الثقة فى المستقبل ، ولمعرفة أن الفرص قليلة وأن المتسابقون بالآلاف فلا يوجد مكان إلا للمتفوقين. إلا أن النجاح فى الحياة لايعتمد فقط على الجهد الشديد فى الدراسة ، فلو نظرت إلى خريجى الطب من دفعتى لوجدت أن كثير من الأطباء المتفوقين علميا ومهنياً لم يكونوا من الحاصلين على قمة الدرجات فى الثانوية العامة ، وإنما يرجع الأمر لأشياء أخرى من الثقافة العامة والموهبة وحسن التصرف وبالطبع الجهد والعمل الشاق. وأعتقد أن بعض قسوة المدرسين وشراستهم وخاصة فى المدارس الحكومية المكتظة بالآلاف من التلاميذ البسطاء يمكن أن تؤدى إلى كوارث نفسيه وأخلاقية ، وقد تسبب كراهية التلميذ لفكرة التعليم نفسها. وبالرغم من أننى واثق أن تصرف أمى كان مصدره الوحيد هو الحب الشديد لى والرغبة فى أن أكون متفوقاً على أقرانى إلا أن هذا كان يمكن أن يؤدى إلى نتائج عكسية مثله مثل التدليل الشديد والتسيب وعدم المتابعة التى قد تؤدى أيضا إلى كوارث.

بيت فى وسط المدينة

وقع لنا حادث مؤسف أدى إلى انتقالنا للسكن فى باب اللوق بوسط البلد، إذ سرقت محفظة ابى وبها مرتبه الشهرى فى الأوتوبيس أثناء عودته إلى المنزل بعد الظهر. وقد كان حدثاً جللا أثر على ميزانية الاسرة لعدة شهور ، وبعد مفاوضات مكثفة وبحث مضى وجد أبى شقة دفع لها خلو رجل مائة وخمسون جنيهاً وإيجارها ستة

جنيهات شهريا بالقرب من ميدان الفلكى، وكانت الشقة فى بيت قديم من ثلاثة طوابق كل منها به شقة واحدة.

وكان والدى سعيدا بالانتقال إلى وسط المدينة فكان مقر البنك فى شارع صبرى أبو علم على بعد دقائق مشيا على الأقدام من منزلنا وكانت والدتى سعيدة لأنها أصبحت على مسافة قريبة من أمها، فكانت تمشى إلى أمها عبر ميدان لاظوغلى ثم شارع خيرت وفى عشرين دقيقة تصل إلى منزل العائلة فى شارع الخليج المصرى.

وكانت شقتنا غاية فى الضخامة، كان لها صالة ضخمة طولها إثنى عشر متراً وعرضها ثمانية أمتار وحولها خمس حجرات كبيرة الحجم، ثم تتصل بالصالة بطرقة طويله فى نهايتها حجرتان تطلان على الشارع العمومى وإحداهما لها بلكونه كبيرة وكان ارتفاع السقف يناهز الخمسه أمتار. وقد كان يسكن فى الطابق الارضى وهو يرتفع حوالى مترين عن الشارع صاحب المنزل و يدعى فوزى بك ولا أعتقد أنه كان يحمل رتبه البكوية الرسمية وكانت له بنتان فى نهاية العشرينات من العمر فى ذلك الوقت وكانت إحداهما متزوجة من ضابط جيش أصبح اسمه معروفا بعد قيام الثورة لأنه كان أحد الضباط الاحرار ورئيس أحد المشروعات الهامة بعد ذلك ثم عين سفيراً لمصر فى دولة أوروبية شرقية. وقد علمنا فيما بعد أن بعض الاجتماعات التحضيرية للثورة تمت فى هذا البيت، وأن جمال عبد الناصر زاره عدة مرات بل وبات فى هذا البيت. وكان فوزى بك شخصية ضئيلة الحجم غريبة الاطوار وكان عمره يناهز السبعين حين انتقلنا للسكن فى منزله وكان يجلس معظم الوقت فى فراندة ضخمة ذات سور منخفض يرتدى جلبابه المقلم وفى قدميه خف جلدى ويبدأ يومه فى العاشرة صباحاً بالظهور على مسرح البلكون، فيبدأ فى توصيل خرطوم طويل إلى حنفية ثم يبدأ فى رش الشارع بالمياه من اعلى وكان يتحكم عن طريق الضغط على طرف الخرطوم فى قوة اندفاع المياه حتى تصل إلى مسافات بعيدة على جانبى

المنزل فى الشارع، و بعد أن يفرغ من رش الشارع كان يبدأ فى إثارة معركة كلاميه مع خادمة أو مع صاحب دكان التصوير أسفل المنزل تستمر لمدة ساعة كل يوم ثم يجلس على كرسى وثير و ليأتى خادمه له الشيشة و التمباك والفحم و يبدأ فى تدخينها نحو الساعة ثم يختفى فوزى بك من البلكون داخل المنزل للغذاء و نوم القيلولة، وقبل الغروب يعيد الكرة مره اخرى فيبدأ برش الشارع ثم المعركة الكلامية ثم شرب الشيشة قبل أن ينام، و يقال أنة كان يتناول كاسا أو إثنين من الكونياك فى المساء.

وكان فوزى بك رجلا طيبا لم يؤذ أحداً و كان يضفى على الشارع و الحى بهجة حتى معاركه الكلامية كان الجميع ياخذها بلطف ويعتبرونها نوعا من الفكاهة الزاعقة. وقد توطدت علاقتنا معه بعض الشيء حين تزوج ابن عمتى من ابنتة الصغرى ولكن العلاقة لم تستمر بعد أن تركنا المنزل فى الخمسينات. وكنا نسكن الطابق الثانى فوق فوزى بك مباشرة. وكانت تسكن فى الطابق الثالث اسرة رجل اسمه الخواجة ونيس، ولم يكن لة أى اختلاط بنا ولم نره إلا قليلاً. وكانت زوجتة أيضا تظهر على فترات متباعدة أما أولاده فلا نعلم فى اى مدرسة كانوا يتعلمون و كنا نراهم بالصدفة البحتة مرة كل عدة اسابيع وربما شهور. وكان الخواجة ونيس وعائلتة لا يحدثون أى ضجيج ولا يثيرون أى مشاكل وقد رفضوا بأدب تبادل أى زيارات مجاملة فى المناسبات، ولم نعلم ماذا وأين كان يعمل الخواجة ونيس وقيل أنه كان يعمل فى الصاغة ، ولكننا لم نسمع أن له محلا هناك. وقد استمر جاراً هادئاً لنا منذ عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٥٦ وبعد العدوان الثلاثى اختفى فجأة هو وعائلتة ، وقيل أنه كان يهوديا وهاجر إلى إسرائيل. وأطلق صاحب محل التصوير أسفل المنزل اشاعات بأنة كان جاسوسا وكان يرسل إشارات للطائرات الإسرائيلية. وعلى أية حال فقد كان الخواجة ونيس كما أتذكر يجيد العربية. وكان بألتاكيد مصرى المولد فلم تلاحظ أى لكنة أجنبية فى كلامة. أما لماذا أطلق عليه لقب الخواجة فلا اعلم، بعض الأقباط من الأغنياء وخاصة المعلمين

منهم قد يطلق عليهم لقب الخواجة و يمكنك أن تقرأ ذلك أحياناً فى صفحة الوفيات بجريدة الأهرام، وقد كانت شواهد كثيرة توحى بأن الخواجة ونيس يقوم بعمل غامض!، وكان اختفاؤة المفاجى بدون علم أحد وبدون نقل عفش أو سلام على الجيران هو السبب الأساسى فى كل ما أشيع عنه بعد اختفائة، وكانت الفترة من انتهاء حرب فلسطين وقيام دولة إسرائيل وحتى العدوان الثلاثى محل شيوع شعور عدائى نحو إسرائيل، إلا أننا جميعاً لم نشعر أو نحس بأى شعور عدائى نحو الخواجا ونيس وحتى لم نكن نعلم ديانتة ولم نحاول أن نتحرى هذا الأمر وكان الشىء الوحيد الذى أثار شعورا بعدم الاطمئنان نحوه هو الغموض الشديد الذى أحاط به ست سنوات كاملة، ولا أدرى هل هرب خارج البلاد أم سافر بطريقة رسمية أم انتقل إلى سكن آخر أم قبض علية ورحل للخارج من السجن، كلها احتمالات واردة!، ولك أن تتخيل فيلماً بوليسيا أحداثه فى منزل من ثلاث طوابق الدور الأعلى به جاسوس إسرائيلى، والدور الأول تعقد به اجتماعات الضباط الأحرار للقيام بثورة ويمكن للجاسوس الإسرائيلى أن يعلم و يراقب ويتحرى هذه الاجتماعات، وبعد ظهور وثائق وأسرار تؤكد أن أدق وأكثر الاجتماعات سرية كانت على مرأى ومسمع الموساد يمكن لك أن تصدق أى شىء وأن تتخيل أى شىء.

التكنولوجيا فى بيتنا

عندما أنظر حولى الآن فى بيتى وأرى أجهزة التليفون وجهاز الكمبيوتر والفاكس والتكييف، وفى الحمام يوجد السخان، وأنتقل للمطبخ فأرى فرن البوتاجاز وبعض الآلات الكهربائية المساعده فى الطبخ، ثم أعود بذهنى لأتذكر متى رأيت لاول مرة هذه الأجهزة. عندما كنا نسكن فى باب اللوق حين كان عمرى حوالى تسع سنوات كان الجهاز الوحيد الذى كنا نملكه هو التليفون وقد دخل بيتنا عام ١٩٤٩ وكان رقم التليفون يتكون من خمسة ارقام، وكان وجود التليفون بالمنزل يعتبر تقدما تكنولوجيا

كبيرا ، ولم يكن التليفون يستخدم كثيرا حيث ان معظم معارفنا وأقاربنا لم يكن عندهم تليفون حتى يمكن ان نتصل بهم ، ولم يكن التليفون يستخدم إلا للأعمال الهامة ، فلم تكن الدردشة فى التليفون واردة فى ذلك الحين. وكان عندنا صندوق يطلق علية ثلاجة نستخدمها فى الصيف وفى أشهر القيظ فقط وكان شكلها كالدولاب الصغير وهو مصنوع من الخشب ويفتح من أعلى حيث يوجد تجويف تمر فيه أنابيب مصنوعة من الرصاص ونشترى ربع لوح ثلج ثم يرش علية بعض الملح ويلف فى قطعة قماش من الخيش وتقفل الثلاجة. وفى الأمام توجد حنفية إذا فتحتها تمر المياه داخل الأنابيب المثلجة وتخرج المياه مثلجة من الحنفية للشرب وكان ربع لوح الثلج يذوب فى حوالى ٤-٦ ساعات فكنا نشتريه بعد الظهر ونشرب الماء المثلج حتى المساء، وكانت مشكلة هذه الثلاجة أن بائع الثلج لا يمر على المنازل ولا بد أن يذهب أحد إلى محل بائع الثلج لشرائه وحمله للمنزل، وفى هذه الرحلة التى قد تستغرق نصف ساعة يفقد الثلج ين بمتد ولذا لم نكن نستخدمه إلا فى أيام الحر الشديد. وفى ذات يوم أخبرنا والدى أنه يوجد ثلاجة يمكن أن تخفض الحرارة داخلها وأنها أيضا يمكن أن تصنع الثلج وأنها تعمل بالجاز السائل (الكيروسين)، وكان أحد أصدقائه أيام العمل فى المنيا قد اصبح هو الوكيل لشركة فيلكو الأمريكية المنتجة للثلاجة واشترى والدى الثلاجة التى استمرت تعمل بكفاءة لعدة سنوات، وكانت هذه الثلاجة بمثابة معجزة تكنولوجية فحضر كثير من الأقارب والمعارف لمشاهدتها وبعد بضع سنوات أخذت الشركة المنتجة ثلاجتنا واستبدلتها بثلاجة كهربائية فى عام ١٩٥٥ وظلت تعمل بكفاءة حتى عام ١٩٩٨ أى أكثر من أربعين عاما. ويبدو أن الشركات المصنعة فى هذا الوقت كانت تنتج معدات وأجهزة تعيش العمر كله ، أما الآن فإن الشركات تعلم أنها سوف تطور المنتج وأن الجهاز المباع سوف يغيرة المشترى بعد عدة سنوات و لم يعد يصبح طول عمر الجهاز هو الميزة الكبرى، وإنما أصبح شكله ووظائفه المتعددة هو هدف المنتج الأساسى. وقد غير دخول الثلاجة فى المنزل من نظام الحياة ، فلم يعد

الأكل يطبخ لوجبة واحدة لأن ما تبقى منه يمكن حفظه لعدة أيام فى شهور الصيف، وحل مشاكل المرأة العاملة التى تطبخ الأكل لعدة ايام مرة واحدة ، وأعتقد أنه لا يوجد الآن منزل فى مصر ليس به ثلاجة حتى أفقر الفقراء. وأذكر أن أول وظيفة لى بعد إنتهاء فترة الامتياز فى عام ١٩٦٣ كانت فى وحدة ريفية فى احدى قرى محافظة المنوفية وكانت القرية لم تصلها الكهرباء بعد وكان بها ثلاجة تعمل بالبوتاجاز بكفاءة عالية.

ولا أذكر على وجة الدقة متى اختفى وابور الجاز بريموس من المطبخ وتم استبدالة بفرن البوتاجاز، ولكننى أذكر يوم أن دخل أبى المنزل متهللا فى أوائل الخمسينات ومعة علبة كبيرة من الكرتون بها حلة للطبيخ يضغط فيها البخار لتطهو الأكل فى فترة وجيزة ، وكان لها صمام أمان يخرج البخار المضغوط حين يزيد عن مستوى معين وتسمع صوت صفارة وكان مكتوبا على العلبة أن الأكل يتم طهوه فى ثلاث دقائق، و لذا أطلق عليها حلة الثلاث دقائق، واستمر هذا الاسم سنين طويلة حتى اختفت هذه الجملة ولا ادرى ماذا كان البديل بعد ذلك ، وكان عندنا جهاز لصناعة الآيس كريم مكون من اسطوانة حديدية داخل برميل صغير من الخشب ويملأ البرميل بربع لوح ثلج قد تم تكسيره إلى قطع صغيرة ثم نبدأ فى تحريك مقبض خارجى مشابه للمنافيلا عندئذ تدور الاسطوانة الحديدية المملوءة باللبن، وبعد حوالى ساعتين من التناوب على إدارة هذه المنافيلا يكون اللبن قد أصبح أيس كريم معداً للاكل فورا. وقد كانت هذة العملية تأخذ نصف يوم بين تحضير اللبن ووضعة فى الاسطوانة وبين شراء الثلج وتكسيره ورش الملح لمنعه من الذوبان بسرعة ثم نبدأ فى إدارة المنافيلا بالتناوب.

وقد كان ذلك يعنى متعه للعائلة بالكامل، والتى تصنع بنفسها الآيس الكريم الذى كان حلو المذاق بتكلفة قليلة للغاية ويشعر الجميع بأنهم صنعوا بأيديهم ما يأكلوه، وهو شعور مختلف تماماً عن الشعور عند شراء الآيس كريم من السوبر ماركت.

وتتنافس الآن شركات الانفتاح فى صنع الآيس كريم إلى أن دخل المنافس الأكبر وهو الآيس الكريم الأمريكى القادم جاهزاً للأكل من هناك، والذى خصصت له محلات خاصة تبيعه فقط دون أى آيس كريم محلى، ويقال أننا نستورد بأكثر من عشرة ملايين من الدولارات من هذا الآيس الكريم فى الوقت الذى يعانى ميزان المدفوعات المصرى من عجز كبير وينحدر سعر الجنيه المصرى بسبب التصرفات الغير مسؤوله من الحكومة والمستورد والمستهلك! ، رحم الله أمى التى كانت تصنع لنا آيس كريم لذيذ المذاق جميل الرائحة الممزوج بمجهودنا وعملنا عدة ساعات ، والذى كان يكفينا جميعا مع ضيوفنا وذلك من رطلين من اللبن ثمنها أقل من عشرة قروش وربع كيلو ثلج ثمنه قرشين!.

أما عن الاستحمام فلا زلت أذكر أن الماء كان يجرى تسخينه بوابور الجاز وعليه إناء مستدير يسمى أروانة ويوجد بجواره طشت ثم كرسى خشبى صغير على ارتفاع ٢٠ سم من الأرض يشبه إلى حد كبير الكرسى الخشبى الذى يجلس عليه ماسح الأحذية ، وكان الماء المغلى يخلط بالماء البارد فى الطشت ويصب الماء, وكان الحمام يأخذ وقتا طويلا فى التحضير والتجهيز وبعد الحمام كانت أمى تصر أن ننام فى السرير تحت غطاء سميك حتى لا نصاب بالبرد. أما فى الصيف فكان الدش أمره سهل وبسيط. وكان أول سخان دخل حمامنا حوالى سنة ١٩٥٦ وكان سخانا كهربائيا ولكن أمى كانت دائمة الشكوى منة لأنة يستهلك الكثير من الكهرباء ، ولم نكن نستخدم أى شيء للتدفئة فى الشتاء سوى ارتداء الملابس الثقيله والنوم تحت لحاف وبطانية وكان عند أمى دفاية صغيرة بها سلكين حلزونين لونهما شديد الاحمرار عند تشغيلها ولكنها كانت نادرا ما تستعمل لأن أمى كانت تخشى من الدفاية وتعتقد أنها غير صحية وتصيب الإنسان بالبرد والأنفلونزا وكانت دائما تقول ممنوع تخرج من الساخن للبارد والعكس. وكان عند أمى بعض المعتقدات التى لا أعرف مصدرها, مثلا كانت تعتقد اعتقادا تاما بأن الطفل إذا نام و الجوارب فى قدمية تصاب عينيه

بأضرار بليغة ، ولذا كان محرما علينا النوم ونحن نلبس الجوارب خوفا على إبصارنا، و كانت تعتقد أنه إذا تركنا فردة حذاء أو شبشب مقلوبا فيكون هذا نذيرا بأن حالة وفاة قد تقع. ولذا كانت و كنا نسارع إلى تصحيح وضع أى شبشب على الأرض.

وكانت كل جمعة صباحا وقبل ميعاد صلاة الجمعة تضع البخورعلى المنقد ، وتدور فى البيت كله حجرة حجرة بالبخور ثم تضعه فى الصالة ونصطف جميعا أنا و أخوتى لنعبر فوق البخور من اتجاه واحد سبع مرات.

أما السيارة فلم يشتر أبى لنفسه سيارة طيلة حياته، و لكن كانت له سيارة من البنك طوال عمله خارج القاهرة ، وحين نقل إلى القاهرة أصبح يركب الأتوبيس للذهاب للعمل لعدة أعوام ثم حين أصبح من كبار موظفى البنك الرئيسى ومديراً عاماً له خصصت له سيارة بسائق مرة أخرى حتى احيل للمعاش فى عام ١٩٦٧ .

وكانت أمى شديدة الوسوسة والقلق من خلط المال العام بالخاص. فكان والدى يحضر معه أوراقا من البنك للعمل فى المنزل فى المساء وكان يكتب تقارير على ورق أبيض و فى مرة أخذت ورقة بيضاء وأخذت أكتب عليها بعض الأشياء ولم يقل أبى شيئا ولكن أمى نهرتنى بشدة واستشاطت غضبا وقالت أن هذا حرام! وكيف أكتب على الورقة التى هى ملك البنك وليست للاستخدام الشخصى. وكانت دائما ترفض استعمال سيارة البنك بالرغم من أن العرف كان قد جرى أن هذه السيارة بالسائق يمكن استخدامها فى بعض المشاوير الخاصة للعائلة. وكانت دائما تقول لنا أن الخبز نعمة كبرى وأنه قد ياتى يوم لا نجده فإذا وقعت قطعة منه على الأرض فيجب أن تأخذها ثم تلثمها ثلاث مرات وتحركها من الفم إلى الجبهة ثم تضعها فى المطبخ على المنضدة. و كنا نفعل ذلك دائما.

أما تكييف الهواء فلم يستخدم فى بيتنا أبداً ، و كانت أول مرة أشاهده حين دخلت سينما مترو فى الصيف ١٩٥٣ فشعرت كأننى دخلت الجنة حين تركت لهيب الشارع.

وقد لفت انتباهي إلى إمكان استخدام التكييف في المكاتب والبيوت الصحفي الراحل على أمين، إذ قرأت له مقالا فى عام ١٩٥٤ وكان عمرى اربعة عشرة عاماً يلخص فيه بحثا أمريكيا عن مضاعفة الإنتاج لعدة مرات فى المكاتب التى تستخدم تكييف الهواء، وأنه أصبح ضرورة لكل مكتب بل لكل بيت، وكنت أتعجب من قوله.

وهكذا تطور بيتنا بوسائل التكنولوجيا الحديثة فغير طريقة معيشتنا وبالتأكيد أصبحت الحياة أسهل كثيرا، ولكن ما كان يؤرقنى دائما أن هذه التكنولوجيا الرائعة دائما أبدا مستورده! ، فنحن لم نكتشفها ولم نأخذ بعض الوقت حتى نستطيع تشغيلها وتفهم كيف تعمل، وقد لا يستطيع البعض منا تشغيلها أبدا. وقد تحدث بسببها أخطارا ، بسبب الجهل بطريقة التشغيل ، ولكن أكثر ما يشغلنى هو أن تطوير التكنولوجيا فى الغرب يتم خلال حركة تطوير المجتمع ككل، مماهو نتاج طبيعى لحركة التطور. أما فى مجتمعاتنا المستوردة للتكنولوجيا التى لا تنتجها فدائما توجد فجوه تؤدى إلى إخلال بالتقدم الطبيعى للمجتمع. وأضرب مثلا باكتشاف حبوب منع الحمل، فكان التقدم فى إختراع الأدوية فى الغرب مصاحبا للتقدم العام للشعوب الذى كانت تبحث عن وسيلة لتحديد و تنظيم النسل ، وذلك حتى تستطيع أن تعيش فى مستوى أعلى. فكان الاكتشاف وليد الحاجة وكان الناس يريدون وسيلة سهلة الاستعمال فاخترعوها. أنظر ماذا حدث فى بلادنا. لم يفكر الناس فى تنظيم الأسرة وإنما تركوا الأمر للطبيعة فكانت الأسرة تنجب عشرة أطفال ويعيش منهم إثنين أو ثلاثة ، وكان تعداد السكان ثابت أو تحدث فيه زيادة طفيفة. فجأة استوردنا تطعيم الأطفال واستوردنا المضادات الحيوية فانخفضت وفيات الأطفال وحدث الانفجار السكانى والذى أدى إلى مشاكل لا حصر لها تعيق التقدم والتطور. فنحن نستورد الأمصال و المضادات الحيوية ونستعملها فتنخفض وفيات الأطفال ونستورد أيضا حبوب منع الحمل ولكننا لا نستعملها فيحدث الانفجار ونصبح أمام مشكلة كبرى كانت الطبيعة تقوم بحلها حسب

قوانينها التى قد تبدو قاسية و غير إنسانية حين يموت الأطفال ، ولكنها كانت تقيم توازن فى النمو السكانى، ونحن الآن فى وضع حرج بين نارين إما نترك الأطفال يموتون بدون تطعيم وبدون مضادات حيوية, وهو حل غير آدمى لا يمكن أن يوافق عليه إنسان, أو نترك الانفجار السكانى يقضى على مستقبلنا وأملنا فى تحسين أوضاع هذا الشعب المسكين.

ولا يمكن أن أنسى حديثاً فى إحدى الصحف للشيخ متولى الشعراوى وربما كان للتليفزيون يقول فيه أن الله قد سخر لنا الغرب ليقوم بالاختراعات والاكتشافات وتقديمها جاهزة لنا نحن المسلمين. وهذه العبارة من الشيخ خير دليل على حجم المأساة التى نعيشها ونحن نتعامل مع التكنولوجيا.

المدرسه الأبتدائية

وكان لابد من انتقالى إلى مدرسة حكومية قريبة, وهنا ظهرت فكرة نوقشت على مستوى أمى وأبى ثم استدعى لها الخال بصفته الخبير فى شؤون التعليم، وبدأت الفكرة من صديق عزيز لأبى من أيام المنيا والتى كان قد مر على تركه لها خمسة سنوات، وهذا الصديق من أغنياء الأقباط بالمنيا وقد تعلم فى مدرسة فيكتوريا بالاسكندرية فى أوائل العشرنيات من القرن الماضى، ثم ذهب لاتمام تعليمه فى جامعة اكسفورد بانجلترا وتزوج من بنت أحد كبار أغنياء الصعيد وعاش بين القاهرة وأوروبا و أمريكا وكان يسكن فى الزمالك بالقاهرة ، وقد أثار هذا الصديق فكرة أن أدخل كلية فيكتوريا بالمعادى ، وأنه باستطاعته أن يقوم بالوساطة اللازمة لقبولى حيث أن أمثالى من الطبقة المتوسطة لم يكن يسمح لهم بدخول هذه المدارس. وكان أبى مترددا لأن تكاليف التعليم كانت ستكون فوق طاقته وسوف ترهقه أشد الإرهاق، وكانت أمى مترددة، ولكن خالى أنهى النقاش وقال بأن هذه المدارس ليست لنا وإنما هى لمن يريد

أن يخرج إبنه للحياة وهو ينظر لشعبه وناسه نظرة فوقية، ولن يشعر بآلامهم وآمالهم وسوف يعيش ويموت وهو يسبح بحمد الإنجليز. بالطبع لم أع هذا الكلام الذى سمعته مرارا بعد ذلك من والدتى ألا بعد أن بلغت سن النضج وأدركت مخاطر التعليم الأجنبي على هوية المصرى السميم. وفى مرحلة لاحقة كنت أتعجب من موقف خالى فى هذا الوقت وهو الذى اصبح من الطبقة العليا وأصبح غنيا يملك حوالى عشرين مدرسة ويسكن فى فيلا كبيرة فى شارع الهرم أيام كان السكن فى فيلا شيئا نادرا، ثم أصبح عضوا فى البرلمان وحصل على البكوية ومرشحا لوزارة المعارف وصديقا للملك، وعندما أبدى رأيه --وكان فى قمة مجده وعنفوانه- كان مخالفاً لآراء أصدقائه الجدد وطبقته الجديدة والتى يذهب أولادها لكلية فيكتوريا وبناتها إلى المدرسة الانجليزية!.

حين ألقى نظرة على الوضع التعليمى فى مصر فى نهاية القرن العشرين أرى الأغنياء الجدد والذى أتى معظمهم من الطبقة الفقيره والبعض من الطبقة المتوسطة يرسلون أولادهم للمدارس الأجنبية وهى غير مدارس اللغات والتى يتعلم فيها التلميذ كل شيء إلا اللغة العربية ولا يدرسون شيئا عن تاريخ وجغرافيا مصر وانما يدرسون بكل جدية تاريخ وجغرافيا أمريكا وإنجلترا وفرنسا والآن ألمانيا أيضا وربما فى المستقبل اليابان واسكندنافيا فى المدارس والجامعات الجديدة !

وقد رأيت وعاشرت عن قرب بعض خريجى هذه المدارس وشعرت بحجم المشكلة للطالب الذى يصعب علية التأقلم والحياة فى بلده ويحس دائما بالغربة ولا يشعر أبدا بالانتماء، ولابد له من أن يجد عملاً فى شركة أو هيئة أجنبية حيث أنه لايحسن استخدام العربية كتابة أو قراءة!، وبمرور الوقت تزداد أعداد الخريجين الذين تعلموا تعليماً على مستوى عال، ولكنهم لايمكنهم التكيف مع مجتمعهم وفهم تفكيره والأحساس بمشاعره.

فى النهاية تقرر أن أنتقل إلى أقرب مدرسة حكومية بجوار المنزل، و كانت على بعد مائتى متر فقط، وهى مدرسة القربية الابتدائية بشارع السلطان حسين، وكان المبنى قصرا قديما لأحد الباشوات ثم حول إلى كلية التجارة، وكان أبى طالباً فيها أثناء دراسته الجامعية. فى العشرينات وبعد انتقال كلية التجارة لمبناها فى حرم جامعة القاهرة بالجيزة تحول المبنى إلى مدرسة ابتدائية والمبنى الأساسى وهو القصر القديم كانت به الإدارة شاملة حجرة الناظر والوكيل وحجرات المدرسين وبعض الفصول، وكان بدروم المبنى يستخدم كمطعم المدرسة المسمى اليمخانه وكنا نأخذ وجبتين الأولى فى الفسحة الصغيرة بعد الثلاث حصص الأولى و هى وجبة جافه ، ووجبة ساخنة فى الفسحة الكبيرة ، وكنا ننزل فى طوابير منظمة للمطعم وكان لكل تلميذ مكانه على إحدى الترابيزات الطويلة و يمر الطباخ بإناء كبير به الطبيخ ويغرف لكل منا فى طبقه الخضار، ثم يمر آخر بالأرز، ثم تلقى قطعة لحم فى كل طبق و بينما نأكل توضع بجوار كل طبق برتقالة. وأذكر أن أول صفعة أخذتها على وجهى كانت من الناظر شخصيا وكنت فى السنة الثالثة الابتدائية، ذلك أننى وأنا أنزل على السلم فى الطابور للبدروم لم ألاحظ أن الناظر كان يقف فوق السلم عندما يتحول اتجاهة، وكنت أتحدث مع زميلى فى الطابور وهذا ممنوع حسب نظم المدرسة، وقد سألت أحد الأقارب مؤخراً عن مدى الالتزام بالقواعد أثناء سير الطابور فى المدارس فأخبرنى أن الطابور أصبح فى خبر كان ولم يعد له وجود فى مدارسنا!.

وكنا حوالى خمسة وثلاثون تلميذا بالفصل وكان لكل منا فى التختة درج خاص به . وأذكر أنه فى العام الأول لم تكن أقلام الحبر السائل متوفرة بعد و كانت مكلفة فكنا نكتب بالريشة ونغمسها فى دواية الحبر وكان لها فتحة بالركن الأيمن من الدرج ويمر كل يوم الفراش بإبريق كبير ملئ بالحبر ويملأ كل دواية بالحبر ، وبدأت تظهر أقلام الحبر بعد ذلك وتدريجا اختفت الدواية والريشة وأصبح الأمر أبسط وأسهل وإختفت

بالتالى بقع الحبر التى كانت تسقط على الكتب و الكراريس والتى كانت تلوث أصابع جميع التلاميذ.

وفى امتحان الشهادة الابتدائية أعطانى والدى قلمة الباركر والذى كان ثمنه خمسة جنيهات كاملة فى ذلك الوقت حتى أستعمله فى الامتحان وبعد نهاية الامتحان تركه لى هدية فاحتفظت به واستعملته فى الامتحانات فقط. وكنت أتفاءل به وظل يعمل بكفاءة حتى امتحان الدكتوراة فى أمراض النساء فى عام ١٩٦٩ أى استعملته قرابة العشرين عاما ، و قبل ذلك استعمله والدى بضعة سنوات.

شهادة فقر

وعندما دخلت مدرسة القربية الابتدائية لم يكن التعليم مجانيا وإنما كانت هناك مصاريف للمدرسة تدفع على قسطين قبل الدراسة ولا نستطيع استلام الكتب المدرسية إلا بعد أن تدفع المصاريف ويدفع القسط الثانى بعد إجازة نصف العام. ولم تكن المصاريف باهظة ـ حوالى ثلاثون جنيها فى العام ـ ولكنها كانت أكبر من قدرة فقراء التلاميذ. وأذكر أن بعض من التلاميذ كانوا لا يدفعون المصاريف فى الميعاد المحدد وكان هذا يسبب لهم كثيراً من الحرج حيث كان بعض المدرسين والملاحظين يصرون على المناداة بأسمائهم فى أول كل يوم ويطلبون منهم أن يبلغوا أولياء الأمور بضرورة دفع المصروفات فورا وإلا تعرض التلميذ للطرد من المدرسة. وكنا نحن التلاميذ من مسددى المصاريف نشعر بحرج كبير من هذا الوضع السخيف الذى يهين بعض زملائنا بدون سبب جنوه ، وإنما مشكلتهم أنهم ولدوا فى أسرة فقيرة ، وسمعت لأول مرة فى حياتى وأنا لم أصل للعاشرة من عمرى بعد بأن هناك شهادة تسمى شهادة فقر يمكن لولى أمر الطالب السعى فى الحصول عليها من جهات حكومية مختلفة تبدأ بشيخ الحارة وتنتهى فى الشئون الاجتماعية ، ويتعرض طالب الشهادة لكثير من الإذلال على مستوى الحكومة التى وافقت على إصدار شهادة

وسمتها بهذا الاسم وكان الأب يمر على صغار موظفى الحكومة من البيروقراطيين والذين هم أنفسهم يستحقون هذه الشهادة لضعف مرتباتهم. ولكنهم يتعمدون تعطيل الأوراق وإذلال المتقدم نيابة عن الدولة وفى النهاية تصدر شهادة فقر وربما تصدر شهادة بنصف فقر وهذا يعنى دفع نصف المصاريف وربما لا تصدر على الإطلاق. ولا زلت أذكر نهاية المسلسل الذى ينتهى بطرد بعض التلاميذ ومنعهم من دخول المدرسة قبل الدفع.

وأذكر هنا الحادثة التى رواها لويس عوض عندما ذهب لعميد الكلية طه حسين قبل بدء الدراسة فى منزله بعد قبوله فى كليه الآداب ، وقابله طه حسين وهو الطالب الذى لا يعرفه والذى لم يلتحق بالسنة الأولى بعد. وطلب منه أن يعفيه من مصاريف الكلية بسبب فقره ، وأخبره طه حسين بأن حالته ربما يناسبها نصف مجانيه.

وفى عام ١٩٥٠ وبعد نجاح حزب الوفد الساحق فى واحدة من الانتخابات النادرة الغير مزورة فى مصر وتولى طه حسين منصب وزير المعارف العمومية أعلنت مجانية التعليم فى جميع مراحله. وهكذا توقفت المهانة للتلميذ الفقير.

ومرت الأيام وتبدلت الأحوال ثانية وأصبحت مجانية التعليم موجودة نظريا فقط. فمعظم المدارس ذات المستوى المعقول أصبحت بالمصاريف ، وأصبحت المدارس الحكومية المتداعية هى الوحيدة المجانية. وكشاهد عيان أرى مدرسة سقارة الابتدائية الحكومية المجانية حيث عدد التلاميذ فى الفصل الواحد يفوق الخيال ومعظمهم يقفون فى الحوش أو فى الشارع أمام المدرسة لأنه لا مكان لهم داخل الفصل. ويكون الدرس عبارة عن سلسلة من الشتائم يوجهها المدرس للتلاميذ ويتخللها الكثير من السادية التى يمارسها المدرسون باستخدام كافة أنواع الضرب باليد أو بآلات مختلفة بعضها طبيعى كفرع الشجرة وبعضها مصنع كخرزانة أو مسطرة. وبانتهاء اليوم الدراسى تبدأ فصول

التقوية فى نفس المدرسة لنفس التلاميذ بنفس المدرسين بعد أن يقسموا ألى مجموعة من خمسين أو ستين تلميذا ويا ويل التلميذ الذى لا يشترك فى المجموعة.

حين كنا فى مدرسة القريبة الابتدائية لم نعرف نظام المجموعات ولكن الضرب كان مباحا ويحدث كل يوم. وكان ذلك عقابا لمن يحدث هرجا فى الفصل ، أو يتكلم أثناء الدرس أو لا يقوم بعمل الواجب المنزلى ، وعند بعض المدرسين كان يمتد الضرب ليشمل التلاميذ الذين يحصلون على درجات ضعيفة فى الامتحانات الشهرية، ولما كان بعضنا يحصل دائما على أحط الدرجات فكانت هناك مجموعة تضرب بصفة منتظمة كل شهر مع إعلان نتيجة الامتحان الشهرى ، وكان الضرب يبدأ قبل طابور الصباح حيث تصطف المدرسة كلها فى الحوش. كل فصل له مكان محدد ويقف أمامه الألفة وأمام كل فصل يقف مدرس الفصل ، ويبدأ الطابور بتحية العلم، ويقف الناظر على أعلى السلالم فى فراندة كبيرة ليلقى ببعض التعليمات والنصائح ، وقد يعلن عن عقاب بعض الطلبة الذين كانوا مصدر شعب أو إزعاج على مستوى المدرسة، ويتقدم الطالب حيث يتلقى بضع ضربات بالمسطرة على يده أمام الجمع الكبير من التلاميذ، وفى بعض الأحيان النادرة عندما يكون الجرم كبيرا يستدعى كبير الفراشين ويحمل التلميذ من وسطه (يعبطه) ثم يتلقى بضع ضربات بالخرزانة على مؤخرته. وقد يلقى أحد التلاميذ كلمة أو قصيدة شعرية ثم يتحرك الطابور كل إلى فصله. وأذكر حادثة لتلميذ ضبط وهو يكسر رزة أحد الأدراج فى الفسحة وذلك لسرقة بعض الأشياء البسيطة، وكان عقابه العبط فى الحوش مع إنذار بالفصل النهائى واستدعى ولى الأمر للناظر لمناقشة الموقف.

فى هذه الفترة وأنا فى العاشرة من عمرى كانت مصر تموج بأحداث سياسية جسام ، فقد أعطت حكومة الوفد حرية للشعب لم يسبق لها مثيل فى تاريخ مصر الحديث فى التعبير عن النفس وإصدار الصحف المختلفة وحق التظاهر، فخرجت كل

القوى المصرية المحبوسة سنين طوال إلى الشارع تعبر عن نفسها ، وبدأت الحكومة فى مناوشة الاحتلال البريطانى المتمركز على قناة السويس وشجعت الأعمال الفدائية واشتعل الشارع المصرى بالحماس، فكانت المظاهرات تعم الشوارع واضطربت الدراسة، وبالرغم من أن معظم التلاميذ كانوا من صغار السن إلا أنه كان هناك بعض التلاميذ المخضرمين فى السنة الرابعة الابتدائية كانت سنهم تصل إلى خمسة عشر عاما وكان بعضهم يتباهى بشراء الجريدة وقراءتها فى الحوش ، وشرح الموقف السياسى للأطفال مثلنا . وأذكر أننى عند عودتى من المدرسة أخذت أطالب أمى بأن تعطينى قرشا لأننى أريد أن أنزل الشارع مرة أخرى وأشترى جريدة البلاغ المسائية والتى شاهدت كبار التلاميذ يقرأونها فى الحوش وفعلا نزلت إلى الشارع واشتريت نسخة من البلاغ وكان يصدرها عبد القادر حمزة، وكانت هذه أول جريدة أشتريها فى حياتى، وكان بائع الصحف يحضر لوالدى بصفة منتظمة الأهرام والمصرى كل يوم وأخبار اليوم يوم السبت وروزاليوسف يوم الإثنين والمصور يوم الخميس..

وأعتقد أن هذا التاريخ هو بداية اهتمامى بقراءة الصحف والذى أصبح إدمانا بعد ذلك بقليل، وفى هذه الآونة بدأ اهتمامى أيضا بالأحداث السياسية وكنت أستمع لوالدى وهو يتحدث عن الملك فاروق وفساده وحرب فلسطين وما حدث فيها ، وكانت أول مرة أحس بمشكلة الفلسطينيين حيث تحدثت فى الفصل مع زميل لى علمت أنه فلسطينى من يافا وقد هاجر لمصر فى عام ١٩٤٧ ضمن الهجرة الجماعية التى سماها الفلسطينيون النكبة ، وفتح والده محلا للبقالة فى باب اللوق ودخل معنا المدرسة ، وقد حكى لى بمشاعر الطفل ماذا حدث لعائلته وبيته وأصحابه الذين تركهم هناك أو سافروا إلى بلاد أخرى ، وقد استمر هذا الزميل فى الدراسة فى مصر وزاملته فى كلية الطب بعد أن افترقنا فى التعليم الاعدادى والثانوى وبعد أن تخرج من طب القاهرة هاجر للولايات المتحدة.

وكان لمدرسة القربية حوش كبير نسبيا أقيم فى داخله مبنى لبعض الفصول الجديدة ، وكان باب المدرسة هو نفس باب القصر القديم وهو باب حديدى ضخم عليه كمية هائلة من النقوش والزخارف الجميلة وعلى الباب يقف بواب أسمر ضخم الجثة يلبس جلبابا أبيضا أنيقا وعلى رأسه غطاء رأس سودانى جميل، وعند خروجنا من باب المدرسة كنا نلتف حول بائعى الحلوى الذين يجلسون بجوار الباب فى انتظار التلاميذ الصغار ، وكانوا يبيعون لنا مختلف أنواع الحلوى ولكن بعضهم كان يبيع بضاعة أعتقد أننى لم أرها أو أتذوقها بعد ذلك. فكان هناك بائع الدوم وهى فاكهة مجففة فى حجم البرتقالة ولكنها ليست مستديرة وتشبه حبة البطاطس الكبيرة ولونها بنى داكن غير أنها كانت فى غاية الصلابة ، وكانت أسناننا القوية قادرة على كسرها وتذوقها ولم يكن لها طعم خاص ، ولست أدرى لماذا كنا نشتريها. ولا أعرف أين كانت تزرع وهل لها فوائد أو استعمالات أخرى.

أما الفاكهة الأخرى التى كنا نشتريها وكنا نحبها فكانت تسمى النبق وهى فاكهة فى حجم الزيتون الأسود ولونها أخضر يميل للاصفرار والحمرة أحيانا ولها بذرة صغيرة وطعمها به مزازة مستساغة وكنا نشترى عشر حبات بقرش صاغ ، وكانت أمى تنهرنى عندما ترانى أعود للمنزل ببقايا النبق وتسألنى هل غسلته قبل الأكل فأجيب بالنفى فتنهال على بالتأنيب ، وأحاول الدفاع عن نفسى بأنه لايوجد مصدر للمياه بين البائع فى الشارع وبين وصولى للبيت، وكان من الصعب على أن أقاوم الرغبة فى أكل النبق فى الطريق ، فكنت أقوم بمسح الحبة بيدى ثم بمنديل تضعه أمى فى شنطة الكتب أما غسيله قبل الأكل فكان من رابع المستحيلات فى هذه الظروف. هل لم يزل النبق يزرع ويباع فى مصر؟ لم أره عند أى فكهانى أو مع بائع متجول لسنين طويلة.

وكانت لى بالمدرسة عدة نشاطات ثقافية ، وكانت أول محاولة مع بدر أفندى وكان مدرسا للخط العربى بالمدرسة والمسئول عن تحسين الخطوط بالمدرسة ، وطلب منى الالتحاق بالجمعية ففعلت ولكنى اكتشفت سريعا أننى لا أصلح لهذه الجمعية وذلك لسوء خطى وعدم قدرتى على تحسينه فكنت حالة ميئوساً منها وفعلا وافق على تركى لهذه الجمعية. ثم كانت جماعة التمثيل والتحقت بها، وكان يأتى لنا مرة أسبوعيا مدرس من الوزارة لتدريب الفرقة على التمثيل وكان دمث الأخلاق محب لفنه وعمله ، وعرفنا أنه بجوار عمله بوزارة المعارف كمدرس للتمثيل يقوم ببعض الأدوار الثانوية فى المسرح القومى وبدأ التدريب على مسرحية اسمها بلال مؤذن الرسول ولا أتذكر اسم المؤلف وهل كانت رواية منشورة وتقرر اختيارها وتمثيلها فى المسرح المدرسى أم أنها ألفت خصيصا للمسرح المدرسى، وكنا نقوم بالتدريب مرة كل أسبوع لمدة شهور ، وكان دورى صغيراً للغاية فكنت أقول ثلاثة أو أربع جمل فى أحد المشاهد، ولكننا كنا نتدرب بجدية، وتم تجهيز ملابس لنا تناسب هذا العصر ، وتم عمل ماكياج لنا فى البروفة جنرال ، وأقيم العرض فى مسرح مدرسة الليسيه فرانسيه المجاور لمدرستنا، وكانت مسرحيتنا من فصل واحد مدتها حوالى نصف ساعة ، وهى جزء من برنامج حافل حيث تقدم المدارس الابتدائية الأخرى مسرحيات مختلفة. وحضرت أمى وأبى هذا الحفل وكانا فى غاية السعادة لرؤية ابنهم النجم المسرحى الصاعد ، وخرجت بعد انتهاء العرض بلبسى المسرحى ومكياجى، وكان ذقنا مدببة، للسلام على عائلتى. ولم نكن ندفع شيئا فى هذا النشاط المسرحى ولم يقل أحد أن ذلك سوف يعطلنا عن التعليم أو التفوق. ولعل هذا التاريخ الشخصى القديم مع المسرح هو السبب فى شغفى طوال حياتى بالمسرح وكما سوف يأتى ذكره لاحقا كنت زبونا مستديما للمسرح الجاد فى مصر فى الستينات ولازلت زبونا لبعض المسرحيات الجيدة.

وانضممت بعد ذلك لفريق الكشافة، وكان المشرف عليه مدرس اسمه يعقوب أفندى وكان قصيرا قليل الجسم، وكان له نشاط كبير وكنا نقيم معسكرا فى الفناء فى

يوم الجمعة. وتعلمنا من الكشافة الكثير وكانت حفلات السمر شيئا ممتعا وكنت في غاية السعادة لملابس الكشافة والشرائط والمنديل والصفارة المصاحبة له ، وأذكر أننا دفعنا رسما قدره خمسون قرشا نظير الاشتراك في الكشافة وبالطبع تسلمنا اللبس وقمنا بجميع الأنشطة مجانا بعد ذلك.

وكان لي زميل في الكشافة اسمه حليم متولي وكانت أمه فرنسية وهو الوحيد في المدرسة كلها الذي كان له شنطة مدرسية محمولة على الأكتاف خلف الظهر، وكانت أمه تنتظره على باب المدرسة عند انتهاء اليوم الدراسي ، وكانت امرأة فارعة الطول شقراء وشديدة البياض، وكان مظهرها مثيراً لانتباه التلاميذ الذين ربما لم يشاهدوا سيدة شقراء أجنبية في حياتهم من قبل، فلم يكن هناك تلفزيون وربما لم يذهب معظمهم للسينما قط حتى هذه السن ، فكانت التعليقات الهادئة والاستفسارات المستمرة تسبب بعض الضيق لزميلنا حليم ، ولكنه كان هادئ الطباع وبمرور الوقت تعود عليها التلاميذ وأصبحوا يتكلمون معها ويداعبونها بتقليد لكنتها حين تنطق العربية.

وتعتبر النشاطات المدرسية الثقافية والرياضية والفنية هي البوتقة التي تنمي مواهب التلميذ الصغير وتصقله بل وتساعده على أكتشاف قدراته واهتماماته ، والجميع يذكر اساتذه اجلاء في المدارس المصرية في النصف الأول من القرن العشرين قادوا جيلاً كاملاً في ثورة نحو التقدم ، كلنا يذكر الأستاذ حسين أمين مدرس الرسم بالمدارس الثانوية والذي اجتمع حوله طلبة محبون للفنون دخلوا كليات و معاهد الفنون الجميلة وبعد ذلك واستمروا مع استاذهم يقودون حملة التطور في الفن التشكيلي وأذكر منهم حامد ندا، وحامد عبدالله والجزار والسجيني وغيرهم كثيرين.

وكان هناك مدرسي التربية الرياضية الذي أخرجوا اجيالاً من الرياضيين المصريين الذين حققوا بطولات لمصر بعد ذلك ، وكان انهيار الرياضة البدنية بالمدارس المصرية وانقراض الملاعب من المدارس اعلانا بنهاية التفوق الرياضي لمصر.

وكان مدرسو اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا يقودون جمعيات للطلاب أخرجت اعداداً من الشعراء والأدباء والمفكرين الذين اصبحوا اعلاماً بفضل هؤلاء المدرسين.

أين نحن الآن ؟! لا يوجد المدرس القدوة فالكل مشغول باعطاء الدروس الخصوصية والتلاميذ بأخذ الدروس الخصوصية ، ولا أرى أن مستوى الخريجين قد ارتفع أو أن أعداد الموهبين قد زادت ، كل ما فى الأمر أن المجاميع قد ارتفعت فى الثانوية العامة وتقديرات التخرج قد ارتفعت فى الجامعات ، ولكن المستوى العلمى لم يرتفع ومستوى الثقافة العامة قد أنهار.

وفى أحد الأيام وقف الناظر ببدلته البنية الداكنة ذات الخطوط ونظارته السميكة ممسكا بعصا فى يده اليمنى فى طابور الصباح ليعلن أنه تم إنشاء بوليس اسمه البوليس المدرسى كجزء من خطة اتفق عليها بين وزارة الداخلية ووزارة المعارف ، واختير للبوليس المدرسى نواة هى فريق الكشافة، وكنا فى غاية السعادة لذلك، ولم نعرف بالضبط ما هو المطلوب من البوليس المدرسى وهل سوف تكون لنا ملابس مميزة وسوف نضع بعض الأشرطة والنجوم على أكتافنا .وبعد أسبوع عقد اجتماع لنا بالحوش ووقف مدرس الألعاب ليعلن أن الوظيفة الأولى للبوليس هى تنظيم المرور وسوف يبدأ الأسبوع التالى، وتم توزيع حلقة من القماش الأبيض مكتوب عليها بالأحمر بوليس مدرسى، وتم الاتفاق مع البوليس المرابط فى شارع السلطان حسين (الشيخ ريحان حاليا) أمام المدرسة على أن يقف تلميذ صباحا وتلميذ بعد الظهر عند دخول وخروج المدرسة مع عسكرى المرور حتى يمكن أن يعبر التلاميذ الشارع بأمان. انتهت أعمال البوليس المدرسى بعد أسبوعين بدون الاعلان عن ذلك ، وهو أمر مازال يتكرر حتى اليوم حيث يعلن عن تنظيم وقواعد جديدة ينشأ لها وظائف معينة ، وفجأة تختفى الوظائف والقواعد بهدوء شديد مخالفة للضجة والدعاية التى صاحبت إنشائها.

إن قيادات العمل الحكومي المصرى من زمن بعيد على مختلف المستويات ابتداء من رئيس الوزراء حتى ناظر المدرسة تستبد به الرغبة دائماً فى طرح بعض الأفكار التى تغلب عليها المظهريه، بغض النظر عن المحتوى أو الفائدة المرجوة، وما إذا كان لهذه الفكرة أو تلك القدرة على البقاء والإنتاج لشيئ نافع ومفيد من عدمه!، وهناك الآلاف من المشروعات ومشروع البوليس المدرسى مثال هين لذلك ـ والتى كلفت الدولة أموالاً طائلة، بأفكار لم يكن لها وجود إلا على شاشات التليفزيون وصفحات الجرائد والمجلات، ثم سرعان ما طواها النسيان حتى عند أصحابها! وهناك عدد كبير من المشروعات التى وضع حجر أساس لها عدة مرات وفى مكان واحد، ولكنها بقيت مجرد حجر أساس دون أن تعرف طريقها إلى تجاوز مرحلة الحجر، فهل تذكرون مثلا ـ مشروع جامعة التكنولوجيا المتقدمة، والذى بزغت فكرته تحت اشراف د. أحمد زويل، وكالعادة وضع حجر الأساس فى احتفال فخيم، وكتبت الصحف وصورت البرامج التليفزيونية عن تكنولوجا المستقبل، ثم كالعادة.. اختفى المشروع وكأنه لم يكن ، واصبح الكلام عنه ثقيل الظل إذ قد يسبب احراجاً لوزارة البحث العلمى المهتمة بمنح جوائز لبعض العلماء الحقيقيين احياناً!، والعلماء السياسيين فى معظم الأحيان!

وعموما كانت مدرسة الغربية جميلة قضيت فيها أعواما سعيدة وزاملت وجاورت تلاميذ من باب اللوق وعابدين ومنطقة وسط البلد ، وكان التلاميذ خليط من أبناء الطبقة الوسطى والطبقة الفقيرة من سكان هذه المنطقة ، فكان الاحتكاك الأول لى على الطبيعة مع الشعب المصرى الحقيقى. وفى النهاية حصلت على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية بمجموع قدره سبعون فى المائة، وكان يعتبر مجموعا جيدا فى ذلك الوقت وكانت هذه هى السنة الأخيرة للشهادة الابتدائية القديمة قبل إلغائها، وأصبح على أن أبحث عن مدرسة أخرى لأستكمل تعليمى.

وقد كان للشهادة الابتدائية شأن كبير فى بداية القرن ولكن بحلول منتصفه أصبحت شهادة لايمكن أن تجد بها وظيفة وأصبحت مؤهلا لتعليم أعلى. وبدأ التفكير أين أذهب وإلى أى مدرسة أتوجه وكانت فكرة مدرسة فيكتوريا لاتزال تجد بعض الصدى والتفكير عند أبى ولكنه وعى الدرس جيدا وأصبح يعرف أن هذه النوعية من المدارس ليست لأمثالنا ولكنه مع ذلك أخذ يتعلق بأمل ادخال ابنه إلى مدرسة متميزة لعلها تعطى الابن دفعة قوية نحو مستقبل أفضل.

فى مدرسة أولاد الذوات

وبعد البحث والتنقيب عثر أبى على مدرسة اسمها الناصرية، وكانت المدرسة الوحيدة التابعة لوزارة المعارف ويدفع لها رسوم بعد قرار مجانية التعليم، ولم تكن الرسوم كبيرة ولكنها كانت حائلا دون دخول أبناء عامة الشعب هذه المدرسة، والحقيقة أن هذه المدرسة كما علمت بعد التحاقى بها كانت دائما المدرسة التى يدخل فيها أبناء الباشاوات وكبار الملاك والأعيان ، والذين كانت ثقافتهم وتربيتهم لا ترحب بدخول أولادهم فى المدارس الأجنبية بالرغم من أنهم كانوا قادرين على الالتحاق بها من الناحية المادية.

وكان معظم تلاميذ المدرسة من أبناء العائلات ذات الاسم الرنان ، والتحق بها أبناء الوزراء وكبار التجار ، وكان بالمدرسة قسم داخلى يقيم فيه قليل من الطلبة المصريين الذين أتوا من محافظات بعيدة أما معظم المقيمين به فكانوا من البلاد العربية ، وكانت وزارة المعارف تهتم اهتماما كبيرا بهذه المدرسة ، وكان ناظر المدرسة لابد وأن يكون حاملا لرتبة البكويه ، وكان يختار بعناية شديدة من الوزارة وفى العادة يكون أحد كبار موظفيها. وكان مدرسوا المدرسة يختارون بعناية فائقة أيضا من أحسن مدرسى الوزارة، وكانت المدرسة تقع فى وسط المدينة وهى قصر قديم تحول إلى مدرسة ولها باب على شارع شمبليون وباب آخر على شارع جانبى

متفرع من شارع الأنتكخانة وباب ثالث يؤدى إلى شارع صغير يوصل إلى شارع سليمان باشا (طلعت حرب حاليا) . ولم ألحظ وأنا تلميذ بهذه المدرسة أنها تحتل قصرا قديما يعتبر تحفة فنية فى المعمار. وخلال العشرين عاما الماضية مررت على المدرسة وطفت حولها عدة مرات واستوقفنى جمال النقوش التى مازالت موجودة على الحوائط وبالرغم من أننى تركت هذه المدرسة من قرابة خمسين عاما وكانت فى ذلك الوقت مدرسة عريقة فأعجب أيما إعجاب بهذا القصر الذى تحمل كل هذه السنين من ضغط التلاميذ والإهمال فى الصيانة ، ومع ذلك احتفظ ببعض من رونقه !، وبالطبع أنشئت مبانى وإضافات عشوائية لا تخضع لأى ذوق ولا فن يتمشى مع المبنى الأصلى فى كل مكان فيه ، وأصبح المكان كما يقولون سمك لبن تمر هندى!.

دخلت هذه المدرسة العريقة ومكثت بها عامين من ١٩٥١ حتى ١٩٥٣، وكان دخولى هذه المدرسة بمثابة صدمة لى عندما التحقت وعاشرت هذا المجتمع عن قرب وملأنى الإحساس بالغربة ، وكنت أذهب للمنزل وأعود بسيارة المدرسة، وفى هذا الوقت ربما كانت هى المدرسة الحكومية الوحيدة التى تملك سيارات لتوصيل الطلبة للمنازل، وكانت السيارات تصطف خارج الباب الخلفى فى شارع شمبليون ، وخصصت سيارة للطلبة من سكان كل منطقة ، وكانت السيارات تنقل حوالى ربع تلاميذ المدرسة ، أما الباقون فكانوا يتسخدمون سيارات العائلة الفاخرة والتى يقودها فى الأغلب سائق نوبى يلبس طربوشا ويرتدى بالطو وكان هذا فى زمن كان فيه عدد السيارات فى القاهرة محدودا للغاية وهكذا انقسم الطلاب طبقياً إلى راكبى الأوتوبيس وهم أولاد الموظفين وراكبى السيارات وهم أبناء كبار الملاك. ولم يكن بالمدرسة أحداً من أولاد الفقراء، وبالرغم من محاولة الناظر المستميتة لحفظ النظام والتدريب على الطاعة فى المدرسة إلا أن هذا لم يتم إلا مظهريا فقط ومقارنة بمدرسة الغربية الابتدائية كان الفصل فى الناصرية يعج بالفوضى والكلام والتحدث والتهريج شيئا

عاديا يحدث باستمرار، ولم يكن باستطاعة المدرس كبح جماح التلاميذ لأسباب عديدة أولها أنه كان هناك عدد من التلاميذ من عائلات البداروى وسراج الدين وأبو الفتوح والشوريجي والعبد.... إلى آخره من عائلات كانت تتحكم فى أقدار البلد ، وكان المدرس يعلم جيدا أن أى عقوبة أو احتكاك مع أحد التلاميذ من هذه العائلات كان سينتهى بتدخل أولياء الأمور ذوى النفوذ الكبير. وقد علمت قبل امتحان الشهادة الاعدادية بأسابيع قليلة بأن معظم التلاميذ كانوا يأخذون دروساً خصوصية عند مدرسى الفصل وبالتالى كان المدرس لا يستطيع أن يعاقبهم أو حتى يحذرهم. وبعض هؤلاء التلاميذ كانوا يتمادون فى التهريج وإثارة الفوضى حتى وصل الأمر لنعت المدرس بألفاظ نابية وكانت العقوبات التى توقع عليهم طفيفة. ومعظم التلاميذ كان مستواهم العلمى سيئ وظهر هذا بوضوح فى نتائج امتحان الاعدادية الذى عقد لأول مرة فى عام ١٩٥٣ ، وكانت نتيجة المدرسة غاية فى السوء ورسب كثير من التلاميذ. وأذكر واقعة يوم امتحان الإعدادية فى مادة الرياضة وكان الامتحان يعقد في مدرسة محمد على حيث أنها شهادة عامة ، وفوجئت بحضور مدرس الرياضة في الصباح الباكر فى حوش المدرسة التى يقام بها الامتحان وجمع التلاميذ حوله وأخذ يرسم على الأرض الرملية للحوش بطرف المسطرة بعض رسوم هندسية ويقوم بحل بعض المسائل ، ولما اقتربت من زملائى أشار لى أن أبتعد ، وعرفت أنه كان يشرح للتلاميذ الذين يعطيهم الدرس الخصوصى، وهم كل الفصل باستثناء اثنين أنا أحدهما، يشرح لهم الامتحان الذى سوف يبدأ بعد ساعة والذى ادعى أو اعتقد انه حصل عليه بطريقه ما ، وحزنت جدا لأننى الوحيد الذى لم يستمع للشرح، غير أن المدرس خاب أمله، فما تصوره على أنه الامتحان كان خدعة وإشاعة وكان الامتحان شيئا مختلفا تماما وبالطبع كانت النتيجة هى حصولى على درجات أعلى بكثير من بقية الفصل الذى رسب الكثير منه. ومر على خاطرئ فى ذلك الوقت ما حدث مرتين من هذا المدرس فى الفصل حيث كان يكتب الامتحان النصف شهرى على

السبورة ويعطى مهلة قصيرة لمدة ١٥ دقيقة فى أول الحصة للإجابة ثم يقوم بجمع أوراق الإجابة ولم يكن الوقت يكفى وكانت دائما أعصابى متوترة وخوفى شديد لأننى دائما أحصل على درجات ضعيفة فى هذا الامتحان بينما يأخذ بقية الطلاب أعلى الدرجة وكان والدى شديد التأثر حين يصله التقرير الشهرى ويعرف أننى ضعيف للغاية فى هذه المادة، وكنت ألاحظ أننى أعرف أكثر من أقرانى ولم يتبادر إلى ذهنى أن كل الفصل كان يعلم الإجابة مسبقا من المدرس. وفى النهاية اتصل أبى بخالى للاستعانة به فى حل مشكلة ضعفى فى مادة الرياضيات ،وطلب خالى من مدرس أول الرياضيات فى مدرسته مساعدتى وبعد مقابلة واحدة أفاد بأن مستواى ممتاز وأننى لا أحتاج لأى درس خاص ولا داعى للقلق من الامتحانات الشهرية والمهم امتحان الشهادة الإعدادية.

وهكذا كان فساد بعض النفوس والذى كان المال دائما وسوف يظل هو السبب الأساسى له. فهذا المدرس كان يعطى دروسا خاصة لكل التلاميذ إلا واحدا أو إثنين ولم يكن سعيدا بذلك ، وإنما صمم على أن يعطى هذا التلميذ المتبقى درسا خاصاً وحتى ولو أدى الأمر إلى تحطيمه نفسيا.

وكانت للألعاب الرياضية اهتمام كبير من إدارة المدرسة لتشجيع فرقنا الرياضية. ولما كان حوش المدرسة غير كبير ولا توجد به ملاعب فكنا دائما نلعب فى ملاعب أخرى خارج المدرسة، وكان اهتمام المدرسة الأكبر برياضة أو شبه رياضة كانت تسمى القسم المخصوص وفيها يتدرب مجموعة من الطلاب على المشى وعلى حركات استعراضية منظمة ويحمل كل تلميذ فيها أعلاما ملونة، وكانت هذه الاستعراضات مشابهة إلى حد كبير للمهرجانات التى كانت تقام فى أوروبا الشرقية حيث تدخل وتخرج المجموعات على أنغام الموسيقى فى تناسق بين الألوان والحركات ، وكانت إدارة المدرسة تعتبر القسم المخصوص هو أهم فريق رياضى

بالمدرسة وكانت التدريبات تبدأ من أول العام ويتم اختيار المشاركون بدقة شديدة وكانت المسابقة النهائية تقام بين المدارس على ملاعب نادى المعلمين بالجزيرة بجوار النادى الأهلى، حيث المنافسة شديدة والمدرسة كلها تذهب للتشجيع، والمحكمون يعطون درجات على كل حركة ، وكانت مدرسة الناصرية تفوز بالكأس كل عام فهل كان هذا الفوز حصيلة المجهود والتدريب أم بنفوذ المدرسة للحصول على درجات أعلى بالضغط على المحكمين؟ لا يعلم أحد الحقيقة وفى الأغلب أنها نتاج السببين. وفى هذا الوقت كنت أعتقد أن القسم المخصوص هو رياضة هامة ولكننى اكتشفت بعد ذلك أنها رياضة لا وجود لها فى عالم الرياضة ولا مسابقات لها فى أى مكان ولا تمارس إلا فى أوروبا الشرقية كجزء من مهرجانات الحزب والدولة ولا أدرى متى دخلت هذه الرياضة مصر وأصبحت جزء هاما من الرياضة المدرسية ولا أدرى أيضا متى اختفت تماما ولم نعد نسمع عنها أبدا حتى فى عصر الثورة الذى كان شديد الاهتمام بالمهرجانات . أما المسابقات والألعاب الأخرى فكانت فرقنا الرياضية ضعيفة ولا يمكنها الفوز بأى شئ.

وفى أول عام لى فى المدرسة كنت أجلس على تختة فى أول صف وكان يجلس بجوارى طالب عراقى اسمه معد محمود سلمان ، وكان فى نفس سنى وأصبحنا أصدقاء نتحدث فى الفسحة فى كل شئ ونتبادل الكراسات وكان يركب معى نفس الأوتوبيس لأنه كان يسكن فى جاردن سيتى ، وكان وسيما أنيقا ويلبس زى المدرسة المكوى بعناية ويحمل شنطة من الجلد الأنيق ، وكنت أحكى إلى معد كثيراً عن عائلتى ، وماذا يحدث بيننا وأين يعمل أبى ودعوته مرات لزيارتى فى المنزل ولكنه رفض أن يأتى وأخبرنى أن أمه ترفض أن يزور ابنها أحداً. ولم يكن يحكى لى شيئا عن أهله ولماذا حضر للتعليم فى القاهرة والشئ الوحيد الذى لاحظته آنذاك أنه كان دائما يذكر أمه ولم أسمعه يذكر أباه مرة واحدة. وكان معد واضح الثراء وأول من قام

بإعطاء دروس أولية لي عن الدين المسيحي والثالوث المقدس ، ولا أتذكر على وجه الدقة السبب في هذا الدرس والذي احتوى على كثير من الأخطاء الفادحة اكتشفتها بعد ذلك بسنوات عديدة، وان ظلت عالقة بذهني كل كلمة قالها في هذه الفترة.

وفي العام الثاني لنا في الفصل سمعت بالصدفة من أحد الطلاب أن والد معد قد أعدم في العراق ، وربما كانت هذه أول مرة أعرف فيها بوضوح كلمة الإعدام وكان عمري إثني عشر عاما، وفي الفسحة الكبيرة صارحت معد بما سمعت صباحا فأخذني على جانب وجلسنا على دكة خشبية لمدة ساعة وهو يحكي لي بالتفصيل ماذا حدث لعائلته وكأنما وخزته بدبوس فانطلق لسانه وظل يحكي ويشرح وأنا منصت إليه في ذهول. بالطبع لا أتذكر التفاصيل الدقيقة لحديثه ولكن والده كان اليد اليمنى لرشيد عالي الكيلاني الذي قام بثورة في العراق في عام ١٩٤١ تأييدا لألمانيا ضد الإنجليز الذين كانوا يحتلون العراق في ذلك الوقت ، وبالطبع سارع الإنجليز وهم في وقت شديد الحرج بسبب الهزائم المتتالية للحلفاء في ذلك الحين بتطويق الثورة والقبض على زعمائها ومحاكمتهم عسكريا وإعدامهم وكان بين من أعدموا محمود سلمان والد معد. وبعد ذلك هاجرت الأسرة المكونة من الأم وطفل واحد هو معد إلى القاهرة حيث عاشت في جاردن سيتي لا أعلم في فيلا أم في شقة ولا أعلم من أين كانت تأتي موارد الأسرة المالية ، ولا أعتقد أن الحكومة المصرية في ذلك الحين كانت تساعد الثوار وتوفر لهم المأوى والحياة المريحة. وربما كان موقف رشيد عالي الكيلاني وأعوانه مشابها لموقف بعض أعوان عزيز المصري من العسكريين والسياسيين المصريين في ذلك الوقت الذين كانوا متعاطفين مع المحور ليس حبا في الألمان وانما كرها في الإنجليز، ولكن هذا البعض لم يقم بثورة ولم يستول على الحكم وانما قام ببعض المساعدات البسيطة للمحور التي عوقبوا عليها بالسجن أو تحديد الإقامة فترات مختلفة.

واستمرت علاقتى الوثيقة مع معد حتى بعد انتهاء المرحلة الاعدادية، حيث تفرقنا وكل ذهب إلى مدرسة أخرى. واستمرت العلاقة حوالى عامين إلى أن اختفى معد فجأة ولم يعد تليفونه يرد وسألت فلم أجد إجابة شافية، وقيل أن العائلة عادت لبغداد فى منتصف الخمسينات. ونسيت معد، وكنت فقط أذكره كلما قرأت خبرا أو حدثاً عن العراق ولم أعرف ماذا حدث له إلا فى سنة ١٩٧٨ ، وكنت فى بعثة دراسية لمدة ثلاثة شهور فى جامعة جورج واشنطن فى ولاية ميزورى لدراسة مناظير البطن فى علم أمراض النساء، وكان هذا العلم فى أول بداياته، وكنا إثنى عشر طبيبا منهم إثنان مصريان وطبيبتان عراقيتان وطبيبا من أمريكا الجنوبية والباقى من الولايات المتحدة. وفى الشهر الثانى وأثناء حفل عشاء لمجموعة الدارسين جاء مجلسى بجوار إحدى الطبيبات العراقيات وتحدثنا كثيرا وأردت أن أذكر شيئا خاصا عن العراق فأخبرتها بأن زميلى فى الفصل لمدة عامين أثناء الدراسة الإعدادية فى أوائل الخمسينات كان عراقيا يسمى معد محمود سلمان فما كان منها إلا أن قالت معد هو زوجى وهو يعمل أستاذا للجراحة فى جامعة بغداد وعلمت أنه عاد للعراق فى عام ١٩٥٥ ودرس الطب هناك وذهب لانجلترا للدراسات العليا وحصل على الزمالة هناك وعاد ليعمل فى جامعة بغداد. وتحدثنا سويا عن ذكرياتى القديمة وأعطيتها عنوانى، ولكنه لم يرسل لى خطابا. وفى نوفمبر ١٩٩٩ عقد مؤتمر جمعية الشرق الأوسط للخصوبة فى شرم الشيخ وحضر المؤتمر وفد عراقى من اثنى عشر طبيبا بدعوة من احدى شركات الأدوية المصرية وبعد انتهاء المؤتمر قاموا بزيارة علمية للمركز المصرى لأطفال الأنابيب ، وبعد أن رافقتهم فى الزيارة جلسنا لتناول الشاى وعرفت منهم أن زوجة وزير الصحة العراقى وهى طبيبة أمراض نساء ضمن الوفد وبالطبع أحسست أثناء النقاش بالاحترام المبالغ فيه الذى يبديه كل الأعضاء لها وتطرق الحديث إلى رغبتهم فى إرسال بعض الأطباء للتدريب عندنا بسبب الظروف الصعبة التى يمر بها العراق بسبب الحصار. وبعد ذلك سألتهم عن معد فعلمت أنه توفى فى نفس العام،

وأصابنى بعض القلق عن سبب وفاته حيث أن هناك طرقاً أخرى كثيرة للموت فى العراق غير الوفاة الطبيعية، فسألتهم بصراحة هل مات موتا طبيعيا أم حدث شيء آخر ، فتجهم الجميع ، إلا أن واحدة شاهدتها تخفى ابتسامتها، وقال كبيرهم إنه أصيب بذبحة صدرية ومات. وهكذا كانت نهاية زميل التختة فى الدراسة الإعدادية، والذى شاءت الأقدار أن أزامله عامين بسبب هجرة إجبارية للقاهرة ولم أره منذ ذلك الحين، ولكننى مازلت محتفظاً بصور لنا بالمدرسة إحداها صورة صغيرة له ، كتب على ظهرها للصديق العزيز محمد أبو الغار الذى سوف أظل مخلصا له طوال العمر. وهكذا دائما مشاعر وأحلام الطفولة البريئة التى لا تعى الواقع والحقيقة. فألف رحمة عليك يا معد.

فى خلال الإجازة الصيفية بعد أول عام دراسى لى فى مدرسة الناصرية، قامت ثورة ٢٣ يوليو. وعندما بدأت الدراسة فى أكتوبر من نفس العام كانت الثورة قد أصدرت عدة قوانين منها إلغاء الألقاب، ففقد معظم آباء تلاميذ الفصل رتبة الباشاوية والبكوية التى كانوا يحملونها، وصدر قانون تحديد الملكية. وكان معظم التلاميذ يأتون من عائلات تملك أراضى شاسعة وقد طبق عليهم القانون بالفعل وفقدوا أراضيهم ، ومازالت أذكر يوم أن طلب منا مدرس اللغة العربية أن نكتب موضوع إنشاء شفوى عن مزايا قانون تحديد الملكية ، وبالتأكيد كان ذلك بتوجيه من رجال الثورة إلى جميع مدارس مصر. وكانت الصحف والإذاعة تتحدث كل يوم عن مزايا القانون وأهمية القضاء على الإقطاع وعلى عبودية الفلاح، واحتفل بتسليم الفلاحين أوراق تمليك الأرض وقام عبد الناصر بتوزيعها عليهم ونشرت الصور فى الصحف. وكانت المفاجأة الكبرى لمدرس الفصل الذى أسقط فى يده حين أعد كل تلميذ موضوعه.وقام بقراءته فى الفصل ، ففوجئ المدرس بأن مواضيع الإنشاء تهاجم قانون تحديد الملكية هجوماً شديدا. ويبدو أن الآباء هم الذين قاموا بكتابة موضوع الإنشاء ،لأنهم تحدثوا

عن تفتيت الملكية واقتصاديات الزراعة للمساحات الكبيرة ، وهى أشياء لا أعتقد أن أبناءهم كانوا يتفهمونها. وكان عدد التلاميذ الذين كتبوا عن مزايا القانون يعدون على الأصابع وكنت أنا أحدهم. ولم يكن السبب أننا لا نملك أرضا زراعية ولا إقطاعيات ، وإنما كان تأثرى الشديد بما كان يكتب عن مزايا القانون فى الصحف ، والتى كنت أواظب على قراءتها فى تلك السن المبكرة. وكانت التحقيقات الصحفية التى تنشر عن الإقطاعيين وتعذيبهم للفلاحين والظلم الذى عانوه مؤثرة للغاية على فتى تعدى الاثنى عشر عاما ببضعة شهور.

وكانت المناقشات فى الفصل والتى استمرت حصتين للإنشاء الشفوى حامية الوطيس وكان المدرس منحازا للقانون وللأقلية من التلاميذ المؤيدين له. هل كان ذلك عن اقتناع أم خوفا من بطش السلطة الجديدة والتى قامت بإعدام خميس والبقرى بسبب إضرابات عمالية، وأظهرت العين الحمراء لمن لا يسمع الكلام وقبضت على المالك الكبير عدلى لملوم فى المنيا عندما عارض قانون تحديد الملكية ورفض تطبيقه على أرضه؟ وكانت تلك الحصة أول درس سياسى حقيقى لى فى الحياة ، فالبعض كان يدافع عن مصالحه ومصالح طبقته ، والبعض مثلى كان متأثرا بالدعاية الحكومية واتخذ موقفا دون أن يدرس القضية، وأخذ ما كتب فى الصحف على أنه حقيقة مسلم بها.

أما الوجه الثالث ممثلا فى المدرس الذى لا يريد أن يغضب تلاميذه الذين يعطيهم دروسا خصوصية وفى نفس الوقت لا يريد أن يغضب الحكومة الجديدة التى أظهرت أن لها مخالب فيقف موقفا غامضا. أما رأيه الحقيقى وهو الإنسان الناضج الواعى فلا يعبر عنه!، وهكذا أمضيت عامين فى هذه المدرسة النموذجية ولم أشعر فى أية لحظة أننى أنتمى لأى شىء فيها، وكنت دائما أحس بأن ما يجرى حولى وما أسمعه وأشاهده هو شىء لا يحدث فى مصر التى أعرفها وإنما يحدث فى مصر أخرى،

فحين أسمع أن الحديث كله عن أنواع السيارات الأمريكية الجديدة وعن صيد البط من تلاميذ فى الثالثة عشرة من عمرهم، وعندما تقول إنك لا تعلم شيئا عن أنواع البنادق الألمانية للصيد وأنك لا تجيد ركوب الخيل ينظر إليك كأنك قادم من كوكب آخر، وأنت التلميذ الذى يعيش فى مستوى أعلى بكثير من ملايين الفقراء من هذا الشعب المطحون. وهذه أولى الدروس التى تعلمتها ووعيتها جيدا وجعلتنى أفكر فى فقراء مصر ومعدميها وكيف يعيشون.

وأحاول الآن أن أتذكر صديقا واحدا فى تلك المدرسة فلا أذكر إلا معد العراقى. أما بقية الفصل فلم أكون صداقة واحدة فيه، وأتذكر أسماء الكثيرين منه، وأصادف البعض منهم بعد عشرات السنين ومعظمهم قد أضير ضررا بالغا فى الحقبة الناصرية وكثيراً منهم عادوا بقوة كرجال أعمال من نوع جديد فى الحقبة الساداتية.

وحين تركت المدرسة بعد نجاحى فى الشهادة الإعدادية لم أشعر بأى حزن أو تأثر على ذلك، وطلبت من أبى ألا أذهب إلى مدرسة قصر الدوبارة الثانوية وهى المدرسة التى تستقبل خريجى مدرسة الناصرية، فوافق أبى على طلبى ودخلت مدرسة الإبراهيمية الثانوية.

الوعى السياسى وبدايات عهد الثورة

أعتقد أن الوعى عندى بالوطن وبعض الأفكار السياسية بدأ يتكون مبكرا. ربما كانت تلك الفترة الحافلة بالأحداث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وإعلان حرب فلسطين وقيام دولة إسرائيل ثم تولى حكومة الوفد عام ١٩٥٠ التى أعطت قدرا من الحرية لم تشهده البلاد من قبل،وتوالت الحكومات بعد حريق القاهرة حتى قيام ثورة يوليو وكان ذلك حافزا للكثيرين من صغار السن على أن يهتموا بالسياسة، فأصبح الوعى السياسى مرتفعا للغاية، وبالرغم من أن والدى لم يكن منضما لحزب ولم يكن

نشيطا سياسيا ، إلا أنه كان شديد الاهتمام بما يحدث، فهو يقرأ ويحلل ويسمع وينقد، وكنت أستمع إليه منذ كنت فى العاشرة من عمرى وأقرأ معه الصحف ، فقد كان مداوما على قراءة عدة جرائد ومجلات كل يوم. وكان لوالدى ميول وفدية ، إلا أنه كان يكن الاحترام الشديد والتقدير لكثير من زعماء الأقلية ، والذين كتب التاريخ عنهم بأنهم انحازوا ضد الشعب وضد الديمقراطية. فكان يعتقد أن اسماعيل صدقى مثلا من أحسن الإداريين فى الحكومة المصرية ، وقد أنشأ مشروعات وبنوكا كان لها الفضل فى نمو وتحديث الاقتصاد المصرى ،لكنه كان دائما يقول: بس لو ما كانش بيزور الانتخابات ويلغى الدستور. وهكذا كانت معلوماتى السياسية العامة ـ وانا لم أبلغ الثالثة عشرة من عمرى ـ تفوق كثيرا من أقرانى.

وبالرغم من أن والدى كان يحافظ على الصلاة والصوم، إلا أنه لم يكن يتكلم فى الدين إلا نادرا ولم أره فى أى وقت يحاول أن يفسر موقفا أو رأيا على أساس دينى، وكان دائما لا يثق فى رجال الدين ويعتبر أن معظمهم ذوو آراء رجعية، وكان دائما يقول: الدين المعاملة. فلم يكن أحد فى منزلنا يقرأ القرآن بصفة منتظمة ، وكان اليوم الوحيد الذى نقرأ فيه سورة يس هو ليلة النصف من شعبان، حيث تجلس العائلة كلها ثم نقرأ دعاء النصف شعبان ونصلى المغرب جماعة. وفى رمضان كان يصلى بالمنزل ولا يذهب للجامع إلا لأداء صلاة الجمعة. ولم يكن والدى يشرب الخمر أو يلعب الميسر. وأعتقد أننى تأثرت بآراء والدى والتى اكتشفت قيمتها وأهميتها مع ظهور التطرف الإسلامى.

وانتقلت هواية القراءة من الصحف إلى الكتب ، حيث كان والدى يصحبنى معه إلى روف كازينو أوبرا فى ميدان الأوبرا القديم فى الأجازة الصيفية ، حيث كانت تقام ندوة نجيب محفوظ الأسبوعية لسنوات طويلة ، وكان والدى يقابل مجموعة من الأصدقاء يتجاذبون أطراف الحديث ويدخنون الشيشة، وكنت أشرب زجاجة اسباتس،

وهى مياه غازية من ، الليمون وكان بها لذعة جميلة فى الطعم ، وكان صاحب مصانعها مصريا يونانيا ، وظلت حتى السبعينات هى المفضلة لدى ، ولكنها لم تصمد أمام الشركات العالمية بعد الانفتاح، وأتذكر أنها كانت توزع بواسطة عربات كارو يجرها حصان ،وكان مرسوم ، على غطاء الزجاجة نحلة ، وكان الناس يسمونها اسباتس الدبانة لأنهم ظنوا أن النحلة ذبابة. وكنت بعد أن أفرغ من شرب الزجاجة أستأذن من والدى ، وأعبر ميدان الأوبرا وأتجول فى سوق الأزبكية للكتب المستعملة إلى الصور أقلب في الكتب وأنظر ، في أعداد اللطائف المصورة وأعود لأبى طبعا دون أن أشترى شيئا فلم يكن معى قرش واحد. وكنت أحكى لأبى عما شاهدت ورأيت، وفى أحد الأيام وكان عمرى حوالى اثنى عشر عاما أخذت أقلب فى كتاب على سور الأزبكية فأعجبت بالحوار المكتوب ، وجذبنى بشدة ولم أجد صعوبة فى القراءة والفهم ، فأقفلت الكتاب ونظرت إلى العنوان فوجدته مسرح الحكيم لتوفيق الحكيم. وأثناء عودتنا طلبت من أبى أن أشترى الكتاب فوافق واشترينا الكتاب بخمسة قروش، وكان هذا يعتبر ثمنا متوسطا لأن كثيراً من الكتب كانت تباع بقرش صاغ واحد مثل روايات أرسين لوبين وأشياء أخرى كثيرة، وبالطبع كانت هناك كتباً قليلة أغلى ثمنا وقد يصل بعضها إلى جنيه كامل.

وعدت إلى المنزل وقضيت معظم الليل فى قراءة مسرح الحكيم ، وفى ظرف يومين كنت قد انتهيت من قراءة الكتاب ، وأعدت قراءته مرة أخرى فى الأسبوع التالى ، ووقعت فى حب توفيق الحكيم وأنا عمرى ثلاثة عشر عاما. وفى المرحلة التالية لسوق الأزبكية اشتريت يوميات نائب فى الأرياف، ولقد كان هذا الكتاب الرائع مدخلى إلى معرفة حقائق الريف المصرى وحقيقة ما يحدث من الشرطة والعمد والأعيان وكيف يحكم الريف المصرى وأى قانون يتحكم فيه، وكانت سهولة اللغة ووضوحها مع الطرافة الشديدة فى الحكى الدافع الجوهرى لحبى لتوفيق الحكيم ،

وكنت وأنا الفتى الصغير مذهولا بما يحدث فى مصر وحجم الظلم الذى يقع على البعض ، خاصة الفقراء منهم ، وإلى يومنا هذا لا يزال هذا الكتاب الجميل راقدا فى عقلى الباطن ، ومازالت أذكر منه كثيرا من التفاصيل الدقيقة وقد قرأته مرات ومرات على فترات متباعدة من حياتى.

وكنت أقضى وقتى فى إجازتى الصيفية فى مكتبة البلدية بشبين الكوم فى قراءة توفيق الحكيم، وفى نفس الإجازة الصيفية عندما كان عمرى ثلاثة عشر عاما عرفت طريقى إلى دار الكتب بميدان باب الخلق ،وكنت أركب الترام من باب اللوق إلى باب الخلق ، وكان ثمن التذكرة ثمانية مليمات ، وكنت تعطى الكمسارى قرش صاغ فيعطيك مشط كبريت باقى القرش ، حيث كانت الملاليم غير متوفرة ، وحدث أننى حاولت أن أدفع ثمن التذكرة بأربعة أمشاط كبريت ، لكن الكمسارى صمم على الرفض، ويبدو أنه كان يحقق بعض الربح القليل من جراء توزيع أمشاط الكبريت.

وحين دخلت دار الكتب المصرية فى باب الخلق لأول مرة عام ١٩٥٣ وصعدت على السلالم العريضة للمبنى العتيق والجميل معا أحسست برهبة شديدة وأنا أرى رجالا كبارا يدخلون أمامى ، وسألت عن قاعات المطالعة فأرشدونى إليها ، ودخلت وكانت قاعة كبيرة أرضها من الخشب ولها شبابيك عالية ومضاءة جيدا وتوجد بها طاولات طويلة للمطالعة وأمامها كراسي مريحة، وفى الأمام كان يجلس موظفان سألت أحدهما عن كتب توفيق الحكيم فأرشدنى إلى فهرست من الكروت موضوع فى أدراج خشبية مرتبة بحسب إسم المؤلف ، ولم أجد صعوبة فى التعرف على عناوين كتب الحكيم المتوفرة وطلبت أحدها وأحضرها الموظف لى بعد وقت قليل، وكنت أقرأ لمدة ساعتين أو ثلاثا ثم أتجول فى القاعة وأنظر إلى العناوين التى يطلع عليها الرواد وألقى نظرة سريعة على درج الكروت وأسماء المؤلفين وعناوين كتبهم. وأعاود القراءة مرة أخرى لمدة ساعة قبل أن أعيد الكتاب. إذا لم تخنى الذاكرة فإن رئيس دار الكتب

فى تلك الفترة كان توفيق الحكيم ، و أحمد رامى كان وكيلها. وسألت الموظف مرة عن الاستعارة الخارجية فسألنى عن سنى وأخبرنى أننى لا يمكن أن أستعير قبل أن أبلغ الثامنة عشرة من عمرى وأننى يجب أن أملأ استمارة بضامنين من موظفى الحكومة المصرية! ، وكانت قاعة القراءة دائما مليئة بالقراء بعضهم من الرجال الكبار المطربشين وبعضهم من الشباب فى العشرينات أو الثلاثينات من العمر والبعض فى سنى، وكان بعضهم يحضر للقراءة مرتديا البيجامة والشبشب ولم يمنعهم أو يقف فى طريقهم أحد. وربما أصبح بعضهم الآن من كبار الأدباء أو الشعراء. واستمرت علاقتى وثيقة بقاعة المطالعة فى دار الكتب حتى بلغت العشرين من عمرى ، وكنت طالبا فى السنة الرابعة فى كلية الطب ، حيث اكتفيت بالقراءة فى المنزل وانشغلت بعد حين بالمذاكرة.

فى عام ١٩٥٢ ـ وكنت ما أزال فى الناصرية الإعدادية ـ كانت البلاد تموج بالاضطرابات والمظاهرات ، لكن مدرستنا لم تكن تشعر بما يحدث فى المدارس الأخرى فلم تحدث فيها مظاهرة واحدة ، كان معظم الطلبة بالاضافة إلى صغر سنهم ليس لديهم الاهتمامات الوطنية والسياسية التى كانت تشغل بال شباب هذه الفترة.

وقد عجزت الحكومة عن وقف المظاهرات العارمة للطلبة فكان قرار إيقاف الدراسة لفترات قصيرة أمرا متكررا يحدث بين الحين والآخر ، وفى يوم ٢٣ يناير عام ١٩٥٢ سمعت أصواتا عالية فى الشارع ، وهرعت إلى البلكونة وشاهدت بعض المظاهرات فى الشارع وكان الوقت بعد الغروب فجلست فى البلكونة وفجأة لاحظت دخانا كثيفا يأتى من خلف محطة مترو باب اللوق ويرتفع إلى عنان السماء وحاولت النزول إلى الشارع لاستكشاف الأمر ، ولكن أمى رفضت أن أغادر المنزل وأخبرتنى أن أبى اتصل تليفونيا وأخبرها بأن القاهرة تحترق.

وجلست فى البلكونة أشاهد النيران وألسنة الدخان ترتفع إلى أعلى حتى أصبح وسط المدينة مغطى بسحابة ضخمة من الدخان ، ولما كنت قريبا للغاية من أماكن الحريق أحسست بضخامة ما يجرى ومكثت فى البلكونة حتى الصباح والقاهرة مشتعلة ، وعلمنا من الراديو بعد ذلك أن الحكومة استقالت وفرض حظر التجول على المدينة ، وبعد عدة أيام رفع حظر التجول لعدة ساعات بالنهار فخرجت من المنزل أمشى فى وسط المدينة ، وذهلت لهول ما رأيت ، فكل دور السينما والمسارح والمحلات الكبرى والصغرى والفنادق قد احترقت بالكامل. وكان على بعد عشرات الأمتار من منزلنا دار سينما صيفية تسمى ريو احترقت أيضا. وأصبت بذهول من حجم المأساة، وكنا نسمع إشاعات عمن أحرق القاهرة ، وقبض على البعض وحوكموا، ومع محاولتى فك هذا اللغز ومع محاولتى قراءة كل ما كتب عنه بعد ذلك لم أستطع ولا استطاع أحد المؤرخين أن يضع النقاط على الحروف ، فلكل مؤرخ تحليلاته التى لم يستطع إثباتها وتأكيدها، فمن قائل إنه أحمد حسين وجماعة مصر الفتاة المسماة بالحزب الاشتراكى آنذاك، ومن قائل إنهم بعض ضباط الجيش تمهيدا للثورة ، ومن قائل إنهم عملاء الإنجليز وهناك من أفاد أنهم عملاء الملك ليتخلص من الجميع، ومن اتهم جماعة الإخوان المسلمين، أو من اعتبرها من عمل الغوغاء والمهمشين. ويبدو أنها بدأت فى حدود ضيقة بمجموعة منتظمة ، لكن أفراد الشعب ساهموا فى انتشارها و خرجت الأمور من أيدى أى تنظيم لكن ما حدث كان دلالة على عدم وجود حكومة قادرة على الإمساك بالزمام، ويبدو أن الملك كان ضالعا فى الأمر ولو بشكل غير مباشر، وربما لم يكن يعتقد أن الأمر سوف يتطور بهذه السرعة وبهذه الصورة بحيث يفقد الزمام تماما، وأعلنت الأحكام العرفية وأغلقت المدارس وتوقفت الدراسة إلى أجل غير مسمى. وفتحت المدارس أبوابها بعد قليل ، لكن الأحوال لم تستقر وتغيرت الوزارات كل بضعة أسابيع أو حتى أيام ، وفى تلك الآونة كنت أقرأ واتابع ما يجرى على الساحة بدقة شديدة حتى مر العام الدراسى بمعجزة.

وجاء يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وكان عمرى اثنى عشر عاما وأعلن ما سمى فى وقتها بالحركة المباركة للجيش، وكان مبنى الإذاعة فى شارع الشريفين على الناصية المقابلة لبنك التسليف الزراعى، وصبيحة يوم ٢٣ يوليو حين وصل والدى لعمله بالبنك فى الثامنة صباحا وجد دبابة تقف أمام البنك ، وبالسؤال علم أنها لحراسة دار الإذاعة واتصل بنا بالمنزل ليخبرنا بأن هناك نوعا من القلق وأن الجيش قام بانقلاب سلمى وأنه يستحسن ألا يغادر أحد البيت. وكنا فى الإجازة الصيفية فمكثنا نستمع إلى الراديو تارة ونقرأ تارة أخرى. ومرت الأيام الثلاثة الأولى حتى أعلن فى ٢٦ يوليو أن الملك تنازل عن العرش لولى عهده وأنه غادر البلاد على اليخت المحروسة، وحين سمعت ذلك فى الراديو ـ وكان ذلك مساء ٢٦ يوليو ـ وقفت فى البلكونة أهتف وحدى : يسقط الملك فاروق، وكان قد سقط بالفعل. وكان من عادتنا كل عام أن نذهب إلى الإسكندرية لقضاء شهر هناك ، وكانت البداية فى نهاية الأربعينات ، حيث كنا نستأجر حجرة واحدة كبيرة فى بنسيون أمام البحر. وفى العام التالى استأجرنا شقة مفروشة قريبة من البحر ، واستمر ذلك كل عام ، وكنا نذهب جميعا أمى وأبى وأنا وإخوتى، وفى عام ١٩٥٢ كان ميعاد السفر يوم ١٥ أغسطس، وفعلا سافرنا بالأتوبيس ، وكان يقوم من ميدان التحرير فى القاهرة إلى موقعه أمام فندق سيسيل فى محطة الرمل بالإسكندرية. وأذكر أننى قرأت فى هذا الأوتوبيس ـ ولا أذكر فى رحلة الذهاب أم العودة ـ كتاب فاروق ملكا من تأليف أحمد بهاء الدين، واشتريته بعشرة قروش من بائع الصحف أمام الأتوبيس، كنت مندهشا للسرعة الهائلة التى أنجز بها الكاتب فى جمع المعلومات وتبوبيها وكتابتها وطبعها وتوزيعها فى أقل من شهر بعد خلع فاروق عن عرشه. وكان هذا الكتاب بداية إعجابى ببهاء الكاتب السياسى المحترم والمتزن والذى لمع كواحد من أفضل الكتاب السياسيين فى صحافتنا ، بالإضافة إلى كتبه المهمة التى تعد مدرسة للمعرفة السياسية والثقافية.

وكانت الإجازة فى الإسكندرية نقضيها على الشاطئ حيث نذهب مبكرا نحمل الشمسية والكراسى وندقها فى الرمل ونجلس تحتها أو ننزل إلى البحر للسباحة ، وكان أبى يذهب صباحا إلى مقهى التريانون فى محطة الرمل ونتقابل فى الشقة فى الظهر. وفى المساء نخرج لنمشى على الكورنيش ونشترى الذرة المشوى والترمس، ويذهب والدى للقاء أصدقائه بالقهوة التجارية فى وسط المدينة. وهكذا استمرت الحياة الاجتماعية لعائلتى فى القاهرة وفى الإسكندرية امتدادا للحياة فى المنيا، فكان والدى يقابل أصدقاءه ويخرج منفردا ، وحين كانت الحياة فى المنيا مختلطة بين النساء والرجال كان والدى يخرج وحده أيضا إلا أن الحياة فى القاهرة والإسكندرية كانت للرجال فقط ، فكان يقابل أصدقاءه من الرجال فى مجتمع ذكورى خالص، وكانت أمى تقضى وقتها مع أولادها وتزور أخواتها وبعض الأقارب فقط لاغير، غير أنها ظلت تذهب إلى السينما كلما عرفت أن هناك فيلما جيدا. وكانت تذهب لمشاهدة الأفلام المصرية. أما نحن فبدأنا نحب أن مشاهدة الأفلام الأمريكية، وكنا نذهب يوم الخميس لمشاهدة أحد الأفلام ، ونمشى وسط المدينة نتسكع قليلا ونأكل بعض السندوتشات ثم تنتهى الفسحة البريئة جدا ، وكنا مجموعة من الأولاد لا تتعدى أربعة من نفس العمر. وكانت نجمتنا المفضلة فى طور المراهقة نجمة الإغراء الشهيرة مارلين مونرو، وكنا نحتفظ بصورها وهى شبه عارية ، والتى كانت تنشرها المجلات المصرية ،خاصة مجلة آخر ساعة على صفحتين كاملتين. وكان تأثير سينما هوليود علينا شديد القوة فكنا نحفظ أسماء الممثلين الأمريكان عن ظهر قلب ، وكنا نتابع الأفلام الأمريكية بانبهار، وطغت علينا هذه السينما وساهمت فى تكوين أفكار أجيال متعددة، وكان الانطباع عندنا فى ذلك الوقت أن السينما المصرية متخلفة. ووصل الأمر إلى أن أصبحت مشاهدة الأفلام المصرية تعد سقطة ونوعا من التخلف ، واستمر هذا الأمر سنوات طويلة حتى قاربنا على التخرج فى كلية الطب. وكان تأثير هوليود علينا إثباتا لا يقبل الشك بمدى تأثير الثقافة الأجنبية على تكوين الشخصية، وخاصة

فى فترات الشباب الأولى، عندما يكون هذا المؤثر بقوة وإبهار السينما الأمريكية وإننى أعتقد أن الانبهار الشديد بأمريكا بين جموع الناس ليس مرجعه معرفة واعية بقوة المجتمع الأمريكى فى تطوير التكنولوجيا ، والذى نراه واضحا فى عدد العلماء الأمريكيين الذين حصلوا على جوائز نوبل فى العلوم، ولا راجع إلى الانتاج الثقافى الأمريكى القوى فى كافة الفروع ، وإنما يرجع أولا إلى تأثير السينما الأمريكية بدءا من أفلام رعاة البقر والهنود الحمر ومرورا بأفلام طرزان واستر وليمز السباحة ونهاية بأفلام جيمس بوند وأفلام عالم الخيال العلمى. وبالرغم من التأثير القوى للسينما الأمريكية على تفكيرى، إلا أننى بدأت فى تلك الفترة المبكرة أعجب بعدد من الأفلام الإيطالية الجميلة. وكان المخرجون الإيطاليون العظام من رواد الواقعية ونخبة من الممثلين الإيطاليين الكبار سببا فى نجاح كبير للسينما الإيطالية فى تلك الفترة، وفاق إعجابى بالسينما الإيطالية السينما الأمريكية، وتدريجيا بدأت أفقد الاهتمام بالسينما الأمريكية ولم أعد أشاهد أفلامها إلا نادرا.

وعندما أشاهد بعض الأفلام المصرية القديمة أجد أننى كنت محقا بعض الشيء وظالما بعض الشيء لعدم مشاهدتى هذه الأفلام فى وقتها، ولا أعتقد أن الحكم على هذه الأفلام الآن من وجهة نظرى سوف يكون محايدا بسبب التأثير الكبير للنوستالجيا والحنين إلى الماضى الذى سوف يساهم بشدة فى تقديرى لمستوى الفيلم.

وكان لدخول السينما طقوس خاصة، فكنت وأصدقائى نتجمع ونسير سويا نقطع شوارع المدينة جيئة وذهابا ونتفرج على فترينات المحلات ونأكل السندويتشات. وبعد بعض المحاورات نستقر على فيلم معين لمشاهدته. وكان ثمن التذكرة سبعة قروش للصالة وعشرة قروش للبلكون. وكانت دور السينما الدرجة الأولى فى وسط المدينة غاية فى الأناقة والنظافة والنظام، وكان العرض يبدأ بجريدة مصر الناطقة والتى كانت تحتوى على بعض الأخبار المصورة، وربما كان يكون تجميع هذه الأعداد

وتوثيقها وحفظها بالطرق الحديثة يعد عملا مهما يجب أن توليه وزارة الثقافة أو الإعلام جهودها، لأنني أتذكر أن بها كثيراً من اللقطات والصور النادرة فى عصر كانت هى وثيقة التصوير الحى الوحيدة المتاحة. أرجو أن تكون هذه الأفلام على عكس ماسمعت ــ محفوظة ولم توار التراب أو تم بيعها أو سرقت كما حدث مع كثير من وثائقنا وأفلامنا ، بل وحتى تماثيلنا!، بل فى الحقيقة إن بعض تاريخنا أيضاً قد سرق.

وبعد جريدة مصر يبدأ فيلم ميكى ماوس أو ما يشابهه لمدة ١٥ دقيقة ثم تليها استراحة وبعدها تعرض بعض اللقطات من الأفلام القادمة ثم يعرض الفيلم الأصلى. وكان جمهور تلك السينما عموما يحترم العمل، وقلما كان يتكلم أثناء العرض أو يعلق ، لكن التدخين كان مسموحا به ، وكانت السينما دائما معبأة بالدخان. وبعد انتهاء الفيلم كنا نذهب لبيوتنا مشيا على الأقدام نتحدث فى موضوع الفيلم وممثليه. ولم تكن دور السينما فى مصر كلها من هذا النوع، فكانت دور الدرجة الثانية تعرض فيلمين فى برنامج واحد، وكانت هذه الدور موزعة بين الأحياء وبين منطقة شارع عماد الدين. وكانت تعج دائما بالضوضاء ، وكان التعليق على الفيلم والتصفيق والهتاف للبطل شيئا عاديا، وكان ثمن التذكره خسمة قروش فقط ومعظم زبائنها من الحرفيين وصبية العمال، وكانت أيضا تعرض أفلاما أمريكية، وفى حقبة تالية أصبحت تعرض أفلاما هندية، وبالتدريج أصبحت لهذه الأفلام شعبية كبيرة، أما فى الصيف فكنا نذهب إلى السينما الصيفية، وكانت تعرض ثلاثة أفلام فى حفلة واحدة ليبدأ العرض بعد الغروب وينتهى بعد منتصف الليل. وكان أحد الأفلام على الأقل فيلما مصريا. ولا أذكر فى تلك الفترة أننا ذهبنا إلى أحد المسارح، ولم نفكر فى ذلك أبدا، والمرة الوحيدة كانت عندما وكان عمرى نحو عشرة أعوام ، أخذنا أبى إلى مسرح الريحانى بدعوة من طلعت حسن مدير المسرح ، وكان ذلك فى الإسكندرية حيث شاهدت مسرحية ، ولكن

للأسف لا أتذكر أسم أو موضوع المسرحية، وأتذكر فقط أن المسرح كان صغيرا وأنه كان مليئا بالجمهور الذى كان يصفق ويضحك طوال الوقت. ولم تبدأ علاقتى الحقيقية بالمسرح إلا أثناء سنوات دراسة الطب.

أما عن الغناء والموسيقى فى تلك الفترة فكنت أحب محمد عبد الوهاب ومحمد فوزى وليلى مراد، وكنت أتعجب من الأقارب والمعارف الكبار وهم فى شجن عارم أثناء استماعهم إلى أم كلثوم، وخاصة فى حفلتها الشهرية فى الخميس الأول من كل شهر، ولم أكن أعلم فى ذلك الوقت أننى سوف أصبح من عشاق أم كلثوم وزبونا دائماً فى حفلاتها بعد سنوات قليلة.

وخلال العام الأول لما كان يسمى وقتها بحركة الجيش المباركة بدأ الوضع يستتب تدريجيا للضباط فى الحكم، ومع إعلان حل جميع الأحزاب باستثناء الإخوان المسلمين أصبح واضحا أن الضباط عقدوا النية على الاستمرار فى الحكم، وكان يبدو أن هناك تأييدا شعبيا بدأ ينمو تدريجيا وأصبحت الحركة تسمى انقلابا ثم أطلق عليها ثورة بعد ذلك. وخلال العام الأول أتذكر أن النجم الأساسى كان محمد نجيب ولم يكن عندى الوعى والخبرة بما يجعلنى أكتشف أن جمال عبد الناصر هو المحرك الأساسى للثورة. وكانت شخصية محمد نجيب محببة إلى، إذ كان يبدو رجلا طيبا، وكان لبعض القرارات التى صدرت مثل إلغاء الألقاب أثر إيجابى، فمازلت أذكر أننى سعدت بهذا القرار الذى ساوى بين الناس. وقد صاحب القرار حملة دعائية فى الصحف كشفت عن أن الملك كان يتقاضى رشاوى من كثيرين مقابل الحصول على أحد الألقاب. وقامت الثورة ببعض المشروعات السريعة مثل كورنيش النيل الذى كانت تعترضه السفارة الإنجليزية أمام امتداده الطبيعى. وأذكر فى ذلك العام أن قامت الصحف بحملة دعائية قوامها أن مصر بلد صحراويه وعلى الحكومة والشعب أن يزرعوا الغابات المصرية، وتم اختيار مكان يسمى كوم أوشيم فى الفيوم لزراعة الغابة ،

وكـان على كل مـصـرى ان يغـرس شـجـرة هناك. وذهب والدى مع مـوظفى بنك التسليف الزراعى ، وذهبت معه وأخذت لى صورة ، لازلت محتفظا بها إلى الآن وأنا أحمل شجرة صغيرة فى قصرية زرع وقمت بزراعتها فى الأرض. وشاهدنا عددا كبيرا من الأتوبيسات المحملة برحلات المدارس لزرع الأشجار. وإستمرت تلك الحملة عـدة أسـابيع، وأعلن أن الغـابة تمت زراعـتـهـا بالكامل وأن الشـعب كله سـاهـم فى زراعتها. ولم أسمع عن هذه الغابة بعد ذلك وهل أصبحت فعلا غابة بعد مرور سبعة وأربعين عاما على زراعة ذلك الشجر؟ لست أدرى ماذا حدث له. هل مات الشجر أم مات معظمه أم لا تزال الأشجار تنمو أم أننا نمتلك غابة كبيرة بالفعل لكننا لا نسمع عنها شيئا ؟.

فترة الدراسة الثانوية
أكتوبر ١٩٥٣ حتى يونيو ١٩٥٦

بعد أن وافق والدى على رغبتى فى عدم استمرار دراستى فى قصر الدوبارة بعد الناصرية الخاصة دخلت مدرسة الإبراهيمية الثانوية. ويقع مبنى المدرسة الكبير داخل حى جاردن سيتى وفى بقعة جميلة وهادئة منه. وكان للمدرسة سور منخفض تعلوه أعمدة من الحديد. وكان بالمدرسة حوش كبير به ملعب للكرة الطائرة، وكان المبنى الرئيسى القديم للمدرسة به مكتب الناظر وحجرات المدرسين وكذلك بعض الفصول، وهناك بنايات جديدة موازية للسور تحوى عددا أكبر من الفصول. وكانت المدرسة كبيرة وعدد التلاميذ بها نحو الألف. وكانت الدراسة الثانوية خمس سنوات لكن تغير النظام التعليم من العام الذى بدأت فيه الدراسة، فكان مقررا أن أكون فى السنة الثالثة الثانوية، لكنها سميت بالأولى الثانوية بعد ضم السنتين الأولى والثانية إلى المرحلة الإعدادية.

وكان لدخولى تلك المدرسة أثر كبير فى حياتى. وكنت عند دخولى من أصغر التلاميذ سنا، وكانت فصول الثانوية العامة المسماة بالتوجيهية فى ذلك الحين تعج بطلبة كبار السن رسبوا عدة سنوات وانشغلوا بالعمل الطلابى والسياسى الحزبى قبل الثورة. وفور دخولنا المدرسة بدأت أحس بالتوتر السياسى الموجود بين الطلبة، لكن

الطلبة المؤيدين لأحزاب ما قبل الثورة كانوا قد فقدوا أهميتهم ووضعهم سريعا ، فلم أحس أبدا فى المدرسة أن هناك طلبة وفديين أو من مؤيدى مصر الفتاة، والقلة منهم لم يكن لهم أى وزن أو تأثير، لكن كانت هناك جبهتان: الأولى الممثلة فى الإخوان المسلمين ، والثانية ما سمى بهيئة التحرير وهى نواة أول حزب أنشأته الثورة ، وكان هناك فارق كبير بين الفريقين. فريق الإخوان المسلمين كان مسلحاً بإيمان قوى بفكرة اقتنع بها وتدرب على الطاعة والنظام، ولم يأخذ مقابلا ماديا لانضمامه ، بل بالعكس كان يدفع قروشا قليلة كرسم اشتراك فى الجماعة. وفريق هيئة التحرير المكون من بعض التلاميذ الذين تمت دعوتهم للاشتراك مقابل بعض المميزات المادية والعينية المتمثلة فى نقود تمنح لهم!، رحلات وحفلات مجانية. ولا أعرف الطريقة التى انضم بها التلاميذ إلى هيئة التحرير وكيف تم انتقاؤهم؟!، لكن كان واضحا أنهم كانوا أسوأ الطلبة فى المدرسة خلقا، ولم يكن يعنيهم شيء سوى إعلان بعض الشعارات التى حفظوها والتى لم يكن مضمونها يعنيهم فى شيء. وهذه الحفنة انضمت عناصرها إلى الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى بعد ذلك!، وبعد انهيار الناصرية انضموا إلى حزب مصر وانتقلوا مع السادات إلى الحزب الوطنى دون تردد أو خجل أو حتى محاولات لتبرير لمسلكهم. وهم الذين قادوا حركة الفساد الضخمة داخل نظام الحكم المصرى بعد اعتلائهم مختلف المناصب!.

وقد سمعت فى رمضان الماضى حديثا فى الإذاعة من أحد كبار أقطاب الحزب الوطنى ومجلس الشعب فذكر أيام المدرسة وتحدث عن خبرته السياسية فى الشارع المصرى والتى ترجع لأعوام بعيدة بدأها بالانضمام لهيئة التحرير ثم انتقل بقوة مع سلسلة التنظيمات والأحزاب مؤيدا بكل قوة الاشتراكية فى الستينات، وبنفس القوة الانفتاح فى السبعينات، وكان تأثير الحديث على أى إنسان عنده قدر ولو قليل من المعرفة عبارة عن كوميديا سوداء ساخرة توضح لماذا وكيف آل حالنا فى مصر إلى

ما نحن فيه! ، ونفس هذا المسئول الكبير فى الحزب الحاكم قد أعلن فى برنامج تليفزيونى حديث أنه منتخب من الشعب وأن الشعب هو الذى يريده بينما يعلم الجميع أنه أكثر المسئولين محلا لكراهية جموع الشعب، فسمعته غاية فى السوء.

وبالرغم من أن وعيى السياسى كان قد بدأ يتبلور ومعرفتى وقراءاتى فى تلك المرحلة كانت على درجة لا بأس بها بالنسبة لسنى، فإننى لم أحدد لنفسى موقفاً سياسيا ، ولكننى لم أسع للانضمام إلى هيئة التحرير ولم يطلب منى أحد الانضمام إليها.

أما الإخوان المسلمون فكان لهم معى شأن آخر. ففى ذات يوم وأثناء الفسحة الكبيرة اقترب منى طالب بالثانوية العامة يبدو من عمره أنه مخضرم و ربما كان فى العشرين من عمره!، وبدأ فى التحدث إلى معبراً عن سعادته بدخولنا المدرسة العريقة، وقال لى لماذا لا أحضر إلى مسجد المدرسة؟. ولم يكن مايقصده مسجدا بالشكل المعروف، وإنما كانت زاوية فى الحوش مغطاة بالحصر وبجوارها حنفية مياه للوضوء، وألح فى ذلك بأدب شديد. وفى اليوم التالى اقترب منى فى الفسحة الصغيرة وذكرنى بضرورة حضورى إلى الصلاة فى الفسحة الكبيرة، وفعلا ذهبت. ولم أكن معتادا على الصلاة فى المدرسة. وبعد الصلاة التى استغرقت بضع دقائق جلس هذا الطالب على الأرض وطلب من خمسة من التلاميذ، كنت من ضمنهم، أن نجلس قليلا، وأخذ يتحدث عن الاسلام ومبادئه وعن العدل والحرية والمساواة والإخاء وإلى أنه الطريق إلى الجنة. وكان هذا التلميذ الذى لا أذكر اسمه متحدثا بارعا شديد الإقناع وهادئ الطباع ولا أعرف مصيره بعد ذلك، ففى الأغلب أنه قضى معظم عمره فى غياهب السجون. وبعد الضغط والمتابعة من هذا الأخ الأكبر كنت أحضر هذا الدرس فى الفسحة بعد الصلاة ، إلى أن جاء يوم وطلب أن يكلمنى على انفراد وأخبرنى بأنه قرر ضمى إلى خلية للإخوان المسلمين تتكون من خمسة تلاميذ وأخبرنى باسم تلميذ آخر

سوف يكون مسئول هذه الخلية وأننى منذ هذه اللحظة لا يجب أن أتحدث إليه ولا حتى أسلم عليه إن صادفته فى الفسحة ، وأصابنى بعض القلق، وكان عمرى فى ذلك الوقت قد قارب الرابعة عشرة ، ولم أكن أعلم كثيرا عن تاريخ الإخوان المسلمين فى ذلك الوقت. وحضرت اجتماعين فى الفسحة الكبيرة بعيدا عن زاوية الصلاة ، وفى الاجتماع الثانى أخبرنا مسئول الخلية أن هناك مخاطر من اجتماعاتنا المتكررة وأن الاجتماعات سوف تتوقف وسوف تصلنا رسائل مكتوبة بما هو مطلوب منا. وفى تلك الآونة بدأت أحداث مارس ١٩٥٤ واندلعت المظاهرات المطالبة بالديمقراطية وأقفلت المدارس. وقد شاهدت فى تلك الفترة أحداثا جساما، شهدت معارك فى الحوش من سطوح المبنى الأساسى للمدرسة ، وكان الناظر قد أمر بإدخال جميع الطلبة الصغار من الأولى والثانية الثانوية إلى السطوح والفصول العليا من المبنى حرصا على سلامتهم ، وأحيطت المدرسة بقوات ضخمة من الأمن ، وكانت تلقى على الطلبة المتظاهرين القنابل المسيلة للدموع، وشاهدت معارك بالجنازير والكرابيج التى أخرجوا فجأة الإخوان المسلمون للاعتداء على الطلبة الآخرين وبعض المدرسين، ولاذ أعضاء هيئة التحرير بالفرار ووقعت إصابات جسيمة بين الطلبة ، ثم تطورت المعركة بين البوليس الذى حاصر المدرسة وبين جماعات الإخوان المسلمين وفلول الطلبة المتظاهرين ضد الدكتاتورية من أحزاب ما قبل الثورة.

واستمرت المعارك حتى الثامنة مساء إلى أن سيطر الأمن على الموقف وقبض على الطلبة، وصرح لنا بالخروج والذهاب لمنازلنا، وعلمنا بعد ذلك أن المظاهرات عمت كل مدارس وجامعات مصر، وأصدر وزير التعليم كمال الدين حسين قرارا بإغلاق جميع المدارس إلى أجل غير مسمى، وأضاف القرار بأن مدرستى السعيدية بالجيزة والإبراهيمية بالقاهرة سوف تغلقان حتى نهاية العام! ، وأعلن رسوب جميع الطلبة وإعادة السنة فى العام التالى لجميع الطلبة فى المدرستين ، وبعد بضعة أسابيع

كانت البلاد فيها تغلى، أعيد محمد نجيب رئيسا للجمهورية ، وأصبح جمال عبد الناصر رئيسا للوزراء وحاكما فعليا للبلاد. وهدأ الحال وفتحت المدارس أبوابها ، وألغى وزير التعليم قراره برسوب طلبة المدرستين ، وعدنا إلى الدراسة مرة أخرى فى هدوء يشوبه التوتر والحذر. ولم يتصل بى أحد من خلية الإخوان المسلمين لمدة عدة أسابيع ، وانقطعت عن الصلاة فى مسجد المدرسة. وخلال هذه الفترة حدث توتر كبير بين جماعة الإخوان المسلمين و رجال الثورة. وفى أحد الأيام وأنا فى طريقى إلى الفسحة وعلى السلم الداخلى للمدرسة فوجئت بطالب لا أعرفه يضع فى جيبى ورقة مطوية ، ولما التفت إليه باستغراب قال لى فى همس : كن حذرا ، واختفى من أمامى بسرعة. وأصابتنى حالة جمعت بين الخوف والاندهاش وحب الاستطلاع. ونزلت إلى الحوش وتوجهت إلى دورة المياه وأغلقت الباب خلفى ، وأخرجت الرسالة من جيبى فوجدتها منشورا سياسيا بعنوان رسالة إلى الأخ المسلم وهى غير موقعة ويطالب كاتبها أن أقوم بتمزيقها ، وإعدامها فور قراءتها. ولا أتذكر تفاصيل الرسالة إلا أنها حضت أفراد خلايا الإخوان المسلمين أن يتحدوا وأن يتجمعوا لمحاربة الحكم الدكتاتورى الذى لا ينوى تطبيق شريعة الله.

وبعد هذا المنشور الذى وصلنى لم تصلنى أية رسائل أخرى ولم يحاولوا الاتصال بى ، وأعتقد أن السبب فى ذلك أن جماعة الإخوان فى تلك الآونة كانت قد دخلت معركة كبرى لاحت تباشيرها فى الأفق، والتى كانت ذروتها حادثة محاولة اغتيال عبد الناصر فى المنشية، والتى تلتها حملة ضخمة على الإخوان المسلمين وزج بالآلاف منهم فى السجون والمعتقلات. وأعتقد أنهم شعروا أن الوقت غير مناسب لمحاولة تجنيد فتيان فى الرابعة عشرة من عمرهم وكان عليهم أن يركزوا مجهودهم فيما هو أهم ، فضلا عن مخاطر التعاون مع هؤلاء الفتية الصغار الذين لا يثقون بمدى ولائهم بدون فترة اختبار وتدريب كافية. وهكذا بدأت وانتهت علاقتى

بالإخوان المسلمين التى استمرت لأسابيع، ولقد كان لمحاولة تجنيدى للإخوان المسلمين أثر كبير فى نفسى. ولا أدرى هل اهتمامى الشديد بتاريخ الإخوان المسلمين وبكل ما كتب عنهم له علاقة بتلك الفترة أم أن الاهتمام نابع من أهمية هذه الحركة فى تاريخ مصر الحديث وتأثيرها القوى، والذى امتد ينمو بقوة حتى هذه اللحظة من تاريخنا ؟ وعموما فالإخوان المسلمون هم الجهة الوحيدة التى حاولت ضمى إلى صفوفها، فلم يحدث أن حاول اليساريون باختلاف جبهاتهم ضمى إليهم رغم تعاطفى الشديد معهم والذى استمر حتى الآن، ولم أدع للانضمام إلى أى من تنظيمات الثورة بدءا بهيئة التحرير ونهاية بالحزب الوطنى.

وانتهت الأحداث الكبرى عام ١٩٥٤ بالقبض على الآلاف من الإخوان المسلمين ، وقد سبق ذلك التخلص من الأحزاب القديمة التى كانت الأحزاب الصغيرة منها لا شعبية ولا جذور لها، وإنما يرأسها أفراد قد يكون لهم تاريخ وطنى وفكر خاص، ومعظمهم كانوا حسنى السمعة ثاقبى الفكر ، لكنهم لم يؤمنوا أبدا بوجود الشعب أو رأيه ، وإنما كانوا دائما يعتقدون أن على الشعب أن يمشى خلف هذه المجموعة من المثقفين. وكان هؤلاء زعماء الحزب السعدى والأحرار الدستوريين وبعض المستقلين الذين أنشأوا أحزابا على الورق فى فترات من تاريخ مصر حكموا بواسطتها بعد أن زوروا كما أرادوا الانتخابات مثل إسماعيل صدقى وغيره. وكان القضاء على الحزب الاشتراكى (مصر الفتاة سابقا) وهو الحزب الفاشستى الصغير سهلا للغاية ، فأعضاؤه النشطاء محدودو العدد ولا نفوذ له خارج القاهرة.

أما تجمع اليسار الاشتراكى ـ الممثل فى ذلك الوقت فى التنظيمات الماركسية المختلفة والتى كانت تتكون من مجموعة من أعظم المثقفين المصريين ، بالإضافة إلى بعض المصريين من أصول أجنبية، وكان لهم نفوذ أيضا فى بعض النقابات العمالية ـ فكان القضاء عليه سهلا باعتقال كل قياداته ووضعهم خلف أسوار معتقلات

فى الصحراء لسنين طويلة ،إلا أن معظمهم كانوا وما زالوا خلاصة المفكرين والمثقفين من الشعب المصرى.

أما الحزب الأساسى الكبير الوفد ذو النفوذ والأصول الشعبية فكان القضاء عليه بأسهل مما تصور الحكام الجدد!، فيبدو أن قيادة الحزب كانت قد أصبحت منفصلة عن الشعب، وأن رجاله ونوابه فى كافة أنحاء القطر لم يبقوا هم حملة لواء الوطنية والدفاع عن الحرية واستقلال البلاد، وشاخت القيادة التاريخية النظيفة حاملة لواء الديموقراطية الحقيقى الممثلة فى مصطفى النحاس، فسقط حزب الوفد بسهولة بالغة!، وفى تلك الظروف السياسية أصبحت الهيئة السياسية الوحيدة هى هيئة التحرير، وخيمت تلك الظروف على المدرسة التى كانت تموج بمختلف الأفكار السياسية فأصبح فجأة يسودها الهدوء التام. ومنذ ذلك التاريخ وحتى نهاية الدراسة الثانوية لم تشهد المدرسة مظاهرة واحدة. وفى تلك الفترة كنت أذهب إلى المدرسة مشيا على الأقدام ، وكانت المسافة من باب اللوق حتى المدرسة تستغرق نحو ثلاثين دقيقة، وأحيانا كنت أمشى حتى ميدان التحرير وأركب الترام الذى يمر من شارع القصر العينى حتى المدرسة وكنت أحمل حقيبة ثقيلة للغاية ،ولا أدرى السبب فى حمل كل هذه الكمية من الكتب ذهابا وإيابا. وكان بالفصل أربعون تلميذا والدراسة تستمر من الثامنة صباحا حتى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر.

وأذكر أن تلك المدرسة ضمت مجموعة ممتازة من المدرسين، وكان مدرس المواد الاجتماعية يدعى الأستاذ فريد عباسى. وقد طلب منا فى إحدى الحصص مناقشة قضية الزواج فى مصر وتقاليدها المختلفة، وبعد انتهاء الحصة طلب من كل تلميذ أن يكتب بحثا فى المنزل عن موضوع له علاقة بتقاليد الزواج فى خمس صفحات ويسلمه بعد أسبوعين. واخترت موضوع الخاطبة وكتبت البحث وسلمته فى الميعاد. وبعد شهر أعلن المدرس نتيجة البحوث، ففوجئت بأننى حصلت على أعلى درجة عن

بحثى ، ووزع المدرس جوائز الفوز وكانت ثلاث تذاكر للثلاثة الأول لحفل يعقد فى جمعية المرأة الجديدة ومقرها شارع القصر العينى. وذهبت إلى الحفل وأنا فى غاية السعادة. وكان الحفل يتضمن بعض الخطب والغناء ومسرحية قصيرة من فصل واحد ، ولازلت أذكر هذا الحفل وأعتز به لأن حضوره كان أول جائزة حقيقية أحصل عليها. وكان فريد عباسى مدرسا متميزا وكنت أقرأ له قصة على صفحتين فى مجلة أسبوعية للأطفال اسمها البلبل، وكنت أواظب على قراءتها ، فلما أخبرته بذلك كان فى غاية السعادة وأصبحنا أصدقاء حتى انتهاء الدراسة الثانوية.

وكان مدرس الفرنسية طويل القامة شديد العصبية مهتما بدرسه وتحضيره ، ويركز على أن نقوم بنطق اللغة نطقا صحيحا، وكان يصاب بنوبات من العصبية تنتهى بإخراج طالب خارج الفصل أو إحالته إلى ناظر المدرسة للتحقيق معه. وكان مدرس الرياضات هو المدرس الأول بالمدرسة لهذه المادة ، وكان ضليعا فيها يجيد شرح المسائل الهندسية وفك رموز الجبر ، وكان الأستاذ عياد رقيقا وكنت سعيدا حين زارنى فى عيادتى الخاصة فى السبعينات مع ابنته التى حضرت للعلاج.

وكانت المدارس المصرية الحكومية آية فى الجدية فى التعليم، فأذكر أنه كان يوجد بالمدرسة مدرج به معمل فكنا نأخذ حصة فى الأسبوع فى معمل الكيمياء والطبيعة ، حيث يشرح المدرس إحدى التجارب. ولا أعتقد حين أفكر الآن أن كل التجارب كانت تجرى أمامنا ولكن يكفى أننا كنا ننتقل إلى المدرج فى الحصة العملية. وكان عندنا فى كل أسبوع حصتان بعد الظهر للهوايات، وكان علينا الاختيار بين إحدى الهوايات مثل الرسم أو عمل الفخار أو تحسين الخط أو القراءة أوأشياء أخرى لا أذكرها. وفى السنة الثالثة الثانوية تم إلغاء وجبة الغذاء الساخنة التى كانت تقدم لنا.

ثم بدأ اهتمامنا الكبير بكرة القدم. وحدث أن حضر إلى مصر فريق المجر لكرة القدم ، حيث مكث شهراً للتدريب فى الجو الشتوى الجميل استعدادا لمباريات كأس

العالم. وكان فريق المجر فى ذلك العام يعد أقوى الفرق فى العالم فى ذلك الحين، وكان المرشح الأول للفوز بكأس العالم. واشتريت تذكرة فى الترسو (الدرجة الثالثة) وكانت المباراة تقام يوم الأحد، وكان على أن أخرج من المدرسة أثناء الفسحة فاستأذنت من مدرس الفصل الذى أخبرنى أنه ممنوع على الخروج قبل نهاية اليوم الدراسى ، وأخبرته أن والدى أذن لى بذلك وقال لى إن المدرسة لا تأذن لك ، وفكرت فى أن أقفز فوق السور وكان ذلك سهلا للغاية، لأن السور لم يكن مرتفعا وكان كثير من الطلبة يقفزون إلى الداخل أو الخارج عبر السور حسب الظروف. ويبدو أن كثيرا من الطلبة قد عقدوا العزم على الذهاب إلى المباراة وطلبوا نفس الطلب ، وفى الفسحة أعلن الناظر فى الميكروفون أنه سوف يفتح أبواب المدرسة ومن يريد أن يخرج فليخرج ، فخرجت مع زملائى ومشينا فوق كوبرى قصر النيل ، وعبرنا إلى النادى الأهلى بالجزيرة حيث كانت تقام المباراة، ولكن تم فصلنا لمدة أسبوع، وحضر والدى إلى المدرسة وقابل الناظر وأخبره بأنه أذن لى. وبعد مفاوضات تم فصلى لمدة ثلاثة أيام فقط. وبدأنا نهوى لعب كرة القدم وكنا نقفز فوق سور المدرسة إلى الشارع الذى يوصل إلى مدرسة المير دى ديو الفرنسية للبنات، وكانت فتياتها لا يسلمن من عبارات المعاكسة والغزل، ثم نبدأ اللعب فى الشارع الذى قلما كانت تمر فيه سيارة فى ذلك الوقت. وكنا نضع شنط الكتب على الأرض فى الشارع كعارضتين للمرمى، وكنا نلعب بالكرة الكاوتشوك وهى كرة تنس مستعملة، ولم يكن اللعب بها مشابها للعب بالكرة الشراب لأنها كانت أصغر كثيرا وأخف وزنا فكانت تفقد بسهولة فى إحدى البلكونات المحيطة بالمدرسة. وعندما أمر أمام المدرسة الإبراهيمية الآن أرى الأعداد الهائلة من السيارات واقفة على جانبى الطريق، وأن المرور قد أصبح اتجاها واحدا فيه، ومع ذلك فالسيارات تتحرك ببطء معظم الوقت، ومن الصعب المشى فى هذا الشارع الذى فقد نهره ثم فقد رصيفه بعد ذلك، فأندهش لما حدث لملعب الكرة القديم. وأعتقد أن كثيرا من الطاقة الموجودة فى شباب هذه الفترة قد انطلقت فى اتجاه لعب

وتشجيع الكرة وأشياء أخرى مشابهة بعد أن توقف حماس الشباب لمبدأ من المبادئ أو حزب من الأحزاب، وتوقف أيضا التفكير والكفاح فى القضية الوطنية والمستقبل بعد أن وكلت الأمة راضية ومجبرة فى آن واحد الزعيم عبدالناصر فى اتخاذ ما يراه لازما فى مختلف قضاياها!

وحين أفكر الآن فيما حدث لنا خلال الخمسين عاما الماضية من الأخطاء الفادحة التى دفع الشعب ــ ولا يزال يدفع ــ ثمنها ، وربما سوف تستمر أجيال قادمة فى دفع الثمن، أعتقد أن جذور المشكلة بدأت فى تلك الحقبة حين كان شباب تلك الفترة – وأنا أحدهم ــ فى سن من أربعة عشر إلى ستة عشر عاما يبحث عن دور يشارك فيه لخدمة الوطن ومستقبله بوطنية خالصة وحب شديد لبلده فوجد الباب أمامه مغلقا ، ولا توجد فرصة حقيقية لأن تقول رأيك ولا حتى أن تفكر، الفرصة الوحيدة هى الانضمام إلى هيئة التحرير ، وكان من انضم لهذه الهيئة هم الذين انضموا إلى كل التنظيمات التالية ، وأصبحوا المسئولين والعمداء والوزراء وزعماء الأغلبية واصبحوا الحكام فى العقد الأخير. وهذا الجيل يختلف تماما عن الجيل الذى سبقه بعشرة أو خمسة عشر عاما، فمعظمهم كونوا أفكارهم وانضموا لأحزاب وجماعات تلائم أفكارهم. هؤلاء قد ذاقوا مرارة المعتقلات ومن لم يسجن منهم قد همش وأجبر على الاعتزال، تبقى قلة بسيطة من أصحاب المواهب والفكر الحقيقى استطاعت أن تتواءم مع النظام الثورى وتحتل موقعا متميزا بالرغم من احتفاظها ببعض الاستقلالية. وكانت هذه المجموعة المتميزة تعيش حياة غاية فى الصعوبة ، فلا هى تريد أن تفقد هويتها ونفسها ، ولا فى نفس الوقت تريد أن تصبح كما يقال من كلاب السلطة، فظلت تمشى على الحبال المشدودة سنين طويلة ، يصيبها الإحباط تارة والخوف تارة أخرى ، واحتواها النظام الناصرى بعد ذلك واعتبرت من دعائمه ، ولكنها عوقبت على ذلك أثناء حكم السادات ، هؤلاء هم صفوة المفكرين وأصحاب الرأى فى جيل كامل لم يكن

له نصيب فى القيادة والفكر، وكانت القيادات الحقيقية فى مواقع العمل المختلفة من الصامتين الذين لا رأى لهم ولا فكر، والكثير منهم كان غير مؤهل فنيا فاقد القدرة على التفكير المستقبلى، وباستثناء قلة أصبحت كل الهيئات والشركات والوزارات تدار بهذه النخبة التى كانت تعمل وفى ذهنها شيئان: الأول هو المظهر الخارجى ، فكانت الصورة الخارجية أكثر من رائعة بينما الحقيقة شديدة المرارة ، والثانى هو الخوف من القيادة السياسية العليا ذات القوة الكاسحة الجبارة، وكان هذا الخوف عاملا مهما فى منع أو ندرة السرقات والانحرافات الكبرى فى زمن عبد الناصر مقارنة بما حدث بعد ذلك من نفس الرؤساء والمديرين، ولكن الخوف أيضا كان عاملا مهما فى منع الابتكار أو محاولة التغيير إلى الأحسن.

وهكذا انتهى الأمر إل أن البعض من جيلنا أخذ السياسة كهواية شخصية ليست للممارسة ولكن للفهم الشخصى، وانقسم جيلنا إلى قسمين أكبرهما هو طبقة التكنوقراط التى تعلمت واستفادت من المدارس والجامعات والفرص والبعثات التى أتاحتها الثورة لعامة الشعب، ومعظم هؤلاء نسوا تماما قضية الوطن والمستقبل ونسوا تماما التفكير فى مصر ولم يجذبهم أى تيار، فلا هم انجذبوا للفكر اليسارى الذى سيطر فى تلك الفترة، ولا كانوا من دعاة اليمين وحرية الاقتصاد، ولم يهتموا أبداً بحرية الفكر والرأى. هكذا كبر جيل كامل تربى فى أحضان الثورة ، بل هو جيل الثورة الحقيقى فى انقطاع تام عن الفكر والمعرفة والتاريخ الذى سمعه ودرسه وقرأه من وجهة نظر أحادية. وهذا هو الجيل المتربع الآن على قمة الهرم فى السلطة ، لأن عمر أفراده من ٥٥ إلى ٦٥ عاما. ونحن فى بداية القرن الواحد والعشرين نجد أعدادا كبيرة لم تقرأ شيئا فى حياتها خارج تخصصها وبعضهم لا يوجد عنده كتاب واحد فى بيته ، ربما باستثناء القرآن الكريم وبعض الكتب المهداة من المؤسسات والشركات. هؤلاء هم قادة المؤسسات العلمية والجامعات والهيئات الفنية والتكنولوجية فى مصر وكبار رجال الحزب الحاكم.

أما القسم الآخر فى جيلنا هو الذى دخل لعبة السياسة ، ليس بسبب حب العمل السياسى أو بسبب الرغبة فى التغيير إلى الأحسن أو بسبب الدفاع عن فكر أو مبدأ آمن به ويريد تحقيقه، وإنما دخل العمل السياسى رغبة فى الوصول إلى السلطة، التى أصبحت ـ بالإضافة إلى متعتها عند البعض ـ عاملا مهما وأساسيا فى الحصول على الثروة والنفوذ. وهكذا انضم هذا القسم إلى هيئة التحرير تأييدا للحكومة ورغبة فى تلقى بعض المعونات والدعوات والمآدب والسفريات والمعسكرات المجانية وتعلم التضامن والتأييد والتصفيق لكل شىء ، وتعلموا الدرس الأكبر وهو أنه إذا كنت تريد أن تعلو فى السلم السياسى وجب عليك أن تكون أكثر قدرة وفنا وحنكة فى الدجل السياسى والتأييد الأعمى، وأن يكون عندك حس وقرون استشعار تعرف متى سوف تغير القيادة من سياستها فتكون سباقاً إلى التأييد، وعند وقوع الخلاف بين الكبار تعرف كيف تراهن على الحصان الذى سيكسب المعركة وليس على من تعتقد أنه أصلح أو أكثر فهما أو أكثر وطنية وحبا لبلده . وهكذا انتهى الحال بجيلنا ـ الذى استفاد من التوسع فى التعليم الجامعى ـ إلى جيل يمسك بزمام الأمور ، فيه سياسيون معظمهم من المنافقين وكثير منهم من ذوى السمعة السيئة ، والبقية من التكنوقراط البيروقراطيين الذين يديرون الأجهزة الفنية فى الدولة وشركاتها وجامعاتها بفكر محدود، وهم يؤمنون بالمثل القديم (ابعد عن الشر وغن له) وذلك إذا ما لاحت فرصة تفكير أو تغيير أو تقدم. وهم يطلبون من العاملين معهم التعامل بذات أساليب رؤسائهم فهم يشجعون التزلف والنفاق ويكرهون الديموقراطية والنقاش.

تبقى قلة من جيلى أرادت أن تشارك بفكر حقيقى وأعلنت رأيها وحاولت ،لكنها ضربت بقسوة تصل فى بعض الأحيان إلى الفصل من العمل، وفى أحيان أخرى إلى تهديد من جهات الأمن، وفى أحيان ثالثه إلى السجن والمعتقل. صحيح أن مدة السجن والمعتقل كانت قصيرة ولا تقارن بما حدث للجيل الذى سبقنا، وصحيح أن

المعاملة فى المعتقلات والسجون كانت أخف وطأة، فلم ير جيلى الأهوال التى رآها من سبقونا ، لكنها على أية حال كانت درسا واضحا بأن أى تفكير بغرض التغيير- وأقصد بالتغيير أى شئ فى نظام الحكم ولو كان بسيطاً - شيء غير مسموح به على الإطلاق!.

بقى الجزء الأخير من هذا الجيل الذى عمل بجد فى عمله لكنه كان يعرف أنه غير مؤهل فى هذه الظروف السياسية لقيادة أى عمل، لأن ذلك كان معناه الصدام مع أجهزة الدولة فأجاد إجادة شديدة فى تخصصه ونال الجوائز العلمية أو الأدبية وكان أيضا مهتما بالشئون العامة مطلعا على مجريات الأمور ودارسا لتاريخ بلده وعالما بأدبائها وشعرائها ومفكريها، وقد يسمح له كل حين وآخر بأن يقول كلمة أو يكتب مقالا، لكنه عاش على الهامش بالرغم من أنه قلبا وقالبا كان مهتماً بسياسة الوطن محبا له يريد له الخير كل الخير. ومن المبكى والمضحك معا أن هذه الفئة الأخيرة هى أكثر الفئات التى ينظر لها بسخرية من زملائهم الذين يعتقدون أن هؤلاء يضيعون وقتهم فى حب الوطن فيما لا يجدى، و تأتى هذه النظرة خاصة من السياسيين المحترفين الذين يتعجبون من طريقة حبهم للوطن و التى تنم عن حب كبير لمصر من الهواة فى عصر المحترفين!

فى السنة الثانية الثانوية كان على أن أختار تخصصا بين القسم الأدبى و القسم العلمى إلا أن أبى وأمى كانا مصممين على دخولى القسم العلمى، وكانا دائما يقولان لى إن القسم الأدبى لا مستقبل له. وأعتقد أننى لو كنت حقا أرغب فى دخولى القسم الأدبى لحاولت على الأقل إقناعهم. وكان على أن أختار بين علمى رياضة أو أحياء أو كيمياء أو طبيعة، وبعد تردد شديد اخترت علمى رياضة، وكان هذا يعنى أننى سوف أؤهل نفسى لدخول كلية الهندسة بعد حصولى على الثانوية العامة. وكنت حقيقة أحب الرياضيات وأحصل فى الجبر والهندسة على الدرجات النهائية فى معظم الأحيان.

وفى تلك الآونة كانت الثورة تفكر فى الفلاح الذى وزعت عليه خمسة فدادين من الإصلاح الزراعى وكيف يزرعها وكيف يزيد إنتاجها ، وهداها التفكير بعد استشارة بعض التكنوقراط إلى البدء فى النظام التعاونى المطبق بكثرة فى الدول الإسكندنافية. وكان أبى فى ذلك الوقت مديرا فى البنك الزراعى الرئيسى فى القاهرة ، وكانت ضمن اختصاصاته مساعدة وإقراض بعض الجمعيات التعاونية الزراعية البسيطة ، والتى كانت موجودة منذ الأربعينات فى مصر. وكانت له بعض الدراسات عن النظام التعاونى وأغراضه ، فقررت الثورة فجأة تغيير اسم البنك من بنك التسليف الزراعى إلى بنك التسليف الزراعى والتعاونى. وأنشئت جمعيات زراعية تعاونية فى كل القرى على مستوى الجمهورية ، وأصبح أبى مسئولا عن التعاون فى البنك و عضوا فى كثير اللجان الحكومية المسئولة عن مستقبل التعاون فى مصر. وفى تلك الفترة سمعت منه لأول مرة عن الدراسات التى تجرى لعمل نظام لإقراض الفلاحين وإنشاء بنك القرية، وفى كثير من الأحيان كان القرار السياسى الذى يتخذ مخالفا لرأى الخبراء، وكان أبى مثالا للتكنوقراط المجتهد فى عمله، فكان يحاول أن يستخرج من القرار السياسى أحسن ما فيه ليطبقه عمليا بأكبر الفوائد وأقل الخسائر، وكان هذا ممكنا أحيانا ومستحيلا فى أحيان أخرى.

واستمر والدى فى مجال التعاون حتى بلغ سن التقاعد، فعمل سنوات أستاذا فى معهد التعاون وكلية تجارة عين شمس لتدريس مادة التمويل التعاونى، وله كتاب كان يدرس حتى وقت قريب، وكتب كثيرا من المقالات والبحوث فى هذا المجال ،وكان دائما يعتقد أن التمويل التعاونى نظام اقتصادى رائع ، ومشكلته الوحيدة أنه غير مسنود بقوة سياسية، ففى النظام السياسى الرأسمالى لا يوجد مكان للنظم التعاونية ، وفى النظام الشيوعى كل شىء تملكه وتموله الدولة ولا مكان أيضا للنظام التعاونى باستثناء مجرد إطلاق اسم التعاون على بعض الوحدات، وحقيقة لا يوجد نظام تعاونى حقيقى إلا فى البلاد الإسكندنافية ، وحتى هناك فإنهم بدأوا يتخلون عنه.

في تلك الفترة من العمر وأثناء السنتين الأولى والثانية كنت متابعا لكل الصحف والمجلات المصرية التى كان والدى مواظبا على قراءتها. وكنت أراقب بإعجاب كل ما تقوم به الثورة من مشروعات أو قرارات تصدرها، وكان الطابع الدعائى المصاحب لكل شيء مبهرا لى، لكن الإعجاب بالثورة كان يزداد تدريجيا، وأصبح الحلم فى التقدم واللحاق بالعصر ممكنا. وكانت بعض الشعارات غاية فى الإغراء كشعار القضاء على الفقر والجهل والمرض، ومشروعات محو الأمية التى صورت لنا الأمر على أنه مسألة تأخذ بضع سنوات لتمحى الأمية تماما، و يقضى على البلهارسيا فى سنوات قلائل. ثم ما كتب عن حرب فلسطين فى الصحف وما حدث للجيش المصرى. كل هذه المشاكل كنا نعتبر أن حلها فى الشعار الذى ساد فى تلك الفترة وهو الاتحاد والنظام والعمل والذى كان يكتب على السبورة فى الفصل ونراه على لافتات الشوارع وفى كل مكان وكانت تكتب وتلحن له الأغانى.

وفى ذلك الجو الذى كان يسوده التفاؤل والأمل فى مستقبل أحسن للوطن كنا نحب الثورة من القلب، وكنت أتعجب من التفاؤل المشوب بالحذر الذى أسمع أبى وبعض الأقارب يبدونه عند الحديث عن التطورات السياسية. وكنا نحب محمد نجيب، وأصابنا حزن شديد عندما نحى من منصبه بعد عودته الصورية لبعض الوقت، وحتى ذلك الوقت لم يكن لجمال عبد الناصر شعبية كبيرة بيننا نحن الطلبة، وبالطبع تغير الموقف بعد أحداث ١٩٥٦ فأصبح عبد الناصر هو حبيب الملايين بلا منازع، ولم أشعر على المستوى الشخصى بحملة الاعتقالات الكبرى للإخوان المسلمين عام ١٩٥٤، ثم حملة الاعتقال للشيوعيين بعد ذلك فلم يكن لنا أقارب أو معارف أو أصدقاء من أى من الفريقين. ربما كان ذلك لأن عائلاتنا كانت محايدة للغاية ولا تتدخل فى السياسة حسبما قالت دائما جدتى لأبى. وحقيقة لست أدرى كيف لم أكن أعرف معرفة شخصية فردا واحدا فى ذلك الوقت دخل المعتقل الذى ابتلع الآلاف من المصريين داخله.

وكانت حملة الدعاية الصحفية ضد الإخوان المسلمين غاية فى القوة، واحتلت أنباء الجهاز السرى المسلح للإخوان صفحات وصفحات من الصحف. وكانت الحملة الصحفية ضد الشيوعيين أيضا قوية لكنها لم تكن بمثل قوة الحملة على الإخوان ، ربما لأن الحكومة استشعرت خطراً أكبر من الإخوان الذين كان لهم الشعبية والقواعد فى أنحاء متفرقة، وذلك بخلاف الشيوعيين واليسار بصفة عامة الذين لم يكونوا خطرا حقيقيا على نظام الحكم فى أى وقت من الأوقات، بالإضافة إلى إنخفاض شعبيتهم و الإساءة إلى سمعتهم والحركة الدعائية القوية التى كانت تقودها دار أخبار اليوم منذ الأربعينات ضد الشيوعيين واتهامهم المستمر بالإلحاد والعمالة للخارج.

وقد غطت الحملة الدعائية التى تبشر بمستقبل وردى لمصر على حقيقة اعتقال الآلاف من المصريين ، وآمن الكثيرون بنظرية الدكتاتور العادل دون أن يعرفوا سوء ذلك!.

وفى هذه الفتره كانت جريدة أخبار اليوم ثم الأخبار عند صدورها بعد ذلك أكثر الصحف انتشاراً. بالإضافة إلى مدرستها الصحفية التى تعتمد على الإثارة والتشويق وطريقة اختيار وكتابة الخبر فإنها ضمت كثيراً من الكتاب المرموقين ، فكان يرأس تحريرها على ما أذكر ستة أو سبعة من عمالقة الصحافة المصرية من بينهم أذكر محمد التابعى وكامل الشناوى وسلامة موسى ومصطفى أمين، وجلال الحمامصى . أما الأهرام فكان يرأس تحريرها أحمد الصاوى محمد. وعلى ما أذكر أن الأهرام فى تلك الفترة كان تمر بفترة ركود فلم تكن تغرى بالقراءة. وكانت جريدة المصرى لسان حال الوفد قد أغلقت أبوابها عقب سلسلة من المقالات المطالبة بالديموقراطية خلال أحداث ١٩٥٤ .

وفى تلك الفترة قرأت بالمصدفة كتابا للأستاذ سلامة موسى جعلنى فى حالة من الانبهار الشديد بسهولة الأسلوب المعتمد على الأفكار التى تصل بسهولة ويسر،

وأدمنت قراءة سلامة موسى بعد ذلك ، فقرأت كل ما استطعت العثور عليه مما كتب إما بالشراء على قدر ما تسمح به ميزانيتى الشخصية ، والباقى قرأته فى المكتبات العامة.

تعلمت من سلامة موسى الكثير وأدين له بفضل كبير ، فهو أول من حببنى فى العلم وأوضح لى بما لا يدع مجالا للشك أن التقدم الحقيقى فى هذه الدنيا هو التقدم فى العلم ، وأن التقدم العلمى يقوم على حقائق محددة ، وكان هو أول من تعلمت منه التفكير العلمى فى مواجهة أية مشكلة. لقد جاءت معلوماتى الأولية عن أينشتاين وداروين وإسحق نيوتن من كتاباته، وكان سلامة موسى أول من شرح لى مبادئ الاشتراكية بعيدا عن الدعايات الفجة التي كانت تروجها بعض الصحف والكتب ضد الاشتراكية ، وفى ذلك الوقت عرفت منه معنى الماركسية وقوانينها ونظامها. وكتب كثيرا عن الاشتراكية المثالية والفابية وجماعة سان سيمون وعن الاشتراكية التى بدأت تطبيقها انجلترا والدول الإسكندنافية لتقريب الفوارق بين الطبقات عن طريق توفير خدمات تعليمية وصحية وسكنية لكل طبقات الشعب، عن طريق ضرائب تصاعدية تصل إلى ما يقرب المائة بالمائة فى بعض الأحيان. عرفت من سلامة موسى أهمية الحرية الشخصية وأهمية حرية التعبير واحترامه لكل الآراء والأفكار، فكان يناقش ما يخص الأديان والله بحرية تامة طارحا كل الأفكار والحجج بأسلوب بسيط. تعلمت من سلامة موسى أهمية أن تعرف لغة أجنبية لتقرأ بها بعض الآراء والأفكار بلغتها الأصلية، وكان هذا هو الدافع الحقيقى لى فى أن أجيد الانجليزية وأن أقرأ بها عددا كبيرا من كتب الأدب والتاريخ بالإضافة إلى كتب الطب. تعلمت منه احترامه للمرأة وحق المساواة بين الرجل والمرأة. تعلمت منه احترام الرأى الآخر والفكر والدين الآخر. تعلمت منه مبادئ المحافظة على الصحة وأهمية الرياضة البدنية وكيفية الاسترخاء. حقا لقد علمنى سلامة موسى الكثير وأعتقد أن هذا الرجل لم يأخذ حقه

فى تاريخنا ، فهو يستحق مكانة عالية بين كبار مفكرينا. ولازلت حتى هذه اللحظة أعتقد أن كتب سلامة موسى السهلة البسيطة تصلح بداية لتكوين فكر شبابنا. ولقد أهديت كلا من ابنتى مجموعة كتب سلامة موسى بعد زواجهما. رحم الله هذا المفكر والكاتب العظيم الذى كتب الصعب فى قالب السهل الممتنع، وفى زمن كانت هذه الأفكار لاتزال بكراً فى المجتمع المصرى.

وفى نفس تلك الفترة استمر إعجابى وحبى لتوفيق الحكيم ، فكنت أواظب على قراءته ، وكان العثور على كتبه أسهل ، لتواجدها فى كل مكان ورخص سعرها، وكان أبى أيضا يقرأ لتوفيق الحكيم، فسهل ذلك مهمتى لأنه كان يشترى بعض كتبه ، ولذا لم يكلفنى شيئا من مصروف أو مجهوداً فى الشراء. لا أذكر على وجه الدقة أى كتب توفيق الحكيم قد قرأتها فى تلك الفترة ، ولا أستطيع أن أحدد ما قرأته حينئذ من بين ما قرأته بعد ذلك، لكننى أعتقد أننى قرأت عصا وحمار الحكيم وعصفور من الشرق فى تلك الفترة. فقد كان الحكيم الأديب المفضل لدى حتى وصلت إلى الثلاثين من عمرى.

وفى تلك الفترة عثرت على كتاب إبراهيم الكاتب لعبد القادر المازنى فسعدت جدا به وبأسلوبه الملىء بالسخرية والفكاهة الراقية وبطريقته الرائعة فى وصف البشر ، ولا أدرى لماذا ظل هذا الكاتب المبدع مجهولا لجيلى والأجيال التالية فى حين أنه كان علما من أعلام الأدب فى النصف الأول من القرن العشرين ؟.

أما عباس العقاد فكان مشكلة كبرى بالنسبة لى، وظل طوال العمر يشكل رمزا غير مفهوم!، فكنت حين أقرأ الصحف أو المجلات أو بعض المقالات النقدية أجد الكثير والكثير عن عظمة العقاد وفكره و مقدرته و أدبه و شعره وإلى يومنا هذا يكتب الكثيرون من معاصريه أو ممن درسوا أعماله أو تتلمذوا على يديه عن عظمته . ويظل صالون العقاد موضوعا ثريا تكتب عنه المقالات والكتب. فمما لا شك فيه أن العقاد

بشهادة الجميع رمز للفكر والأدب وأنه قام بأعمال أدبية جليلة. وأعترف بأننى لم أستطع أبدا أن أحب وأن أتمتع بما كتبه العقاد، وقد حاولت مرارا وبجدية شديدة لكننى حقيقة أعترف أننى لم أكمل له كتابا. لست أدرى سببا لذلك، هل كان ذلك راجعا إلى عدم قدرتى على الوصول لأفكار العقاد، أم كانت لغته عائقا؟. وأعتقد أننى قد قرأت فى مراحل تالية من عمرى كتبا يجمع النقاد على صعوبتها لكتاب عالميين أو بعض الكتاب المصريين والعرب ولم تكن عندى مشكلة فى ذلك، وهكذا أصبح عندى عقدة اسمها العقاد الرجل الذى حفر اسمه فى تاريخ مصر السياسى والأدبى والنقدى لسنين طوال لكننى لم أستطع الوصول إليه أبدا.

وبين الرابعة عشرة والخامسة عشرة لم أكن قد قرأت طه حسين أونجيب محفوظ بعد، لكننى أذكر بعض الكتب التى كنا نشتريها بقرش واحد من إحدى المكتبات فى شارع خيرت بالقرب من ميدان لاظوغلى والمخصصة للكتب القديمة الرخيصة الثمن ، فلم تكن الكتب فى حالة جيدة، فكثيرا ما كان الغلاف غير موجود، وأحيانا تكتشف أثناء القراءة أن بعض الصفحات غير موجودة، وكانت هذه الكتب أصلا مطبوعة طبعات شعبية رخيصة. أذكر من الكتاب الذين أعجبت بهم فى تلك الفترة سعد مكاوى ومحمود البدوى الذى بهرتنى قصصه القصيرة. وفى وقتنا الحالى يجب أن يولى النقاد جهودهم لإعادة اكتشاف هؤلاء الكتاب وتقديمهم مرة أخرى لشبابنا.

وبدأت فى قراءة الروايات المترجمة ، وكالعادة بدأت بالروايات البوليسية لأجاثا كريستى، وكنت أعجب بها أشد الإعجاب وأفضلها عما كان يقرأه زملائى من روايات أرسين لوبين البوليسية. وأعتقد أنى قرأت معظم ما كتبته كريستى فى تلك المرحلة وفى مرحلة تالية حين قرأتها بالإنجليزية وكنت أكثر نضجا ، وقد وجدت أن معظم الروايات فيها كثيرا من التكرار والتشابه إلا أنه كان بها الكثير من الحبكة والتشويق والإثارة.

وبدأت علاقتى بالأدب العالمى حين درسنا فى السنة الثانية الثانوية رواية الأديبة الأمريكية بيرل باك (الأرض الطيبة) باللغة الإنجليزية، وكانت البداية صعبة علينا من الناحية اللغوية ، حيث كانت معرفتنا بمفردات اللغة الإنجليزية وحصيلتنا من الكلمات محدودة. فكنا نقرأ فى الفصل ونتعرف على معانى الكلمات ، وكان غير مسموح لنا بكتابة معنى الكلمات التى لا نعرفها (وهى كثيرة جدا) بالعربية ، وإنما نكتب معنى الكلمة مشروحا فى جملة بالإنجليزية ، لذا كانت أول خطوة هى إرسال الرواية التى نتسلمها من الوزارة إلى المكتبة حيث تجلد ، وتوضع صفحة بيضاء أمام كل صفحة فى الرواية. وكنا نكتب معانى الكلمات فى الصفحة البيضاء، وكانت قراءة الرواية تمثل مجهودا شاقا لنا، وبنهاية الرواية وجدت أننى معجب بها أشد الإعجاب ، وكانت هذه الرواية أول مدخل حقيقى لى لقراءة الأدب العالمى باللغة الإنجليزية.

استفسرت حديثاً من بعض الزملاء عن أسماء الروايات الإنجليزية والعربية المقررة على طلبة الثانوية، وعلمت أنهم لا يقرأون رواية كاملة وإنما تغيرت طريقة التدريس، ولا أزال أعتقد أن أحسن طريقة لمعرفة اللغة فى هذه المرحلة هى قراءة روايات تقدم المحصول اللغوى المناسب ويستوعب التلميذ قيمة أدبية راقية، ويتعرف على أنواع أخرى من الأدب تأتى من مجتمعات مغايرة لمجتمعه.

ولا نعنى قراءة الأرض الطيبة أو الأفق المفقود أو قصة مدينتين لتشارلز ديكنز كجزء من منهج اللغة الإنجليزية الذى درسناه أننا أصبحنا نجيد الإنجليزية، لكنها كانت مدخلا مهما إلى معرفة اللغة والقراءة بها.

وفى تلك الآونة بدأت فى التعرف على المجلات الثقافية التى كانت تصدر فى مصر ، لكن المجلة الوحيدة التى كنت أحصل عليها بصفة منتظمة هى مجلة الهلال الشهرية ، فكان والدى يشتريها بانتظام ، وكنت أجد فيها مقالات كثيرة فى مختلف فنون المعرفة ، وواظبت على قراءة الهلال الشهرية حتى يومنا هذا. وفى تلك الفترة

أذكر أن أخبار اليوم قامت بحملة إعلامية كبيرة للتعريف بمجلة شهرية أمريكية ريدرز دايجست تم ترجمتها إلى العربية ونشرها بواسطة أخبار اليوم تحت اسم المختار، وقد قرأت بعض نسخ منها فلم أعجب بها ولم أستمر فى شرائها، وتذكرتها مرة أخرى فى الستينات حين قرأت أنها منعت من التداول والإصدار فى مصر لأنها تحوى دعاية أمريكية. عموما هذه المجلة لم تكن تجد رواجا فى مصر ولم تجذب المثقف المصرى ، وربما كان قرار منعها دعاية لها، فظلت تصدر من بيروت وأعتقد أنها ماتت موتاً طبيعية بعد ذلك ، وعموما فحتى لو كانت تابعة للمخابرات الأمريكية ـ كما قيل فى ذلك الوقت ـ فليس لهذا معنى الآن ، لأن الأمريكان موجودون معنا ومع غيرنا من بلاد العالم وقد أصبحوا الخير والبركة للجميع سواء شئنا أم أبينا!!.

وفى تلك الفترة من الخمسينات نشطت المراكز الثقافية الأجنبية فى مصر ،خاصة الأمريكية والتى كانت علاقتها مع الثورة جيدة فى ذلك الوقت ،أذكر أننا قرأنا إعلانا عن المركز الثقافى الأمريكى فى جاردن سيتى وخدماته الثقافية ، واقترح زميلى فى الفصل سيد توفيق ـ الذى دخل معى الطب وأصبح أستاذا للأنف والأذن بعد ذلك ـ أن نذهب لزيارة مركز الثقافة الأمريكى. وأذكر أن المبنى كان فيلا أنيقة بحديقة جميلة فى جاردن سيتى ولا يبعد كثيرا عن مدرستنا ، وعند المدخل وجدنا لافتات كثيرة عن أنشطة المركز من أفلام ومحاضرات وطريقة الاشتراك فى المكتبة والاستعارة الخارجية ، ودخلنا المكتبة واتجهنا إلى سيدة أمريكية فى نحو الخمسين من عمرها تجلس على مكتب ، وكنت أريد أن أسأل عن كيفية البحث عن الكتب المختلفة ، وفوجئت بسيد توفيق يسأل السيدة عن كتاب يريد قراءته ولم أسمع جيدا اسم الكتاب الذى كرره أكثر من مرة وفوجئت بأمينة المكتبة تصاب بنوبة عصبية ، وبدأ صوتها يعلو بالإنجليزية بأن هذا الكتاب غير موجود وأن هذه النوعية من الكتب لا توجد فى المكتبات المحترمة ، وخرجنا بسرعة من المكتبة والمركز إلى الشارع، واستفسرت عن اسم الكتاب من سيد فقال إنه ماين كامف فلم أفهم شيئا ، وأخبرنى بأنه الاسم

الألمانى لكتاب هتلر كفاحى. ولم أكن أعلم شيئا عن هذا الكتاب ولم أسمع به من قبل وسألت سيد عن سبب طلبه واهتمامه بهذا الكتاب، وكنا لم نبلغ الخامسة عشرة من العمر بعد فلم يعطنى إجابة شافية. عندما فكرت فى هذه الحادثة بعد أكثر من عشرين عاما وحاولت أن أجد سببا لكيف عرف سيد بوجود هذا الكتاب ثم الاهتمام به لدرجة طلبه من المكتبة ، لم أستطع يقينا تحديد السبب ، لكننى تذكرت أن أباه كان يعمل لسنين طويلة منذ نهاية الثلاثينات مديرا لشركة ماركونى الإيطالية للاتصالات وعاش فى إيطاليا فترة ، فربما كان والده من أنصار الدوتشى موسيلينى ، وبالتالى قد يكون من المعجبين بهتلر ، وربما سمع سيد من أبيه معلومات عن هذا الكتاب وأراد أن يقرأه ، لكن كل هذا مجرد تخمينات واستنتاجات ربما يكون مرجعها روايات أجاثا كريستى وتأثيرها. وهكذا انتهت زيارتنا إلى المركز الثقافى الأمريكى بالفشل ولم نعد له مرة أخرى ، وقد خطرت ببالى هذه الحادثة عام ١٩٦٧ عندما أحرقت المظاهرات الغاضبة هذا المركز.

وقد كان بالفصل فى المدرسة الإبراهيمية مجموعة رائعة من الطلبة، وكان يجمعهم التجانس، فمعظم التلاميذ من أبناء الطبقة الوسطى ومعظمهم يسكن فى حى المنيرة وباب اللوق والقصر العينى والمنيل ، وقليل منهم كانوا من سكان جاردن سيتى أو من سكان السيدة زينب. وقد كان اهتمام معظم الطلبة باستذكار الدروس وحل جميع المسائل الرياضية فى كتاب الوزارة بالإضافة إلى الكتاب الخارجى، ولم تكن الدروس الخصوصية معروفة فى ذلك الوقت إلا فى الثانوية العامة فى بعض المواد فقط.

وقد دخل من زملائى فى الفصل عدد كبير كلية الطب وتزاملنا فى الدراسة فى القصر العينى ومازال الكثير منهم على علاقة وثيقة بى حتى الآن.

وفى تلك الأثناء أجريت أول انتخابات برلمانية بعد الثورة لما كان يسمى بمجلس الأمة ، وقد أعلنت الحكومة فى جميع الصحف ، أن الانتخابات سوف تكون حرة

تماما ، فلقد انتهى عهد تزوير الانتخابات كما كان يحدث قبل الثورة ، وفتح باب الترشيح وأعلنت قوائم المرشحين ، وكان بيتنا فى باب اللوق يقع فى دائرة قصر النيل الانتخابية، وبدافع الفضول ذهبت فى جولة بعد الغروب مباشرة لأرى ما يحدث فى الدعاية الانتخابية، وذهبت بالتحديد إلى مقهى كبير قرب ميدان باب اللوق، وكان قد وصلنا فى المنزل منشور انتخابى من الصحفي موسى صبرى (والذى أصبح صحفيا مهما فيما بعد)، بأنه سوف يعقد اجتماعا انتخابيا فى هذا المقهى، وذهبت وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى لأرى ماذا يحدث، ووقفت بعيدا على الرصيف المقابل وكان المقهى مليئا بالناس، ووصل موسى صبرى ودخل المقهى وقام البعض بالتصفيق له ثم اعتلى كرسى خيزران وبدأ فى إلقاء خطبته التى وعد فيها بأن يلخص مشروعه الانتخابى. وقبل أن يبدأ فى شرح أول بند من مشروعه اعتلى شخص آخر تنم ملامحه عن البلطجة ترابيزة ووقف يزأر بصوت جهورى عال: السيد موسى صبرى شنودة هذا خائن للوطن وأنا أعنى السيد موسى صبرى شنودة وأخذ يكرر ويعيد كلمة شنودة وكأنها شتيمة. ولأول مرة فى حياتى وكنت فتى غريرا- دهشت لمحاولة إهانة موسى صبرى شخصياً وإضعاف موقفه بسبب دينه! ، واعتبرت وأنا الفتى الصغير هذا العمل غير أخلاقى وأن من قام بذلك لابد من عقابه، وعلا صوت موسى صبرى يرد وحوله بعض المؤيدين، ثم دخلت القهوة مجموعة كبيرة تزأر بصوت عال: يسقط شنودة، يسقط شنودة فأصابنى الذهول ، وحضرت الشرطة وقامت بفض الاجتماع الانتخابى بعد أن قام الفتوات بإزالة جميع الملصقات الخاصة به!!.

وبالطبع قام بهذه الحملة أنصار المرشح الآخر مجدى حسنين، وهو من ضباط الصف الثانى للثورة ورأس مشروع مديرية التحرير الذى قامت حوله علامات استفهام كثيرة بعد ذلك. وعموما بعد بضعة أيام صدرت الصحف وفى صفحتها قائمة بأسماء المرشحين الذين وافقت عليهم الحكومة ، وتم شطب المرشحين الذين لم يحظوا

بموافقة الحكومة ، وفى الدوائر التى كان للثورة فيها مرشح كان جميع المرشحين الآخرين يتم شطبهم ويفوز مرشح الثورة بالتزكية!. وهكذا فاز مجدى حسنين بالتزكية فى دائرة قصر النيل مثل أعداد كبيرة من المرشحين. وهكذا تعلمت أول درس انتخابى على الطبيعة فى الديموقراطية الجديدة!!.

ولم تكن تلك الأحداث تثير غضب الناس وسخطهم واستهزائهم كما كان يحدث قبل الثورة وكما حدث فى مراحل لاحقة من حكم الثورة ، لأن الشعب كان يتطلع إلى المستقبل بأمل كبير ويصدق أن الديمقراطية سوف تؤجل حتى يمكن اقتلاع جذور الفساد. وحقيقة كانت للحملات الدعائية التى قادها صحفيون وإذاعيون بارعون على درجة كبيرة من الكفاءة دور كبير فى إقناع عامة الشعب بذلك!.

وكانت أفكار ومجهودات عبد الناصر تبدو لنا منطقية حين يتحدث عن الاستعمار أوالفساد أو التصنيع أو رفع المعاناة عن فقراء الشعب المصرى. وفى تلك الفترة انبهرنا بعبد الناصر حين ذهب إلى مؤتمر باندونج وعاد وهو يعلن حركة عدم الانحياز مع قطبيها تيتو ونهرو، ولقد استطاعت هذه الحركة بالرغم من الاختلاف الجذرى بين أقطابها وبين نظم حكمهم التى تجمع بين الشيوعى والقائد السابق لمقاومة النازى، وبين زعيم حزب فى بلد يحترم قواعد الديمقراطية، وبين ضابط ثائر لم يجد بعد الصيغة المناسبة لنظام الحكم فى بلده أن تحدث تأثيراً عالمياً بدون شك ، فقد أثارت قلقا فى المعسكر الرأسمالى والاشتراكي على السواء. وأثارت فينا نحن فتيان ذلك العصر حماسا، وبدأنا نشعر بأن مصر بلد له أهمية، وفرحنا بعبد الناصر وهو عائد من باندونج. وخارج نطاق ما نسمعه من الراديو أو ما نقرأه فى الجريدة، لم نشعر بتاتا بأى نشاط سياسى لأى فئة، وحتى هيئة التحرير وتلاميذها اختفوا من الوجود ولم يصبح لهم وجود أو صوت. ولم يحدث إضراب واحد أو مظاهرة أو حتى احتجاج واحد حتى أنهينا دراستنا الثانوية.

وهكذا مرت سنوات الدراسة فى هدوء فوصلنا إلى الثانوية العامة. وكان هذا الامتحان كما هو الآن امتحان مصيرى، وكنت أستذكر دروسى مع الجيران من زملائى. وأنهينا دراستنا الثانوية بنجاح وحصلت على مجموع قدره اثنان وثمانون فى المائة. وكان هذا المجموع يعتبر كبيرا جدا فى ذلك الوقت، حيث إن ترتيبى كان الرابع والثمانين على الثانوية العامة. وقد كان الحد الأدنى لدخول طب القاهرة فى ذلك العام تن‌يمتد. وكانت فرحتنا كبيرة بالنجاح والخلاص من سجن المدرسة الثانوية والانطلاق إلى رحاب الجامعة.

وبعد أسبوعين من نجاحى تلقيت خطابا كبيرا أصفر اللون عليه طوابع بريد حكومية ومسجل بعلم الوصول استلمته من ساعى البريد ووقعت بالاستلام، وكان عمرى لم يبلغ السادسة عشرة بعد. وأخذت الخطاب لأمى فأصابها بعض القلق وبدأت تستغرب عن سبب وصول خطاب بهذا الحجم من الحكومة المصرية لى وأنا مازالت تلميذا بالثانوى، وأصابها كثير من الخوف فلماذا ترسل الحكومة خطابا بهذا الحجم لابنها. وكمثل باقى المصريين فإن خوفهم وعدم ثقتهم فى الحكومة كبير، إذ يعتقد معظم المصريين منذ زمن بعيد أن الحكومة دائما تضمر الشر والأذى للمواطنين، فالخطاب الآتى من الدولة لا يمكن أن يكون جواب شكر أو تقدير أو مكافأة، وإنما غالبا ما يكون طلبا ليس له أهمية أو أمرا بجباية أموال. وكانت تلك الخطابات فى معظم الأوقات تعلن عن نوع من أنواع الظلم والاستخفاف بالمواطنين وويل لمن لا يرد على الحكومة ولا ينفذ أوامرها، أما العكس فلا يمكن حدوثه فمن الطبيعى ألا ترد الحكومة على أى طلب أو شكوى أو استفسار وأن تبدى دهشتها لأن مواطنا كتب لها خطابا!.

وأخيرا قررنا فتح الخطاب وقراءته قبل حضور أبى، فوجدت خطابا من صفحتين مرفق به كتيب أنيق مطبوع. وكان الخطاب موجها لى من جهة غير معروفة، فلا

هي الجامعة ولا هي وزارة التعليم. وملخص الخطاب أنه بناء على درجاتي في الثانوية العامة خاصة في الرياضيات والطبيعة والكيمياء تقرر ترشيحي لبعثة إلى الاتحاد السوفيتي لدراسة علوم الذرة، وذلك لمدة ٤ سنوات تليها ست سنوات أخرى للحصول على الدكتوراه، وأنني في حالة موافقتي يجب أن أملأ استمارة مرفقة بكم ضخم من البيانات. وقد أفاد الخطاب صراحة أنه في حالة موافقتي سوف تتم دراسة أمنية عن عائلتي وأقاربي وأصدقائي قبل الموافقة النهائية على السفر. وأصابني هذا الخطاب بكثير من الزهو وبعض الخوف، فلم أفكر أبدا أنني سوف أكون عالما في الذرة أو أنني سوف أقضي عشرة أعوام في روسيا. واتصلت بأصدقائي من الفصل وعلمت منهم أن سيد توفيق وطلعت حسان قد وصلهما نفس الخطاب ، وأن الحكومة بصدد تكوين كادر على مستوى علمي كبير لهيئة الطاقة الذرية ، وذلك لاستخدام الذرة في الأغراض السلمية ، وربما غير السلمية، وأنها في الطريق إلى تكوين نواة من العلماء المصريين صغار السن ليديروا هذه الهيئة. ربما فكر في ذلك عبد الناصر عندما وصلته معلومات في ذلك الوقت عن أن الفرنسيين يساعدون إسرائيل في انشاء مفاعل ذري ، وربما تصنيع قنبلة ذرية. وقد كان على أن أرسل الرد بالقبول أو الرفض خلال أسبوع. وخلال تلك الفترة لم أستطع النوم سوى بضع ساعات قليلة من كثرة التفكير، فقد كان الإغراء كبيرا : أن تحصل على الدكتوراه وأن تصبح عالما وباحثا كبيرا. وفي النهاية رفضت العرض ولا أدري لماذا رفضته ، ورأيت السعادة الطاغية تغمر وجه أمي حين أعلنت لها قراري ، ورفض العرض أيضا سيد توفيق وقبله طلعت حسان الذي سافر إلى روسيا وعاد فعلا بالدكتوراه بعد عشر سنوات ليعمل عاما واحدا في هيئة الطاقة الذرية ، وتحدث كارثة ١٩٦٧ وينهار الحلم الذري المصري ويبقى العلماء المصريون الذين تعلموا بلا عمل حقيقي. وقد وصل طلعت إلى منصب نائب رئيس هيئة الطاقة الذرية وتوفى فجأة عام ١٩٩٩ ربما بسبب الإحباط لسنين طوال.

الجامعة وأحداث ١٩٥٦

أصبح على أن أفكر فى الكلية التى سوف ألتحق بها. وقد أصبح الاختيار صعبا بعد أن قررت الوزارة أن علمى رياضة يمكنه أن يدخل أية كلية بما فيها الطب. وكنت قد قررت مسبقا أن الهندسة هى الكلية المناسبة لى ، وكانت كل التقديرات والتنبؤات تقول إن مصر على وشك إرساء نهضة صناعية كبرى وإننا فى حاجة إلى مهندسين. وكنت شديد التردد فترة طويلة حتى قررت اختيار الطب فى النهاية بضغوط غير مباشرة من الأقارب والمجتمع ككل ، وربما كان السبب استثمار المجموع المرتفع، وربما أيضا إغراء وظيفة الطبيب ذى البالطو الأبيض والعيادة ، والذى كان عمله فى ذلك الوقت يكفل له احتراما كبيرا من المجتمع ودخل مادى أعلى بكثير من الفئات الأخرى. لا أدرى أى هذه الأسباب كان وراء دخولى الطب، وربما كانت كلها مجتمعة. وكان عدد المقبولين فى أغسطس عام ١٩٥٦ مائتين وعشرين طالباً ، وكانت توجد ثلاث كليات للطب فقط، القصر العينى وعين شمس والإسكندرية. وأذكر أن نقابة الأطباء أصدرت احتجاجا قويا على هذا العدد الضخم من المقبولين الذى لا توجد له أماكن كافية للتدريب فى الكليات وبعد التخرج. ولم يكن أحد يعرف ماذا تخبئ الأيام لكليات الطب وتدريب الأطباء. فأذكر وأنا مدرس بالكلية عام ١٩٧٠ أن دخل القصر العينى دفعة يزيد عددها على ألفين ليتعلموا فى مستشفى أصغر حجما وسعة بعد هدم القصر العينى القديم الذى كان آيلا للسقوط. وهكذا أصبح عدد الطلاب الذى اعتبر كبيرا عند دخولى الكلية قطرة بالنسبة للأعداد المقبولة بعد ذلك بالإضافة إلى عدد كبير من كليات الطب الإقليمية وفى السنوات الأخيرة أضيفت كليات الطب الخاصة.

وكانت فى دفعتنا عند الدخول اثنتان وأربعون فتاة ولم تكن واحدة منهن ترتدى الحجاب. وكان نصف الطلبة من القاهرة والنصف الآخر من المحافظات ابتداء من

أسوان التى كانت ممثلة بطالب واحد ، مرورا بباقى محافظات الصعيد وبعض مناطق الوجه البحرى كالشرقية والمنوفية ومنطقة القناة، أما باقى محافظات الوجه البحرى فقد كان الطلبة يختارون الإسكندرية للدراسة. وكان معنا نحو خمسة طلبة من البلاد العربية معظمهم أصبحوا وزراء للصحة فى بلادهم بعد بضع سنوات من التخرج. وكان أيضا فى دفعتنا اثنان من اليونانيين المصريين نيكولا وخريستو، وكان نيكولا سمينا وخريستو رفيعا وكنا نسميهما لوريل وهاردى. وأذكر يوما أثناء الدراسة أن أخبرنا أحد الزملاء أن أحسن كبابجى اسمه عم عبدالله وهو فى شارع كلوت بك تحت البواكى التى تظلل الشارع ، وهو محل صغير جدا لا يتعدى طوله مترين وعرضه مترا ونصف المتر أما المطعم نفسه فدائما أبدا فى الشارع حيث ترص الترابيزات والكراسى على الرصيف ، وكان عم عبد الله لا يعمل بالنهار ويفتح فى الساعة الحادية عشرة مساء ، وكنا نفرغ من العشاء حوالى الساعة الثانية عشرة والنصف ، وكان يقدم البيرة المثلجة والسلاطة بأنواعها. وكنا نعرف أن الزحام الحقيقى عند عم عبد الله يبدأ فى الواحدة صباحاً. وفى ذات ليلة وبينما نأكل الكباب فوجئنا بنيكولا ينزل من السلم محاولا الخروج من باب العمارة الذى كان مسدودا بترابيزات عم عبد الله ، وكانت فرحتنا بنيكولا كبيرة عندما علمنا أنه يسكن فى ذلك المنزل، وعند كل زيارة لعم عبد الله كنا ننادى على نيكولا من الشباك حتى ينزل. وكان يونانيا مصريا أبا عن جد ، فجده الأكبر هاجر إلى مصر فى القرن التاسع عشر ، وقد كان نيكولا مصرى الجنسية ، ولكننى اعتقد انه أحتفظ أيضا بجنسيته اليونانية بالرغم من أننى عرفت أنه لم ير اليونان طيلة حياته حتى ذلك الوقت، الا انه كان يجيد اليونانية والعربية إجادة تامة ، وقد هاجر نيكولا وأيضا خريستو بعد التخرج مباشرة ، ولا أدرى أين حطت بهما الرحال. وقد حاولنا فى سنين لاحقة بعد التخرج اقتفاء أثر الدفعة عندما قمنا باحتفال بمناسبة ٢٥ عاما على التخرج، وكان نيكولا وخريستو فى عداد المفقودين.

كما كان من دفعتنا أيضا اثنان من الأرمن المصريين وكانت علاقتنا بهما وطيدة للغاية ، وقد عثرنا على أحدهما فى العيد الفضى للدفعة ، وكان اسمه أوجست أنتاكى وكان يعمل أستاذا لمادة الباثولوجيا فى جامعة نيويورك وجاء إلى مصر خصيصا لحضور حفلة الدفعة.

وكان بالدفعة مجموعة من الطلبة ذوى الأصول الشامية، وكانوا يسكنون جميعا فى مصر الجديدة ، وكانوا جميعا من خريجى المدارس الفرنسية ، وقد هاجروا بالكامل إلى مونتريال فى كندا بعد التخرج عدا عزيز قربة فقد سافر ولا يزال يعمل طبيبا فى بيروت ، ويحضر للقائنا كل عام ومازال محتفظا بشقته التى كانت تسكنها العائلة فى مصر الجديدة منذ الأربعينات. وكان يوجد بدفعتنا إثنان من الطلبة السودانيين أحدهما يدعى عثمان خضر ويبدو أنه كان من عائلة أرستوقراطية فى السودان لأنه كان دائما يرتدى ملابس فاخرة ويعزم المجموعة على الغداء ويصر على دفع الحساب، وكان خفيف الدم حلو الكلام ودائما أبدا صيفا وشتاء يرتدى البدلة والكرافتة. وبعد انتهاء الدراسة فى السنة الإعدادية تعثر فى الدراسة سنين طوال ورسب مرات ومرات ، وأعتقد أنه لم يكمل دراسة الطب وعاد إلى السودان ولم أسمع بعد ذلك أنه قد أصبح وزيرا أو زعيما.

أما الزميل السودانى الآخر فكان اسمه سعد دراج، وكان من أبطال ألعاب القوى فى الجامعة، بل وحطم رقم مصر فى الجرى لمسافة ٤٠٠ متر، وكان أيضا يجيد لعب الكرة وكان من أعمدة فريق الكلية، وأنهى دراسته بالكلية وعرفت أنه يعمل طبيبا للتحاليل فى الخرطوم.

فى تلك الآونة لم يكن قد بدأ بعد وصول طلبة الخليج بأعداد كبيرة للدراسة فى مصر، وكان الطلبة العرب الخمسة من اليمن وعدن وليبيا والأردن، ولم نكن نعتبر السودانيين غير مصريين. وكذلك الفلسطينيون المقيمون فى مصر منذ عام ١٩٤٧ لم

نكتشف أنهم فلسطينيون إلا فى نهاية الخمسينات عندما أعلنوا هم ذلك لينضموا إلى فريق الطلبة العرب الذين بدأوا يأخذون مساعدات مادية من الحكومة المصرية أثناء الدراسة.

وعند دخولنا إعدادى طب أول أكتوبر عام ١٩٥٦ فى كلية العلوم داخل حرم الجامعة قسمنا إلى أربع مجموعات ، وأضيفت لنا مجموعتان تمثلان إعدادى صيدلة وإعدادى طب أسنان. وكنا ندرس النبات والحيوان والطبيعة والكيمياء وخواص المواد ، وكان يوجد تدريب عملى فى معامل كبيرة مجهزة إلى حد كبير بما يلزم. وكنا فى غاية السعادة عندما اشترينا البلاطى البيضاء ، وذهبنا إلى محل لطفى حنا فى شارع سليمان باشا لشراء عدة التشريح حتى يمكننا تشريح الضفدعة والأرنب. ولاقى معظمنا بعض الصعوبة فى الفهم والكتابة باللغة الإنجليزية، حيث كان كل شيء يدرس بها وكان الأساتذة لا يتحدثون إلا بها.

وفى تلك السنة تتلمذنا على أساتذة عظام كانوا قمة فى العمل والعطاء، وكان لهم شأن علمى كبير فى العالم الخارجى. أذكر منهم الدكتور حسين سعيد أستاذ فيسيولوجيا النبات والدكتور حسين فوزى أستاذ النبات أيضا وكان مشرفا على الرياضة والفنون بالجامعة ، بالإضافة إلى عمله كأستاذ وباحث بارع. وكنت أشاهده يذهب إلى ملاعب الجامعة بعد اليوم الدراسى ليلعب التنس مع الطلبة والطالبات. وأذكر الدكتور أحمد مصطفى أستاذ الكيمياء العضوية الذى أصبح وزيرا للبحث العلمى فى عهد عبد الناصر.

وكان التدريس يسير بانتظام ، وكان حضور الأساتذة والطلبة فى الميعاد ، وأعتقد أنه لم يكن يتغيب أحد عن الدروس ، وكنا فى فترات الراحة نذهب إلى الكافيتريا لشراء سندوتشات وشرب الشاى ، وبعد فترة وجيزة اكتشفنا أن كافيتريا كلية الآداب أحسن بكثير من كافيتريا كلية العلوم ، ليس فقط بسبب جودة السندوتشات ونظافة

الترابيزات ، وإنما بسبب وجود فتيات جميلات أنيقات هن طالبات الآداب اللاتى كان عددهن يفوق عدد الطلبة من الذكور.

فى ذلك الزمان كان فارق المستوى العلمى بين أستاذ العلوم المصرى ونظيره الإنجليزى أو حتى الأمريكى متقارب، وكانت الأبحاث المصرية تنشر فى كبرى المجلات العلمية وكانت الترقيات فى الجامعة تتم بالمنافسة بين أحسن الباحثين، وكان التحكيم في كلية العلوم دقيقا واميناً وكثيرا ما كانت ترسل الأبحاث إلى الخارج للتحكيم. فى ذلك الوقت لم تكن الفجوة التكنولوجية قد اتسعت هذا الاتساع الكبير، فيوم أن شطرت الذرة لم يكن هناك كمبيوتر ولا أجهزة غاية في التعقيد وإنما شطرها مخ الإنسان العبقرى بمساعدة أجهزة يمكن تصنيعها. ولكن الآن الأمر قد اختلف، صحيح أن مخ الإنسان لا يزال الأساس ، لكن المخ وحده لا يمكن أن يصنع كل شيء الآن ، ولابد من أجهزة مساعدة غاية في التعقيد ، ولابد له من فريق عمل كبير كل يعمل في تخصصه الدقيق. لقد ولت إلى غير رجعة أيام المخترع الذى يجد فكرة ينفذها فى منزله أو فى معمل صغير فتصبح اختراعا. غير أننا حتى فى ذلك العصر الذهبى لكلية العلوم لم نخترع شيئا أو نقدم تطويرا مهما فى التكنولوجيا ، وأعتقد أن ذلك راجع إلى أن معظم أعضاء هيئة التدريس كانوا يعطون معظم الوقت للتدريس أما البحث فلم يكن له وقت كاف والأموال التى تصرف عليه كانت محدودة .

وهكذا مرت الأسابيع الأربعة الأولى من الدراسة الجامعية ونحن منهمكون فى الحضور والتدريب العملي والمذاكرة، لكننا في نفس الوقت كنا مشغولين للغاية بأحداث جسام تمر بها البلاد. فقبل دخولنا الجامعة ببضعة أسابيع وخلال الإجازة الصيفية فشلت مفاوضات تمويل مشروع السد العالي الذي اعتبره جمال عبد الناصر مشروع الثورة الأول وبني عليه آمالا ضخمة، ورفضت أمريكا التمويل وأعلن ذلك وزير خارجية أمريكا بصلافة، فقرر عبد الناصر تأميم قناة السويس ووضع خطة بسيطة

تعتمد على بضعة أفراد، وأعلن تأميم القناة فى خطاب عام بالإسكندرية، فاهتزت الأمة المصرية من أقصاها إلى أدناها وساد شعور عظيم بالابتهاج والنشوة. وكانت سعادة الشباب مثلى عارمة، فقد كانت القناة وتاريخ حفرها وبيع أسهمها دائما أبدا غصة في حلوقنا جميعا. وكانت التغطية الإعلامية لتاريخ حفر القناة عاملا مهما فى الشعور بمدى الظلم الذى وقع على المصريين بسببها.

ومرت فترة بعد تأميم القناة ونحن نتابع الأحداث والمفاوضات ولجنة منزيس الأسترالى التى جاءت لتفاوض عبد الناصر على حل سياسى ، على حين كانت الترتيبات تجرى بين إنجلترا وفرنسا وإسرائيل استعدادا للهجوم على مصر. وفى نهاية شهر أكتوبر بدأ العدوان الثلاثى بهجوم على سيناء وإسقاط مظلات إسرائيلية عند المضايق ثم إنذار انجليزى فرنسى بسحب الجيش المصرى، وهاجمت البلاد من سيناء وماجت ووقف عبد الناصر يخطب فى الأزهر ليعلن رفضه الإنذار بشجاعة ولغة لم يعرفها المصريون من قبل فى رؤسائهم عند مخاطبة القوى العالمية الكبرى، وقد حرك خطاب عبد الناصر مشاعر الجماهير وأشعل الحماس فى قلوب الشباب، أما الكبار فلم يصدقوا أن رئيس مصر يمكن أن يتحدى إنجلترا الإمبراطورية العظمى التى لا تغرب الشمس عن أرضها، وكان شعورى المليء بالحماس والانبهار يصاب بنوع من الصدمة حين أرى الكبار وهم لا يصدقون ما يحدث، لأنهم عاصروا وشاهدوا قوة الإنجليز ومكرهم ودهاءهم ، لكن حماس الشارع المصرى اكتسح الجميع ولم يكن لى الحظ فى أن أقابل أو أستمع لآراء السياسيين والباشاوات من رجال ما قبل الثورة الذين قرأت فيما بعد أنهم اعتبروا أن ما قام به عبد الناصر ضرب من الجنون.

وذهبنا إلى كلية العلوم بالحرم الجامعى لنعلم أن الدراسة أُوقفت لأجل غير مسمى وجلسنا على النجيلة أمام مبنى الكلية نتحدث ونناقش الأحداث والتطورات وكان الحماس شديدا، وأخبرنا أحد الزملاء بأن باب التطوع للحرس الوطنى قد فتح وأن

تدريب طلبة الجامعة المتطوعين سوف يجرى فى ملاعب استاد جامعة القاهرة، فانطلقنا إلى هناك عبر شارع بين السرايات المقابل للجامعة ووجدنا أعدادا غفيرة من الطلبة والطالبات. وبعد انتظار استمر عدة ساعات طلب منا الانصراف والحضور فى اليوم التالى. وفى ذلك المساء بدأت الغارات على القاهرة وأطفئت الأنوار ولم تقصف الطائرات أهدافا مدنية ، وإنما كان التركيز على معسكرات ومطارات الجيش فى منطقة مصر الجديدة. وكانت الأصوات العالية التى نسمعها فى حقيقة الأمر أصوات المدافع المضادة للطائرات. وبعد ليلة عصيبة أطفئت فيها الأنوار وجلسنا أنا وإخوتى مع أبى وأمى حول شمعة صغيرة فى الصالة، خرجت فى الصباح مبكرا بالرغم من محاولات أمى المتكررة والعنيدة لمنعى من الخروج على حين اتخذ أبى موقفا سلبيا فلا هو منعنى من الخروج بالتفاهم ولا أمرنى بعدم الخروج ولا شجعنى على الذهاب إلى استاد الجامعة للالتحاق بالحرس الوطنى.

ركبت الأتوبيس من ميدان لاظوغلى القريب من البيت إلى الجامعة ودخلت منطقة الملاعب فوجدت أعدادا غفيرة من الطلبة ، لكنها ليست بحجم اليوم السابق. وكان هناك هرج ومرج وأصوات ونداءات فى كل اتجاه، ولا تعرف من تكلمه أو تسأله. وفى ملعب كرة القدم شاهدت بعض الطلبة منبطحين على الأرض وفى يد كل منهم بندقية وهو يصوب نحو هدف داخل مربع ورقى مثبت على عامود صغير. ورأيت بعض الطلبة يلبسون جاكت كاكى ويسيرون فى طابور عسكرى حول ملعب الهوكى. حاولت البحث عمن يقبلنى متطوعاً. بحثت عن أصدقائى فلم أعثر على أحد ، فقد كانت الأعداد كبيرة ومن الصعب أن تلتقى مع من تبحث عنه. وقبل الغروب انطلقت إلى البيت لتبدأ رحلة الغارات كاليوم السابق. وكنا نستمع إلى الراديو وبالذات إذاعة صوت العرب التى كانت تبث أناشيد حماسية وكانت تذيع أخبارا عن التأييد العربى ونسف أنابيب البترول فى الشام واستقالة أنتونى ناتنج وزير الدولة البريطانى

احتجاجا على العدوان. وفى اليوم التالى ذهبت مرة أخرى إلى الجامعة فوجدت الأمر يسير على نفس الوتيرة ، فلا تدريب ولا تنظيم وعند الظهيرة تركت الاستاد إلى البيت. ويبدو أن الحكومة كانت جادة على الأقل من الناحية النظرية فى تدريب الشعب على حمل السلاح، ووفرت كمية كبيرة من السلاح خرجت من مخازن الجيش ، ولكنها انتهت إلى قرى الصعيد وبيوت الأعيان وتجار السلاح ، واستدعى الأمر سنين طوالا لمحاولة جمع السلاح الذى وزعته الحكومة بدون نظام أو خطة!.

وعند عودتى إلى البيت أخبرنى أبى أنه ذاهب إلى المستشفى العسكرى فى كوبرى القبة لأن زوج عمتى- وكان ضابطا احتياطيا- قد أصيب إصابة بالغة فى أبو عجيلة بسيناء فى أول ساعات الحرب ونقل إلى القاهرة. وطلبت من أبى أن أذهب معه فركبنا سيارة البنك المخصصة للوالد بسائق ، واتجهنا إلى مصر الجديدة ، وبعد أن وصلنا إل العباسية انطلقت صفارات الإنذار ، وبدأنا نسمع الأصوات الرهيبة ، ولا ندرى هل هى قنابل تلقى أم مدافع مضادة للطائرات؟. وأوقفت الشرطة العسكرية السيارة وطلبت منا النزول واختبأنا فى بئر سلم أحد البيوت المجاورة نحو الساعة حتى هدأ الأمر واستأنفنا المسير ووصلنا إلى المستشفى وكان الدخول ممنوعا ، لكن والدى استخدم دبلوماسيته واتصالاته حتى سمح له بالدخول وانتظرت أنا بالسيارة ، ووصل إلى مكان سعيد عبد الواحد زوج عمتى فوجده مصابا إصابات بالغة وبه عدة كسور وطلقات فى أنحاء جسمه. وعدنا إلى المنزل فى عدة ساعات بسبب إغلاق الشوارع وجلسنا نستمع إلى الراديو على حين كان والدى يحكى ما رآه داخل المستشفى العسكرى من المصابين. واتصل بشبين الكوم عدة مرات بعمتى لطمأنتها على زوجها المصاب.

وبدأ إنزال المظلات على بورسعيد واحتلالها، وبدأت المقاومة الشعبية. وكانت البلاد كلها تفيض حماسا. وأقفلت المدينة الجامعية أبوابها وتوقف التدريب للحرس

الوطني. ولا أدرى حتى الآن حقيقة ما كان يقال وحجم الدعاية والدعاية المضادة. فكانت الإذاعة والصحف تتحدث عن المقاومة الباسلة ضد الإنجليز، ولم نعرف حجم الخسائر فى قواتنا وفى المدنيين، ونشرت أخيراً بعض الكتب التى تتحدث عن دور بعض الأفراد مثل على الرفاعى فى قيادة المقاومة الشعبية ، ولم نعلم أن سلاح الطيران قد حطم بالكامل إلا بعد عدة أعوام فى بعض الكتب. وفرحنا جدا بالإنذار الروسى الشهير الذى اعتقدنا أنه سوف يوقف العدوان ، لكننا علمنا فيما بعد بعد سنوات أن آثار العدوان قد أزيلت لأن أمريكا كانت تريد أن تطرد النفوذ الإنجليزى من المنطقة لتستبدله به النفوذ الأمريكي، وهو ما حدث بالفعل ولو بعد حين. وبعد عدة أسابيع بدأ انسحاب الإنجليز والفرنسيين من بور سعيد والإسرائيليين من سيناء عدا جزء صغير ترك لهم وهو ميناء إيلات على خليج العقبة والبحر الأحمر. ولم نعلم عن ذلك شيئا إلا بعد أن أغلق عبد الناصر خليج العقبة عام ١٩٦٧,

وهكذا خرجت مصر منتصرة فى هذه الحرب ، وبالطبع لم يكن الانتصار عسكريا ، لكنه كان انتصارا سياسيا، فقد أصبحت القناة مصرية ، وتم إلغاء معاهدة الجلاء الإنجليزية ـ المصرية بشروطها المختلفة. وأصبح عبد الناصر أسطورة كبرى تعيش فى قلوب المصريين والعرب كافة. وأصبح الشباب من جيلنا مقتنعا تماما بأنه المنقذ الوحيد لمصر والعرب من براثن التخلف ، وهو القائد الذى سوف يصحبنا فى رحلة إلى التقدم واللحاق بالعصر. وحتى بدء معركة تأميم القناة كان لمحمد نجيب شعبية كبيرة وكنا جميعا نحبه ونعتقد أنه قائد أمين ومخلص ورجل طيب كما يقولون، وقد أيد الشعب عموما عودته إلى الحكم ولو صوريا بعد أحداث ١٩٥٤ ، لكن أحداث ١٩٥٦ جعلت عبد الناصر البطل الحقيقى والأسطورة المصرية، واختفت شعبية محمد نجيب خلف أسطورة جمال عبد الناصر الذى أصبح بين ليلة وضحاها الزعيم الأكبر للعرب وأمل المستقبل للمنطقة كلها.

في تلك الفترة كنا نعلم جيدا أن أعدادا هائلة من الإخوان المسلمين قد وضعوا في السجون والمعتقلات ، وكانت المحاكمات التي جرت قد قامت بإعدام بعض زعمائهم والحكم بالسجن لمدد كبيرة على آخرين، وأن هناك الآلاف من المعتقلين معظمهم بتهمة الانتماء للإخوان. وقد أفاضت الصحف قبل وأثناء المحاكمات في وصف التنظيم السري للإخوان والتدريب على الأسلحة ومعدات الاغتيال ، واستغلت المهارة الصحفية المرتفعة لبعض كبار الصحفيين في إبراز الجانب الإرهابي لحركة الإخوان، مما أقنع جانبا كبيرا من الشعب بأن وجود الإخوان خطر على مصر وعلى مستقبلها. وفي تلك الآونة ـ وبسبب اعتقال أعداد ضخمة من الإخوان ـ كنا نسمع عن آلة التعذيب الجهنمية للمعتقلين من الإخوان، وكانت الحكايات تتناقل من فم لفم مما بدأ يؤثر على الشعور الشعبي نحو الإخوان، بل وبدأ البعض في التعاطف معهم لما أصابهم، لكن الخوف الشديد بدأ يحكم قبضته على الجميع فلم يبدأحد حتى امتعاضا مما يحدث! ، وكنا نسمع عن اختفاء بعض الأفراد بسبب أنهم مقيدون في قائمة الإخوان في السجون حتى دون أوامر اعتقال. وبدأ ظهور النكت السياسية، فكنا نسمع عن المعتقل بتهمة الانتماء للإخوان الذي ثبت أنه قبطي بعد عدة أعوام من اعتقاله! ومما لا شك فيه أن اعتقال الإخوان المسلمين عرف بتفاصيله كل الشعب ، لأنهم كانوا منتشرين في كل مكان وكل قرية، فلم يوجد مكان في مصر لم يعتقل منه فرد أو أفراد.

وفي نفس الوقت قامت الحكومة باعتقال أعداد كبيرة من اليساريين الماركسيين المصريين، وبقوا في السجون والمعتقلات المصرية نحو خمسة أعوام لاقوا خلالها الأهوال. وبالرغم من أن عدد الماركسيين المعتقلين كان قليلا بالنسبة لأعداد الإخوان المعتقلين ، إلا أن جميع اليساريين المعتقلين دون استثناء كانوا من المفكرين والصحفيين والكتاب ، وكلهم كانوا على قدر عال من الثقافة على حين كان المفكرون

من الإخوان قلة بالنسبة لأعداد المعتقلين. وقد مر اعتقال وتعذيب اليسار المصرى بهدوء شديد، فلم يسمع عنه معظم الناس فى ذلك الوقت إلا بالطبع مجموعة المثقفين والكتاب. وأعتقد أن حركة اليسار المصرى لم تأخذ فرصتها فى خلق تيار شعبى يؤيدها بأعداد كبيرة ، فكانت دائما تضم صفوة المفكرين والفنانين ، لكنها إلى أسباب كثيرة بعضها راجع إلى تاريخ الحركة وتكوين أفرادها وبعضها راجع إلى الظروف المحلية والسياسية المصرية وبعضها لأسباب دينية لم تستطع أن تخلق تيارا شعبيا كبيرا مؤيدا لها كما حدث فى بلاد أوروبية أو غير أوروبية فى ذلك الوقت.

ولقد عرفنا تفاصيل هذه الهجمة الاعتقالية من الكتابات والمؤلفات التى صدرت اعتباراً من السبعينات حتى الآن.

والحقيقية المؤلمة هى أن هذه المعتقلات التى دارت فيها آلات التعذيب الجهنمية تعتبر أكبر سقطة وقع فيها نظام عبد الناصر ، فبالإضافة إلى إهدار كرامة الإنسان – وهو شيء لا يمكن أن نغفره – فإن هذه المعتقلات أصابت الروح المصرية فى مقتل. ففى النصف الأول من القرن العشرين بدأ المصرى يخرج من كابوس العبودية وذل الاحتلال التركى والحكم المملوكى والاستعمار الإنجليزى ، وبدأ يقول كلمته ويحاول أن يتحمل مسئوليته ، وكانت ثورة ١٩١٩ وما تلاها من إرهاصات تعلن أن المصرى يمكن أن يقول لا ، وممكن أن يعلن رأيه ويدافع عنه ، وكان ذلك واضحاً فى كتابات تلك الفترة ، وكانت الحركات السياسية المختلفة فى تلك الفترة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار تشمل المؤمنين بالديموقراطية ومؤيدى الفاشية ، وبدأ يلوح فى الأفق رأى عام ضاغط ، وهو أولى المراحل التى يحكم فيها الشعب نفسه بنفسه ، وكانت بعض الكلمات التى ألقيت فى البرلمان المصرى وبعض مرافعات المحامين فى القضايا السياسية تعلن عن أن هناك تغييراً قد حدث وأنه يصعب تحجيم الشعب أو إعادته إلى القمقم.

وهاهو الجيش المصرى يتدخل بالحركة المباركة ويطرد الملك الذى نقول عنه إنه رأس الفساد وهاهو عبد الناصر المصرى الأصيل والوطنى المخلص الأمين يتقدم ليحكم مصر بقوة وعزم ، وظل طيلة عمره يحكم بإخلاص وإيمان صادق ، لكنه نسى شيئا مهما جدا هو أنه لا يمكن أن يحكم مصر بدون المصريين الأحرار الذين يستطيعون أن يقولوا إن هذا صحيح وإن ذاك خطأ وأن يتحاوروا ويتشاوروا بجدية وفكر مفتوح ليصلوا إلى القرار الأسلم. وحين فتح جمال عبد الناصر معتقلاته الشهيرة ليضع الجميع فيها، نسى أنه يضع الشعب كله فى معتقل كبير حدوده مصر، وإذا اعتقل الشعب كله يكون قد فقد نفسه وفقد فكره وقدرته على الإبداع والتفكير. وهكذا عاد الشعب المصرى مرة أخرى إلى عبوديته بعد فترة من عمر الشعوب قصيرة تقدر بأقل من قرن حاول خلالها تكوين شخصية استقلالية ورأى حر، لكنه للأسف عاد مرة أخرى إلى سجنه الكبير. وكان السجن هذه المرة مختلفا عن السجون السابقة، فالسجون السابقة حكمها قواد لجيوش احتلال أو ممثلو حكومات أجنبية أو متمصرون أجانب من وسط آسيا أو من بعض بلاد أوربا. وكان الجميع يعلمون أنهم يحكمون لمصلحتهم ولمصلحة بلادهم ولا يهمهم أمر مصر فى شىء. أما فى عهد عبد الناصر فالأمر مختلف. الحاكم مصرى ووطنى نزيه ومخلص ، لكنه صمم على سجن الشعب كله بدافع وغرض واحد هو حمايته وتوفير الأمن له حتى يستطيع أن يصنع المستقبل العظيم الذى يحلم به لمصر.

ووقع المصريون فى مأزق كبير، فهم غير راضين عن سجنهم الكبير ويعلمون أنهم إن قالوا رأيهم دخلوا سجنهم الصغير المسمى بالمعتقل حيث يفقدون كرامتهم وإنسانيتهم ، وإن لم يقولوا فقدوا ذواتهم وأنفسهم ، فتمزق الشعب بين من قال ومن لم يقل ، وزاد من مرارتهم أن معظمهم كانوا معجبين بدرجة أو أخرى بزعامة عبد الناصر ومهارته السياسية التى اعتقد القائد أنها قد تستمر دوما. وأجمع الكل على أنه

زعيم وطنى ونزيه. لكن هل هذا يكفى؟ لقد كان خطأ فادحا من عبد الناصر أن وضع هذا الكم من القيود على الشعب ولم يأخذ الشعب المصرى معه فى رحلة الحكم والقرار والفكر وأخطأ الشعب بالرضوخ وعدم المقاومة.

وفى تلك الآونة فى نهاية عام ١٩٥٦ حقق عبد الناصر الآمال الكبرى وخرجنا نحن الطلبة نهتف باسمه ونرفع اللافتات المؤيدة له ، واختفت جميع أنواع المعارضة التى كنت تلاحظها من حين لآخر، ونسينا آلاف المعتقلين المصريين الذين أضيف إليهم أثناء فترة العدوان الوفديون السابقون وغيرهم من رجال السياسة.

وعدنا إلى الجامعة بقلب مفتوح ومشاعر السعادة والزهو الوطنى تطغى علينا ، وكان علينا أن نهرع للمذاكرة ، خاصة أن ستة أسابيع قد مضت فى إجازة إجبارية لتعطيل الدراسة. وكان نظام الفترات الدراسية (التيرم) قد بدأ تطبيقه قبل عام واحد ، وكان الغرض من تطبيقه كما قال الجميع إلهاء الطلبة فى المذاكرة والامتحانات المستمرة لمنع المظاهرات كما حدث عام ١٩٥٤, وربما كان هذا هو النظام التعليمى الأمثل لكن السبب فى تطبيقه على كل حال لم يكن البحث عن الأفضل. وعقد امتحان الفصل الأول الدراسى بعد خمسة أسابيع من عودتنا إلى الدراسة وضغطت المناهج ، وكنت أقضى وقتا طويلا فى المذاكرة فى حديقة الحيوان ، حيث كنت أدخل من الباب المواجه للجامعة، وكان رسم الدخول قرشين صاغ وأذهب لجزيرة الشاى وأطلب شايا ثمنه ثلاثة قروش وأجلس حتى الغروب أستذكر دروسى أمام البحيرة الصناعية الجميلة وأمامى الأوز والبط والبجع يسبح فى الماء.

وسمعنا أنه قد صدرت تعليمات بأن تكون الامتحانات سهلة عن عمد!-، وأن تكون الأسئلة بسيطة نظرا لضيق الوقت ومراعاة للتلاميذ. وقد كان هذا محل امتعاض من بعض الأساتذة القدامى الذين استغربوا إصدار أوامر من خارج الجامعة تتدخل فى

طريقة الامتحان. ومر كل شيء على ما يرام ، وأخذنا أسبوعا إجازة نصف السنة. وعدنا للدراسة مرة أخرى.

يبدو أن تلك الفترة كانت فترة تحول مهمة جدا فى تاريخ مصر الحديث، وكان تأثيرها كبيرا على الجاليات الأجنبية المقيمة فى مصر منذ أجيال بعيدة أو سنين طويلة، ففى تلك الأثناء غادر مصر أعداد كبيرة من الأوروبيين المتمصرين ، وغادر معظم من تبقى من المصريين اليهود مغادرة نهائية، وباعوا ممتلكاتهم بسرعة فائقة فى ظروف صعبة. وأذكر أن صديقى محمد شرف ـ وقد أصبح رئيسا للمؤسسة العلاجية فى مصر فى نهاية التسعينات ـ طلب منى أن نصحب أحد زملائنا لمشاهدة محتويات إحدى الشقق الكثيرة التى يملكها أجانب وتباع، وكان ذلك فى وقت إيقاف الدراسة، ومر على فى المنزل وكان يسكن بجوارى، وذهبنا سويا لمقابلة الزميل الثالث الذى أخذنا إلى شقة فى الدور الرابع فى عمارة أنيقة فى جاردن سيتى ودخلنا نتفرج على التحف والأثاث واللوحات التى لم نكن نعرف شيئاً عنها، ولم يكن مع أى منا أكثر من خمسة قروش ، وكان باب الشقة مفتوحا وبها بعض المشترين، ومكثنا عشر دقائق ثم خرجنا من الباب شرف ثم أنا ثم الزميل الثالث. وعند الخروج بينما ألتفت إلى الوراء رأيته يلتقط فازة موضوعة على منضدة بجوار الباب ويلقى بها داخل السويتر الذى يلبسه ويشد السوستة لأعلى وأصبت بصدمة ، ولم أعرف ماذا أفعل فنزلت على السلم ، وانطلق صاحبنا بسرعة فائقة إلى الشارع حيث اختفى، وأخبرت شرف بما رأيته فصعق. وعبرنا إلى دكة خشبية على كورنيش النيل فى جاردن سيتى لنتشاور فى الأمر. ولم أكن أعرف اسم هذا الزميل ، وكنت فقط أعرف شكله ، ولكن شرف كان يعرفه. ولا يبدو أنه كان يعانى الفقر أو الحاجة. و بالتأكيد كانت تلك الزياره مخططة للسرقة ولا أدرى لماذا اصطحبنا إلى هناك؟!. فكرنا أولا فى الرجوع إلى الشقة وإخبار أصحابها بما حدث ، لكن أصابنا الخوف من أن نعد لصوصا

مشاركين فى السرقة. وفكرنا فى الذهاب إلى قسم البوليس، وفى النهاية اتفقنا على مواجهة الزميل اللص وإجباره على إعادة الفازة. ولم نكن نعرف منزله فانتظرنا لليوم التالى وتقابلنا فى كلية العلوم وصارحته بما رأيت، فحاول أن ينكر فى البداية ، لكنه فى النهاية اعترف ، وقال إنهم أجانب ومسافرون على أى حال ولا مانع من أن يأخذ له شيئا. وكان وقع الاعتراف وتبريره علينا شديدا ، فكنا لم نصل إلى سن السابعة عشرة ولم نعرف كثيرا عن اللصوصية بكافة أنواعها ، ولم تفلح محاولتنا فى التفاهم معه أو تهديده بإرجاع الفازة ، وفى النهاية رضخنا للأمر الواقع ، وكانت تلك أول حادثة فساد نقدم فيها تنازلات واضحة. وقد تخرج الزميل اللص فى طب القاهرة وعمل طبيبا للتخدير ، وسافر للعمل فى الخليج سنين طويلة ، وقد رأيته بعد خمسة وعشرين عاما من التخرج ، وكان فى إجازة من عمله فى القاهرة ، وقد حاول أن يحادثنى ، لكننى لم أستطع أن أطيل الحديث لأن منظره وهو يخطف الفازة كان مازال ماثلا أمامى.

وهذا يجرنا إلى أخلاقيات الطبيب وماكنا نسمعه ونعرفه من الروايات والكتب وحتى الأفلام عن الطبيب الإنسان ذى الخلق العالى الذى يتميز بالأمانة وأنه قد اختار هذه المهنة لأسباب إنسانية. لذا يستغرب البعض أو يصاب بصدمة إذا علم أن طبيبا قد انحرف. لكن الأطباء مثلهم مثل أفراد المجتمع الآخرين قد يكون منهم المنحرف أو اللص إلا أن الدخل المادى للأطباء كان عموما طيبا ، فلم يكن الفقر أو الحاجة سببا للانحرافات ، لكن بعد أن زادت أعداد الأطباء وأصاب الفقر والحاجة عدداً هائلاً منهم أصبح كل شىء ممكنا ، ولم يمس الانحراف صغار الأطباء فقط بل قد طال بعض كبارهم.

ومضى الفصل الدراسى الثانى بهدوء وبدأنا نستكشف نشاطات جامعة القاهرة الرياضية والثقافية ، وحضرنا محاضرة للدكتور حسين فوزى صاحب السندبادات عن

الموسيقى الكلاسيكية ، والمتعة التى تحدثها. وكمعظم المصريين لم نكن نستمع الى الموسيقى الكلاسيكية وإن استمعنا إليها فبطريق الصدفة أو الخطأ، وكنا لا نتذوقها ولا تحدث فينا أى نشوة. لكن تأثير المحاضرة كان قويا ، فذهبت مع زميلى محمد شرف إلى قصر قديم فى ميدان التحرير على ناصية شارع قصر النيل وشمبليون ومكانه الآن موقف سيارات، وكان به فى الدور الأول هيئة تتبع المجلس الأعلى للفنون بها قاعات للاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية ومكتبة بها مجموعة كبيرة من الأسطوانات. وبدأنا نذهب إلى هناك فى محاولة لتذوق هذه الموسيقى وتتبعنا دروس حسين فوزى كيف نبدأ وماذا نفعل لنحقق القدر الأكبر من المتعة. وبعد بضعة أسابيع أصابنا الملل فتوقفنا. لكن تلك الزيارات كانت مفيدة كبداية وكان لها الأثر الأول فى حب هذه الموسيقى فيما بعد. وبعد سنوات قرأت كتاب حسين فوزى الجميل والذى كان عنوانه تعال معى إلى الكونسير، والذى شرح فيه باستفاضة ما قاله فى المحاضرة. و أصبحت أحب الاستماع للموسيقى الكلاسيكية بمرور الوقت ، وأذهب إلى حفلاتها فى مصر والخارج ، وعندى مجموعة لابأس بها من التسجيلات، لكننى لم أشعر فى لحظة واحدة طيلة حياتى أن هذه الموسيقى هى موسيقانا، ومازلت أطرب وأعشق وأحب الموسيقى الشرقية الأصيلة ، وهى الوحيدة القادرة على إشعارى بالنشوة والسلطنة.

وقد كان عام ١٩٥٧ بداية ارتباطى الوثيق بأم كلثوم وحبى لها، وقد بدأ ذلك بأغنية عودت عينى على رؤياك من تأليف رامى وألحان السنباطى، وبدأنا نحفظ كلمات أغانيها وألحانها وننتظر الحفلة الشهيرة فى خميس أول كل شهر. وقد طلبت من بعض الأصدقاء مساعدتى فى الحصول على تذكرة حضور حفلة أم كلثوم ، وكانت حفلة الإذاعة الشهرية ثمن التذكرة فيها يتراوح بين ٥٠ قرشا و جنيهين، وقد ساعدنى المرحوم كامل عبدالستار – الأخ الأكبر لزميلى وصديق عمرى الدكتور فؤاد عبدالستار– والذى يعمل حاليا أستاذا لأمراض النساء فى جامعة ألبانى بولاية

نيويورك فى التعرف على الأستاذ عبدالعزيز الهجان ، وكان يعمل موظفا بالإذاعة وله مكتب صغير تصعد له بسلم جانبى فى مبنى الإذاعة القديم بشارع الشريفين ، وكان مسئولا عن بيع تذاكر حفل أم كلثوم الشهرى ، وبعد التعرف على الهجان وافق على أن يعطينى كل شهر تذكرتين ثمن الواحدة خمسون قرشا. وكان هذا نصرا عظيما. وقد حافظت على هذه الثروة التى كنت أحصل عليها كل شهر خلال موسم أم كلثوم، وقد استمر الهجان يعطينى هذه التذاكر حتى آخر حفل لأم كلثوم. وكان لحفل أم كلثوم طقوس خاصة ، تبدأ بالذهاب إلى جروبى لعشاء خفيف ثم بعض المشروبات الكحولية قبل أن التوجه لمسرح الأزبكية فى البداية ثم سينما قصر النيل بعد ذلك حين انتقلت حفلاتها إلى هناك. وكنت أعرف وأسمع وأقرأ النكات التى تنشرها الصحف عن ارتفاع أسعار الحشيش يوم الخميس الأول من كل شهر بسبب حفلة أم كلثوم!.

وقد كانت حفلات أم كلثوم تعتبر بالنسبة لى أكبر متعة يمكننى الحصول عليها وكنت أنتظرها كل شهر. وكان تعبير الجمهور عن الإعجاب وتعليقه أحيانا وتصفيقه معظم الوقت يخلق جوا جميلا من الطرب والشجن. ولا أدرى كيف كنا نستمتع بالغناء وسط هذا الجو المشحون بدخان السجائر، فقد كان التدخين مسموحا به وكان معظم اللحاضرين يدخنون بشراهة طوال الحفل. أما عن جيلى، فكان عشاق أم كلثوم فى ذلك الوقت قلة. فمع الثورة ظهر عبدالحليم حافظ مغنى الشعب والثورة والحلم والأمل ، وكانت تصحبه باقة من الملحنين العظام كالموجى والطويل وبليغ حمدى وباقة جميلة من المؤلفين. فى ذلك الوقت كان الشباب من عمرنا يحبون عبدالحليم حافظ ويغنون معه، وكنت أيضا أحب عبدالحليم وأتمتع به ، لكن حبى لأم كلثوم كان يفوق حب الجميع.

فى تلك الفترة، فترة الأمل الكبير فى المستقبل، ظهر عدد كبير من الصحفيين والكتاب، وكانت دار روز اليوسف هى السباقة إلى جمع عدد كبير من المواهب الشابة. وكان صدور مجلة صباح الخير بالنسبة لنا شيئا أكثر من رائع، فكنا ننتظر هذه

المجلة بفارغ الصبر صباح كل خميس ، وكانت تجمع عددا هائلا من العباقرة ، وعلى رأسهم الأشهر الراحل صلاح جاهين الذى أبهجنا وأسعدنا وأبكانا، وكانت رحلة حياته وفنه ورسمه وشعره هى حبنا الأكبر ، وكانت صباح الخير تجمع قيما فنية كبيره مثل جورج وحجازى واللباد وإيهاب و غيرهم وكانت كتابات أحمد بهاء الدين هى الموجة والبوصلة الأساسية التى توجه جيلنا. وهكذا كانت صباح الخير مجلتنا وكتابها هم أحباءنا.

وحتى هذه السنة ١٩٥٧ وكان عمرى سبعة عشر عاما كان توفيق الحكيم لايزال هو المبدع الأول بالنسبة لى، وكان سلامة موسى هو المفكر الأمثل بالنسبة لى ، إلى أن وقعت يدى بالصدفة على كتاب ليوسف إدريس ، فتغير عالمى وفكرى وانبهرت بعبقريته الفذة وقدرته الباهرة على الحكى والغوص فى أعماق النفس البشرية السوية والمريضة بقوة لامثيل لها، فأصبح يوسف إدريس معشوقى الأول وقد كان إدريس بالنسبة لى صعبا فى القراءة نسبيا ويستهلك وقتا أطول وتفكيرا أكبر مقارنة بالحكيم الذى كان سلسا سهلا بسيطا حتى وهو يتحدث فى أعقد المسائل وأصعبها، أما إدريس فلم يكن أصعب ، لكنه كان أعمق وأعنف ودائما يثير رغبتك فى الاحتجاج والوقوف فى وجه الظلم والبغى وكانت شخوص رواياته وقصصه القصيرة تحمل تفردا وحيوية غير عادية فتظل الشخصية معك تفكر فيها وتعيش معها أياما بعد أن تفرغ من قراءة القصة وأحيانا تتذكرها بعد أعوام طوال.

وكانت الثورة قد أصدرت مجلة تسمى التحرير وكانت مجلة أنيقة الطباعة عين لها بعض كبار الصحفيين لإدارتها ولكن فشلها كان ذريعا مثل جميع المجلات التى تنشأ خصيصا للدفاع عن حاكم أو الدعاية له، ولا أدرى هل لا تزال تصدر حتى الآن أم توقفت. ومن العجيب أن لا يتعظ الوزراء فما زالوا يصدرون الصحف والمجلات ويحجزون صفحات الإعلانات لهم ولأعمالهم. ولا أحد يقرأ شيئا من كل هذا.

وبانتهاء العام الدراسى اشتركنا فى رحلة إلى مرسى مطروح فى معسكر جامعة القاهرة، وكانت قيمة الاشتراك الرمزية للطالب خمسين قرشا تشمل الانتقال بقطار الدرجة الثالثة من القاهرة إلى الاسكندرية ثم إلى مطروح والإقامة فى مخيم الجامعة لمدة أسبوعين مع تناول ثلاث وجبات فى اليوم ، بالإضافة إلى بعض الحفلات الترفيهية وبعض الرحلات الإضافية إلى عجيبة وإلى الأبيض ، وقد كانت رحلات شاقة لعدم وجود طرق ممهدة فى ذلك الوقت. وكنا أصغر المشتركين فى ذلك المعسكر ، وكان معظم المشتركين فيه من السنوات النهائية ، وبعضهم كان فى بكالوريوس الطب وعلى وشك التخرج. وكان زميلى فى تلك الرحلة محمد شرف الوحيد الذى وافق أهله على السفر معى.

وكنا ننام أربعة فى خيمة واحدة، وكان معنا فى الخيمة طالب يهودى فى السنة الثانية طب اسمه موسى منشة ، وطالب آخر فى أولى صيدلة من أصل أرمنى ، لكنى لا أذكر اسمه وكنا نستيقظ على بروجى يضرب صباحا ونفطر ونزاول نشاطا رياضيا جماعيا ثم نتلقى بعض المحاضرات الثقافية بعد الظهر. ولم يكن للمحاضرات أى توجه سياسى مثلما حدث فى معسكرات الجامعة بعد ذلك ببضع سنوات. وفى المساء كنا نذهب للتجول فى المدينة أو نمشى على البحر. ويوم أن ذهبنا إلى عجيبة كان يوما مثيرا ، فقد كانت السيارة تسير بسرعة لاتتجاوز عشرة كيلومترات فى الساعة نظرا لوعورة الطريق ، وتوقفنا عدة مرات لعدم قدرة السيارة على صعود مطلع ، فكنا ننزل حتى تخف الحمولة ثم نركب مرة أخرى. ووصلنا إلى عجيبة وكانت فعلا عجيبة من غرائب الطبيعة الجميلة ، وقد زاد من جمالها عدم وجود ناس هناك ، فكان بعض الطلبة المتهورين أمثالنا هم الزوار الوحيدين. وبينما نتجول هناك قابلت أعرابيا عجوزا فجلست أتجاذب أطراف الحديث معه وذهلت عندما علمت أنه لايعلم أن الثورة قد قامت منذ خمس سنوات! ، فهو يعتقد أن مصر لم تزل ملكية وعلمت منه أنه لم

يستمع إلى الراديو أبدا فى حياته ، وإنما فقط سمع عنه وأنه يذهب إلى مطروح كل عامين أو ثلاثة ، ومنذ سبعة أعوام لم يترك هذه المنطقة!. وقد كان ذلك ممكنا فى تلك الفترة فلم تكن ثورة الاتصال قد انفجرت بعد!.

وبعد مرور عشرة أيام ذهبنا للاتصال بالقاهرة تليفونيا من سنترال مطروح. وكان ذلك عملا شاقا ومرهقا ويستنفد وقتا طويلاً. فكنا ننتظر عدة ساعات حتى يأتى دورنا ويتم الاتصال لمدة ٣ دقائق ، قبل أن تنتهى يتدخل موظف السنترال ويقول لك سلم عليهم المدة خلصت. وعلمنا بعد الاتصال أن نتيجة إعدادى طب ظهرت وأننى نجحت بتقدير جيد (التقدير الشعبى) ورسب محمد شرف فى الكيمياء ، وكان عليه أن يعيد امتحانها فى الملحق. وأصيب محمد شرف بإحباط وصمم على العودة إلى القاهرة. ولا أدرى حتى هذه اللحظة كيف طاوعتنى نفسى على إكمال المعسكر وترك شرف يعود وحده بالقطار ليبدأ المذاكرة. وتنبهت لخطئى بعد سفره بدقائق ولم أزل أذكر هذا الخطأ حتى الآن. ونجح شرف فى الملحق ، وانتقلنا معا للسنة الأولى فى القصر العينى فى أكتوبر ١٩٥٧ .

وخلال تلك الرحلة فى مرسى مطروح حدث تطور هائل أثر على الصحافة المصرية حتى الآن. فقد قرأنا فى الأهرام أن محمد حسنين هيكل ترك دار أخبار اليوم وأصبح رئيساً لتحرير ومجلس إدارة الأهرام. وكانت بداية طفرة هائلة فى الأهرام انتهت بتربع الأهرام على قمة الصحافة المصرية والعربية لعدة عقود متتالية.

وانتهت الإجازة الصيفية ولاتزال مصر تحتفل بنجاحها فى التخلص من آثار العدوان الثلاثى. واستغلت أجهزة الدعاية الجبارة كل وسائلها المشروعة وغيْر المشروعة فى تمجيد وتأليه حكم الثورة وخاصة جمال عبدالناصر. وكانت الدعاية فى أغلبها مقنعة للغاية ، فقد خرجت مصر من هذه الحرب منتصرة سياسيا ، وبدأ نجمها يعلو فى المنطقة كلها، وكان عدد المشروعات التى تزمع الحكومة البدء فيها ضخما

حتى إنك تشعر أننا على وشك أن نصبح دولة متقدمة بالفعل اقتصاديا وثقافيا وعلميا ، وأننا على وشك أن نترك السلسلة التى تربطنا بالعالم المتخلف ، والذى يسمى تأدبا العالم الثالث. وهكذا عشنا صيفا جميلا نحلم فيه بمصر الغد العظيمة ، ونحن جيل الثورة الذى سوف يساعد عبد الناصر فى بنائها.

من كلية العلوم إلى القصر العينى

ودخلنا السنة الأولى فى كلية الطب فى القصر العينى فى أكتوبر عام ١٩٥٧ ، حيث عالم الطب الحقيقى ، وكنا ندرس التشريح والفسيولوجيا والكيمياء الحيوية وعلم الأنسجة لمدة عامين ، بعدها يعقد أول امتحان فى آخر العام، فلم تكن هناك أعمال سنة ولا فصل دراسى ، لكن دراسة مستمرة لمدة ٢١ شهرا بعدها يعقد الامتحان.

ودخلنا المشرحة لأول مرة فى حياتنا بعد محاضرة ألقاها أستاذ التشريح العتيد الدكتور البطراوى. وقد خيم علينا الصمت عند دخولها لأول مرة ، وأصابنا قدر كبير من الخوف المصحوب ببعض الاشمئزاز. وكانت للمشرحة رائحة نفاذة بسبب الكميات الكبيرة من الفورمالين التى تحقن بها الجثث. وقد تم تقسيمنا إلى مجموعات كل منها ثمانية طلبة ليشتركوا معا فى تشريح الجثة ، وعند تشريح الأطراف كنا ننقسم إلى مجموعتين تتكون كل منهما أربعة طلبة على الذراع أو الرجل ، أما عند تشريح الرأس أو البطن أوالصدر فقد كنا مجموعة واحدة. وكانت البداية بتشريح الذراع ، وأخذنا الموضوع بجدية شديدة ، وكان أحدنا يقرأ من كتاب كننجهام الشهير الذى يشرح خطوات التشريح ، ويقوم أحدنا بالتشريح على حين يراقب الآخرون التشريح. وكانت المدة المخصصة لتشريح الذراع عشرة أسابيع نعمل فيها نحو ثلاثة ساعات يوميا. وقد وصل عدد الطلبة إلى خمسين أو أكثر بعد عدة سنوات على تشريح الذراع الواحدة، ثم توقف التشريح نهائياً بواسطة الطلبة، وأصبحوا يشاهدون فقط مايتم تشريحه بواسطة المعيد وحتى هذا أصبح الآن ترفاً. وبمرور الوقت تعودنا على المشرحة وضاعت

الرهبة الأولى ، وأصبحنا نتكلم داخلها فى مواضيح شتى، ثم تطور الأمر، فالبعض يلقى بالنكات، ثم أخذ البعض فى أكل السندوتشات على ترابيزة المشرحة، وأصبح دخول المشرحة بعد بضعة أسابيع أمراعاديا. ويبدو أن كل شيء فى هذه الدنيا يمكن التعود عليه فنحن نقوم بتشريح الموتى ولا نفكر فيهم. والحانوتى يدفن الموتى كجزء من عمله ولا أعتقد أنه أصبح يتأثر بذلك ، حتى السجن أو المعتقل يتكيف الإنسان معه. وبالتدريج بدأنا فى التزويغ من المشرحة. وكانت كلية الطب فى ذلك الوقت تحتل مساحة شاسعة ولم تكن المبانى قد أكلت أراضيها بعد . فكانت الأقسام الأكاديمية كلها شرق النيل فى مبان بجوار مستشفى القصر العينى القديم الذى هدم و أزيل واحتلت مكانه الآن كلية الصيدلة. أما القصر العينى القديم فكان موجوداً لكنه أزيل بعد ذلك ليحل مكانه مستشفى القصر العينى المسمى الفرنساوى.

وكانت بقية الأقسام تقع داخل مستشفى المنيل الجامعى فى جزيرة الروضة وتوجد مساحة شاسعة لجميع الأنشطة الطلابية. فكان يوجد داخل الكلية ملعب كرة قدم بالمقاييس الرسمية تقام عليه مباريات دورى الجامعة وكانت توجد حلبة لألعاب القوى وحلبة للملاكمة وأخرى للمصارعة وملاعب تنس وحمام سباحة وملعب للهوكى وكرة اليد ، وكل هذه الملاعب الرياضية ضاعت عند بناء الأقسام الأكاديمية على أرضها بعد نقلها من شرق النيل.

وكان بالكلية مسرح كامل أعيد بناء بديل له فى المبانى الجديدة. وكان يوجد قاعة للموسيقى الشرقية وأخرى للموسيقى الغربية بها جميع الآلات الموسيقية يتدرب بها الطلبة والطالبات على العزف وبها مجموعة من الأسطوانات للاستماع.

وكان مكاننا الطبيعى بعد أن نقوم بالتزويغ من المشرحة هو الذهاب إلى الملاعب حيث نلتقى ونلعب الكرة ونتسامر. وكان نظام الأسر الجامعية ناجحاً وكان يربطنا بأساتذتنا ارتباطا وثيقا، وكانت هناك الجماعة الأدبية وجماعة الفنون التشكيلية ، وقد

قامت إدارة الجامعة بتكثيف وتمويل هذا النشاط تعويضا عن منع النشاط السياسى فى الجامعة بكافة أنواعه. وكانت الرحلات الجامعية مدعومة، فكنا نذهب إلى الإسكندرية لمدة يومين وندفع جنيها واحدا للسفر والأكل والإقامة والترفيه.

فى تلك الفترة وكان عمرى قد تجاوز السبعة عشر عاما بدأت أخرج و أتحرر من نطاق العائلة، فكنت حتى السنة الإعدادية فى الطب مكبلاً بكثير من القيود التى تفرضها الأسر على أولادها ، وهى بالطبع أخف كثيرا من القيود المفروضة على الفتيات. فأصبحت أستطيع الخروج كما أشاء ويمكننى التأخر حتى المساء ، وإذا تكرر الأمر لأيام متتالية فالحجة المذاكرة عند الأصدقاء جاهزة. وبدأت أهمل دروسى ولا أواظب على حضور إلى الكلية ولم يكن هذا تصرفا فرديا ، بل شاركنى فيه مجموعة من الزملاء والأصدقاء. ولأننا كنا نعلم أن الامتحان سوف يعقد بعد عامين فقد كان هذا يزيدنا لعبا وإهمالا للدراسة. وفى تلك الفترة تعلمت التدخين وصرت بعد سنوات قليلة مدخنا شرها إلى أن أقلعت عنه تماما فى سبتمبر ١٩٧٠، وكنا نقضى فى الكلية ساعات طويلة كل يوم حتى دون حضور المحاضرات أو الدروس ، فقد كانت الكلية مكانا رائعا بالنسبة لنا لمقابلة الأصدقاء والحديث معهم وممارسة كافة أنواع النشاطات الثقافية والرياضية بالنسبة التى كانت تمتد أحيانا إلى المساء. وفى السنة الأولى كان عميد الكلية الدكتور عبدالحميد عطية وكان قصير القامة ويلبس طربوشا طويلا. وكان أستاذا للرمد ويحضر بسيارتة الأمريكية الكبيرة السوداء التى يقودها بنفسه، وكنا نعرفها من الطربوش الذى يظهر من نافذة سيارته ، لأن جسمه لم يكن يرى بسبب قصر قامته. وكان له تابع من السعاة بالكلية مديد القامة ويرتدى الزى التقليدى للسعاة الذى تزينه الأزرار الصفراء. وكان يرتدى أيضا طربوشا ، وكان الساعى ينتظر العميد على باب مكتبه حيث يقوم العميد بركن سيارته فيفتح له الساعى الباب ويسير وراءه إلى مكتبه. وحين يخرج العميد لتفقد أى مكان فى القصر العينى يكون نفس

الحاجب دائما وراءه. وقد أحيل الدكتور عطية إلى المعاش ونحن فى السنة الأولى، وخلفه الدكتور محمد إبراهيم أستاذ أمراض القلب الذى كان أستاذا أكاديميا لاتشعر بوجوده خارج العمل الأكاديمى. وفى تلك الآونة تعرفت لأول مرة على الدكتور حسن حمدى الذى أصبح عميدا ورئيسا لجامعة القاهرة فيما بعد، وكان فى ذلك الحين معيدا بقسم الفسيولوجى. وكان حسن حمدى يجيد التدريس والشرح، فكان الطلبة يقبلون على محاضراته، لكنه كان أيضاً شديد الاهتمام بالنشاط الطلابى، فكان رائدا للجان الرياضية والثقافية وعلى علاقة وثيقة مع عدد كبير من الطلبة. وكانت مكتبه بالكلية المكان المفضل لعشرات الطلاب. وقد كانت تلك الفترة حتى عام ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ هى الفترة التى توقف فيها الانتماء الطلابى لأى نشاط سياسى فى أى اتجاه ، فقد كان التيار القوى الإخوان المسلمون ـ قد قضى عليه تماما فى الجامعة بعد عام ١٩٥٤، وذلك بعد الاعتقال الجماعى لكل أفراده. وكان التنظيم السياسى الوحيد فى ذلك الوقت هو ماسمى الاتحاد القومى الذى حل محل هيئة التحرير.

وكان الاتحاد القومى تنظيما هلاميا ليس له شخصية أو هدف غير أن تدعى الحكومة به دائما أن هناك تنظيما سياسيا واحدا يجمع قوى الشعب، وبالطبع لم يكن هناك أى تمثيل أو وجود حقيقى لهذا الاتحاد القومى داخل الجامعة. وفى تلك الفترة حدث تغير هائل فى التوجه السياسى لطلبة الجامعات ، فأصبح معظمهم لايبدى أى اهتمامات سياسة أو وطنية غير تأييد الزعيم، ويبدو أن الأغلبية قد اقتنعت بأن الاحتلال الإنجليزى قد انتهى وأن الملكية الفاسدة قد ولت بغير رجعة وأن نظام عبدالناصر قد انتصر على الاستعمار وحقق النصر، وأن علينا أن نؤيده ونسير وراءه، وقد كان معظمنا يؤيد النظام ويحب عبدالناصر ويعتقد أن النظام السياسى الحالى هو الخير كل الخير لمستقبل مصر. واستطاعت آلة الدعاية الجهنمية للحكم أن تقنع الشعب بضخامة حجم الانتصارات والإصلاحات السياسية والاقتصادية. وساهم فى ذلك

التركيز فى الاهتمام بالرياضة وخاصة كرة القدم ، وقد كان للشعراء والملحنين والمطربين المبدعين دور كبير فى ملء الفراغ السياسى، وكان تشجيع الحكومة غير المحدود لهم عاملا حاسما فى النجاحات الفنية لهم ، والتى ملأت أفئدة الشعب، وأصبح حديثنا فى الجامعة أكثره عن أغانى عبدالحليم حافظ!، وهكذا نجحت حكومة الثورة فى تربية جيل بأكمله دون أى اهتمامات سياسية أو وطنية ، وقد نتج عن ذلك فراغ كبير ، وعندما أحست الثورة فى مرحلة تالية - وبعد ظهور أزمات ضخمة انتهت بكارثة ١٩٦٧ - سارعت إلى محاولة تدريب الطلبة سياسيا وتكوين كوادر مخلصة لها. وللأسف كان التدريب السياسى فى معاهد ومعسكرات أعدت خصيصا للتدريب السياسى. والمشكلة هنا لها جانبان أولهما أن الحس السياسى والتدريب السياسى يتعلمه الإنسان من الممارسة اليومية فى البيت والشارع والكلية والعمل ، ويتعلمه من قراءة الصحف والكتب والاستماع للإذاعة أو من مناقشات بين أطراف ذوى أفكار متعددة. أما أن تدرب إنسانا على السياسة فى معهد وتعطيه بعض الدروس وربما تجرى له امتحانا فى النهاية للتأكد من أنه أصبح مثقفا سياسيا فهذا تهريج لا طائل من ورائه، وثانيهما أن فتح مدارس ومعسكرات لتربية هؤلاء السياسيين تعنى أنه - فى معظم الأحوال - سوف ينضم لهذه المعسكرات والمدارس والتنظيمات الحكومية مجموعة من الانتهازيين والوصوليين!، وبغرض تحقيق أهداف ذاتية سلطوية أو اقتصادية، وكثير من هؤلاء كان يتشدق بما درس له بل ويلقى المحاضرات عنه ويكتب المقالات فيه حرصا على الظهور والاستفاده بمنافع ذاتية.

وخير دليل على هذا ماحدث للاتحاد الاشتراكى وتنظيماته العلنية المتمثلة فى منظمة الشباب والسرية فى التنظيم الطيعى. هذا التنظيم الذى استمر سنين طوالا يربى كوادره ويعطى المحاضرات والدراسات انهار فى لحظة واحدة ولم يبد حراكا أمام أنور السادات فى مايو ١٩٧١ والذى لم يكن فى ذلك الوقت يملك سلطة فعلية أو شعبية! ،

أين ذهبت التنظيمات والخلايا والإيمان بالمبادئ؟ كلها انهارت في ثوان معدودات بل وسارع أعضاؤها إلى الانضمام لأي تنظيم يميني يرأسه السادات؟!. أين هؤلاء الأعضاء مقارنة بالماركسيين أو الإخوان المسلمين الذين عاشوا سنين طويلة في المعتقلات والسجون وخرجوا وهم مؤمنون بنفس أفكارهم، وإذا غيروها فعن اقتناع؟!.

وأعتقد أن ظروفي وسني والمصادفة قد ساعدت على عدم انضمامي لأحد التنظيمات اليسارية ، والمعروف أن الانضمام إلى هذه التنظيمات كان يتم عن طريق الأقارب والمعارف والجيران ، أي بطريقة شخصية ، ولم يكن لي من المعارف أو الأقارب من كان منضماً لهذه التنظيمات أو غيرها فعائلتنا كانت محايدة تماماً ، ولما بلغت مرحلة الفهم والنضج وكان عمري تسعة عشر عاماً كانت الثورة قد انقضت على اليسار بكافة فصائله وتم اعتقال عناصره لمدة خمس سنوات وتم تعذيبهم بوسائل همجية تفوق الخيال أدت إلى مقتل د. فايق فريد و المفكر شهدي عطية وتشويه المئات نفسياً وبدنياً ، وفي النهاية قبل الحزب الشيوعي المصري أن يحل نفسه في الستينيات، وانضم البعض من اليسار إلى الاتحاد الاشتراكي وبالتالي كانت المشاركة في الحكم حيث لم تكن هناك فرصة للعمل السياسي إلا من خلال الحزب الواحد للحكومة.

وحقيقة الأمر أن الجيل القيادي لليسار المصري قد تربى وتكون في الأربعينات ، أما الجيل الثاني فقد كان جيل الشباب الذي استمع إلى الأفكار الاشتراكية من منظري الاتحاد الاشتراكي ، وعندما نضج هذا الجيل كان حكم عبد الناصر وأحلام الثورة الكبرى قد أجهضتنا بهزيمة ٦٧ وأصبح هذا الجيل من طلاب الجامعات الذي انطلق يعلن عن نفسه في مظاهرات ١٩٦٨ ثم في كل الاحتجاجات السياسية التي سبقت حرب ١٩٧٣ ، وحتى أجهز عليها السادات بسياسته وسجونه وبإطلاق الجماعات الإسلامية ومساعدتها في الانقضاض عليه. وفي تلك الفترة كنت في الخارج في بعثة للدانمرك وفي الفترة القصيرة التي عشتها في مصر كنت متعاطفاً ومتفهماً لهذا الجيل

من الشباب ، وكانت حرب أكتوبر حاسمة فى نهاية اليسار المصرى كحركة منظمة فى مصر ، وبعد ذلك بعقدين انتهى اليسار الحقيقى فى العالم كله ، ويبدو أن المخطط الأمريكى للقضاء على اليسار بدأ فى أوائل الخمسينات ، والذى لم يكن له أن ينجح لولا أن النظم السياسية الشيوعية قد شاخت بسبب الدكتاتورية العنيفة التى حالت دون النقد والتغيير وتصحيح المسار وأتاحت فرصة الفساد للحكام حتى استفحل الأمر وأدى إلى كارثة لم يستطع تداركها كبار الشيوخ والمسنين الذى استقروا فى الحكم عشرات السنين.

وهكذا انتهى حلم اليسار الجميل الذى فاتنى قطاره عدة مرات فلم أنضم إليه ، لكننى أعتقد أن الكثير من الأفكار التى يحملها هذا الفكر أفكار رائعة لخدمة الإنسانية وأن الكثير ممن قادوا اليسار المصرى كانوا على الكثير من النقاء والوطنية والمثالية.

وهكذا وجد جيلنا نفسه خارج اللعبة السياسية أثناء تجربة الاتحاد القومى، وعند تكوين الاتحاد الاشتراكى بدأ يدخل فيه البعض طواعية والبعض قد اختير للدخول فيه. ويبدو أن هناك شيئا ما لا أعرفه حال بينى وبين الدخول فى التنظيمات السياسية للثورة ، وكان كثير من زملائى وأصدقائى وأساتذتى قد دخلوا الاتحاد الاشتراكى وتم اختيارهم أعضاء فيه، وكثير منهم حضروا معسكرات بل وأعرف بعض أساتذتى من غلاة اليمين ممن حضروا معسكر الاتحاد الاشتراكى فى حلوان وحدثونا عنه. ومازلت أذكر أحد أساتذتى الدكتور عبدالفتاح يوسف وهو من العلماء النابهين والباحثين المجدين فى فرع أمراض النساء ولم يكن له أى انتماء سياسى ، وفوجئت به يحدثنا فى القصر العينى عن اشتراكه فى المعسكر لمدة ٣ أسابيع وعن المحاضرات التى تلقاها هناك ولا أدرى إن كان قد تحدث بإعجاب أم بسخرية ؟!.

وفى أثناء ذروة النشاط للاتحاد الاشتراكى ومنظمة الشباب لم يدعنى أو يطلب منى أحد أن أشترك، وقد كان واضحا أن لى اهتمامات سياسية وأننى رشحت ونجحت

فى اتحاد طلاب كلية الطب، ولست أدرى لماذا لم يخترنى أحد للانضمام، وعندما علمت فى أوائل السبعينات ـ بعد انهيار النظام بوجود مايسمى بالتنظيم الطليعى وعرفت من بعض الزملاء والأصدقاء انضمامهم له ـ ذهلت من غباء النظام فى اختياره أعضاء تنظيمه. فالزميلان اللذان كانا من ضمن التنظيم الطليعى كانا أبعد مايكونان عن الفكر السياسى وليس عندهما أى اهتمامات سياسية على الإطلاق ، وإذا أردت أن تصنفهما حسب التوجه السياسى الاقتصادى فهما بالتأكيد من أهل اليمين. ولم يتول أىٌ منهما منصبا قياديا أو استفاد من انضمامه للتنظيم. وأعتقد أن معظم من تولوا مناصب قيادية فى هذه التنظيمات كانوا من الانتهازيين أو راغبى الحصول على سلطة ، وقليل منهم كانوا يريدون أن يقوموا بعمل سياسى لخدمة الوطن. وفى الأغلب فإن النوع الأخير لم يستطع أن يكمل المسيرة ، لأنه قد يقول لا على الأقل فى بعض الأحيان.

وبعد أن توقف النشاط السياسى فى الجامعة شجعت الحكومة كافة أنواع الأنشطة الأخرى فأذكر أننا انضممنا لفريق الجوالة بالكلية فى السنة الأولى ، وكنا نقوم بمعسكرات فى السويس والإسماعيلية وحلوان لمدة يومين أو ثلاثة ، وكانت تكلفة الاشتراك خمسين قرشا شاملة السفر والأكل والترفيه. وكنا أيضا نتسلم زى الجوالة مجانا.

وفى السنة الأولى سافرنا إلى الإسكندرية مع الفرق الرياضية للكلية ، وذلك بمناسبة إقامة دورة الطب الرياضية، وكانت تقام بالتعاون مع كليات الطب الثلاث فى ذلك الوقت (توجد ١٥ كلية الآن بالإضافة إلى اثنتين قطاع خاص). وقد كانت المباريات تقام على استاد جامعة الإسكندرية، وكنا نقيم فى بنسيونات صغيرة فى الإسكندرية، وكان رائد اللجنة الرياضية د. حسن حمدى، وكانت تقام كالألعاب الأولمبية فى جميع اللعبات. وأتعجب الآن أنه كان هناك فرصة كاملة للفتيان

والفتيات فى الاشتراك فى جميع الألعاب، وكان الفريق الحاصل على أعلى مجموع من النقاط يحصل على كأس الدورة، وكان هذا الحدث الرياضى المهم تصحبه حفلات ثقافية وترفيهية فى المساء، يكون من ضمن فقراتها الرقص والغناء، ولم يكن قد تم فرض الحظر على هذا النوع من الحفلات فى الجامعة بعد.

وكان النشاط الطلابى بجانب الرياضة والحفلات يشمل نظام الأسر، وقامت مجموعتنا بإنشاء أسرة كان رائدها الدكتور محمد عبدالقادر أستاذ الكيمياء الحيوية رحمه الله ، وكان للأسرة نشاط فنى وثقافى كبير مع رائد الأسرة. واستمرت هذه المجموعة فى صداقة مستمرة طوال الدراسة وبعد التخرج، وكانت تلك المجموعة هى أول من علمتنى شرب البيرة كل يوم خميس، بدلا من المياه الغازية مع السندوتشات فى المساء قبل السينما، وكانت البيرة ستلا تعبأ فى زجاجات طويلة، وكان ثمنها فى ذلك الوقت عشرة قروش فى المطعم وخمسة قروش إذا اشتريتها من البائع. وكنا اثنين نشترك فى زجاجة. ثم انتقلنا إلى النيل ناحية الجيزة بعد كوبرى الجامعة، ولم تكن النوادى والمطاعم قد أغلقت النهر فى وجه المصريين بعد، فكانت هناك حديقة بطول النهر وحتى كوبرى عباس، وكان يوجد هناك عم عبدالله وله ثلاجة حيث يبيع البيرة المثلجة بستة قروش، وكنا نشترى السميط والترمس ونجلس مجموعة من الأصدقاء فى الصيف حتى منتصف الليل نتحدث ونتسامر، ولم تكن الشرطة قد ضيقت الخناق على عم عبدالله وأمثاله تاركة المجال للكازينوهات التى تبيع البيرة بأسعار لايقدر عليها الطلبة، وتاركة المجال لبيع المخدرات والبانجو والأقراص وأدوية الكحة التى أدمنها عشرات الآلاف من الشباب، وفتحت المجال لقيام عصابات التهريب والبيع وشبكة من المافيا التى أحكمت قبضتها على هؤلاء الشباب الذى أصبح مدمنا وأصبح فكاكه من الإدمان مشكلة صحية ومادية وأمنية لايجد المجتمع حلا لها، بينما كان البديل سهلا ، وهو ترك هؤلاء الشباب يشربون زجاجة من البيرة فى فسحتهم بدلا

من أن يقعوا فى حبائل تجار المخدرات المحترفين!!. وهناك أمثلة كثيرة لقيود وقعت على الشباب بدون مبرر أدت إلى انحرافهم.

وكان لقيام الثورة وإلغاء النشاط الحزبى بجميع أنواعه ومعاقبة وإرهاب المندمجين فى أى نشاط سياسى أثر كبير فى عدم اهتمام جيلنا، وهو جيل الثورة، والذى كان عمره من ١٠ إلى ١٦ سنة فى عام ١٩٥٢ بأى نشاط سياسى ووطنى ، وساعد على ذلك النجاحات الأولى للثورة والدعاية القوية التى أعطت آمالا واسعة بمستقبل عظيم، وأن القيادة سوف تقوم بكل شيء ، مما تسبب فى فراغ سياسى كبير امتد فترة نحو خمسة عشر عاما وانتهى بكارثة ١٩٦٧ ، والتى أفاق بعدها الجميع على هول المأساة. ونحن إذا نظرنا إلى الجيل الذى سبقنا بعشر سنوات نجد أنه كان مهتما بالقضية الوطنية، وتنوعت أفكاره ومبادئه، فانخرط شبابه فى مختلف التنظيمات السياسية من اليسار باختلاف أنواعه وفرقه وإلى التيار الليبرالى فى حزب الوفد، ثم التنظيمات اليمينية، بدءا من مصر الفتاة، والذى تطور إلى الحزب الوطنى الجديد، ونهاية بالإخوان المسلمين. وقد كان هذا الجيل الذى سبقنا والذى ولد بين عامى ١٩٢٠ و١٩٣٥ ـ كان عمره بين العشرين والثلاثين عاما عند قيام الثورة ، وهو الذى انضوى تحت لوائه الكثير من الفنانين والكتاب والشعراء والمفكرين الممتازين. للأسف قد قضى كثير منهم سنوات طوالا فى سجون ومعتقلات الحكم الثورى. وكانت عبقرية هذا الجيل هى التى ساندت الثورة وعبدالناصر بالفن الجميل الراقى من كتابة وشعر وألحان وغناء، وأعتقد أن جزءا كبيرا من النجاح الشعبى للثورة فى مصر وفى العالم العربى يعود إلى مجموعة العباقرة اللذين تمرسوا بالوطنية وحب مصر قبل الثورة، الذين لاقى معظمهم مصاعب جمة بسبب الرغبة فى تحجيمهم ومنعهم من التفكير والإبداع الا فى حدود مايراه بعض الضباط محدودى الثقافة والفكر والرؤية، والذين تولوا مهام الثقافة فى مصر. هذا الجيل هو جيل يوسف إدريس ويحيى الطاهر عبدالله

وفتحى غانم فى الرواية، وصلاح جاهين وفؤاد حداد وصلاح عبدالصبور وحجازى فى الشعر، وأحمد بهاء الدين وحسنين هيكل وسيد قطب فى الفكر والسياسة والصحافة وغيرهم الكثير، وباستثناء ثروت عكاشة، لم يتول أمور الثقافة أو الإعلام فى مصر أى مثقف خلال تلك الحقبة!، ويبدو الفارق واضحاً بين هذا الجيل وبين جيلنا الذى تربى فى أحضان الثورة، والذى عاش الجزء الأول من شبابه يغرد بأغانى الثورة والنجاح وحب الوطن والانتصار دون أن يفكر أو يعى أو يقول رأيا أو حتى يتعلم ممارسة القيادة، والقدرة على الإقناع وقبول الرأى الآخر، وهذا الجيل انخرط بعض منه فى المنظمات السياسية الوحيدة فى ذلك الوقت، وتربى على سماع الخطب والأناشيد وعدم المناقشة أو الحوار، وتعلم أن الصعود إلى أعلى لايرتبط بالقاعدة ولكن يرتبط بتمجيد وتأييد وتلبية رغبات الرؤساء ، وأن تغيير الأفكار وتلوينها والقفز من موقع لآخر سهل وبسيط وممكن بدون أى خجل، لأن المبدأ الأساسى هو كيف تصعد إلى أعلى وكيف تستفيد، وكان البعض ، وهم قلة ممن انضموا لتنظيم الاتحاد الاشتراكى ومنظمة الشباب والتنظيم الطليعى يؤمنون فعلا بهذه المبادئ، وبذلوا جهدا حقيقيا ، ولكنهم لم يصلوا لأى شىء ، وغالبا انتهى الأمر بالتخلص منهم!.

كيف يمكنك حتى لو كنت اشتراكياً مخلصاً أن تتعاون مع تنظيم لا يؤمن معظم أعضائه بالاشتراكيه ، بل هم خبراء فى الوصولية والنفاق، وانضمامهم للاتحاد الاشتراكى هو الطريق لحماية أنفسهم ومكاسبهم الخاصة من خطر وبطش السلطة ، وهم لا يريدون بينهم مخلصاً لأنه سوف يكشف حقيقتهم ، هذا لو افترضنا أن الحكومة مؤمنة ومخلصة لهذه الأفكار، وهو أمر مشكوك فيه.

وكان الوطنيون من جيلنا الذى تربى فى أحضان الثورة وعلى مبادئها هم الأجدر بحكم التطور بأن يتولوا القيادة السياسية فى الستينات والسبعينات، لكن النظام سمح فقط للانتهازيين والمتسلقين بذلك. وقد فقد القادة الكبار لهذه التنظيمات مراكزهم فى

عهد السادات، لكن بقية القادة غيروا مواقعهم بسهولة بالغة وبساطة متناهية، وأصبحوا من أهل اليمين بعد أن كانوا من أهل اليسار وهرولوا من الاتحاد الاشتراكى الى الحزب الوطنى مرورا بحزب مصر! ، وأصبح القادة الجدد هم أنفسهم الوجوه القديمة! تغيرت الشعارات والانتماءات بسرعة، وبحكم العمر أصبح هؤلاء القادة من جيل الثورة ، وهو جيلى ، ونحن فى أول القرن الواحد والعشرين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والخمسين والخامسة والستين، وأصبح كل الوزراء والمسئولين من هذا الجيل الذى تعلم ألاّ يفكر وإنما ينصاع، وعرف أن الوصولية والتزلف للكبار هو طريق المحافظة على المنصب. والمشكلة الكبرى عند معظم هؤلاء المسؤولين المتسلقين هو عدم وجود الحس الوطنى، فمن المعلوم أن جميع السياسيين فى العالم دائما أبدا يتخذون القرارات وفى نصب أعينهم مدى استفادتهم الشخصية والسياسية من هذا القرار، لكنهم يضعون أولا فى الاعتبار مصلحة الوطن، وتتراوح نسبة المصلحة الشخصية مصلحة الوطن بين سياسى وآخر، ويعطينا التاريخ كثيرا من الأمثلة على قيادات كانت مصلحة الوطن عندها قبل كل شيء وقيادات أخرى كانت المصلحة الشخصية والحزبية لها دور كبير فى اتخاذ القرارات لديها. لكن للأسف فإن جيلنا لم يترب سياسيا على حب الوطن، لذا تأتى القرارات آخذة فى الاعتبار المصلحة الشخصية أولا وثانيا وأخيرا، وبدلا من وضع صالح الوطن فى الاعتبار أصبحت الأولوية لرغبات الرئيس الأعلى وماقد يرضيه ويسعده. أما اتخاذ قرار لصالح الوطن بغض النظر عن رضاء الرئاسة المباشرة- فهو شيء مستحيل وإذا كان هذا ما يطبع أداء المسئول الكبير فما بالك بالموظف الصغير؟!. وهكذا أصبح من النادر أن يستقيل أحد المسؤولين لأنه مستفيد فى جميع الأحوال مادام يجلس على كرسيه لينفذ رغبات وطلبات رئيسه، فلماذا يستقيل وهو لايملك أية أفكار سياسية تدفعه للاستقالة عندما يتعذر ذلك مثلا؟! وتطور الأمر ليصبح الوزير موظفا ترتعد فرائصه عند سماع أن هناك تعديلا وزاريا خوفا من

أن يفقد منصبه الذى هو حياته ومصالحه ووضعه الاجتماعى النافع لعائلته وأصهاره!.

وبنظرة للتاريخ تستطيع أن ترى أنه فى الحالات النادرة التى حاول أحد أن يكون له رأيه المستقل أو حاول أن يلعب دوراً فى اتخاذ قرار أو وضع سياسة كان التخلص منه فى أحسن الأحوال أسرع من تفكيره وخواطره.

والمشكله الكبرى أن كلا من جمال عبد الناصر و أنور السادات كانا يتكلمان عن الديمقراطية و الحرية ، ولكن الفارق أن عبد الناصر كان واضحاً فى أنه لا حرية لأعداء الشعب ولأعداء الاشتراكية ولأعداء التقدم ، لكنه لم يقل لنا ما هو تعريف عدو الشعب ومن هو عدو التقدم أو الاشتراكية وقد سجن الكثيرين من دعاة الاشتراكية و دعاة الحرية ودعاة التقدم والمساواة فى عصر عبد الناصر ، وكان تعريف الحرية هو نقد بعض الأشياء داخل حدود معينة وفى الأغلب بعد أخذ الإذن بذلك ، أما نقد أى شيء فى النظام فليس من حقك ولا يستطيع أحد أن ينكر أن النظام الناصرى قد قام بكسر الأقلام بشدة إذا اعترضت أو نقدت – ولو بلطف شديد– أى شيء فى النظام السياسى ، إلا إذا سمح لها بذلك وتمت الموافقة عليه لأغراض سياسية ولا يزال الجميع يكتب ويعيد حادثين هما الحديث الذى دار بين عبد الناصر و خالد محمد خالد فى اجتماع المؤتمر القومى و الموافقة على فيلم شيء من الخوف لثروت أباظة وهذا يعنى أن هذين الحادثين كانا شيئان فريدين من نوعهما ولا يمكن طمس الحقيقة الناصعة بأن حرية الكتابة السياسية و معارضة النظام لم تكن متاحة بأى حال من الأحوال فى العهد الناصرى. وحاول السادات بعد أن تولى الحكم أن يبحث عن كتاب ونقاد و مؤلفين من اليمين ليؤيدوه و يصبحوا كتاب عهده ، و للأسف كان معظمه من اختارهم من أنصاف الموهوبين والكثيرون منهم عديمى الموهبة وكانت النتيجة مهزلة كبرى ، ولم يكن السادات واضحاً مثل عبد الناصر فى قوانين الرقابة على

الصحف ومنع الكتاب فكان يتخذ طرق ميكيفليه غير مباشرة فى منع الرأى المخالف ، وأغلق مجلتى الطليعة و الكاتب وهما لسان حال اليسار المثقف وكانتا مجلتين محترمتين شديدتى الجدية ولكن تأثيرهما كان ضعيفاً لأنها كانت محدودتا التوزيع فى قطاع صغير من مثقفى اليسار. و انتهى الأمر بغلبة الثقافه التهريجية وبهروب الكثير من الصحفيين و الكتاب الموهوبين لأوروبا أو لبلاد العالم العربى المختلفه. وبنظرة إلى الصحافة المصرية تجد أنه بدلاً من الصحفى الأستاذ المحنك و مهندس إعلام العصر الناصرى محمد حسنين هيكل قرب السادات بعض الصحفيين الذين يغلب عليهم عدم الجدية و الذين يمكن أن تطلق على كبيرهم أنه كاتب مسل وكان الاستثناء الوحيد هو موسى صبرى الذى يعترف الكثيرون بأنه صحفى محترف و أسطى فى الصحافة بالرغم من عدم شعبيته فى الأوساط الصحفية و بين جماهير الشعب.

وجيلنا هذا الذى أتكلم عنه قد أخذ فرصة عظيمة فى التعليم، فاستفاد من مجانية التعليم التى أقرها طه حسن عام ١٩٥٠، والتى توسعت الثورة فى تنفيذها، واستطاعت أعداد كبيرة من أولاد الفلاحين والفقراء دخول الجامعة والحصول على فرص فى الدراسات العليا والبعثات. وكانت أعداد الطلبة فى المدارس والجامعات لاتزال معقولة، وكان التدريس والرعاية المدرسية والجامعية لابأس بها، فكانت النتيجة التعليمية جيدة بشكل عام وأصبح من جيلنا أعداد كبيرة من طبقة التكنوقراط الذين درسوا فى مصر أو سافروا إلى الخارج فى منح دراسية بعد التخرج، لكن هذه الطبقة كانت شديدة الجهل بالشؤون العامة ضعيفة الاهتمام بالسياسة وبالمسائل الوطنية وبالثقافة العامة عموما، فكانت النتيجة تخريج أعداد كبيرة من الخبراء والأساتذة الذين لايعلمون شيئا ولايبدون أى اهتمام بما يجرى خارج عملهم وتخصصهم ، وانتهى بهم الأمر بأن أصبحوا موظفين كبارا أو رؤساء مؤسسات وجامعات ووزراء

لايدرون شيئا عما يحدث فى بلدهم أو العالم، وتربوا على أن يكونوا شديدى الحرص عند إبداء رأيهم وتعلموا عدم الدخول فى أية معارك للدفاع عما يعتقدون أنه صواب. وكان الجهل الشديد بالثقافة العامة والتاريخ والفن عاملا أساسيا فى ضيق أفقهم، وتبنوا بالتدريج السياسة التى تقول إن عليهم أن يحموا أنفسهم بعدم إبداء الرأى حتى يكونوا دائما فى موقف المؤيد للرأى القادم من الرئاسة العليا. وأصبحت لقاءات الأصدقاء من جيلى بعد أن تولوا كبرى المناصب فى الدولة والجامعات والشركات عبارة عن لقاءات لتبادل النكات البذيئة أو النكات السياسية التى تسخر من الحكومة، وهى فى الحقيقة تسخر منهم شخصيا ، لأنهم أصبحوا السند الأكبر المؤيد على طول الخط لأى حكومة وأية وزارة، وفى الواقع كانوا هم الحكومة المستأنسة.

أما القلة من جيلنا الذين اهتموا بالشئون العامة والوطن والثقافة فقد أصيبوا بإحباطات متعددة، فأغلبهم صادف مشاكل يومية فى حياته بسبب فشله فى الوصول إلى عمل يناسب كفاءتهم ، ولم يجدوا مكانا ولا حزبا يمكن أن يقولوا فيه رأيهم، فتقوقع البعض وأصيب البعض باكتئاب، أما البقية الباقية، فكانت تتكلم وتكتب وتقول فى دائرة مغلقة صغيرة تأثيرها محدود، وإذا قيمنا العطاء المصرى الثقافى الإبداعى من نثر وشعر ونقد وعلم فنجد أن الجيل الأول العظيم الذى ضم طه حسين وتوفيق الحكيم و نجيب محفوظ وسلامة موسى وحسين فوزى و مصطفى مشرفه وغيرهم هو نتاج الليبرالية التى تلت ثورة ١٩١٩ ، والجيل التالى المبهر المبدع والذى ظهرت ثمار إنتاجه فى عهد الثورة فى جيل الستينات العظيم هو الجيل الذى أنتجته الحركات الليبرالية واليسارية واليمينية بكافة أنواعها فى الأربعينات، وبالنظر الآن إلى ماذا أنتج جيل الثورة الذى شب فى الخمسينات والستينات، سنجد أن إنتاجه الإبداعى محدود ، ويغلب على هذا الجيل بعض الأكاديميين الذين قدموا إنتاجا فى معظمه محدود القيمة باستثناء بعض الروائيين و النقاد الموهوبين. لكننا إذا نظرنا إلى الخريطة الإبداعية

المستقبلية فإننى أرى إرهاصات فن إبداعى جميل أعتقد أن له مستقبلا كبيرا من جيل مابعد انتهاء الثورة وحلمها الكبير عام ١٩٦٧ ، هذا الجيل الذى كان يعيش طفولته فى الستينات وتعلم فى السبعينات وعاش التيارات السياسية والفكرية المتطاحنة.

وكانت الهزيمة المدوية عام ١٩٦٧ هى الحد الحاسم والفاصل فى تاريخ ثورة مصر وحكم زعيمها عبدالناصر، وكانت ثورة الشباب ومظاهرات الطلاب أولى مظاهر انتهاء السيطرة على العقول وبدء الحرية فى اتخاذ القرار وتكوين الرأى لدى الشباب، وقد كان تأثير التيار الاشتراكى فى العالم وفى الغرب قويا فى ذلك الوقت فحرك أفئدة الطلاب وقلوبهم، وشجعهم أيضاً وجود تيار يسارى شديد النشاط من المفكرين المصريين الكبار والصحفيين الذى تولوا قيادة الصحف المصرية ، وكذلك مجموعة من شباب الكتاب والمفكرين فى ذلك الوقت وكان لذلك أثر كبير فى تنشيط الحركة اليسارية فى مصر بين الطلاب ، وخرجت عن سيطرة الحكومة والحزب الواحد. وبعد وفاة عبدالناصر وتولى السادات الحكم أصبحت هذه الحركة الشبابية مصدر قلق للحكومة، ومما لاشك فيه أن هذه الحركة كانت حركة وطنية مصرية صميمة ، ولا مجال ولا مكان لمناقشة عوامل خارجية أو أموال تدفع من الخارج، فالحركة قام بها شباب الجامعات الذين ولدوا فى عهد عبدالناصر وتربوا فى مدارسه ولقنوا التاريخ والجغرافيا من وجهة نظر النظام الحاكم وأنشدوا أغانيه سنين طوالا، لكن الصدمة كانت أكبر مما يتحملون، فانطلقوا فى الشوارع والمدارس والجامعات يعلنون سخطهم ويطلبون التغيير وأصبحوا هم التيار المعارض الرئيسى حتى كان العبور فى ١٩٧٣، وتغير الوضع عالميا ومحليا، فبدأت حركة اليسار فى أوروبا الغربية تنحسر، وانتهت حرب فيتنام، وبدأت بوادر الضعف فى النظام السوفيتى تظهر، وبدأ الانشقاق والمعارضة لنظام الحكم فى أوروبا الشرقية. وداخليا بدأ السادات يحارب اليسار بكل قواه ويشجع الجماعات الإسلامية فى الجامعات حتى يمكنها أن تتصدى لقوى اليسار،

وخرج المارد من قمقمه وانضم مئات الآلاف من الشباب إلى الجماعات الإسلامية، وكانت هناك أسباب كثيرة وراء ذلك بغض النظر عن التشجيع الحكومي في الفترة الأولى، أول هذه الأسباب إحساس الشباب بأن الثورة التي قامت للقضاء على النظام الليبرالي الملكي الفاسد أصبحت أكثر فسادا ، وانتهى الأمر باحتلال جزء غال من الوطن ، وكان رد الفعل لانهيار الحلم هو اليأس من النظام الحاكم والرغبة في تجربة نظام آخر مختلف تماما. وقد كان خروج آلاف المسجونين من الإخوان المسلمين إلى الحرية ومعظمهم قضوا سنوات طوالا في السجون ، والكثير منهم ذاقوا ألوانا رهيبة من العذاب عاملاً مهما في الدعوة لنظام إسلامي جديد لنشر الدعوة بين الطلاب. وكان تشجيع الغرب للحركة الإسلامية وكذلك تشجيع بعض دول الخليج خاصة السعودية- ممثلة في الحكومة ، وفي كبار الأغنياء والهيئات الإسلامية الأهلية المختلفة ، على تشجيع هذه الحركات ومدها بالأموال والمساعدات حتى يمكنها محاربة اليسار بكافة أنواعه عاملا مهما.

وكان الفقر الشديد واليأس من وجود أمل في المستقبل للشباب قوة دافعة للمد الديني الذي قد يكون ملاذاً في الآخرة لمن لا أمل له في الدنيا. والارتباط بالدين له جذور عميقة في وجدان المصريين منذ أيام الفراعنة ومروراً بالفترة القبطية الطويلة ثم بعد أن أصبح الإسلام دين الأغلبية من المصريين ، وهذا كله يجعل الانخراط في تيار سياسي ديني أمرا مقبولا وسهلا. أين هذا الموقف من أيام الأربعينات حين كان مرشح الإخوان المسلمين الزعيم المؤسس والمرشد الأول حسن البنا لايملك فرصة للنجاح في أي انتخابات حرة أمام مرشح الوفد الليبرالي؟ وبعد أن سمح لهم السادات بالعودة للنشاط في الجامعة ، وكان الكثير من طلاب الجماعات الإسلامية في الجامعة على درجة كبيرة من الذكاء والنشاط والأمانة، فقد أظهر نجاحهم في الانتخابات الطلابية وسيطرتهم على اتحادات الطلبة الفارق الكبير بينهم وبين من سبقهم من

أعضاء الاتحادات الموالية للحكومة وممثلي الاتحاد الأشتراكي من الطلبة ومن المنتفعين بالانتهازيين ، فكان الأعضاء السابقون ينجحون في شطب أسماء المرشحين من اليسار أو الليبراليين، ولم يكن التيار الإسلامي قد ظهر بعد. وكانت رائحة الفساد واضحة في كثير من طلاب الاتحادات السابقة. وكان عمل الكثير منهم هو تأييد النظام الحاكم وصرف أموال الاتحاد على أغراضهم الشخصية، وقد قام طلاب الجماعات الإسلامية فور انتخابهم بكثير من الخدمات الطلابية المفيدة، مثل طبع المذكرات وتنظيم مجموعات للتقوية التي لاقت تأييدا من الطلبة، وفي نفس الوقت قاموا باتخاذ إجراءات قضت على النشاط الجامعي والموسيقى ومحاولة إيقاف النشاط الرياضي للطالبات ومحاولات عزل الطلبة عن الطالبات في المدرجات. ووصل الأمر إلى محاولة إيقاف المحاضرات لأداء الأذان في المدرجات، وقد عاصرت تلك الفترة عن قرب شديد حين كنت أحد المسئولين من أعضاء هيئة التدريس عن النشاط الطلابي في السبعينات وحضرت حوارات كانت تستمر ساعات طويلة بين حكومة تريد أن تتحكم في كل شيء وطلبة يريدون تطبيق نظم سلفية غير صالحة للتنفيذ في هذا العصر، وهي أيضا ليست من صميم التعاليم الدينية. فيقود مصر الآن جيل قد شاخ وليس له فكر ولا مبادئ وهو جيل الثورة ، أما الجيل الذي تلاه ـ وهو جيل السبعينات اليساري الليبرالي ـ فقد سحق وتم تشتيته وأصبح الشارع المصري ساحة خالية مسبقاً للجماعات الإسلامية التي استمرت تكبر وتتضخم حتى اكتسحت الشارع المصري بفكرها وآرائها. وباعتزال جيلنا العمل خلال سنوات قليلة سوف يحتل جيله التيار الإسلامي مواقعه في القيادات بحكم العمر في كل مكان، ولن تسير الأمور كما تخطط الدولة الآن.

وبانتهاء الدراسة في السنة الثانية عام ١٩٥٨ دخلنا أول امتحان يعقد لنا بعد عامين، مما أعطانا فرصة أكبر لإهمال الدراسة واتجاهنا إلى اللهو، وعبثا حاولنا أن

نلحق بما فاتنا قبل الامتحان بأسابيع قليلة، لكن هيهات، فكانت نتيجة الامتحان أن رسب كل الأصدقاء فى مادة أو مادتين ورسبت أنا فى علم الفسيولوجيا، وكانت صدمة كبرى لى، ولم أدر ماذا أفعل وماذا أقول، وكنت متعوداً قبل ذلك طوال حياتى على النجاح بتفوق، وبكيت وأحسست بإهانة شديدة ومشيت فى الشوارع وحدى أفكر فيما حدث وكيف حدث ذلك حتى وصلت إلى البيت فى الدقى فى المساء، وأخبرت أمى برسوبى، وكنت أخاف غضبة أبى الذى سبق أن حذرنى بأننى لا أستذكر دروسى وأننى أعود متأخرا فى المساء وأننى يجب أن أبتعد عن (الشلة البايظة) حتى أفلح. لكن أبى كان هادئا جدا ولم يعلق بشيء. وذهبت إلى حجرتى وعاودت البكاء وحدى وحضرت أمى تحاول أن تخفف وقع الصدمة على. وبدأت فى اليوم التالى أذاكر دروس الفسيولوجيا التى كان على أن أعيد الامتحان فيها فى الملحق فى نهاية الصيف. وبمرور الوقت شعرت بأننى تمكنت من مادة الفسيولوجيا ، بل أصبحت أحبها جدا ودخلت الامتحان ونجحت، وانتقلت للسنة الثالثة. وقد كان رسوبى درسا بليغا لى أفاقنى من انغماسى فى اللهو واللعب، فمنذ ذلك الحين عدت إلى سابق تفوقى، وكنت أنجح بتقدير جيد جدا، وهو أعلى التقديرات فى ذلك الوقت، حيث كان عدد الناجحين بامتياز لايتجاوز واحدا أو اثنين على أقصى تقدير فى كل دفعة.

وفى تلك السنة حدثت تطورات مفاجئة غير مسبوقة بأية بوادر ، وانتهت بإعلان الوحدة المصرية ـ السورية وأصبح اسم مصر هو الجمهورية العربية المتحدة، وكانت المبادرة من سوريا ورئيس جمهوريتها شكرى القوتلى والتى قبلها عبدالناصر وأعلنت الجمهورية فى زمن قصير بعد إجراء استفتاء وافقت عليه الأغلبية العظمى. ولقد كان تأثير الوحدة علينا إيجابيا للغاية، فقد كنا فى فورة الشباب واعتبرنا أن هذه الدولة هى الطريق إلى الوحدة العربية وإقامة دولة عظمى فى منطقة الشرق الأوسط، ومما ساعد على إشعال الحماسة فى قلوبنا السيل الهائل من المقالات والأغانى والخطب التى

انهالت علينا من كل صوب، ولا أذكر أن مقالا واحدا أو برنامجا إذاعيا واحدا ناقش موضوع الوحدة مناقشة موضوعية مبرزا المزايا واحتمالات مخاطرها أو مشاكلها، لكن هذا بالطبع لم يكن مسموحا به، ولايتصور ولايجرؤ أى صحفى على مجرد طرح أى احتمالات لمضاعفات مستقبلية للوحدة المصرية- السورية. وحقيقة لم نكن نحن الشباب نفكر فى ذلك ولم نلاحظ أن أحدا لم يناقش الفكرة إلا بعد سنوات بعد أن وقع الانفصال!، فى تلك الآونة كنا فى منتهى السعادة والنشوة نتغنى بأغانى الوحدة العربية وسوق الحميدية ونهر بردى، فقد أصبحنا مواطنين لدولة عظمى والمستقبل كله مفروشاً أمامنا بالورود، فنحن جيل ثورة عبدالناصر الذى تربى فى أحضانها منذ الطفولة والذى سوف يستفيد من انجازاتها. وامتلأت الشوارع بالمهرجانات وسافر والدى ضمن وفد مصرى لدراسة الأحوال الزراعية والتعاونية فى الإقليم الشمالى (سوريا سابقا) ، وأقيمت دورة الطب فى القاهرة بالقصر العينى وشارك فيها طب دمشق، وهكذا كانت احتفالات الوحدة عظيمة ومبهجة، وحقا كنا فرحين وسعداء، وأكاد أجزم بأن الشارع المصرى كله كان سعيدا بما كان يعتقد أنه إنجاز كبير. ويبدو أن الشارع السورى أيضا كان سعيدا بالوحدة مع مصر، لكن يبدو أنه كان سعيدا أكثر بعبد الناصر، فكانت زيارته لسوريا والاستقبال الذى قوبل به من الشعب كله يفوق كل خيال. ولم نكن ندرى فى ذلك الحين أن هناك مشاكل كبيرة فى التطبيق العملى للوحدة ظهرت من أول لحظة، ضاعف منها الحساسيات الزائدة عند السياسيين السوريين والذين اتضح أنهم طلبوا الوحدة لأسباب داخلية لمنع انهيار الحكومة، ويبدو أن المشاكل تفاقمت بسرعة كبيرة، ولم نكن ندرى عنها شيئا، بل كنا مستمرين فى الرقص على أغانى الوحدة (التى مايغلبها غلاب)!، ولم نكن نستوعب بعد أن الوحدة الأوروبية سوف تصل إلى نصف الطريق بعد ثلاثين عاما من المفاوضات والمباحثات المضنية على حين أن الوحدة المصرية السورية تمت بعد بضع ساعات من

المباحثات. وهكذا عشنا أجمل وأحلى الأحلام بمستقبل رائع للشباب المصرى، هو قلب العربية النابض، كما كانوا يقولون، وقد طغت الانتصارات السياسية لحرب ١٩٥٦ والحماس الذى صاحب الوحدة على كل المشاكل الداخلية.

وكانت الدراسة فى السنة الثالثة للطب تشمل علم الأمراض والأدوية والبكتريا والطفيليات ، وبدأت الدراسة تأخذ طابعا أكثر تشويقا، فبدأنا نتعرف على الأمراض ومسبباتها، وتأثيرها فى جسم الإنسان، وكان يدرس لنا الباثولوجيا الدكتور مصطفى هاشم والدكتور أنور علوى، أما علم البارسيتولوجى، فكان يدرسه لنا الدكتور أدهم رجب، وهو أستاذ له اهتمامات أدبية وفنية كثيرة، وهو من أصدقاء الأديب نجيب محفوظ.

أما علم الأدوية، فكان يدرسه الدكتور الخيال، وكان حلو الطبع خفيف الظل، وكانت الأقسام الأكاديمية فى ذلك الوقت من تشريح وفسيولوجيا وأدوية وغيرها مليئة بالمعيدين الذين أمضوا فترة النيابة فى العلوم الإكلينيكة كالجراحة والباطنة وأمراض النساء وغيرها، ولم يجدوا وظيفة فى تخصصهم فكانوا يتقدمون للتعيين فى الأقسام الأكاديمية والتى لم يكن عليها إقبال، وكانوا يمضون الوقت فى التحضير للدكتوراه فى فرع تخصصهم الأصلى، وينتظرون حتى توجد فرصة لهم للعودة إلى أقسامهم كمدرسين. وهكذا كانت هذه الأقسام الأكاديمية تعج بمعيدين لايعلمون الكثير عن المادة العلمية، لذا كان التدريس الأساسى من الأساتذة فى هذه الأقسام.

وفى عام ١٩٥٨ تزوجت أختى التى تصغرنى بعامين وعمرها ستة عشر عاما ، وكانت قد دخلت مدرسة الليسيه فرانسيه فى باب اللوق، وكانت الدراسة فى أوائل الخمسينات بالفرنسية فقط، ولم تكن العربية مدرجة على الإطلاق فى مناهج التعليم، وقد كانت العائلات الارستوقراطية فى النصف الأول من القرن العشرين ترسل بناتها للدراسة فى المدارس الفرنسية ، وكان الحديث العادى لسيدات هذه الطبقة بالفرنسية،

ولم نكن من هذه الطبقة ولانتحدث إلا العربية فى المنزل التى لم نكن نعرف غيرها ، لكن هذه المدارس الفرنسية جذبت عدداً كبيراً من الطبقة الوسطى ، لأنها كانت معقولة المصاريف والتعليم بها جيد، وكان غرضها الأساسى نشر ثقافة اللغة الفرنسية فى مصر ، وفى عام ١٩٥٦ بعد حرب السويس، استولت الحكومة على المدارس الأجنبية، وتغير نظام الدراسة فى المدارس وأصبحت اللغة العربية أساسية فى الدراسة. ولقد خرجت أختى من المدرسة قبل أن تكمل تعليمها. ولا أدرى لماذا وافق أبى على ذلك وهو الذى دافع عن تعليم أخته الجامعى قبل ذلك بثلاثين عاما. وكانت هذه الأخت هى الوحيدة التى دخلت مدرسة فرنسية والتى تزوجت قبل أن تكمل تعليمها، أما الأختان الأخريان فقد دخلتا المدارس المصرية الحكومية والجامعة المصرية بعد ذلك، ولم تتزوجا إلا بعد التخرج ببضع سنوات.

وفى الإجازة الصيفية التى تلت السنة الثالثة، أعلنت الكلية عن رحلة إلى سوريا ولبنان لمدة أسبوعين، وكانت رسوم الاشتراك ثلاثين جنيها مصريا، وهو مبلغ كان يعتبر ضخماً، ولم يكن عندى أى أمل فى الاشتراك فى هذه الرحلة، لكننى استجمعت شجاعتى وأخبرت أبى بأمر الرحلة، وذهلت عندما أبدى أبى موافقته على ذهابى، وبعد يومين أعطانى رسم الاشتراك وسددته فى الكلية، وكانت الرحلة شاملة السفر والعودة بالطائرة وجميع المواصلات الداخلية والإقامة والأكل ثلاث وجبات، وكان عدد المشتركين ٥٠ طالبا، ولم يكن من المشتركين طالبات، ولا أدرى إذا كانت الرحلة كانت مقصورة على الطلبة أم أن الطالبات لم يشتركن، وقامت الطائرة من مطار القاهرة، وكانت رحلة خاصة على طائرة صغيرة من طراز إنجليزى قديم يسمى داكوتا ، وكان مشرفا الرحلة هما مسجل الكلية الأستاذ سيد عبدالعال والأستاذ الدكتور محمود حسنين أستاذ طب الصناعات. وصلنا مطار بيروت، ومنه إلى الفندق، وكنا ننام كل ثلاثة أو أربعة فى حجرة، وقد أزعجنا وجود عدد ضخم من قوات الأمن فى

الشوارع وهم يحملون أسلحتهم فى كل ركن، ولم نكن قد تعودنا بعد على رؤية الأعداد الهائلة من رجال الأمن المسلحين بالبنادق والرشاشات فى شوارع القاهرة. ففى ذلك الوقت لم تكن هناك هذه الكثافة الأمنية فى القاهرة، وعلمنا بعد قليل أن المسلحين فى شوارع بيروت هم فى الأغلب من ميليشيات الأحزاب المتصارعة، وكانت بيروت فى تلك الآونة تغلى بالصراع، فقد كان كميل شمعون رئيسا للجمهورية، وقاربت مدته على الانتهاء، وكانت هناك شائعات لايدرى أحد مدى صحتها بأنه يسعى لتغيير الدستور اللبنانى ، وذلك حتى يستمر مدة أخرى. وكان المد الناصرى الثورى خاصة بعد الوحدة مع سوريا على أشده، وكانت بيروت مسرحا للصراع بين القوى المحلية والعالمية، وبدأت الحرب الأهلية التى انتهت بنزول الجيش الأمريكى إلى بيروت وإجراء انتخابات جديدة اختير بعدها الجنرال شهاب رئيسا للجمهورية ، وقد قام بتحذيرنا الكثيرون من التأخر فى العودة فى المساء وحدنا إلى الفندق، وطلب مشرف الرحلة من الجميع الالتزام بالخروج والعودة جماعة واحدة. ولم نلاحظ هذا الجو المتكهرب فى رحلاتنا خارج بيروت، حيث زرنا الجبل ووصلنا للأرز وزرنا طرابلس وحتى كازينو لبنان الشهير أخذونا لزيارته ، وشاهدنا العرض الراقص العارى وموائد القمار الضخمة. وبعد انتهاء الأسبوع الأول توجهنا بالأتوبيس إلى دمشق، حيث مكثنا أسبوعا آخر، وطفنا بدمشق وشاهدنا آثارها الإسلامية الجميلة. وأخبرنا أحد الطلبة المشاركين أننا يجب أن نزور دور البغاء الشهيرة فى سوريا، وكان مصرحا لها بالعمل فى ذلك الوقت رسميا من الحكومة، وتقع فى إحدى ضواحى دمشق، وذهبنا مجموعة من حوالى عشرة طلبة، ولما وصلنا إلى الشارع الذى تقع به هذه الدور لم ندر ماذا نفعل، ووقفنا فى منتصف الشارع نتحدث فى الأمر وكأنها نكته أو مسرحية، وفجأة ظهر شاب كبير الحجم مفتول العضلات يدعونا لدخول أحد المنازل، وأصابنا كثير من الخوف، فوقفنا نتشاور فى الأمر، وعاد الشاب مرة أخرى ليتحدث إلينا مطمئنا بأنه لاخوف علينا، وفى الأغلب أنه استشف من مظهرنا وعمرنا الذى كان نحو التاسعة

عشرة أننا عديمو الخبرة، واكتشف من لهجتنا أيضا أننا مصريون، وبعد أخذ وعطاء ومناقشات، استجمع اثنان من المجموعة شجاعتهما وقررا الدخول ، على حين وقف الباقى فى الشارع أمام المنزل. وبعد نحو نصف ساعة خرج الزميلان إلينا ، وانطلقنا نسألهما ونستطلع عما حدث، وتبعهما الشاب الذى جاء مسرعا مشجعا الباقين على الدخول، ولكننا لم نجد تشجيعا من الزميلين اللذين سبقانا، وأعتقد أن معظمنا لم يكن لديه مايكفى من الشجاعة أو الرغبة فى الدخول، وخرجنا من ذلك الشارع ونحن ملتفون حول الزميلين نسألهما ونستعلم منهما عما حدث. أما الأول فهو صديق عزيز لى أثق فيه، فقد قال إنهم أدخلوه غرفة مع فتاة بعد أن دفع مبلغا بسيطا، لكنه شعر بالقرف الشديد ورفض أن يحاول شيئا بالرغم من محاولات الفتاة معه، وخرج فى حالة نفسية سيئة للغاية. واستمر فى هذه الحالة لعدة أسابيع. أما الزميل الآخر فقد كان فى صف دراسى آخر ويسبقنا بعام، ولم أكن على علاقة وثيقة به، لكننى فهمت من حديثه مع أصدقائه أنه اعتبرها تجربة مسلية وناجحة ، وقد كان لهذا اليوم ولحديثى مع زميلى وتجربته التى لم تكتمل أثر شديد، فقد شعرت بالتأنيب لمجرد ذهابى إلى هذا المكان، وكان لهذا اليوم أثر على فى المستقبل حيث إننى رفضت بشدة أن أصحب بعض الزملاء لمشاهدة فترينات تعرض السيدات العاريات فى الدنمارك أثناء إقامتى هناك بعد ذلك بسنوات، وشعرت بتعاطف شديد مع مجموعة من العاهرات الفقيرات اللاتى اصطحبتهن الشرطة للكشف الطبى فى مستشفى الحوض المرصود عندما كنت طبيب امتياز بعد هذا الحادث بأربع سنوات.

ولا أدرى لماذا يقولون إن هذه المهنة هى أقدم مهنة مارستها المرأة فى التاريخ، وهل سوف يأتى اليوم الذى تختفى فيه هذه المهنة مثلما اختفت مهن أخرى؟ لا أدرى ، وربما كان هذا القول من باب عشم إبليس فى الجنة ، لأننى أسمع عن آلاف الروسيات اللاتى نزلن إلى سوق هذه المهنة بعد تفكك الاتحاد السوفيتى. وعدنا بعد ذلك من سوريا بالطائرة للقاهرة. ومما لاشك فيه أن كلية الطب قد ساهمت بمبلغ ضخم فى

دعم تلك الرحلة كما ساهمت فى كل النشاطات الجامعية الطلابية، فدعم الحكومة كان بلا حدود دائما مادام النشاط بعيدا عن السياسة!.

ومنذ بداية السنة الثالثة فى الطب، وبعد بداية غير مشجعة فى السنين السابقة بالكلية، انتهت بنجاحى بتقدير جيد فى إعدادى طب وبتقدير جيد فى السنة الثانية بعد رسوبى فى أحد المواد والنجاح فى الملحق، قررت أن آخذ الموضوع بجدية أكثر، وصممت على العودة للنجاح بتفوق كما كان يحدث أيام المدرسة، ولما كان انشغالى بأشياء كثيرة جدا يستلزم وقتا أكثر فقد قررت تغيير برنامج حياتى الذى كان يتطابق مع البرنامج العام للشعب المصرى، والذى يتكون من الذهاب إلى الكلية أو العمل والعودة بعد الظهيرة وتناول وجبة الغداء ثم النوم ساعتين، ثم أخذ الدش وشرب الشاى والتحدث فى التليفون، ويبدأ البرنامج فى الساعة السابعة مساء، فإما المذاكرة أو الخروج أو القراءة. وهذا البرنامج هو برنامج الموظفين مع التغيير البسيط وهو الذهاب إلى المقهى بعد السابعة مساء. لذا بدأت نظاما جديدا فى الحياة، ولاأزال أسير عليه حتى اليوم لأكثر من أربعين عاما ، وهو إلغاء نوم الظهيره نهائياً، وعدم تناول وجبة غداء والاكتفاء بسندويتش، وكنت أعود من الكلية مبكرا بقدر الإمكان حتى لا أضيع وقتا دون فائدة وأجلس على مكتبى مباشرة من الساعة الثانية حتى السادسة مساء للمذاكرة، ثم أبدأ فى بعض القراءات الأدبية، وإذا كانت الشلة تنوى الخروج والفسحة (ولم يصبح ذلك وقفا على يوم الخميس بل أصبح يتكرر كثيرا فى وسط الأسبوع)، أكون قد انتهيت من مذاكرتى، بل وقرأت فصلا أو فصلين من رواية، بينما يكون أصدقائى قد بدأوا فى الاستيقاظ من نوم القيلولة.

وانتهى العام الدراسى، وظهرت نتيجة السنة الثالثة ونجحت بتفوق بتقدير جيد جدا ، فأصاب الذهول بقية الشلة والذين نجحوا بمقبول وبعضهم رسب ونجح فى الملحق، ولم يصدقوا أو يستوعبوا أن السر كان فى إلغاء فترة نوم الظهيرة.

وفى تلك الفترة فى نهاية الخمسينات ازداد اهتمامى بالقراءة خاصة التاريخ والأدب. واستمر إعجابى بتوفيق الحكيم ، وأذكر أننى كنت شديد الإعجاب بكتبه التى تحكى تاريخ حياته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فكانت عودة الروح وعصفور من الشرق وزهرة العمر وسجن العمر ويوميات نائب فى الأرياف تشكل فى تقديرى قمة العمل الفنى، وكنت أقبل على قراءتها بنهم شديد، وقد تعلمت بعد ذلك بسنوات طويلة درسا مهما هو أن بعض الكتب التى كنت أعدها قمة فى الأدب الراقى والأفلام التى خلبت وجدانى وكنت أظنها قمة فى الفن الجميل فى فترة الخمسينات لم تعد تمثل نفس القيمة لدى ولم تعد لها نفس المكانة عندما قرأتها أو شاهدتها مرة أخرى ، لذا عاهدت نفسى ألا أعود إلى هذه الكتب مرة أخرى خاصة التى أحس ـ بعد نضوجى وتقدمى فى العمر ـ أننى قد لا أكن لها نفس التقدير والحب إذا عاودت قراءتها.

وبالرغم من حبى وتقديرى للحكيم ، والذى استمر حتى اليوم لأنى اعتبره معلمى الأول فى حب الأدب وقراءة الرواية، إلا أننى اكتشفت مبكرا أن هناك من الكتاب المصريين من هم أكثر عمقا وأقوى فنا. وبالرغم من أننى لاأدعى أننى خبير فى النقد الأدبى إلا أننى أعتقد أن الحكيم فى زمنه وفى وقته كان رائدا وحمل رسالة مهمة لنا بقيت بصماتها حتى الآن، وبعد أن عبرت مرحلة الحكيم بدأ إعجابى بنجيب محفوظ، وكانت الثلاثية قد صدرت فى الخمسينيات فقرأتها بحب وإعجاب شديدين ثم أخذت فى قراءة ماكتبه قبل ذلك من الروايات التاريخية والمعاصرة وتمتعت برائعته زقاق المدق وخان الخليلى والقاهرة ٣٠ ، ومنذ تلك الفترة وأنا دائما فى انتظار أى عمل جديد لنجيب محفوظ لقراءته فور صدوره. وأزعم أننى قرأت كل أعماله التالية خلال مدة أقصاها شهر من تاريخ طرح الرواية فى الأسواق. ولم أكن أشعر بالرغبة فى قراءة روايات محفوظ مسلسلة فى الأهرام، وكنت أفضل قراءتها فى كتاب بعد صدورها. والرواية الوحيدة التى تأخرت فى قراءتها كانت أولاد حارتنا ، وذلك لأنها

لم تصدر فى القاهرة وصودرت بصورة غير رسمية بعد نشرها مسلسلة فى الأهرام، وقد وصلتنى أول نسخة منها مطبوعة فى بيروت فى أوائل السبعينات، وقد قرأتها أكثر من مرة وأعدها من أعظم روائع محفوظ، وفى نفس الوقت أتفهم جيدا الدوافع الخفية خلف ثورة علماء الدين على هذه الرواية، وأعتقد أن فن الرواية وهو فن حديث وجديد على اللغة العربية يصعب على من تعود على قراءة كتاب التراث فقط أن يتمتع به ولايستطيع الكثيرون من رجال الدين أن يتفهموا هذا الفن ولا أن يتخيلوا شخصية فى الرواية تتحدث بكلام من وجهة نظرهم خارج على الدين، وهم لايمكن أن يقتنعوا بأن هذه شخصية تعبر عن مكنون نفسها فى الرواية ولاتعبر عن رأى الكاتب وأنه حتى لو كان التيار العام والأغلبية محافظة فى التقاليد وتحترم تعاليم الدين والأخلاق إلا أن أى مجتمع به فئة لاتحترم هذا ولا ذاك ، وهى موجودة بالفعل فى كل المجتمعات سواء أردنا أم لم نرد، وإذا تم منع الروائى من التعبير عن هذه الشخصيات فإن هذا لايعنى أننا منعناها من التواجد فى المجتمع ، بل بالعكس فإن إظهار الشخصيات غير السوية فى عمل روائى قد يكون عاملا مساعداً فى أن ينفر منها الناس ويقل تأثيرها فى المجتمع.

وإذا منعنا الروائى من إضافة هذه الشخصيات نكون قد وقفنا أمام الطبيعة التى تنتج الخير وتنتج الشر ومنعنا الروائى من إنتاج عمل حقيقى تتفاعل فيه النفس البشرية السوية والمريضة، وهذا التدخل يقضى على العمل الإبداعى تماما لكنه لن يقضى على الشر. لذا لم أتفهم أبدا السبب الحقيقى فى مصادرة الكتب الإبداعية ، وهى بالطبع شيء يختلف تماما عن الصور الجنسية العارية التى لاتقدم فنا ولا تدافع عن رؤية فنية، وهى أيضا مختلفة عن تمثال عار لفنان يصور جسم الرجل والمرأة ليبرز جمال الانسان بفن راق وعموما لم تستطع المصادرة فى أى وقت من الأوقات أن تمنع عملا من التداول، بل كانت المصادرة سببا فى انتشار الكتاب وشهرة المؤلف،

وأعطى مثلان ، سلمان رشدى الذى أصبح اسمه على كل لسان وشهرته تفوق الآفاق وروايته آيات شيطانية، وهى رواية بالمقاييس الفنية رديئة، تبيع مئات المرات أكثر من روايته الجميلة أطفال نصف الليل. وبيّنما كنت أكتب هذه السطور كانت تجرى أحداث رواية حيدر حيدر وليمة على اعشاب البحر وأنا واثق أن حيدر أديب جيد ومحترم ، ولم يكن معروفا إلا لقلة صغيرة جدا من المصريين المهتمين بالأدب ، وروايته الموجودة فى مكتبات القاهرة منذ أكثر من خمسة عشر عاما لم تبع غير عشرات من النسخ. الآن أصبح اسم حيدر حيدر على كل لسان وأصبحت روايته معروفة للجميع، وماهو مؤكد أن مبيعات هذه الرواية غير الموجودة رسميا فى الأسواق الآن ارتفعت عشرات المرات ، وأن أعماله الأخرى سوف تلقى أيضا إقبالا. وحتى الآن لم تدرك الرقابه أنه فى زمننا أصبح المنع والمصادرة صعبا للغاية مع وسائل الاتصالات الحديثة، فأى قوة على وجه الأرض تستطيع أن توقف الانترنت؟، وأية رواية مصادرة يمكن أن تقرأها من الكمبيوتر وتطبعها فى المنزل على طابعة عادية وتصور منها عشرات النسخ لتوزيعها على أصدقائك. فوداعا لزمن المصادرة ، فالعالم أصبح قرية صغيرة وعلى الأقل هناك ميزة للعولمة التى طغت على كل شىء فى الأرض.

ما قبل التخرج

بدأنا الدراسة فى السنة الرابعة عام ١٩٦٠ وكان عمرى عشرين عاما، وكانت تلك السنة أولى المراحل الجادة فى الدراسة الإكلينيكية ، فدرسنا مبادئ أمراض الباطنة والجراحة بجانب دراسة أمراض النساء والعيون والأنف والأذن والطب الشرعى والطب الوقائى.

وكان للدراسة الإكلينيكية مذاق خاص، فنحن ندرس داخل المستشفى وفى حجرات المرضى، فالسبورة بين أسرة المرضى ، والطلبة بعضهم يجلس على كراسى

ومعظمهم يجلس على أسرة المرضى الذين ينتقلون لينام كل اثنين على سرير واحد أثناء المحاضرة حتى يتركوا بعض الأسرة للطلبة للجلوس عليها، وكان التدريس يجمع بين الدرس النظرى والدرس العملى بالكشف على المريض مباشرة، ولم يكن هذا الأمر سهلا لأن أعداد الطلبة كانت قد زادت فكنا نحو ثلاثين طالبا فى كل وحدة ، ولم نكن ندرى أن العدد سوف يصل إلى مائة وخمسون فى السبعينات عندما أصبحت مدرسا بالجامعة. كان الكشف الإكلينيكى سهلا نسبيا فى بعض الفروع، فكان يمكن لطالب أن يقنع فلاحا مريضا بالسماح له بسماع دقات قلبه بالسماعة الطبية بسهولة أو الكشف على بطنه لفحص الكبد أو الطحال. أما فى كشف الرمد فالأمر أصعب ، لأن الرؤية محدودة ولابد من استخدام أجهزة الكشف. أما فى أمراض النساء فالموضوع أكثر صعوبة ، نظرا لحساسية الكشف أمام عدد من الطلبة والطالبات، لذا كان التدريب فى بعض العلوم معظمه نظريا.

وقد لاحظنا منذ أول وهلة مدى الإجلال والاحترام والخوف من الأستاذ بين النواب والحكيمات، وكانت هذه ظاهرة أشعر بها لأول مرة، فكان الفارق بين أستاذ المواد الأساسية كالتشريح والفسيولوجيا وغيرها وبين أستاذ الجراحة مثلا كبيرا. .فأستاذ المواد الأساسية ليس عنده نواب ولا حكيمات ولا مرضى يتحكم فى أقدارهم، وكان الفارق فى المستوى المعيشى كبيرا جدا بين الأستاذ الذى يعيش على مرتبه - وربما بعض الإضافات البسيطة من كتب ولجان - وبين الأستاذ صاحب العيادة وربما المستشفى والدخل الكبير جدا.

وقد كان دخول الأستاذ عنبر المرضى لإعطاء الدرس الإكلينكى للطلبة يشمل طقوسا غريبة تبدأ بدخول الحكيمة وبعض الممرضات للتأكد من أن الأسرة مفروشة بملايات نظيفة توضع قبل درس الأستاذ وترفع بعده مباشرة خوفا من أن تصيبها بعض القذارة، ثم يدخل النائب ليطمئن على أن كل شىء على مايرام، وبعد دقائق

يدخل الأستاذ وخلفه جمهرة من أعضاء هيئة التدريس، أستاذ مساعد واثنان من المدرسين واثنان من المعيدين، حتى يصل إلى مكان السبورة فينصرف الجميع ماعدا النائب والحكيمة اللذين يقفا حتى نهاية الدرس. وكان هذا الوضع غريبا علينا نحن الطلبة، فلم نتفهم السبب فى هذا الاحترام المبالغ فيه حتى تخرجنا وعملنا نوابا ، ورأينا مدى السلطة المطلقة للأستاذ على النائب والمعيد حتى يحصل على الدكتوراه. وبعد الحصول على الدكتوراه تتغير العلاقة بين الأستاذ والمعيد ، لكن تظل الطقوس كما هى، ولم يكن الدرس من الأستاذ دائما مفيدا ، فكثيرا ماكان المدرس أو حتى المعيد أحيانا أكثر قدرة على توصيل المعلومة والشرح من الأستاذ. وكما هو موجود فى كافة البشر، فإن من بين الأساتذة المخلص والأمين ومن بينهم العالم الباحث أو الجاهل أحيانا، والذى يكون قد وصل الى منصبه مستغلا ظروفا ووساطات وصلات.

وكانت الإمتحانات فى كلية الطب منضبطة إلى حد كبير، وبالرغم من أن الامتحان الشفهى والإكلينيكى عليهما نسبة كبيرة من مجموع الدرجات، إلا أن التدخل فى هذا الامتحان كان محدوداً ، وكانت الوساطة تلعب دورا ضئيلاً وغير مهم وفى نسبة قليلة للغاية من الطلبة. وكان أبناء الأساتذة عددهم محدود ففى دفعتنا مثلا ربما كانت هناك محاباة لأحد أولاد الأساتذة فى الامتحان الشفهى ، واختلف الوضع الآن فأصبح عدد أولاد الأساتذة كبيرا جدا فى كل دفعة، ولكن المحاباة والوساطة توسعت وأصبحت تشمل أعدادا هائلة من الطلبة من كل اتجاه مثل أولاد أساتذة الكليات الأخرى وكبار الضباط والوزراء وأعضاء مجلس الشعب وكبار الأغنياء ورجال الأعمال، ووصل الأمر إلى أن ابن البقال الذى تتعامل معه يحاول أن يوصيك مثلا على بنت أخته. وهذه الظاهرة من التسيب جزء من ظاهرة عامة على مستوى الوطن، حيث أصبح أى مواطن يصعب عليه أن يحصل على حقه بدون وساطة. وبالرغم من هذا التسيب فى الامتحانات الشفهيه فإن كثيرا من الطلبة الذين يحصلون

على أعلى الدرجات في الشفهى بالوساطه لا يحصلون على مراتب متقدمة ، لأن الامتحانات التحريرية وهي سرية- يحصلون فيها على أسوأ الدرجات، والحل الوحيد لمشكلة الوساطة في الامتحانات هو تغيير نظام الامتحان الإكلينيكي والشفهى حتى يكون هناك نوع من التكافؤ. وعند مناقشة هذا الأمر مع الكثير من أساتذة الطب (وأنا من ضمنهم) عندهم أبناء تخرجوا في الكلية ، فإن الإجابة الجاهزة هي أن أولادنا ممتازون، ألم يحصلوا على أعلى الدرجات في الثانوية العامة أو امتحان المعادلة لدخول الكلية. وأليس أولاد القضاة لهم أولوية في دخول سلك النيابة العامة ، وينطبق الأمر على الخارجية والشرطة والجيش والبنوك ،الجميع ومع ذلك أعتقد أنه يجب أن يتغير نظام الامتحان لتحقيق العدالة وتحديد النابغين ليلتحقوا بسلك هيئة التدريس.

كان من ضمن أسباب التدهور في الجامعة تغير طريقة تعيين العمداء ،وأصبحت الكفاءة والقدرة الإدارية و الموهبة والابتكار تأتي في المقام الثاني أو الثالث أو لا تأتي في أي مقام عند اختيار بعض العمداء!، وأصبحت الوساطة هي العامل المؤثر في اختيار العمداء بغض النظر عن الكفاءة وكان لقانون إلغاء انتخابات العمداء عدة أسباب أولها وأهمها أن الوزير سوف يفقد القدرة على تعيين العمداء، ولما كان الفكر الديكتاتوري وكراهية الديموقراطية هي المدرسة التي تربى فيها كثير من الوزراء فكان لابد أن يعتبروا أن انتخاب العمداء إضعاف لسلطتهم. ويستطيع الوزير أن يقنع السلطات الأمنية بسهولة بأن الانتخابات قد تثير مشاكل وقد تأتي بعميد غير مرغوب فيه ، وحتى القانون الذى كان يسمح لمدير الجامعة باختيار أحد الثلاثة الحاصلين على أعلى الأصوات أصبح ديموقراطيا أكثر مما يطيقه الوزير!. وأصبح الشرط الأساسي لاختيار العميد هو القدرة على تنفيذ تعليمات رئيس الجامعة ووزير التعليم.

ويدافع الوزير عن تعيين العميد بأنه نظام معمول به في الجامعات الأوروبية والأمريكية ويتناسى أن كثيرا من الجامعات يتم فيها اختيار العميد بالانتخاب! ، وأن

الجامعات التى يعين فيها العميد يكون منصبه فيها إداريا مثل منصب مسجل الكلية، فليست له السلطات الواسعة للعميد، وحتى فى هذه الأحوال فالوزير ينسى أن من يعين العميد فى هذه الحالات ليس الوزير ولا رئيس الجامعة وإنما مجلس أمناء الجامعة ، رهو هيئة مستقلة لاتخضع لحكومة ولا لوزير.

ومن الغريب أن يتشدق الجميع بالديموقراطية وأن يكون حديث الوزير عن مناقشة مشروع قانون الجامعات فى عام ٢٠٠٠ هو سماع جميع الآراء، لكنه فى نفس الوقت يتصل بالصحف القومية وينجح فى إغلاق باب الحوار على صفحاتها، فهو فى الحقيقة يريدها ديكتاتورية كاملة لكن فى ثوب ديمقراطى، ولست أدرى هل تخيل الوزير أن اساتذة الجامعات يصدقون مايقول؟ لا أعتقد ذلك، فهى مسرحية سخيفة يعرف المؤلف أنه يعنى غير مايقول، ويفهم المشاهد أنها مسرحية هزلية، وكلمة الديمقراطية مجرد شعار جميل فارغ من محتواه!، وهكذا قيدت الأفكار والآراء داخل إطار عميد معين ومجلس أعلى للجامعات يرأسه الوزير ،وضاعت الديمقراطية فى الجامعة ،وبالتالى ضاعت الجامعة ،وصاحب غياب الديمقراطية انهيار الأوضاع الجامعية تدريجيا.

وكان الانهيار الأول على مستوى أعضاء هيئة التدريس ،فالمعيد الآن يعين فى وظيفة مدرس بعد حصوله على الدكتوراه، ثم يصبح أستاذا بعد عشر سنوات بعد المرور على لجنتين للترقية أصبح عملهما روتينيا ،وتقوم اللجنان العلمية بترقية الجميع للدرجة العلمية الأعلى ، و نادراً ما ترفض اللجان ترقية أحد المتقدمين، ويكون ذلك فى الأغلب لأن المتقدم قد تكاسل عن كتابة بعض الأوراق المنظمة على هيئة أبحاث للترقية.

وقد أدت هذه الأوضاع فى الجامعة المصرية إلى تدهور كبير فى مستواها العملى والبحثى، ويرجع البعض هذه الأسباب الى تغيير قانون الجامعات ،والبعض الآخر إلى

الزيادة الكبيرة فى أعداد الطلاب. ولا يفكر هذا البعض، في إهدار مبدأ استقلال الجامعة، فالجامعات فى العالم مستقلة لايرأسها وزير ولا مجلس أعلى ولا تتدخل فى أعمالها الحكومة، وبنهاية استقلال الجامعة المصرية والتى كان يستقيل رؤساؤها أو عمداء كلياتها قبل الخمسينيات لشبهة محاولة تدخل الحكومة فى أحد الأشياء البسيطة، أصبحت الجامعة جزءا من الجهاز الحكومي ،ينظمها صوريا قانون خاص ومجالس لأقسام والكليات والجامعات!.

ومن أهم أسباب الانهيار الأكاديمي للجامعة المصرية ترك قيادتها فى أيدى السياسيين المنافقين الذين تربوا في أحضان التملق والتسلق والمظهرية، وبالرغم من أنني أفهم جيداً أهمية الوزير السياسي ،فليس من الأهمية بمكان أن يكون وزير الصحة طبيباً وإنما سياسى متمرس ودارس لمشاكل الشعب الصحية من وجهه نظر المواطن وليس من وجهة نظر الطبيب ،أما حين نأتي للتعليم الجامعي فهو في الأصل لا يجب أن يتبع وزارة ، حيث إن من المبادئ الأساسية في الدستور أن الجامعة مستقلة تماماً ، وإذا كان لابد من الوزير لمقتضيات البيروقراطية وضرورة تحكم الدولة في كل شيء فيجب أن يكون للتخطيط والتنسيق وليس للتحكم بفرض الرأى الخطأ على العلماء المتمرسين والتسلط عليهم!.

لكن الحقيقة هي أن كل هذه المجالس بدون سلطات حقيقية، وليس من سلطتها بل ولا تعرض عليها أصلا أى سياسات جامعية ،وإنما تعرض عليها فقط الأمور الروتينية عديمة الأهمية، وحتي إذا ما عرض عليها شيء له أهمية فمداولات المجالس وقراراتها ليس لها أهمية عند اتخاذ القرار الذى يأتى من أعلى!.

ولما كان التنافس العلمي هو عصب الارتقاء والتقدم، فإن إلغاء هذا التنافس بصفة عامة كان له أثره فى انخفاض مستوى الأبحاث بصورة واضحة. ونظراً لكثرة

المتقدمين لوظائف أساتذة مساعدين وأساتذة ولعدم قدرتهم على القيام بأبحاث يمكن نشرها فى مجلات عالمية لها قيمتها ولا حتى فى بعض المجلات المحلية المعقولة نسبيا ،أنشئت مجلات جديدة هى فى الحقيقة مجلات وهمية لاتصدر ولا يوجد لها أثر فى أية مكتبة أو جامعة ،وفقط يصدر تعدد النشر مجموعة من أبحاث راغبى الترقى مقابل مبالغ كبيرة من المتقدمين مقابل النشر، ولايجرى فيها تحكيم أو تقييم لأبحاث، وإنما هى جزء من مسرحية هزلية يقوم بإخراجها المهيمنون على الجامعات المصرية بأسلوب ردئ!.

وهكذا كانت نهاية البحث العلمى فى كليات الطب واعتقد أن هذا لما يحدث فى باقى الجامعه، والحديث عن الطب يمكن أن يحمل عندى تفاصيل مروعة! .

ولايمكن تدارك هذه الكارثة إلا بإعادة النظر فى الهيكل الوظيفى الجامعى مرة أخرى وتحديد عدد وظائف الأساتذة المساعدين والمدرسين والمعيدين بكل قسم، والإعلان عن خلو أى وظيفة والتقدم لها لكل من يرغب إذا استوفى الشروط، ويمكن أن يكون الإعلان داخليا فى كل كلية لفترة انتقالية ثم يبدأ التفكير فى عمل إعلان مفتوح للجميع، وتكون الترقية بتقييم الأبحاث وتوضع قواعد واضحة لتقييم الأبحاث، وهناك من القواعد العالمية الموجودة حاليا ما يمنع من تدخل المحسوبية والوساطة فى الترقية، ويمكن فى وظائف الأساتذة الاستعانة بمحكمين من الخارج ترسل لهم الأبحاث.

أعتقد أن هذه هى الخطوة الأولى لعودة البحث العلمى للجامعة ونهاية المجلات التى هى سبة فى جبين المجتمع الأكاديمى المصرى!. وحيث إن دخل أعضاء هيئه التدريس فى معظم الكليات يعتبر ضئيلا، فإنه يمكن إيجاد الطرق التى تكفل عدم نقص المرتبات لأعضاء هيئة التدريس بسبب التأخر فى الترقية من جراء تطبيق هذا النظام. وفى هذه الحالة سوف تقوم اللجان العلمية بتقييم حقيقى للأبحاث لأنها سوف

تختار واحدا من المتقدمين، وليس لأنها سوف تقرر أن يرقى أو لايرقى هذا أو ذاك كما يحدث الآن.

وللأسف فإن هناك من أساتذة الجامعة من يجاهرون بأن البحث العلمي مضيعة للوقت!، وأننا غير قادرين على البحث، والحقيقة أن من يقولون ذلك هم نتاج القوانين الجامعية الحالية، التى أنتجت بعض أساتذة ورؤساء أقسام فى مستوى علمى ضحل، والذين لم يكن عندهم فرصة فى ظل النظم الجامعية العالمية لأن يصلوا لهذه المناصب ،وفى ظل النظام الحالى السيىء توجد عناصر مضيئة فى بعض الأقسام ببعض الكليات لها أبحاث عالمية منشورة، وهذا يعنى أن هناك أمل ،وهناك فرصة للتدارك إن استجبنا لنداء الوطن وعرفنا أن البحث العلمى من وظائف الجامعة الأساسية. وقد قال نهرو بعد استقلال الهند عندما طلب منه بعض السياسيين عدم صرف أموال على البحث العلمى لأن الهند دولة فقيرة فأجاب بأننا دولة فقيرة إلى درجة أنه لا يمكنا إلا أن نستثمر فى البحث العلمى.

أما بالنسبة لأعداد المقبولين فى كلية الطب ـ جامعة القاهرة فقد تضاعفت عدة مرات، وأصبحت الكلية تضيق بطلابها ، ولما كان عدد أسرة المرضى لم يرتفع بل بالعكس انخفض، وعدد المعامل وحالة المشرحة كما هى، أصبح التدريس للطلبة غاية فى الصعوبة، وزاد عدد الخريجين، ونعلم أن الدرجة الجامعية الأولى للطبيب لاتساوى شيئا، لأن هذا الطبيب لايستطيع أن يمارس عملا حقيقيا إلا بعد تلقيه تدريبا فى أحد الفروع حتى الطبيب الذى كان يطلق عليه الممارس العام له تدريب وله درجة علمية. أين وكيف يتم تدريب هؤلاء الأطباء؟ لايوجد مكان ولا توجد أسرة ولا حتى يوجد مرضى يكفون لتدريب هذا الكم، فالنتيجة هى تدريب حقيقى للنواب، و هم أعداد قليلة وبقية المتقدمين للدراسات العليا يتلقون دراسات نظرية وقد ينجحون فى الدبلوم أو الماجستير بعد حفظ بعض الكتب والمذكرات دون تدريب أو ممارسة. ولا أعتقد أن وزارة الصحة عندها من المستشفيات والأسرة الأعداد الكافية لتدريبهم، وهكذا يمكننا

القول إن عندنا طبيبا لكل ٥٠٠ مواطن ،لكن كم طبيبا منهم تلقى تدريبا كافيا؟ هذا هو السؤال.

وقد يكون من المفيد أن نعلم أن الطبيب الأمريكى، وهو الأستاذ فى الجامعة وصاحب الأبحاث العالمية عليه أن يحضر فى العام حوالى خمسين ساعة من التعليم مثله مثل الخريج الجديد تماماً. وهذه الساعات محددة ويوجد كارت ممغنط يحدد ساعات حضوره بدقة، وإذا لم يحضر هذه الساعات يسحب منه ترخيص مزاولة المهنة. وعندنا أساتذة وإخصائيون كبار لم يحضروا مؤتمراً أو محاضرة واحدة منذ عشرات السنين، والغريب أن البعض منهم يعتقد ويتصور أنه من العلماء لمجرد أنه يعالج بعض المرضى فى عيادته أو يقوم بإجراء بعض الجراحات ، والحقيقة أن هناك رغبة ونشاطا حقيقيا من مجموعة من الأجيال الجديدة من الأطباء فى الاستفادة من العلم وحضور المؤتمرات والتدريبات بهمة كبيرة.

وحينما أتكلم عن طب القصر العينى فإننى أتكلم عن كلية عريقة لها بعض التقاليد الباقية، ومعامل ومستشفيات بها مايلزم للتعليم والتدريب الطبى، على درجة عالية من الكفاءة إذا أحسن استخدامها، لكن ماذا عن كليات الطب الإقليمية التى بدأت العمل بدون أقسام أكاديمية والتى حولت مستشفيات إقليمية صغيرة إلى مستشفيات جامعية، وذلك بتغيير الاسم المكتوب على لافتة المستشفى وتعيين عميد للكلية ورؤساء أقسام مختلفة ؟ وتبارى السادة المحافظون فى تحويل المستشفيات الإقليمية إلى مستشفيات جامعية فماذا كانت النتيجة ؟ أعداد هائلة من الأطباء تجد عملا فى ظل نظام التكليف الحالى، والذى لو تم إلغاؤه لما وجد هؤلاء الأطباء عملا، وهم الآن فى المستشفيات والوحدات الريفية دون تدريب و دون عمل. لو تركت الجامعات حسب الدستور مستقلة لحددت الأعداد المقبولة الملائمة لتخريج أطباء أكفاء على مستوى عال من التدريب، ولما فتحت جامعات جديدة إلا بعد استكمال البنية الأساسية لها، وبعد أن تفيد دراسة الجدوى بأهمية إنشائها.

وقد زاد الطين بله قرار إنشاء الجامعات الخاصة والتى كان هناك تخوف كبير عند الحكومة والمجتمع ممثلاً فى النقابات المهنية من إنشائها وذلك لأن إنشاء هذه الجامعات والتى هدفها الربح، مخالف لقواعد الجامعات الخاصة حتى فى الولايات المتحدة، وهى قلعة الرأسمالية ومعظم جامعاتها خاصة ، لاتهدف للربح بهدف توزيعه على أصحاب الجامعة، وإنما تهدف للربح لإعادة استثماره فى رفع مستوى الجامعة، فلا أحد يربح ولا أحد يملك الجامعة، فهى خاصة لأنها من أموال المتبرعين، ولكنها عامة لأنه لا أحد يملكها. وتاريخ إنشاء جامعة القاهرة ،وهى الجامعة الأم يذكر لنا أنها فى واقع الأمر كانت جامعة خاصة من أموال المتبرعين ،لكن لم يملكها أحد ولم يكن هدف المساهمين بتبرعاتهم الربح من وراء ذلك ،أما إنشاء الجامعات الخاصة فى مصر فقد كان مختلفاً تماماً ،فالغرض الرئيسى من إنشائها هو الربح لتنمية أموال أصحاب الجامعات وبعد أن أنشئت كليات الطب الخاصة فى مصر، تعهدت بأنها سوف تدرب طلبتها فى مستشفياتها، ولم يحدث ذلك، والآن جميع الطلاب يتدربون فى القصر العينى وطب عين شمس، بعد دفع مبلغ رمزى. وقرر المجلس الأعلى للجامعات أن أساتذة الجامعة الخاصة لابد أن يستقيلوا من الجماعات الحكومية للتدريس بالجامعات الخاصة، والآن كل الأساتذة يدرسون لطلبة الجامعة الخاصة داخل الجامعات الحكومية والتى تتقاضى الفتات مقابل ذلك!.

وعندما شعر المجلس الأعلى للجامعات بهبوط مستوى الطلاب فى الجامعات الخاصة قرر تحديد حد أدنى للمجموع للالتحاق بالجامعة الخاصة، وهو أقل بكثير من المناظر له لدخول الجامعة الحكومية. وبعد دراسات واجتماعات صدر القرار، بوضع حد أدنى للقبول لكن الجامعة الخاصة ضربت به عرض الحائط، وكأن المجلس الأعلى لا وجود له. وفى النهاية رضخ الوزير لضغوط أصحاب الجامعات الذين استغلوا أولياء أمور الطلبة، ونفذت الجامعات الخاصة ما أرادت، وذهبت قرارات المجلس أدراج

الرياح. وأخيرا قرر الوزير أن يعاقب الجامعة فى العام القادم، وهو شيء أعتقد أنه لن يحدث وسوف تقرر هذه الجامعات الخاصة ما تراه فى مصلحة تنمية رأس مال أصحابها بغض النظر عن المصلحة العامة أو تعليم الطلاب أو قرار وزير التعليم العالى أو المجلس الأعلى للجامعات.

وبخلاف الجامعات القديمة الأساسية، القاهرة وعين شمس والإسكندرية فإن الجامعة الوحيدة التى تم إنشاؤها بعد دراسة كافية وأقيمت لها البنية الأساسية واستمر تحضير مبانيها وكوادرها من الأساتذة سنين طويلة هى جامعة أسيوط، أما ماعدا ذلك فبدأ عشوائيا ثم تلته محاولات البناء والتنظيم بعد ذلك.

ولا أدرى ماهى الفائدة من إنشاء كلية طب سوهاج وهى على بعد كيلومترات بسيطة من أسيوط ونعلم أنه لاتوجد ولن توجد ميزانية لإنشاء كلية طب حديثة فى القرن الواحد والعشرين فى سوهاج. ألم يكن من الأحرى أن تصرف هذه الأموال المهدرة على جامعة أسيوط وأن يتم تحديثها ورفع مستوى الدراسات العليا بها؟ ونفس الشيء ينطبق على الفيوم التى تقوم على بعد ١٠٠ كم من القاهرة والتى بها الآن أربع كليات للطب وكلية للبنات وكليتان فى الجامعات الخاصة، وهناك أمثلة كثيرة سببها عشوائية القرارات وعنترية المحافظين.

أما عن الدرجات العلمية، وأركز فقط على كليات الطب وعلى درجة الدكتوراه والتى يكون امتحانها عبارة عن رسالة مدتها سنتان على الأقل ثم امتحان يعقد كل ستة أشهر، وكان مستوى هذا الامتحان دائما مرتفعا للغاية وكان الحصول على شهادة الدكتوراه من الجامعات المصرية يعنى التفوق العملى، أما الآن وبعد أن أصبح عدد كليات الطب فى مصر حتى كتابة هذه السطور خمس عشرة كلية صار مستوى الشهادة التى تعطيها بعض الجامعات فيه شك كبير، والحل الوحيد لهذه المشكلة هو عمل امتحان قومى للدكتوراه فى فروع الطب المختلفة مثل امتحان الزمالة البريطانية

والذى يعقد على مستوى قومى فى إنجلترا واسكتلندا. لكن هل فكر العمداء المعينون والمجلس الأعلى للجامعات والوزير فى هذا الوضع الخطير الذى كانت نتيجته أن الأطباء المصريين الحاصلين على الدكتوراه أصبح يعاد امتحانهم أو يعاملون ماديا كأنهم لم يحصلوا على الدكتوراه فى بعض البلاد العربية؟.

سنة التخرج

عندما ظهرت نتيجة البكالوريوس فى يوليو ١٩٦٢ كان عمرى اثنين وعشرين عاما بالتمام والكمال ،وأصبحت طبيبا ولم يكن هناك أماكن لتدريب أطباء الامتياز فى مستشفى القصر العينى ،حيث كان تدريب دفعة ١٩٦١ لايزال مستمرا بسبب تغير نظام الامتحانات ،وتقرر أن يتم تدريب دفعتنا لمدة ستة أشهر فى مستشفيات وزارة الصحة على أن نعود بعدها للقصر العينى لإتمام فترة الامتياز.

وفعلا تسلمت وظيفة طبيب امتياز فى أول سبتمبر عام ١٩٦٢ فى مستشفى الحوض المرصود للأمراض الجلدية والتناسلية فى بركة الفيل بالسيدة زينب. ولقد توجهنا للمستشفى فى اليوم الأول وكنا مجموعة من الأطباء عددهم نحو عشرة، وقابلنا مدير المستشفى ووقعنا إقرارا باستلام العمل، وكان كل منا يرتدى البالطو الأبيض النظيف المكوى، وفوجئنا بأن مدير المستشفى لايدرى ماذا يفعل بنا، فهذا المستشفى لايوجد ولم يوجد به سابقا وظيفة طبيب امتياز، وإنما كان به المدير وثلاثة من الإخصائيين وطبيبان فى وظيفة نائب مقيم. وقال المدير: إن المستشفى لم يسبق له تعيين أحد كطبيب امتياز، فماذا سوف يفعل بعشرة أطباء مرة واحدة، وقام بتوزيعنا على العيادات الخارجية. وتشاء الظروف أن تكون أول تجربة عمل لى كطبيب فى مستشفى له ظروف خاصة، فهو المستشفى الوحيد فى القاهرة وربما فى مصر كلها الذى يتخصص فى الأمراض الجلدية والتناسلية فقط، ولايوجد به تخصصات أخرى. ويقع المستشفى فى بركة الفيل، وهو مكان بين السيدة زينب والمذبح وشارع بورسعيد.

وقد كان هذا المستشفى إسطبلا لخيول محمد على فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأصبح بعد ذلك مخزنا للجيش، ثم تحول إلى مستشفى للأمراض الجلدية والتناسلية فى أوائل القرن العشرين. والمستشفى له سور كبير عال وبوابة ضخمة من الحديد، وبه عنبران من دور واحد للمرضى على مساحة كبيرة، وكل عنبر منهما له باب صغير من الخشب مقوى ببعض ألواح الصاج، أما أرض العنبر فهى من الإسفلت، ولا أدرى كيف دخل وابور الزلط الضخم من هذا الباب الصغير حتى يقوم بعمل الأرضية. ويصطف على جانبى العنبر الضخم الذى يبلغ طوله أكثر من خمسين مترا عدد كبير من أسرة المرضى البسيطة التى يعلوها الصدأ وتتدلى من سقف هذا العنبر الضخم لمبة واحدة، فلا تكاد ترى شيئا ليلا أو نهارا. ويرقد على كل سرير مريض مغطى بملاءة تعلوها كمية هائلة من القذارة، ولايوجد داخل العنبر دورة مياه، وإنما توجد خارج العنبر فى الحوش الكبير للمستشفى. وبجوار السور الآخر للمستشفى يوجد العنبر الثانى بنفس المواصفات. أما المرضى المساكين الذى يرقدون على هذه الأسرة فهم ضحايا بعض الأمراض الجلدية النادرة التى لا يوجد لهاعلاج حاسم وكثير منها يؤدى للموت.

أما العيادة الخارجية الموجودة بجوار الباب الكبير ففيها ثلاث حجرات كبيرة للكشف على المرضى حيث يجلس كل إخصائى فى حجرة منها ونجلس نحن بجواره لنساعده ،وبعد فترة قصيرة بدأنا نكتب العلاج، وكان العلاج مجانيا ويصرف من صيدلية المستشفى، وكان رسم الكشف تذكرة ثمنها ثلاثة قروش تشمل الكشف وثمن الدواء ومتابعة للكشف مرة أخرى. وكانت الأعداد المترددة على المستشفى فى العيادة الخارجية عدة مئات يوما، وكان الكشف على المريض يستغرق دقيقة واحدة فى معظم الأحيان، ويقوم التومرجى بتعرية الجزء المصاب من جلد المريض حتى يكتب الطبيب العلاج فورا، وكان لدى الأطباء خبرة كبيرة فى التشخيص فى لحظة واحدة وكتابة العلاج، أما بعض الحالات النادرة أو الصعبة فكان الكشف عليها يؤجل وتنتظر

فى حجرة جانبية ويكشف عليها الإخصائيون جميعا بحضورنا ويتم التشاور فى التشخيص والعلاج. وكانت العيادة الخارجية يزورها فى اليوم بعض بلطجية المنطقة المعروفون بالاسم لدى إدارة المستشفى، وكانوا يطلبون بعض الأدوية المرتفعة الثمن نسبيا حتى يبيعوها خارج المستشفى، وحدثت بعض المشادات بينهم وبين أطباء الامتياز الجدد فى أول يومين، وذلك لعدم معرفتنا بنظام التعامل مع البلطجية، واعتبرنا أنه شىء مشين أن نصرف أدوية على حساب الدولة قد يبلغ ثمنها جنيها واحدا بتذكرة بثلاثة قروش بدون وجه حق، لكننا تعلمنا الدرس سريعا من المدير والإخصائيين بأن هناك اتفاقا غير مكتوب لصرف عدد معين من الروشتات لكل بلطجى مرة كل أسبوع، و أصبح علينا أن نحول البلطجية للمدير فى حالة طلبهم روشتة من أطباء الامتياز. وبالرغم من الظروف الصعبة للمستشفى من ناحية الموقع والمبنى والأعداد الكبيرة من المرضى المترددين، كان المستشفى يؤدى وظيفة رائعة فى ظروف صعبة. ويوجد بالمستشفى رئيسة حكيمات ولا يوجد به حكيمات أخريات، وإنما به مجموعة من التومرجية الرجال والسيدات مسئولون عن كل شىء فى المستشفى. وقد دعتنا رئيسة الحكيمات فى حجرتها فى مبنى صغير بوسط الحوش الضخم للمستشفى لشرب الشاى، وكانت فى نحو الخامسة والخمسين من العمر قصيرة الطول ومدكوكة الجسم ويزيد وزنها على المائة كيلو جرام، لكنها كانت أنيقة فى الملبس وتضع كاب الحكيمات على رأسها، وحدثتنا نحن أطباء الامتياز عن ذكرياتها فى الثلاثينيات عندما كانت تلميذة فى مدرسة حكيمات القصر العينى، وكان طلبة الطب يحملونها على الأكتاف فى مظاهرات ١٩٣٥ وكانت تقوم بالهتاف ضد الإنجليز.

أما الأطباء الإخصائيون، فقد تعرفنا على أحدهم عن قرب ونحن فى المستشفى ودعانا إلى منزله، وهو الدكتور رشدى محارب أطال الله فى عمره. وكان أعزب فى ذلك الوقت وهو عازف ماهر على الكمان. وقضينا ليلة ظريفة تجاذبنا فيها أطراف

الحديث وأكلنا وشربنا واستمعنا إلى موسيقى رائعة بعضها مسجل وبعضها من عزف الدكتور محارب الذى كان يسبقنا بأكثر من عشرين عاما فى التخرج.

أما الإخصائى الثانى، فهو الدكتور أنسى إسكندر، وكان طويلا رشيقا غاية فى الأناقة والشياكة دائما، قليل الكلام، يتمتع بأدب ورقة، وتعرفت عليه بعد ذلك، وهو من محبى الخيول ولايزال يركب الخيل كل يوم حتى يومنا هذا. أما الطبيب الثالث فاسمه هنرى عوض ولم أعرفه عن قرب. وكان شديد العصبية ويبدى ضيقه الشديد من عدم النظام فى العيادة الخارجية والتسيب فى صرف الأدوية، وعلمت بعد ذلك أنه من أكبر هواة دراسة وجمع الآثار والتحف الإسلامية والقبطية، وله مؤلفات، ومقتنيات مهمة ،وقد تبرع بها لمكتبة الإسكندرية حديثاً.

وبعد استلام العمل بيومين، طلب منى الإخصائى التواجد مع النائب فى عيادة خاصة داخل المستشفى للكشف على العاهرات اللاتى يتم القبض عليهن، فبعد إلغاء البغاء الرسمى فى نهاية الأربعينات استمر البغاء لكن بصورة غير رسمية. وقبل إلغاء البغاء كان يتم الكشف دوريا على كل من تمارس المهنة، وتأخذ كل واحدة منهن شهادة بأنها لاتحمل أمراضا معدية، وتجدد الشهادة كل فترة زمنية. وبإلغاء البغاء الرسمى ألغيت هذه الشهادات. وكانت الشرطة تقوم بحملات يومية على ممارسى البغاء المحترفات، ويقبض عليهن حيث يقضين ليلة فى قسم البوليس، ثم قبل ترحيلهن للنيابة كن يشحن فى عربة من عربات الشرطة لمستشفى الحوض المرصود ومعهن شاويش من القسم وخلفهن مجموعة من أقاربهن وأصدقائهن الذين يعرفون ميعاد الزيارة للمستشفى. وتقف العاهرات فى شبه طابور خارج العيادة، يتم فيه تبادل أقذر الألفاظ وأبشعها بينهن أو بين إحداهن والشاويش أو التومرجى. وكان يتم الكشف على كل واحدة وتؤخذ منها عينات للفحص البكتيريولوجى، وإذا كان الكشف الظاهرى سليما يكتب ذلك، ويعنى هذا أن النيابة سوف تفرج عنها وقد تحولها

للمحكمة أو لا تحولها حسب الحالة. أما إذا كان بها اشتباه مرض معد فيأمر وكيل النيابة بحبسها حتى يتم علاجها فى مستشفى السجن. وقد سمعت من الشاويش العجوز حكاية أيدها التومرجى القديم بالمستشفى، لكن لا أدرى مدى صحتها، وهى أن العاهرات فى العشرينات فى ظل البغاء الرسمى كن يتوجهن من مقرهن بجوار حديقة الأزبكية إلى مستشفى الحوض المرصود للكشف الدورى وهن على عربات الكارو يغنين ويرقصن، وعند العودة يزداد ضجيجهن وغناؤهن، وأن لحن سيد درويش الشهير سالمة ياسلامة.. رحنا وجينا بالسلامة قد كتب خصيصا لرحلة العودة السالمة من مستشفى الحوض المرصود. وبعد ستة أسابيع فى مستشفى الحوض المرصود تعلمنا الكثير عن الأمراض الجلدية والتناسلية، لأننا كنا نكشف على آلاف المرضى، لكننا تعلمنا أكثر عن الحياة.

ثم انتقلنا بعد ذلك إلى مستشفى أحمد ماهر بشارع بورسعيد بين السيدة زينب وشارع الأزهر، حيث قضينا أربعة أشهر ونصف الشهر موزعة على أقسام الجراحة والباطنة وأمراض النساء. وكان مستشفى أحمد ماهر يعتبر درة مستشفيات وزارة الصحة فى النظافة والإمكانيات ومستوى الإخصائيين فى الفروع المختلفة. وقد كان عدد أطباء الامتياز به مائة، هم الخمسون الأوائل من القصر العينى، والخمسون الأوائل من عين شمس. وكانت فترة الامتياز هى فترة المرح واللعب والخروج اليومى، فوظيفة طبيب الامتياز هى مجرد مساعد للنائب، وغالبا ماتعرف الحكيمة المدربة أكثر منه فى الأشياء العملية البسيطة، والمسئولية والمحاسبة بالكامل تقع على النائب والحكيمة، وحتى المسئولية الجنائية لايحاسب عليها طبيب الامتياز، لأنه طبيب تحت التدريب وغير مسموح له بمزاولة المهنة إلا تحت إشراف ومباشرة النائب. وكان مرتب طبيب الامتياز خمسة عشر جنيها، وله سرير للإقامة وثلاث وجبات مجانية.

وكانت فترة الامتياز التى استمرت عاما كاملا من أخصب فترات حياتى، فقد كنت موظفا أتقاضى مرتبا ولا يوجد لدى أى مسئوليات، وعندى من الوقت الكثير، فكانت معظم الأقسام لاترغب فى تواجدنا وذلك لكثرة عددنا، ولأننا لانفيد فى العمل كثيرا وربما نعطله فى بعض الأحيان. وكانت تلك الفترة أيضا هى فترة التحولات السياسية المهمة والتى اتخذ نظام الحكم فيها بصراحة ووضوح سياسة التحول الاشتراكى والتعاون بقوة مع معسكر الاتحاد السوفيتى والعداوة للمعسكر الغربى. وقد كان ذلك العام من أخصب فترات عمرى فى القراءة والتزود بالمعرفة والتى استمرت خلال الستينات.

وقد تعرفت مرة أخرى على كتب إبراهيم عبدالقادر المازنى وأعجبنى أسلوبه وأفكاره البسيطة السهلة وروح الدعابة التى تسود كتاباته، حتى أكثرها جدية، ولايزال كتاب صندوق الدنيا عالقا بذهنى لمدة تقارب الأربعين عاما. وكانت كتب المازنى رخيصة، فبينما أقلب فى مكتبتى حديثا وجدت أن سعر إبراهيم الكاتب وحصاد الهشيم كان عشرة قروش لكل منهما، وكان هذا سعرا معقولا بالنسبة لمرتبى، فكان ثمن خمسة كتب جديدة هو نصف جنيه وهذا يعنى ثلاثة بالمائة من مرتبى الشهرى. ولولا برنامج مكتبة الأسرة الحالى لما كان من الممكن بأى حال من الأحوال أن يستطيع أى شاب أو أية أسرة متوسطة فى مصر شراء أى كتاب فى هذا العصر.

وكان الكاتب الآخر الذى بدأت القراءة له فى تلك الفترة وأكملت كل ماكتب بعد ذلك هو الفنان القدير يحيى حقى. فهذا الإنسان الرائع استطاع أن يجمع بين الوظيفة الحكومية فى القرية المصرية وينتقل منها إلى سفارتنا فى الخارج ويعود ليتولى مهمة مؤسسات ثقافية. وأنا أعتقد أن يحيى حقى صاحب تجربة إنسانية عميقة وقدرة فائقة على الغوص فى النفس البشرية، فكتاباته الجميلة فى صح النوم وفكرة وابتسامة وكناسة الدكان ودماء وطين وغيرها من أرقى وأجمل ماكتب بالعربية. وكان ناقداً

أستاذا يشرح ويعلق بأسلوب جميل، فنشعر كأنك تقرأ فنا إبداعيا جديدا، وهذا هو الناقد الحقيقى الذى يقرأ لك النص بعين أخرى وبقلب آخر، فترى الكتاب أجمل والفكرة أعمق، وتبقى متعته فى قلبك وذهنك. أما روايته القصيرة قنديل أم هاشم فهى بالطبع عمل جميل، لكنه فى تقديرى أقل قيمة من أعماله الأخرى وإن فاقها شهرة.

ومن أجمل الأشياء فى كتب يحيى حقى أنك تستطيع أن تفتح أياً منها فى أية لحظة وعلى أية صفحة فتقرأ شيئا جميلا تفهمه وتستمتع به لمدة نصف ساعة وتغلق الكتاب، وتعيد فتحه بعد شهر على صفحة أخرى وتشعر بنفس المتعة. أما خفة دم يحيى حقى فلا يجاريه فيها أحد، فهو صاحب أسلوب فى سرد الحكاية يجعلك تبتسم وتبتهج ويجرى السرور فى جسدك، وربما لاتضحك ولا تقهقه، لكنك تشعر ببهجة حقيقية قوية دافئة. ومازلت حتى هذه اللحظة أقرأ بعض أجزاء من كتبه من حين لآخر وأبتسم نفس الابتسامة وأشعر بنفس السعادة التى كنت أشعر بها منذ أربعين عاما وأنا أقرأ نفس الكلمات.

وفى أول مارس عام ١٩٦٣ انتهت فترة الامتياز خارج القصر العينى وعدنا لنكمل نصف الفترة فى مستشفانا الحبيب القصر العينى. وكان أطباء الامتياز من الذكور مقسمين على عدة أماكن للإقامة. أما الطبيبات فكن كلهن فى مبنى القصر العينى القديم الذى هدم وبنى مكانه القصر العينى الفرنساوى الآن. وكنت منضما لمجموعة من الطلبة الذين كونوا أسرة الطليعة وتم تسكيننا جميعا فيما يسمى بيت امتياز ٣ الذى يقع فوق مبنى إدارة مستشفى القصر العينى تماما، وكان يسع نحو عشرين طبيبا موزعين على أربع حجرات، وتسلم كل منا دولابا، وكان يوجد فى سكن الأطباء مطبخ به طباخ حكومى وثلاثة تومرجية لخدمة الأطباء. وكان المطبخ يقدم وجبة ساخنة للغداء وأخرى للعشاء، وكان كل طبيب امتياز يستلم ٢٨ بيضة نيئة أسبوعيا بواقع أربع بيضات يوميا، وكان كل منا يحتفظ بالبيض فى الدولاب وفى بعض

الأحيان كان دولابى يحتوى على أكثر من مائة بيضة. ولما كان العمل قليلا للغاية ووجودنا غير مرغوب فيه فى المستشفى، كانت فترة الامتياز هذه هى فترة المرح الكبرى فى حياتنا. وكان لسكن الأطباء فراندة كبيرة، وكنا نجلس مساء على هذا السطح لنتسامر، وكان التومرجية يحضرون لنا العشاء، وكنا نتبادل النكات. وعلى السطح أثناء العشاء كنا نشرب البيرة، وأحيانا كان كل عشرة أطباء يشتركون فى شراء زجاجة ويسكى من بقالة النيل الأزرق بشارع القصر العينى، وثمنها كان أربعة جنيهات وخمسة وسبعين قرشا، فيدفع كل طبيب خمسين قرشا. وكانت قلة من الأطباء تدخن الحشيش داخل بيت الامتياز. وخلال تلك الفترة كان الأطباء الملتزمون بالحضور للأقسام فى المواعيد ثلاثة فقط من ضمن المجموعة كلها، والسبب فى الالتزام هو أن درجاتهم فى الامتحان النهائى كانت تؤهلهم للحصول على وظيفة طبيب مقيم، وكان الالتزام خلال فترة الامتياز شرطاً أساسياً للحصول على الوظيفة. وكنت أحاول أن أقيم توازنا بين التهريج الشديد لشلة امتياز ٣ وبين عملى فى المستشفى ضمانا لحصولى على وظيفة الطبيب المقيم، حيث إن ترتيبى فى التخرج كان متقدماً . ومرت سنة من أمتع سنوات حياتى مع مجموعة من الأصدقاء المخلصين، وكنا أطباء لكن دون مسؤولية، نتقاضى مرتبا بسيطا لكنه كان يكفينا، لأن السكن والأكل كانا بالقصر العينى. وقد أصبح معظم زملاء امتياز ٣ من الأطباء الكبار وهاجر منهم د. رضا الصاوى إلى كندا ود. فؤاد عبد الستار والمرحوم الدكتور كمال زكرى والدكتور علاء الطويجى والدكتور على خليف إلى الولايات المتحدة والمرحوم الدكتور نبيل غبريال إلى إنجلترا وكلهم شغلوا مناصب مهمة هناك، وبقى فى مصر د.محسن خطاب مدير مستشفى المعلمين ود. محمد شرف الذى ترأس المؤسسة العلاجية ود.محمد الزرقانى الذى ترأس قسم الأمراض الجلدية بجامعة الأزهر والدكتور حاتم الجمال وكيل طب الأزهر والدكتور فاروق عمرو أستاذ العظام بالقصر

العينى ود. رضا البلتاجى استشارى الأمراض الباطنة. أما دفعة ١٩٦٢ فقد كان عدد خريجيها ٢٢٠ طبيبا هاجر منهم نحو ثمانين إلى الولايات المتحدة وكندا وإستراليا وعمل نحو خمسين فى الخليج لسنين طوال والباقى استمر فى العمل فى مصر. ومن ضمن دفعتنا بعض نوابغ الطب كالدكتور محسن إبراهيم استاذ أمراض القلب وهو أول الدفعة، والدكتور معتز الشربينى أستاذ الجراحة الذى أصبح عميد الكلية لمدة ست سنوات منها ثلاث سنوات بالانتخاب وثلاث بالتعيين بعد إلغاء انتخاب العميد، والدكتور رشاد برسوم أستاذ الكلى والدكتور محمد الحوشى أستاذ الرمد والدكتور نادر عبدالدايم أستاذ الجراحة وهو أول الدفعة طوال الدراسة، وآخرون من كبار الأساتذة والإخصائيين. وقد كان من أسباب الهجرة للغرب فى ذلك الوقت الكثير من الضغوط النفسية التى سببتها ممارسات السلطة من مخابرات إلى مباحث إلى غيره من وسائل الضغط، بالإضافة إلى الضغوط الاقتصادية التى تعرضت لها مصر. وكان السبب الآخر المهم هو سهولة هجرة الأطباء المصريين إلى أمريكا الشمالية فى ذلك الوقت، حيث كان ذلك يستلزم امتحانا بسيطا يجتازه معظم الأطباء المصريين بسهولة باللغة. وكان العمل فى إنجلترا سهلا للغاية لأى طبيب مصرى بدون تأدية أية امتحانات.

وفى تلك الفترة كان الخروج من مصر لأى سبب من الأسباب غاية فى الصعوبة، فوصل الأمر إلى أن الخروج كان يتطلب إمضاء رئيس الوزراء ، ولاتمنح تأشيرة الخروج ـ والتى كانت ضرورية فى ذلك الوقت ـ قبل موافقته. واستمر سفر الأطباء المصريين خلال السبعينات، لكنه أصبح أكثر صعوبة بسبب زيادة الشروط وفرض أنواع جديدة من الامتحانات للعمل فى الولايات المتحدة، بالإضافة إلى تشبع السوق هناك بالأطباء، وكذلك فرض قيود على الهجرة بصفة عامة. وبسبب هذه الهجرة الكبيرة لم نستطع أن نعثر على عناوين أكثر من مائة وعشرين طبيبا من بين مائتين وعشرين لإقامة حفل العيد الفضى للتخرج عام ١٩٨٧ .

الوحدة الريفية و ممارسة الطب فى أعماق الريف

بعد انتهاء فترة الامتياز لم نستطع أن نتسلم وظيفة طبيب مقيم مباشرة، لأنه لم توجد أماكن خالية بالقصر العينى، فذهبنا إلى خارج القصر العينى لمدة تسعة أشهر إلى الوحدات الريفية. وقد تم توزيعى فى محافظة المنوفية بناء على طلبى الذى كتبته فى استمارة الرغبات التى وزعت علينا، وتم تدريب الأطباء الذين وزعوا فى المنوفية فى شبين الكوم وسرس الليان، حيث تلقينا سلسلة من المحاضرات عن نظام العمل بالوحدة الريفية وتنظيمها، واستمر ذلك لمدة شهر. وكنا نقيم فى مبنى تابع لمؤسسة اليونسكو فى قرية سرس الليان، وهو مركز للتدريب الإقليمى. وبعد ذلك تم توزيعنا على القرى، وكان نصيبى هو قرية الرمالى مركز قويسنا، وكان سبب اختيارى لهذه القرية قربها من طريق مصر -الإسكندرية الزراعى الذى تبعد عنه نحو ثلاثة كيلومترات، وكان ذلك يعنى سهولة وصولى إلى القاهرة. وفى ذلك الوقت كنت أملك سيارة تاونس موديل عام ١٩٥٥ اشتراها لى والدى مستعملة بمبلغ خمسمائة جنيه. وتوجهت إلى قرية الرمالى بعد أن انحرفت يمينا فى طريق مصر -الإسكندرية بعد قويسنا ببضعة كيلومترات. والطريق الجانبى لم يكن مرصوفا، لكنه كان ممهداً. وفى النهاية وصلت إلى الوحدة الصحية الريفية وهى واحدة من آلاف الوحدات التى بناها جمال عبدالناصر فى القرى المصرية، وكان مبنى الوحدة عبارة عن عيادة خارجية وصيدلية وحجرة صغيرة مجهزة لإجراء بعض الجراحات البسيطة، وفى الجهة المقابلة يوجد سكن الطبيب، وهو مكون من صالة وحجرة مرفق بها دورة مياه، وبها فرش بسيط لكنه أنيق. ولم تكن الكهرباء قد وصلت بعد إلى كل قرى الريف المصرى، وهاهى قرية تبعد عن القاهرة ستين كيلومترا وتسبح فى الظلام كل مساء كما كان الحال أيام الفراعنة، بينما أعلن فى نفس العام عن دوران المكوك الروسى الذى حمل رجل الفضاء جاجارين ليطوف حول الكرة الأرضية ويعود بسلام. وكان داخل سكن

الطبيب ثلاجة صغيرة تعمل بالجاز وراديو كبير يعمل بالبطارية وكلوب بالجاز للإضاءة، وقضيت يومى الأول فى التعرف على أحوال الوحدة الصحية، وعلمت أن الوحدة كانت مغلقة لمدة عام كامل لأن الطبيب الذى سبقنى للعمل بها لم يكن يرغب فى البقاء، فأخذ إجازات مرضية متتالية حتى تم نقله خارج المنوفية، وكان أول طبيب يعمل فى الوحدة بعد إنشائها. وقمت بالمرور على الوحدة وعاينت العيادة الخارجية، وكانت فى حالة جيدة، وتصميم مبناها وتنفيذه أيضا جيد، وبها كراسى للمرضى وسرير للكشف. ثم انتقلت إلى الصيدلية فوجدتها مليئة بالأدوية فى عبوات مختلفة الأحجام فلا تكاد تستطيع أن تدخل من باب الصيدلية من كثرة الأدوية. ثم ناظرت حجرة العمليات الصغيرة، وطلبت العاملين بالوحدة للاجتماع بهم وكانوا خمسة، اثنين من التومرجية الرجال وإثنتين من النساء ومساعد صيدلى، فعرفتهم بنفسى وسألت عن نظام العمل المتبع قبل حضورى ، فعلمت أن الوحدة كانت مغلقة منذ افتتاحها لعدم وجود الطبيب وأنها فتحت للعمل لمدة أسبوعين فقط خلال العام السابق.

وتقدمت إلى إحدى التومرجيات وكانت فى نهاية العقد الرابع من العمر، فارعة الطول، لونها شديد الغمقة، لكن ليس بها أى من السمات الزنجية، ولا هى تشبه السيدات السودانيات، لكنها كانت أقرب للصوماليات، وعرفتنى بنفسها وكان اسمها معلومة، وتطوعت بأن تكون المسئولة عن المسكن ونظافة المكان، وكذلك الطبخ وتحضير الطعام ، وقالت إنها فى غاية النظافة وتعرف أصول الطهو. ثم استطردت قائلة إنها كانت ولاتزال تعمل داية للقرية تقوم بتوليد السيدات فى بيوتهن، وإن هذه الوظيفة توارثتها عن أمها وجدتها وإنهن كن دائما يعملن فى خدمة أثرياء المنطقة. وفعلا كانت معلومة سيدة أمينة ومحترمة وغاية فى النظافة والنظام، وقامت بتحضير الطعام وغسيل الملابس ونظافة السكن طوال إقامتى، وكانت متزوجة من أحد فلاحى

القرية وعندها ثلاثة أولاد فى العشرينات من عمرهم. وسألت معلومة عن أصلها وسبب مجيئها إلى هذه القرية فى دلتا مصر، فلم تعرف إجابة واضحة، لكنها تحكى أن أجدادها كانوا من العبيد الذين حضروا إلى مصر من أفريقيا فى القرن الثامن عشر، واستقرت جدتها الكبرى فى قرية الرمالى فى نهاية القرن التاسع عشر للعمل فى خدمة أحد الأثرياء، ثم عملت داية للقرية وتوارثت بناتها وحفيداتها هذا العمل. وكانت معلومة قليلة الكلام لاتتدخل فى مشاكل الوحدة ولاتشى بأحد ولاتساهم فى أعمال النميمة المستمرة بين باقى العاملين. ثم قابلت الشخصية الثانية فى الوحدة، وهى التومرجى الأقدم وكان يدعى عبدالحليم، ولم أرتاح لهيئته وطريقة تصرفه منذ اللحظة الأولى. وكان يرتدى جلابية بلدى بعكس الآخرين الذين ارتدوا الزى الرسمى للتومرجية ، وهو جلابية بيضاء للتومرجيات وبنطلون وقميص أبيض للرجال، وكان الزى يصرف من وزارة الصحة. وكان هذا التومرجى فى نهاية الخمسينات من عمره وكان يعمل حلاقى للصحة فى القرية فيقوم بعمليات الطهور للأولاد وكذلك علاج بعض الأمراض البسيطة ومداواة الجروح. وعندما أنشئت الوحدة الصحية وطلبوا موظفين للوحدة الصحية كان أول المتقدمين هم حلاقو الصحة والدايات، ومنذ اللحظة الأولى فهمت أنه غير سعيد على الإطلاق بإنشاء الوحدة الصحية أصلا ويريد أن يتم العمل فى الوحدة الصحية حسب رؤيته الشخصية وأفكاره التى تتمشى بالطبع مع مصالحه المادية الخاصة، وقد حدثت أول مشكلة معه بعد يوم واحد من حضورى للقرية حين طلب منى أن يكون مسئولا عن عهدة المخدرات، وكان النظام أن تكون فى عهدة الطبيب شخصيا، أما بقية الأدوية فتكون عهدة مساعد الصيدلى. وقد اندهشت من هذا الطلب، وكانت حجته أنه يخشى من سرقة هذه الأدوية الخطيرة أو من سوء استعمالها. وبالطبع رفضت ذلك الطلب. ثم بدأ يطلب منى أمبول مورفين لمريض عنده آلام مبرحة فى القرية. وبعد استفسار بسيط عرفت من الآخرين أنه مدمن للأفيون الذى يتعاطاه يوميا، وكان يود لو أن تساهم وزارة الصحة المصرية فى

دعم مصاريف إدمانه. وكنت فى شدة الحزم معه، وعند توزيع العمل لم أعهد إليه بأى عمل يمكن أن يتربح منه بصورة غير شرعية. وكان هذا التومرجى مصدرا دائما للقلق والمشاكل طوال فترة عملى فى هذه القرية ، خاصة أنه كان على علاقة قوية بكثير من رجال القرية أصحاب النفوذ والعزوة.

أما التومرجى الآخر والتومرجية الأخرى فكانا أصلا من فلاحى القرية، وليس عندهما سابق خبرة فى هذه المهنة، وكان التومرجى يقرأ بصعوبة، أما التومرجية فكانت أمية. ثم جلست مع مساعد الصيدلى، وهو أمين العهدة فى الوحدة، وسألته عن أسماء الأدوية الموجودة وأنواعها وتاريخ انتهاء مفعولها، وكيفية حفظها واكتشفت أن الوحدة بها كمية ضخمة من الأدوية والبعض منها أدوية مرتفعة الثمن، وأن من ضمن أسباب التضخم الكبير فى مخزون الدواء بالوحدة أن هناك كمية محددة مسبقاً توزع على الوحدات بالتساوى دون النظر إلى المخزون أو الاحتياجات. ولما كانت الوحدة مغلقة لمدة عام تقريبا، كان الدواء يرسل للوحدة ويدخل المخزن ولايوجد منصرف. واكتشفت أيضا أنه من شبه المستحيل القيام بعملية جرد للأدوية. وسألت المساعد عن كيفية حصر الأدوية فى الدفاتر، فأجاب إجابة نظرية لم أقتنع بها وهى أن كل تذكرة مريض تصرف يتم خصمها من المخزون أولا بأول. وتركته وأنا أفكر فى طريقة لضبط عملية صرف الدواء وعدم سرقته خارج الوحدة.

وفى اليوم التالى طلبت منه قائمة بأسماء وأنواع الأدوية الموجودة بالوحدة. وكانت القائمة تحتوى على أكثر من مائة صنف من الأدوية. وبعد مراجعة سريعة اكتشفت أن معظم الأدوية رخيصة الثمن واحتمال سرقتها ضعيف، وأن هناك نحو عشرة أصناف فقط أثمانها مرتفعة أو متوسطة. فطلبت من المساعد أن يضع هذه الأصناف فقط فى غرفة صغيرة منفصلة وأن يقوم بجردها ومطابقتها بالدفاتر، على أن يتم جرد هذه الأصناف فقط شهريا داخل الوحدة، أما الباقى فعلى مفتش الوزارة جردها

كما يرى. ولم يكن المساعد سعيدا بهذا الاقتراح الذى أضاف له عملا إضافيا، وربما منعه بمفرده أو بالاشتراك مع الآخرين من صرف هذه الأدوية كما يحلو لهم.

وكان يؤرقنى صغر عمرى، فكنت لم أتجاوز ثلاثة وعشرين عاما، وكان مظهرى وطريقة ارتدائى لملابسى تنم عن عمر أصغر من ذلك، وكنت أخاف أن يؤثر ذلك على هيبتى كرئيس للوحدة وأن يتسبب ذلك فى عدم قدرتى على قيادة وتنظيم العمل.

وبعد حضورى بيومين أعلنت أن العيادة الخارجية ،وهى العمل الوحيد للوحدة سوف يبدأ من أول الأسبوع. وحددت مواعيد العمل بالعيادة على فترتين، الأولى صباحية من التاسعة حتى الثانية عشرة ظهرا والثانية من الثالثة إلى الخامسة مساء، وأرسلت التومرجى للعمدة ليخبره أننى سوف أذهب لزيارته فى المساء، وكان بعض رجال البلد قد حضروا للترحيب بى فى الوحدة قبل ذلك. وذهبت لزيارة العمدة، وكان معه شيخ البلد وشيخ الخفراء وبعض من أعيان القرية. وجلست معهم لمدة ساعة أشرب الشاى المغلى والمحلى بكميات هائلة من السكر، ثم ثم تعاد الكرة مرة أخرى وثالثة. وتحدثت معهم بأن الوحدة مفتوحة للجميع وأن الدواء سوف يصرف مجاناً كما تقضى اللوائح.

وبدأنا العمل بالعيادة الخارجية، وكان يملؤنى الكثير من الحماس فى نجاح تجربتى بالقرية، وبالفعل بدأت الكشف على المرضى فى العيادة الخارجية، وكان طابور المرضى يتراوح بين ثلاثين ومائة مريض فى الفترة الصباحية ونصفهم فى فترة بعد الظهر. وكنت أحاول أن أقوم بالكشف الفعلى وتشخيص المرض وإعطاء الدواء المناسب، وهو مالم يكن متبعا فى العادة فى معظم الوحدات، بل كان من المعتاد أن يعطى الدواء بناء على طلب المريض أو أعراضه أو مايحدده التومرجى له. وكانت التجربة إيجابية فى مجملها، لأن المرضى الفقراء أخذوا مايحتاجونه من علاج. ولم

يكن أعيان القرية سعداء بهذا النظام الذى ساواهم بالفلاحين الأجراء، والذى لم يسمح لهم بأخذ مايريدونه من دواء. ولكن النظام الذى وضعته كان به الكثير من المرونة، فكنت أحاول أن أريح الأعيان فى حدود المعقول حتى أتجنب إثارة مشاكل للوحدة فى القرية. وبعد بضعة أسابيع، تعود الجميع على النظام وكانوا سعداء به، وتوقف صرف الأدوية الغالية بدون روشتات، ولم يعد من الممكن صرف روشتة بثلاثة قروش من الوحدة الصحية وإعادة بيع الدواء بعد ذلك ، لأن الدواء لم يعد يعطى إلا للمرضى الحقيقيين.

وكانت الخطوة التالية هى محاولة عمل مشروع صحى للقرية. ففكرت فى عمل مشروع محلى لعلاج البلهارسيا التى كانت متوطنة فى معظم سكان القرية، وكان العلاج فى ذلك الوقت هو حقن الطرطير المقيئ، وكنا نحضرها محليا فى الوحدة ونعطيها للمريض فى الوريد بحقن زجاجية من المفروض أن يعاد غليها كل مرة. ولقد بذلت مجهودا كبيرا فى تحضير مادة الطرطير وعمل حملة لحقن أفراد القرية، وأعتقد أننا خلال ستة أشهر كنا قد أتممنا علاج عدد كبير من سكان القرية. لكننى كلما أتذكر ماقمت به فى الوحدة –والذى اعتبرته فى ذلك الوقت عملا مجيدا– أرى أنه ربما كان كارثة طبية، فأنا لاأتخيل طبيبا يقوم بتحضير دواء خطير كالطرطير فى وحدة فى قرية لاتدخلها الكهرباء، ثم تحقن هذه المادة الخطيرة والسامة فى الوريد مباشرة للكبار والصغار، ولا أدرى ماذا قد أصاب فلاحى القرية من هذا الدواء بهذه الطريقة من التحضير والحقن فى الوريد، وقد كان هذا جزءا من البرنامج القومى لمكافحة البلهارسيا، وكل مافى الأمر أننى طبقته فى القرية بأمانة وجدية.

وبعد أسبوع من عملى بالوحدة حضر التومرجى ومعه شهادة وفاة يطلب توقيعى عليها بأن الوفاة كانت طبيعية. ولم أدر ماذا أفعل. هل أوقع على الشهادة وربما تكون الوفاة جنائية وأصبح أنا متهما بالتزوير؟ لكننى لو لم أوقع، فيجب أن أقوم بالكشف

على المتوفى لمعرفة سبب الوفاة، وبالإضافة إلى ماسوف يثيره ذلك من غضب أهل المتوفى بل والقرية كلها، فأنا جاهل كل الجهل بالطب الشرعي وآخر معلوماتي عنه درستها بالكلية ولم أمارسها أو أتدرب عليها فى أى وقت من الأوقات، فأخذت الشهادة إلى سكنى وناديت معلومة التومرجية وسألتها عن المتوفى، فأخبرتنى أنها تعرف العائلة كلها والمتوفى شخصيا، وقد كان مريضا وهى متأكدة أنه لاتوجد شبهة جنائية. وشجعتنى على التوقيع على الشهادة، وفعلا وقعت عليها.

وبعد أسابيع حضر إلى الوحدة مساعد مدير المنوفية لشؤون الوحدات الريفية للتفتيش والتأكد من حسن سير العمل، فسألته عن شهادات الوفاة وهل يجب أن أذهب للكشف على المتوفى فكان رده: طبعا يجب أن تكشف على كل متوفى قبل الإمضاء. (ثم يعنى إنت عاوزنى أقول لك ماتكشفش إزاى!!. عاوز توديني فى داهية؟) ثم أردف قائلا : بس بينى وبينك ماتكشفش على الكبار فى السن إلا إذا سمعت حاجة كدة ولا كدة، وخلى التومرجية بتوعك دول عيونك فى القرية، وكمان يعنى إنت لو كشفت حتعرف حاجة.

وبعد الساعة الخامسة مساء ينتهى العمل فى الوحدة. ويبقى التومرجى النوبتجى فيقوم بإشعال الكلوب ويتأكد من أن الرتينة سليمة. وكان الكلوب يعمل بالجاز ويعطى إضاءة ممتازة، وكان يعلق فى سقف الحجرة بخطاف طويل من السقف، ويمكن أن أنقل الكلوب معى إلى الخارج وكانت وسيلتى الوحيدة للتسلية هى القراءة وسماع الراديو الذى توفره الحكومة لكل وحدة، وهو يعمل بالبطارية. وكنت أقضى معظم وقتى فى القراءة، فأقرأ على الأقل خمس أو ست ساعات يوميا. وتنوعت قراءاتى واتسعت وخرجت إلى آفاق جديدة. وكان مرتبى فى الوحدة بما فيه البدلات نحو خمسين جنيها بالإضافة إلى السكن المجانى. وكان هذا المبلغ عام ١٩٦٣ كافيا لشاب مثلى لأن يعيش بطريقة معقولة وأن يقتنى الكتب التى كانت رخيصة للغاية، فكانت

كثير من السلاسل القيمة يتراوح ثمن الكتاب فيها بين خمسة قروش وعشرين قرشا، وكانت كتب دار الهلال ودار المعارف تقدم ترجمات عالمية مهمة، فبدأت التعرف على الأدب والفكر العالمي وأقرأه بشغف شديد. وبدأ تعلقي بالأدب الروسي ابتداء من تولستوي في ملاحمه الرائعة التي قضيت معها ليالي حتى الصباح على ضوء الكلوب في قرية الرمالي، ومرورا بقصص تشيكوف القصيرة ونهاية بمكسيم جوركي، وكنت أشتري هذه الكتب من المكتبة التي تبيع الأدب الروسي في شارع سليمان باشا)طلعت حرب) وكانت هناك مجلدات رائعة بسعر خمسة قروش من الجناح الروسي لمعرض الكتاب، وقد أثر في الأدب الروسي تأثيرا شديدا وشعرت بمدى معاناة الإنسان الروسي خلال حقبة طويلة من الزمن، وكنت أقارن معاناة الإنسان المصري بنظيره الروسي فأجد فروقا كثيرة في نوعية المعاناة وحجمها، لكنني أدركت أن ذلك كان السبب الرئيسي لنجاح الثورة البلشفية عام ١٩١٧, وكذلك بدأت في التعرف على كلاسيكيات الأدب والفكر، فقرأت لبعض أساطين الفكر اليوناني، وكان ذلك ضمن مجموعة من الكتب التي صدرت بالعربية في تلك الفترة عن أرسطو وأفلاطون وغيرهما، ولم تكن أعمالهم الكاملة وإنما ملخصات وشروح لبعض أعمالهم. واشتريت أيضا كتاب الكوميديا الإلهية لدانتي والأمير لمكيافيلي وقرأتهما وكان إعجابي شديدا بالكاتب الإيطالي العظيم براندلو ، والغريب أن شراء هذه الكتب كان سهلا، وكانت متوفرة ورخيصة للغاية في معرض الكتاب أو في المكتبات المختلفة. وكان سور الأزبكية مليئا بالكتب القديمة الرائعة وكان بحالة جيدة وكان كثير من الكتب يتراوح سعره بين قرشين وخمسة قروش وبعض الكتب المهمة أو النادرة قد يصل سعره إلى جنيه كامل وربما أكثر، لكنني لا أذكر أنني اشتريت كتابا من سور الأزبكية ثمنه أكثر من خمسة وعشرين قرشا. وكانت زيارة سور الأزبكية متعة، وكنت أركب الترام حتى نهاية شارع فؤاد عند ميدان الأوبرا، ثم أتجول في سور الأزبكية وأمضي الساعات أتصفح الكتب والمجلات القديمة، وكان الباعة على قدر كبير من الذوق، فيتركون المشتري

يقلب ويتصفح ويأخذ وقته، لايضايقونه ولايتطفلون عليه بأسئلة سخيفة كما يحدث الآن عند بعض المكتبات الكبرى. و قد لاحظت فى نهاية الثمانينات أن سور الأزبكية أصبح عديم القيمة ولم تعد تجد فيه كتابا جيدا وإن وجدت شيئا فثمنه مرتفع ويقارب أو يماثل الكتاب الجديد، وتحول بعض الباعة إلى بيع المصاحف والبراويز وأشياء أخرى وابتعدوا عن الكتب.

وتعرفت فى فترة الوحدة الصحية على كتب المفكر والكاتب العظيم لويس عوض، فكان تأثيره قويا جدا، وقادنى عن طريق كتابه العظيم ثورة الفكر فى عصر النهضة الأوروبية وكتابه الثورة والأدب وكتابه الحرية ونقد الحرية إلى أفكار جديدة، وتعرفت على الوجه الثقافى لأوروبا الغربية عن طريقه، وقد عشت طوال عمرى أحب هذا الرجل وأقدره، وقرأت أيضا نقده للناصرية فى كتابه أقنعة الناصرية السبعة. لكننى لم أتمتع بقراءة روايته العنقاء ولم أفهم شيئا من كتابه مقدمة فى فقه اللغة العربية مع محاولاتى الجادة فى ذلك. وازداد إعجابى بهذا الرجل بعد ذلك عندما نشر الجزء الأول من سيرته الذاتية والذى كان قمة فى الصراحة والوضوح واعتبرته من أعظم السير الذاتية التى قرأتها، وللأسف الشديد توفى لويس عوض قبل أن يكتب الجزء الثانى من كتابه. وقد تعرض لويس عوض فى الحقبة الأخيرة لهجمة شديدة من كتاب كثيرين كنت أحس فى الكثير من كتاباتهم نبرة العداء الشخصى لأسباب تاريخية ودينية، وفى الواقع لم أتأثر بأى منها ولم أحس بصدق وأمانة الناقد ، إلا فى دراسة واحدة مهمة للناقد المتميز الأستاذ فاروق عبدالقادر جعلتنى أعيد التفكير فى هدوء فى بعض المسلمات عن لويس عوض ، لكن تغييرا كاملا لفكرتى عنه يستلزم إعادة القراءة والفهم والمراجعة بهدوء قبل إمضاء هذه الشهادة.

وهكذا كانت فترة الوحدة الريفية والبعد عن القاهرة والأصدقاء وعدم وجود تليفون فى القرية كلها إلا تليفون العمدة المتصل بالمركز سببا مهما فى قراءاتى المتعددة

والمركزة فى تلك الفترة. وأعتقد أن جميع محاولاتى للقراءة بعد ذلك لم تصل أبدا لهذا التركيز وهذا الكم من الوقت، ولذا فأنا أعتز جدا بتلك الفترة من العمر وبذلك المكان الجميل فى الريف المصرى الذى أتاح لى عملا هادئا مفيدا ووقتا وتفرغا لتثقيف نفسى.

وأعتقد أن مشروع الوحدات الريفية كان أحد المشروعات الصحية التى بدأت بفكرة عظيمة وخطط لها جيدا ونفذت بسرعة وكفاءة وأدت خدمات صحية جليلة للمواطنين فى الريف المصرى. لكن تغير استراتيجية الدولة قضى تماما على هذا المشروع، وأعتقد أن كل القرى قد بنيت فيها وحدات ريفية، وكان بكل وحدة طبيب، وكانت الأدوية تكفى المرضى فى القرية، وكان التطعيم ضد الأمراض المعدية وعلاج الأمراض المتوطنة يتم مجانا بكفاءة معقولة، وكانت الحالات التى تستدعى علاجا أو تدخلا جراحيا ليس فى مقدور طبيب الوحدة تحول إلى المستشفى المركزى، وكانت معظم الوحدات منتظمة، وكان الأطباء فى أغلبهم سعداء بالعمل فى هذه الوحدات، وبالتأكيد كان لهذه الوحدات الفضل الأكبر فى رفع المستوى الصحى للفلاح المصرى، وللأسف مع انهيار النظام الاشتراكى وضعف المخصصات الصحية وارتفاع أسعار الدواء، أصبحت معظم الأدوية المطلوبة غير موجودة بالوحدات الريفية، وتحولت الوحدات الريفية بالتدريج إلى عيادة خاصة للطبيب الذى يتقاضى مرتبا ضعيفا بالنسبة لارتفاع مستوى المعيشة، فأصبح يكشف فيها بالأجر ويصرف المريض الدواء من الصيدلية الخاصة، وهكذا انتهى مشروع الوحدات الريفية العظيم إلى مشروع إنشاء عيادات خاصة للأطباء على حساب الدولة فى عهد الاقتصاد الليبرالى المفتوح.

وقرب نهاية خدمتى فى قرية الرمالى حدث ما أثر على علاقاتى الطيبة بالأهالى، والتى استمرت لشهور لايشوبها شائبة، بل بالعكس كان الأهالى سعداء

بوجودى وبالنظام العادل لعلاج المرضى وتوزيع الدواء. ففى أحد الأيام تلقيت إشارة مكتوبة من تليفون العمدة بأن لورى محمل بالدقيق الأمريكى الفاخر سوف يصل فى اليوم التالى للوحدة الصحية وعلى أن أقوم بتخزينه فى الوحدة، ثم توزيعه على الفقراء من أهل القرية. وأصل الحكاية أن هذا الدقيق معونة أمريكية لمصر ولجمال عبدالناصر فى وقت كانت فيه العلاقات المصرية- الأمريكية (فى مارس ١٩٦٤) فى أسوأ أوقاتها. وكانت الصحف والإذاعة تهاجم أمريكا طوال الوقت، وكانت أمريكا تضيق من دائرة الحصار الاقتصادى على مصر ولا أدرى لماذا قدمت أمريكا ذلك الهدية فى هذا التوقيت، ولماذا قبلها عبدالناصر. واستغربت أيضا من الطريقة التى تقرر بها توزيع هذه المعونة، فقد تقرر أن يقوم أطباء الوحدات الريفية بتوزيعها بمعرفتهم. ووصل اللورى بأفخر أنواع الدقيق فى الميعاد، فقام التومرجية ومعهم العتالون التابعون للورى بإنزال الأجولة ووضعناها فى مخزن كبير من المفترض أنه للأدوات الصحية، وكان كل جوال مرسوم عليه يدان تصافحان بعضهما البعض، وكان مطبوع عليه علم الولايات المتحدة ومكتوب عليه بالعربية هدية من شعب أمريكا إلى شعب الجمهورية العربية المتحدة، وكان هذا اسم مصر فى ذلك الوقت. وقبل أن أفكر فى طريقة توزيع الدقيق على الفقراء وكيفية التعرف عليهم فى قرية معظم سكانها من الفقراء كان الخبر قد انتشر فى القرية كلها، وهلت وفود من أقارب العمدة وشيخ الخفر تستعلم عن الموضوع، وقابلتهم وأخبرتهم بأننى أفكر فى الطريقة المثلى لتوزيع الدقيق، وفى الصباح أرسلت لأمين وحدة الاتحاد الاشتراكى بالقرية وطلبت منه أن يوافينى بقائمة مكتوبة بكل الفقراء والمحتاجين فى القرية وبعد الظهر أحضر القائمة. وأخذت فى قراءة الأسماء، ولاحظت أن معظمها من عائلة واحدة هى عائلة العمدة، فسألت معلومة التومرجية، فأخبرتنى أن كل الأسماء هم أقارب العمدة وأمين الاتحاد الاشتراكى، وكلاهما من عائلة واحدة وأن كل أصحاب هذه الأسماء أحوالهم المالية طيبة نسبيا، لذا قررت أن أحاول كتابة قائمة أخرى بالأسماء ، وبالفعل

وبالاستعانة بمعلومة التومرجية وتومرجي آخر استطعت أن أكتب قائمة بها مائة اسم، وقررت أن يكون التوزيع على يومين، وأخطرت أصحاب الأسماء عن طريق التومرجية بالحضور للوحدة لاستلام نصيبهم من الدقيق، وفى الصباح فوجئت بضجة وأصوات مرتفعة ورأيت أعدادا كبيرة من سكان القرية تحيط بالوحدة وتتجمع خلف الباب الحديدى الذى أمرت بإغلاقه بالسلسلة والقفل، وبدأت المفاوضات مع الأهالى ومحاولة إقناعهم بأننا سوف ننادى اسما اسما وعلى صاحب الاسم المطلوب الدخول للوحدة، لكن هيهات. وبعد مرور عدة ساعات وأنا لا أستطيع التوزيع ولا حتى فتح الباب فوجئت ببعض الشباب يقفزون فوق سور الوحدة ويدخلون الحوش يريدون اقتحام مخزن الدقيق، وكان على رأسهم ابن العمدة، ووقفت فى حزم أمامهم وقلت لهم إننى سوف أبلغ الشرطة، وإن الحكومة سوف تتصرف. وكانت للحكومة والشرطة هيبة كبيرة فى ذلك الوقت فانصرفوا بعد أن تفوهوا ببعض الألفاظ غير اللائقة. وبعد أن انفض الجمع ركبت سيارتى وذهبت إلى قويسنا واشتريت قفلين كبيرين مع مزلاج حديد وعدت إلى الوحدة واستعنت بالتومرجية وأغلقنا المخزن جيدا. وفى الصباح أخذت مفاتيح مخزن الدواء ومخزن الدقيق وتركت الرمالى ومررت على مركز قويسنا ، حيث أخبرت المأمور بما حدث وكتبت محضرا بذلك طمأننى المأمور أنه لن يجرؤ أحد على اقتحام الوحدة، وأنه سوف يرسل فورا أحد ضباطه لتحذير العمدة وتهديده بأنه المسئول فى حالة حدوث إخلال بالأمن. وتوجهت للقاهرة وأرسلت برقية إلى مديرية الشئون الصحية بشبين الكوم أخبرهم فيها أننى مريض بالقاهرة وسوف أوافيهم بشهادة مرضية. وجلست فى بيتنا بشارع الدقى أفكر فيما حدث وهل حضورى للقاهرة يعتبر هروبا وجبنا أم أن هذا تصرف عملى. وفى مساء اليوم الثالث لى فى القاهرة فوجئت بدق جرس الباب وحضور وفد من الرمالى للمنزل واستقبلتهم وأبدوا اعتذارهم الشديد وأسفهم على ماحدث، خاصة ماحدث من ابن العمدة الذى أخبرونى أنه سوف يحضر مع أبيه العمدة للاعتذار لى فى الوحدة إذا قبلت العودة.

وفعلاً عدت فى اليوم التالى وحضر العمدة مع ابنه وشيخ الخفر وتم الاعتذار واتفقنا أن يعين العمدة خفيرين لحفظ النظام واثنين لتوزيع الدقيق، وأعطيت العمدة قائمة الأسماء ووعد أنه سوف يرسل كل مجموعة من عشرين شخصاً فى دفعة واحدة حتى يتم تسليم الدقيق كله. وطبعاً كالعادة تعلمت أن على أن أوازن الأمور، فبعد انتهاء التوزيع أعطيت شيخ الخفر وهو أيضاً قريب العمدة، أربعة أجولة لتوزيعها على العائلة وأعطيت كل تومرجى فى الوحدة جوالاً من الدقيق الفاخر.

وقد كانت هذه التجربة درساً بالغاً لى تعلمت منه الكثير عن أخلاق الزحام وطريقة الحياة فى الريف، وعلمت من بعض الزملاء المخضرمين فى قرى أخرى أن الدقيق تم توزيعه مساء بهدوء بمعرفة العمدة وشيخ الخفر وأمين الاتحاد الاشتراكى بعيداً عن الأعين وبدون مشاكل ولا أقفال ولا محاضر.

ومر بعد ذلك شهر واحد وعدت للقاهرة لاستلام وظيفة طبيب مقيم فى قسم أمراض النساء بالقصر العينى، وودعت الرمالى وأهلها الذين مازلت أعتز بهم حتى هذه اللحظة بالرغم من قصر فترة عملى معهم.

الأستاذ هيكل أسطورة الصحافة المصرية
وجهة نظر أبناء جيل الثورة

فى الإجازة الصيفية بعد السنة الإعدادية من دراسة الطب، تولى الأستاذ محمد حسنين هيكل رئاسة الأهرام وبدأنا نتابع الصعود المستمر للأهرام وانضمام كبار الكتاب المصريين لأسرة تحريره، وبدأنا نقرأ باهتمام كبير مقالة هيكل الأسبوعية بصراحة. أصبحت المقالة بالتدريج مقررا أساسيا ومهما يقرأه الجميع يوم الجمعة صباحا. وبالإضافة إلى أسلوبه السهل المشوق، فإن كمية المعلومات الجديدة فى هذه المقالات كانت المصدر الرئيسى للأخبار. ومما لاشك فيه أن إعجابنا بالأستاذ هيكل فى ذلك الوقت كان كبيراً، فقد أتاح لنا أن نقرأ نجيب محفوظ أسبوعيا، وأن نتمتع بكبار الكتاب المصريين بصفة مستمرة، فلقد كان ركنهم الثابت فى الأهرام حافزا لهم على الكتابة الأسبوعية. وهكذا استمر إعجابنا وحبنا لهيكل وازداد يوما بعد يوم، إلى أن حدث الانفصال فى الجمهورية العربية المتحدة، وبدأ بعد ذلك تغير كبير فى السياسة المصرية أدى فيما بعد إلى كم كبير من الأخطاء انتهى بكارثة ١٩٦٧، فقد كان عبدالناصر حتى الانفصال يفكر فيما يراه صوابا ويقوم بعمله واتخاذ القرار فى شأنه و كان على أعدائه ومنافسيه القيام برد الفعل، ودائما يكون الفعل أقوى من رد الفعل حتى لو لم يكن الفعل سليما ومبنيا على تخطيط ودراسة سليمة. لكن بعد

الانفصال كانت معظم قراراته ردود أفعال تشوب معظمها العصبية وعدم الدراسة، فكان رد الفعل داخليا هو تشديد القبضة على الحكم والتخلى عن أى هامش ديمقراطى خوفا من انقلاب فى مصر مماثل لما حدث فى سوريا، مما زاد من سلبية المواطنين وتقوقعهم وتخليهم عن المشاركة. وكانت تلك الفترة بداية تكريس سياسة انتظار تعليمات المسئولين على جميع المستويات فى الدولة، فلم يكن يجرؤ أى موظف مهما ارتفع موقعه حتى لو كان وزيرا على اتخاذ قرار بسيط إلا بعد الرجوع لرئيسه، والذى كان يرجع لرئيسه وفى النهاية كان الأمر يصل فى أتفه الأشياء إلى مكتب الرئيس أو المشير. وأصيبت الصحافة فى مقتل، فلم يكن يستطيع الكاتب أن ينشر رأيا إلا بعد الاستئذان، وآثر الكثيرون السلامة، ففقدت الصحافة المصرية حيويتها، وانتقل مركز الثقل الصحفى فى المنطقة إلى بيروت، وأصبحت مقالات هيكل الأسبوعية هى المصدر الوحيد للأخبار، بجانب أنه الوحيد الذى كان قادرا على الخوض فى كثير من الموضوعات التى كان جميع الصحفيين يعتبرونها حساسة. وقد كان رد الفعل على الانفصال هو انتهاء بعض المظاهر البسيطة للديمقراطية، مثل انتخاب مجالس أدارات الأندية الرياضية، والتى أصبحت بالتعيين، وغيرها الكثير. وكان رد الفعل على تشجيع السعودية على الانفصال بين مصر وسوريا هو التورط فى اليمن بدون دراسة وعدم التراجع بدافع الكرامة وبسبب العناد بعد اكتشاف حجم الورطة وتكاليفها وتأثيرها السلبى على تدريب الجيش ومعنوياته، بالإضافة إلى فتح نافذة واسعة لإفساد الضباط. وكان رد الفعل على اتهام عبدالناصر بالتخاذل أمام تهديدات إسرائيل لسوريا هو إغلاق خليج العقبة بدون أى دراسة للاحتمالات المتوقعة.

وبقراءة متأنية لما حدث فى تلك الفترة تكتشف أن المناقشات التى تمت بين الرئيس والمشير حول استعداد الجيش كانت بعد إغلاق خليج العقبة، أى أنها كانت فى الوقت الضائع. وهكذا وجدنا هيكل يبدأ سلسلة طويلة امتدت أسابيع وشهورا وسنين فى

الدفاع عن كثير من سياسات رد الفعل الخاطئة. وقد كان التفكير المنطقى لهيكل ومهارته في استخدام أدوات الكتابة والقدرة الفائقة على التحليل والإقناع أكبر سند حقيقي لقرارات الدولة. وكان يستغل مهاراته فى نقد الحكومة أحيانا فى أشياء بسيطة حتي لايبدو في هيئة المنحاز لها دائما أبدا. وبالتدريج بدأت مقالات هيكل الأسبوعية تثير فينا الضيق حينما نرى أنه يدافع عن أخطاء وتصرفات واضحة للعيان، وبالتدريج فقد الأستاذ هيكل شعبيته بين جيلنا، وفقد أيضا حبنا، لكنه لم يفقد أبدا احترامنا لقدرته الفائقة على الكتابة والتحليل وعلى إدارته الناجحة للأهرام والتى جعلت منها صحيفة ذات قيمة كبرى، إذا ما ابتعدنا عن موضوع نقد السياسة المصرية.

وقد وصل بنا الضيق أشده فى منتصف الستينات حينما ضاقت الحريات إلى أدنى درجة ممكنة، وأصبح حتى السفر للخارج يتطلب إمضاء رئيس الوزراء شخصيا وأصبح التنصت وتسجيل الأحاديث شيئا عاديا، وأصبحت المعتقلات مفتوحة لأسباب واهية، ولأفراد لايشكلون أى نوع من الخطر على النظام. وفى تلك الفترة لم نستطيع أن نخفى الاعتراض الشديد على تبريرات هيكل التى فقدت رونقها ومعناها، وبالرغم من ذلك واظبنا على قراءة بصراحة بنفس القوة والحماس، لأنها قبل كل شىء لكاتب سياسى ماهر محنك يعرف كيف يكسب القارئ ويشده إلى القراءة. وأعتقد أن جيلنا ـ وهو جيل الثورة الذى تربى فى أحضان عبدالناصر ـ أصابه الضيق الشديد فى تلك الفترة، ويبدو أن القيادة السياسية ممثلة فى عبدالناصر قد شعرت بأن الشعب قد فقد الانتماء والاهتمام بالحزب الوحيد الموجود فى ذلك الوقت وهو الاتحاد الاشتراكى، فقام بإنشاء حزب سرى آخر هو التنظيم الطليعى الذى كان أعضاؤه يختارون بعناية، ولا أدرى من الذى كان يقوم باختيارهم. وكنا دائما نلاحظ فى كتابات الأستاذ هيكل أن هناك نوعا من عدم الرضا، أو على الأقل عدم الإعجاب

بالاتحاد الاشتراكي. وبالطبع كان هيكل خارج جميع المؤسسات وكان اتصاله المباشر بعبد الناصر وكنا نتابع كتابات هيكل المباشرة وغير المباشرة ونقده للاتحاد الاشتراكي، ولم نكن ندرى هل هذا شعور حقيقي عند هيكل نابع من فهمه لحقيقة الأمر داخل الاتحاد الاشتراكي، أم هو صراع نفوذ وقوى، أم هي توجيهات مباشرة أو غير مباشرة من رئيس الجمهورية. وبعد كارثة يونيو ٦٧ أصبح العبء على هيكل كبيراً، وأصبح عليه أن يخفف الصدمة المذهلة ويحاول أن يبقى للنظام والرئيس بعضا من الهيبة وأن يجد له بعض المبررات التى قد تخفف من وطأة الهزيمة المخجلة ومحاولة رفع الروح المعنوية المنهارة للشعب، وقد كان الهجوم الذى قاده هيكل بمهارة مذهلة على دور المخابرات فى اعتقال وتعذيب الشعب والمثقفين ودور المشير عامر فى نشر الفساد فى الجيش، بل وفى الوطن كله له صدى قوى، فقام ذلك بإلهاء الشعب لبضعة شهور عن حجم المصيبة، وخفف من شعور الناس بأن عبدالناصر هو المسؤول الأول والأخير، فتوزعت المسئولية وأصاب الاتهام الكثيرين. وفجأة وبعد عدة أسابيع من انتهاء الحرب بدأنا نتكلم بشجاعة أكثر داخل حجرة مغلقة بعد أن كان كل منا لايستطيع أن يهمس بأى نقد خوفا وهلعا من احتمال الاعتقال. وبدأنا نتكلم خارج المنزل فى النادى أو المقهى، وتعود الناس على الكلام بل والصراخ أحيانا، ويبدو أن التعليمات كانت بأن يتركوا الشعب يتكلم. وانطلقت النكات والتى كان معظمها للأسف به استهزاء واستهانة وإهانة للجيش المصري وضباطه، ونال بعض منها عبدالناصر شخصيا، وحتى هيكل لم ينج من بعض النكات.

واستمر هيكل بقلمه الساحر وبفكره المنظم يسيطر على أفكارنا، وبدأت شعبيته بيننا - والتى كانت قد وصلت للحضيض بعد يونيو - تأخذ فى الارتفاع عندما قام بحملات صحفية ضد الفساد وضد تجاوزات السلطة والشرطة، وأعتقد أن كل هذه الحملات كانت مدروسة وموجهة بعناية لامتصاص غضب الشعب، لكنها كانت على درجة

عالية من التقنية والمهارة الصحفية. وكان دور هيكل الصحفي المتمكن واضحا فى أيام التنحي وما تلاها، حيث سيطر على الأحداث ووجهها إلى الوجهة التى يريدها، وكانت مظاهرات الطلاب سنة ١٩٦٨ تعبيرا عن سخط شعبي عام بين الجميع، خاصة الشباب، وكان تأييد الناس لهم عارما. وبالرغم من القسوة والعنف التى تم بها قمع المظاهرات إلا أن هيكل صاغ بيان ٣٠ مارس عن الديمقراطية والحرية، واستطاع إقناعنا بالفعل بأن المرحلة القادمة سوف تكون مرحلة الحرية والديمقراطية. لكننا بعد أسابيع عرفنا أننا خدعنا مرة أخرى. ورأينا هيكل ببراعة فائقة يساعد السادات على الخلاص ممن كانوا يسمون بمراكز القوى، ويكتب فى الأهرام مؤيدا ومشجعا السادات.

وأنا أعتقد أن هيكل لم يقدر السادات حق قدره، فبينما كان عبدالناصر هو الزعيم الملهم، وكان هو كاتبه ورفيقه وحامل أفكاره وكانت العلاقة بينهما يجمعها الحب والاحترام والتقدير الكبيرالمتبادل. أعتقد أنه فى تلك الفترة بالرغم من أن العلاقة كانت جيدة بين السادات وهيكل)وبالطبع لم يكن أحد يسمح لنفسه أن تسوء علاقته بهيكل ،لأن هذا قد يعنى نهايته سياسيا) إلا أنه من المؤكد أن هيكل كان يعامل السادات باستعلاء أثناء حياة عبدالناصر، وأعتقد أن هيكل لم يشعر باحترام تجاه السادات في أي وقت من الأوقات لأسباب عدة، بعضها تتعلق بشخصيته وسلوكه وبعضها عام، والسادات بذكائه الفطرى كان يشعر بذلك ويتحمله، بل ولم يكن يشكل له أية مشكلة. وبعد أن تولي السادات الرئاسة كان هيكل هو ساعده الأمين والمخطط الأول له للاستيلاء على السلطة والخلاص ممن أطلق هيكل عليهم اسم مراكز القوى.

ويبدو أن ذكاء هيكل قد خانه في إعادة تنظيم علاقته مع السادات، أو أنه قرر أن يكون هو الأستاذ والمفكر صراحة وعلى الرئيس أن يستمع إليه. ومما لاشك فيه أن السادات كان ينوى تغيير النظام السياسى بالكامل، بما فى ذلك بقايا رجال عبدالناصر فى الحكم والصحافة والأهرام، وكان لهيكل وضع خاص، فهو أسطورة الصحافة المصرية فكان عليه أن يذهب.

و يبقى الاستاذ هيكل هو الأستاذ الأكبر للصحافة فى مصر وفى العالم العربى ،فقد استطاع هيكل وهو بعيد عن السلطة لربع قرن أن يثير النقاش و الجدل و الحماس بكتبه غزيرة المعلومات ، وكان هو المؤسس الأول لأكبر قاعدة معلومات ووثائق عن السياسة والأقتصاد الخاص بمصر وبالشرق الأوسط. وكان هيكل أول من ترجم وقدم الوثائق السرية للدول الكبرى إلى القارىء المصرى وكان يحس دائماً بنبض الصحافة الغربية وبالذات الصحافة الإنجليزية و يقدمها للقارىء المصرى.

ولم يبتعد هيكل أبداً عن الشارع فهو يتصل ويقابل مؤلفاً للموسيقى أو ممثلاً ناشئاً أو أديباً شاباً برز نجمه. واستطاع بعطائه فى مجلة الكتب وجهات نظر أن يقدم بعض المعلومات الموثقة عن بعض الحكام العرب وعن بعض الأحداث المهمة، وقدم أيضاً حلقات مهمة عن فترة ما قبل ثورة يوليو. و حرك الماء الآسن بمحاضرته فى الجامعه الأمريكية وبمقابلاته التليفزيونية فى المحطات الفضائية ، و سيبقى هيكل إلى الأبد علامة كبرى فى تاريخ الصحافة المصرية وأستاذاً بارعاً فى الفن الصحفى وكاتباً متميزاً مخلصاً لثورة يوليو و لصديقه وصفيه الزعيم الأكبر جمال عبد الناصر.

طبيب مقيم بالقصر العينى ١٩٦٤ ـ ١٩٦٦

كان اختيارى لوظيفة طبيب مقيم بقسم أمراض النساء له سببان، الأول أننى قد حصلت على درجات عالية فى امتحان البكالوريوس، مما كان يؤهلنى لاختيار أى فرع من التخصص أرغب فيه. كان الأوائل دائما يفضلون بعض التخصصات مثل طب العيون والمسالك البولية وأمراض النساء، فاستغرب الجميع عندما أبديت رغبتى فى الحصول على وظيفة طبيب مقيم للأمراض الجلدية، وكنت أود أن أكون نائبا فى قسم الجلدية حتى تتاح لى فرصة لممارسة هواياتى المختلفة فى الحياة ولإعطاء نفسى فترة أطول للقراءة والاطلاع والسفر وغير ذلك، حيث إن الأمراض الجلدية لاتأخذ وقتا طويلا فى العمل، ولايوجد بها حالات مستعجلة ولا طوارئ فى منتصف الليل

ولا جراحات كبرى يصحبها القلق، هذا بالإضافة إلى أن ممارستى لطب الأمراض الجلدية فى مستشفى الحوض المرصود خلال فترة الامتياز أوجدت نوعا من الألفة والود مع مهنة طبيب الأمراض الجلدية، لكن ضغط المجتمع والجرى وراء تخصص له جاذبية خاصة وفرصة أكبر فى الكسب المادى بالإضافة إلى التأثير الكبير لأحد مدرسى أمراض النساء بالكلية خلال الدراسة، وهو المرحوم الدكتور محمد حسين عبدالفتاح، والذى توفى وهو فى ريعان شبابه فى أوائل السبعينات. كل ذلك أدى إلى أننى رضخت لإغراء هذا الفرع من الطب الذى وهبت له جزءا كبيرا من حياتى بعد ذلك ، وقضيت وقتا طويلا أعمل فى مجال البحث العلمى فيه، وقد أخذ ذلك من وقتى الكثير، وبالرغم من المحاولات المستميتة لتنظيم الوقت والاستفادة من كل لحظة إلا أنه حال بينى وبين كثير من القراءات والدراسات الإنسانية التى كنت أود أن أقوم بها. وكذلك الانخراط فى العمل العام، لكننى أعترف بأننى أحببت هذا الفرع من الطب حبا كبيرا، فكان العمل به يعطينى متعة كبيرة، وأدين له بالفضل لما وصلت إليه محليا وعالميا. وهكذا انتهت فترة اللعب فى سنة الامتياز ودخلت إلى فترة الجد، هى فترة الطبيب المقيم.

وكان العمل بقسم أمراض النساء يأخذ وقتا طويلا، فكنا نقضى معظم الوقت فى المستشفى ليل نهار، وكنا نخرج من القصر العينى مرة أو مرتين أسبوعيا، حيث كنت آخذ الملابس المستعملة للمنزل فتغسل وتكوى. وكان العمل يستمر معظم ساعات اليوم. فحقيقة الأمر أن الطبيب المقيم، أو مايسمى بالنائب، هو العمود الفقرى للعلاج فى أى مستشفى تعليمى أو مستشفى عام، فهو الذى يقوم بالعلاج وإجراء الجراحات للمرضى، ويتابع المريض بعد الجراحة، ويساعد الأستاذ فى العمليات الكبرى حتى يتعلمها، ومن لم يتعلم أصول المهنة فى فترة الطبيب المقيم ففى الأغلب لن يتعلمها مدى الحياة. وكنا نتصارع على العمل ونحاول أن نجرى العمليات الصعبة، وبين

فترات العمل المستمر كنا نذاكر استعدادا لامتحان دبلوم أمراض النساء ودبلوم الجراحة العامة.

وكان بكل قسم نائبان من دفعتين متتاليتين، فكان النائب الذى يسبقنى هو الدكتور محمد مجدى، وكان والده مجدى باشا الأستاذ الشهير للولادة والذى قام بتوليد الملكة ناريمان فى ولى عهد مصر الأمير أحمد فؤاد عام ١٩٥٠، وهو صاحب مستشفى مجدى للولادة الذى أنشىء فى الأربعينات من القرن العشرين. وكان محمد مجدي مشغولا طوال الوقت بإدارة المستشفى الخاص بوالده بالإضافة إلى أعمال خاصة كثيرة كانت تفوق بكثير اهتمامه بتعلم مهنة أمراض النساء، والتى ربما اختارها تحت ضغط الأسرة. وقد كان محمد مجدى لطيفا حلو الكلمة، لكنه لم يكن يريد أن يقوم بأى عمل فى القسم، وكان ذلك لايشكل عبئا على، بل بالعكس كنت سعيدا بأن أقوم بأعداد مضاعفة من العمليات الجراحية والتدريب، لكن حين اقترب موعد امتحان الدبلوم طلبت منه القيام بعمله حتى أستطيع المذاكرة، حينئذ دب الخلاف بيننا، لكنه كان دائما فى حدود العمل.

وبعد انتهاء فترة الطبيب المقيم فى الستينات وحتى منتصف الثمانينات، كنت أقابل محمد مجدى بالمصادفة، فقد كنت مشغولا بالمذاكرة والتحصيل، على حين أصبح مجدى رجل أعمال كبيرا، وقد بدأ نشاطه فى هذه المشروعات فى بداية عصر الانفتاح، وانتهى بمشروعات ضخمة كمستشفى السلام الدولى. وللأسف فقد حدثت خلافات ضخمة بينه وبين شركائه من العرب والبنوك وانتهى الأمر بمغادرته نهائيا مصر فى الثمانينات. وقد قابلته فى سبتمبر ٢٠٠٠ فى واشنطن أثناء حضورى مؤتمرا دوليا، حيث جاء لزيارتى فى الفندق ووجدته كما هو حلو الكلام خفيف الظل، يتحدث عن البيزنس فى جميع الاتجاهات طوال الوقت.

وبعد أن أصبحت النائب الأقدم، عين معى فى نفس القسم الدكتور جمال أبو السرور، وعملنا معا فى تعاون وود شديدين خلال فترة النيابة، واستمرت العلاقة الممتازة بعد ذلك حين سافر جمال إلى إنجلترا وعاد للعمل فى جامعة الأزهر، وحين فكرنا فى إنشاء أول مركز لأطفال الأنابيب فى مصر اتصلت بجمال ليكون شريكا لنا مع الدكتورة رجاء منصور كما سيأتى ذكره فى حينه.

وكان العمل بقسم الولادة بالرغم من حبى الشديد له شديد الضغط على الأعصاب. فأتذكر يوم وفاة أول مريضة فى القصر العينى خلال الأسابيع الأولى من استلامى العمل، وكانت قد حضرت للمستشفى فى حالة وضع، وكان الجنين متوفى داخل الرحم قبل أيام، وفجأة بدأ تنفس المريضة يزداد صعوبة وأصبحت غير قادرة على التنفس تماما ووضعنا على وجهها قناع الأكسجين ،وتم استدعاء نائب الأمراض الباطنة النوبتجى الزميل الدكتور رشاد برسوم، لكن المريضة ماتت ونحن لانستطيع أن نفعل شيئا. وكان التشخيص المبدئى هو جلطات فى الأوعية الدموية المغذية للرئة مصدرها السائل المحيط بالجنين، وهو أحد المضاعفات النادرة أثناء ولادة الجنين المتوفى. لكننا لم نستطع أن نجزم بالتشخيص بسبب رفض الأهل تشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة. وكنت مقتنعا تماما بأنه لم يكن فى قدرتنا إنقاذ هذه المريضة. وكانت حالة الوفاة الثانية بعد ستة أشهر من استلامى النيابة، وكانت مريضة أجريت لها عملية استئصال للرحم من المهبل أجراها المدرس بالقسم وساعدته فيها، وحدث لهذه المريضة نزيف داخلى لم نستطع تشخيصه فى الوقت المناسب، وقد تأكدت من التشخيص بعد عمل تشريح بعد الوفاة، ولا أزال أذكر هذه المريضة عام ١٩٦٥ وكانت فى حوالى السبعين من عمرها، وأنا متأكد بأنه ببعض الخبرة والحذر ربما كان من الممكن إنقاذ هذه المريضة بنقل الدم وإجراء جراحة عاجلة أخرى لها لإيقاف النزيف.

ودائما كان القصر العينى مصدرا عظيما للتدريب، لأن الحالات التى كانت تحول إليه فى العيادة الخارجية أو قسم الطوارئ كان الكثير منها حالات معقدة وصعبة وخطرة، وربما لم أر مثل البعض منها خلال الأربعين عاما التى زاولت فيها المهنة.

وكانت فترة النيابة هى التى علمتنى أن الحياة والموت يفصلهما لحظة، وأن بدء الحياة حين يملأ المولود رئتيه بالهواء لأول مرة ويأخذ هذا بضع ثوان، وكذلك فإن توقف القلب ووداع الحياة يأخذ أيضا بضع ثوان.

وكان بالقصر العينى قسم يسمى قسم المعتقلين. ففى تلك الفترة كانت السجون تعج بالمعتقلين السياسيين سواء الذين حوكموا وصدرت عليهم أحكام، وهم قلة، أو الأغلبية الذين لم يقدموا للمحاكمة، حيث لم تكن هناك اتهامات محددة موجهة إليهم. وقد كانت صحة بعضهم تسوء لدرجة أن مستشفى السجن أو المعتقل لايكون قادرا على علاجهم، فيتم نقلهم لقسم المعتقلين بالقصر العينى. ومن المعروف أن عدداً من المعتقلين ـ منهم مفكرون كبار ـ قد توفوا فى المعتقل دون حتى أن يستطيعوا الوصول للقصر العينى. وكان المعتقلون إما من أهل اليسار بكافة أنواعه وخاصة الماركسيين، أو أهل اليمين الممثل فى الإخوان المسلمين. وكان بعض المعتقلين ينقلون إلى القصر العينى عن طريق الوساطة، فإذا كان للمعتقل بعض الأقارب فى مناصب مهمة فى الدولة كانت أقصى ماتصل إليه الوساطة نقله لقسم المعتقلين بالقصر العينى، حيث يلقى معاملة جيدة، وكان وصول الطعام والأدوية والصحف من الخارج ممنوعا، لكنه كان ممكنا، لذا كان قسم المعتقلين يعتبر لوكاندة خمس نجوم من وجهة نظرهم، ولم يكن مسموحا بالدخول إليهم إلا للأطباء المعالجين، لذا لم أتمكن من دخوله أبدا، ولما كان هذا القسم خاصا بالرجال فقط وكانت الأغلبية العظمى من المعتقلين من الرجال، لم تكن هناك حاجة لقسم للمعتقلات، وقد كان مستشفى السجن يكفى المعتقلات.

وقد حدث أن حولت معتقلة من الإخوان المسلمين إلى قسم أمراض النساء بسبب نزيف حاد وكانت تحت حراسة مشددة لأنها كانت تقيم فى حجرة منفردة داخل قسم الولادة الذى كان ممنوعا دخول الرجال فيه بخلاف الأطباء، لذا كان وجود الجنود من الحراس بأسلحتهم شيئا غريبا للغاية. وكان وجود قسم المعتقلين فى القصر العينى تذكيرا دائما لنا بما يحدث فى السجون ، ومازلت أعتقد أن هذه المعتقلات كانت أكبر سقطة وقع فيها نظام عبدالناصر. ولايمكن بأى حال من الأحوال التبرير أو الدفاع عن هذا العمل الذى وصم نظام الحكم وغطى على إنجازات كبيرة له. وحين أتذكر الكتب التى أصدرها بعض المعتقلين فى تلك الفترة بعد خروجهم بدءا من كتاب إلهام سيف النصر ونهاية بكتاب سيد يوسف يقشعر جلدى وتتجمد أطرافى من هول ماحدث.

الخدمة الطبية فى العالم كله قوامها الأطباء والممرضات، وفى العالم كله لاتوجد فجوة ثقافية أو اقتصادية بين الطبيب والممرضة، ويتعاون الطبيب والممرضة فى العناية بالمريض كل فى تخصصه، والعلاقة بينهما تتسم بالود والمحبة والتعاون، وفى أوروبا حيث هناك نظام للتأمين الصحى، لايوجد اختلاف كبير بين دخل الممرضة ودخل الطبيب، وقد يكون مرتب الطبيب المقيم مماثلا لمرتب الممرضة، وقد يصل دخل الطبيب الكبير إلى ثلاثة أو ربما أربعة أضعاف دخل الممرضة. أما فى مصر، فدخل الطبيب الكبير قد يصل إلى خمسين أو ربما مائة ضعف دخل الممرضة. هذه الفجوة الكبيرة فى الدخل جعلت الطبيب فى معظم الأحيان يعيش فى مستوى أعلى بمراحل من الممرضة. وإذا نظرنا إلى خلفية الممرضات نجد أن كثيرا منهن يأتين من عائلات غاية فى الفقر، والسبب فى ذلك أن تعليم الممرضة بالقسم الداخلى فى مدارس التمريض يكون شاملا الأكل المجانى والإقامة، مما يكون دافعا للعائلات الفقيرة إلى أن ترسل بناتها لدراسة التمريض، بالإضافة إلى رغبة البنات فى التحرر من القيود الكثيفة للعائلة والمجتمع فى وظيفة لها هامش كبير من الحرية، ولها عمل

مضمون بعد التخرج ، وللأسف تكمن المشكلة فى أن عمل الممرضة ينظر إليه من جموع الناس على أنه عمل وضيع. هذه الفجوة بين الطبيب والممرضة تجعل المجتمع يضع الممرضة فى وضع متدن بالنسبة للطبيب، وينعكس هذا على تصرف ونظرة كثير من الأطباء تجاه الممرضات، وتؤدى الخلفية الثقافية الضعيفة للممرضات، بالإضافة إلى ضعف التعليم والتربية فى مدارس الممرضات إلى توسيع الفجوة، ويبدو واضحا للجميع عمق النظرة المتدنية تجاه الممرضة حين يحدث حب وزواج بين طبيب وممرضة، فيكون ذلك بمثابة كارثة عند عائلة الطبيب حتى لو كان الطبيب من أصل فقير، فلا يتقبل أهله الممرضة زوجة، لأنهم يريدون أن يصعد ابنهم السلم الاجتماعى لا أن ينزل منه درجات، غير عابئين بالحب والعاطفة وحرية الاختيار فى الزواج.

وقد كانت فترة النيابة هى الفترة التى تعرفت فيها على نوع العلاقة المتبادلة بين الأطباء والممرضات، وفى تلك الفترة بدأت تتخرج الدفعات الأولى من المعهد العالى للتمريض كانت قد دخلته الحاصلات على الثانوية العامة، ليتلقين تعليما جيدا لمدة ٤ سنوات يحصلن بعدها على بكالوريوس التمريض. وبالرغم من الفائدة الكبيرة لهذا المعهد، إلا أن الفائدة الكاملة لم تتحقق، لأن معظم الخريجات أصبحن رئيسات للممرضات ولم يزاولن المهنة بأيديهن، وأصبحت هناك فجوة بينهن وبين الممرضات فى المستشفيات الحكومية وفى القطاع الخاص. أرجو أن أرى يوما الممرضة المصرية تلقى النظرة التى تستحقها من الناس ومن الأطباء، وسوف يكون هذا هو الدافع الأكبر لها لأن تعلم وتثقف نفسها وترتفع بمستواها، وأرجو أن يرتفع مرتبها حتى تضيق الفجوة بينها وبين الطبيب.

وبسبب الدخل المتدنى للممرضات فى عملهن الحكومى، الذى لايمكن زيادته بالبقشيش من المرضى فى الأقسام المجانية، نظراً لفقرهم الشديد، كان الحل الوحيد

للممرضة هو البحث عن عمل إضافى فى مستشفى خاص ، وهذا يعنى وردية ٨ ساعات فى مستشفى الحكومة ووردية أخرى ٨ ساعات فى المستشفى الخاص ، فماذا يبقى من اليوم للأكل و النوم و الراحة وغير ذلك ؟ الحل هو النوم فى المستشفى الحكومى ، والنوم أيضاً فى المستشفى الخاص كلما أمكن ذلك . وكان اختلاط الممرضات بالأطباء وبكثير من المرضى فى المستشفيات الخاصة فرصة لأن تتعرف الممرضات عن قرب على نوع آخر من الحياة فيه الكثير من الرفاهية، وقد انعكس ذلك على ملابس الممرضات وطريقة تصرفهن منذ سنوات طوال. فكانت الممرضات يتفنن فى ارتداء الملابس على أحدث الموديلات ، لكن بالطبع مصنوعة من أقمشة رخيصة الثمن ،وكانت ظروف عمل الممرضة تعطيها الفرصة فى السهر الطويل خارج المنزل مما أعطاها حرية أكبر بكثير من الحرية المتاحة للفتيات فى العائلات المصرية الفقيرة فى الأحياء الشعبية ، وما كان مسموحا به للممرضة لم يكن مسموحا به لأختها التى لاتعمل أو التى تعمل فى وظيفة أخرى.

وعندما انتشر الحجاب فجأة فى مصر ، بدأ فى الطبقات الفقيرة ، وأصبحت معظم الممرضات فى مصر محجبات ، وربما يكون الحجاب قد أسهم فى حل بعض المشاكل الاقتصادية ، فأصبح المصروف على الملابس الحديثة والموضة أقل بكثير ، ولم يعد هناك داع للذهاب للكوافير . وأعتقد أن كثيرا من الفتيات اللاتى يعملن بمهنة التمريض يعانين من ضغوط نفسية عنيفة مرجعها نظرة المجتمع للمهنة ، وتعاملهن الدائم مع أطباء ومرضى أغنياء، على حين أنهن قابعات فى أسفل السلم الاجتماعى، وعلى أمل الصعود والتسلق لأعلى . أما فى المستشفى المجانى حيث المريض الفقير الذى لاحول له ولا قوة ، فالكثيرمنهم يذوق الأهوال على أيدى بعض هؤلاء الممرضات.

وخلال فترة الطبيب المقيم - وكان عمرى حينئذ أربعة وعشرين عاما - حدثت أول علاقة عاطفية جدية لى . فقبل ذلك وخلال فترات الدراسة والامتياز كانت هناك

بعض العلاقات العابرة وغير المؤثرة ، لكن أول تجربة حقيقية بدأت عام ١٩٦٤، وكانت بطلتها إحدى طالبات الكلية التي تم توزيعهاعلى قسم أمراض النساء في الوحدة التي أعمل بها، وكانت تحضر الدروس العملية التي يلقيها أعضاء هيئة التدريس، وكنت موجودا معهم في كثير من الأحيان. وبدأ الحديث بيننا، وأعتقد أنها كانت البادئة في الحديث معي، الذي بدأ بالكلام عن أمراض النساء وتفرع لأشياء أخرى. وكانت تحضر دروس الولادة العملية التي أكون موجودا فيها مع أطباء الامتياز. وبدأنا نخرج سويا إلى أماكن نائية في عربتي الصغير. لم تكن القاهرة قد ازدحمت وتوسعت كما هي الآن، فكانت الأماكن النائية قريبة للغاية من وسط القاهرة. وأعتقد بمقاييس هذا الوقت أنني وقعت في حبها، وبدأنا الحديث العابر عن احتمالات الزواج، وكانت أحوالي المادية تعتبر جيدة بالنسبة للمتوسط العام، لكنني لم أكن أملك غير مرتبي من القصر العيني الذي كان خمسة وثلاثين جنيها، أصرف نصفها على السيارة المتهالكة بين الوقود والإصلاح المستمر. وأعرف أن والدي كان مديرا كبيرا لبنك التسليف ومحاضرا في معهد التعاون وفي الدراسات العليا بكلية تجارة عين شمس، لكن دخله كان يكاد يكفي لحياة كريمة سهلة لعائلة مكونة من خمسة أولاد، يتلقى ثلاثة منهم التعليم الجامعي، وكان عليه أن يجهز بنتين للزواج ، لذا كان من الصعب أن أتوقع مساعدة مادية منه. ولم يكن مستقبلي واضحا في ذلك الوقت، وكان احتمال حصولي على وظيفة معيد بالقصر العيني احتمالا ضئيلا، ولم أكن أدري ماذا سوف يحدث لي. وربما كان ذلك سببا في توقف العلاقة بعد أن كنا قد قطعنا شوطا كبيرا من العواطف المتبادلة. وكما هو الحال دائما في هذه السن يكون توقف العلاقة صدمة. وربما كان من أسباب انتهاء العلاقة وجود فجوة في طريقة التفكير ونوعية واختلاف الثقافة، لكن عواطف ورغبات الشباب تستطيع دائما أن تقفز فوق هذه الخلافات إلى حين.

وأمضيت فترة نائب أمراض النساء فى القصر العينى لمدة سنتين من العمل الشاق، وهى الفترة التى يتعلم فيها الطبيب القواعد الأساسية لتخصصه ويزاول المهنة تحت مسئوليته الشخصية. وبالطبع يكون هناك إشراف على عمله ومساعدته وتوجيهه، لكن المجهود الشخصى والمثابرة هما الأساس فى التعليم. وكان هناك ٤ أقسام لأمراض النساء والولادة يرأس كل منها أستاذ، ويمضى الطبيب المقيم ستة أشهر فى كل قسم.

وقد اختلف الأساتذة فى كل وحدة من أستاذ عظيم حريص على تعليم النائب، وفى نفس الوقت حريص على سلامة المرضى مثل الدكتور صادق فودة والدكتور إبراهيم كمال، وأستاذ لايبالى بأن يتعلم النائب أو الطالب شيئا و ليذهب المريض للجحيم ، فقد قرأت حديثا كتابا لرئيس قسم الأمراض الباطنة فى القصر العينى فى الثلاثينيات وكان بريطانيا ونشره بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٤٥ عن ذكرياته فى القصر العينى خلال خمس سنوات، وقد ذكر أن طلبة قسم الباطنة كانوا كلهم ممتازين وقال إنهم يتفوقون على أقرانهم الذين كان يدرس لهم من الإنجليز فى لندن ماعدا واحدا كان مستواه ضعيفا ولا يواظب على الحضور، فلما سأل عنه قيل له إنه ابن عميد الكلية فذهب الى العميد ليشكو له ابنه ويطلب منه المساعدة فى تقويمه، فثار العميد ثورة عارمة على الأستاذ الإنجليزى واعتبر أن هذه إهانة كبرى وأنه مامعناه أن ابنه مافيش زيه وأصبح هذا الابن أستاذا لا يعرف إلا أقل القليل ولايفيد أحداً، وكان هناك نوع آخر من الأساتذة كان عنيفا جدا مع الجميع ولايستطيع النائب أو حتى المدرس أن يمد يده بالسلام عليه أو التحدث إليه، وخلال عامين لم أره يعطى محاضرة واحدة أو يجرى عملية جراحية أو يعلم أو يرشد أحدا.

وكان الكثيرون من أعضاء هيئة التدريس يواظبون على محاضراتهم ويحضرون العمليات ويعملون ويبحثون، أذكر منهم د. علاء شفيق الذى أعطى كل حياته للقصر العينى، فلم يفتح عيادة وتفرغ للعمل بالقسم.

وفى تلك الفترة من عام ١٩٦٥ ألقى جمال عبدالناصر إحدى خطبه، وذكر فيها عرضا أن حكومته استطاعت أن تدير قناة السويس بكفاءة ولم تستطع أن تدير القصر العينى بنفس الكفاءة، واعتبر ذلك توجيها من الرئيس إلى وزير التعليم العالى بأن إدارة القصر العينى يجب أن تتطور. وفى تلك الفترة أقيم حفل شاى فى نادى الجزيرة للدكتور رشوان فهمى، وكان أستاذا بجامعة الإسكندرية ونقيبا للأطباء، بمناسبة بلوغه سن المعاش. وحدثت مناقشة عن القصر العينى قال فيها الدكتور رشوان فهمى تعليقا على خطاب عبدالناصر إن القصر العينى لو أتيحت له بعض من إمكانات قناة السويس لكان الموقف مختلفا، وصفق له الدكتور عثمان وهبى وكان أستاذا بقسم الولادة. وكان بالحفل بعض المدرسين بكلية الطب من أعضاء منظمة الشباب، فسارعوا إلى التبليغ بأن عثمان وهبى يعرض بالرئيس، وهو مالم يحدث، وبناء على هذا البلاغ الكاذب تم فصل عثمان وهبى من جامعة القاهرة، ونقل إخصائيا لأمراض النساء فى مستشفى مرسى مطروح وأغلقت عيادته فترة. وقد عاد للعمل فى الجامعة بعد النكسة.

وفى تلك الفترة تم تعيين أستاذ الهندسة عزت سلامة وزيرا للتعليم العالى، وجاء حاملاً رسالة عنوانها عودة الانضباط للجامعة، وحدث شعور عام بالخوف. وفعلا حضر بانتظام كثير من الأساتذة غير المنتظمين للكلية، ولم يفكر أحد أن المقياس الحقيقى الذى يحاسب عليه أستاذ الجامعة هو أبحاثه العلمية ومقدرته على التدريس للطلبة بانتظام وتدريب النواب والمعيدين، فكان الحضور مظاهرة كبرى من الأساتذة يجتمعون فيها للدردشة. وبعد نكسة ١٩٦٧ أرادت الحكومة ترضية أساتذة الجامعات، فذهب عزت سلامة وعادت ريمة إلى عادتها القديمة.

وخلال فترة النيابة لم يكن هناك وقت كثير للقراءة خارج نطاق المذاكرة، فحصلت خلال السنتين على دبلوم أمراض النساء والتوليد ودبلوم الجراحة العامة

وسجلت رسالة الدكتوراه. وبنهاية فترة النيابة علمنا أنه لاتوجد وظائف معيدين بالقسم إلا وظيفة واحدة أعلن عنها، وعين فيها زميلنا الذى كان والده رئيسا للأقسام فى ذلك الوقت. وكان علينا أن نبحث عن عمل فى جامعة إقليمية جديدة. وكانت جامعة طنطا وجامعة الأزهر تعلنان عن وظائف معيدين. وخلال عشرة شهور قضيتها خارج القصر العينى كنت دائم البحث عن وظيفة فى الجامعة، وفى تلك الأثناء علمت أن بعض الأطباء الذين لهم وساطة يمكن أن يتم تكليفهم بالصفة المدنية فى مستشفى القوات الجوية وكان يسمى المستشفى الفرنساوى قبل تأميمه، ويقع فى العباسية. وتصادف أن كان لأبى صديق هو ابن عم رئيس أركان القوات الجوية اللواء إسماعيل لبيب، والذى حوكم بعد النكسة وحكم عليه بالسجن بتهمة الإهمال، فأخبره عن حالتى وتم تكليفى فى مستشفى القوات الجوية مكلفا مدنيا وعملت لمدة عشرة شهور. ولما كان المستشفى خاصا بالقوات الجوية، لم يكن من حق العائلات العلاج إلا فى حالات نادرة وبموافقة من الجهات العليا، لذا كان عدد العمليات التى تجرى فى تخصصنا قليلة للغاية، وكان عدد المرضى فى العيادة الخارجية قليلا جدا.

وكانت فترة عملى بمستشفى الطيران، والتى استمرت من مايو ١٩٦٦ حتى فبراير ١٩٦٧، فترة تميزت بالراحة الشديدة بعد عناء وظيفة النائب فى القصر العينى. وكنت أذهب فى الثامنة صباحا وأغادر المستشفى فى الثانية ظهرا بانضباط عسكرى شديد. وكان المستشفى يعج بالأطباء، وكان عدد المرضى قليلا من الطيارين والضباط والفنيين فى الطيران.

وقد كانت تلك الفترة هى فترة اهتمام عبدالحكيم عامر الشديد بكرة القدم، فكان مستشفى الطيران هو المكان المفضل للاعبى الكرة للاستشارات الطبية، وكانت مكاتب الأطباء تعج باللاعبين والحكام، وكان الحديث اليومى يستمر من الساعة الحادية عشرة حتى التأهب للعودة للمنزل، وكله يتعلق بكرة القدم مع استعادة تفاصيل أحداث

مباريات الأسبوع السابق والتوقعات بالنسبة للأسبوع القادم. وخلال تلك الفترة التى كنت تقريبا لا أقوم بأى عمل فيها، تعرفت على الحاج مصطفى كامل محمود وكان أحد الحكام الدوليين المشهورين لكرة القدم، فأغرانى بأن أتقدم لامتحان الحكام لكرة القدم، وأعطانى كتابا عن قانون كرة القدم، وبالفعل قرأته أثناء تواجدى فى المستشفى فى ثلاثة أيام ودخلت الامتحان ونجحت، وأصبحت حكما معتمدا من اتحاد الكرة. وفعلاً أسندت إلى إدارة بعض مباريات الناشئين كحكم يوم الجمعة فى العاشرة صباحا. والغريب أننى اندمجت فى هذا الجو الغريب من العمل والتفكير فى أتفه الأشياء. وبالطبع لم نكن ندرى شيئا عن كفاءة الطيران والجيش واستعداده. وبعد أن أدرت بعض المباريات للأشبال أسند إلى أن أكون حامل راية فى مباراة للزمالك والبلاستيك تحت ٢١ عاما، وكانت تقام فى الواحدة ظهرا وتسبق مباراة بين نادى دوكلا التشيكى وفريق الزمالك. وكان حكم المباراة لواء فى الجيش ويعمل مديرا لنادى الضباط بالزمالك. وحدث أن تقدم البلاستيك على الزمالك فى الشوط الأول، مما أثار جمهور الزمالك. وفى الشوط الثانى طلب منى فؤاد جودة اللاعب القديم للترسانة، وكان حامل الراية الآخر فى تلك المباراة أن أستمر فى الوقوف حاملا للراية فى الناحية المواجهة للدرجة الأولى، لأنه يتوقع شرا من ناحية مدرجات الدرجة الثالثة. وفى الشوط الثانى انهزم الزمالك وانهال الطوب على فؤاد جودة الذى شجت رأسه، وهتفت الآلاف من الجماهير بأقذر الألفاظ مهاجمة حكم المباراة بالاسم، وقررت بعد تلك المباراة الاعتزال وكنت مازلت فى البداية. وفى تلك الفترة التى امتدت بضعة شهور تعرفت على العالم الخفى للعبة كرة القدم، وقد كانت تجربة فاشلة، لكننى تعلمت منها الكثير.

وفى هذا الوقت كان عندى من الوقت الكثير ، فأقترح صديق عمرى د.فؤاد عبد الستار أن نفتح عياده وبها حجرة عمليات فى قرية سنتريس وهى بلد على باشا

مبارك وتقع على بعد عدة كيلومترات من القناطر الخيريه ، وهى أيضاً قريبه من بلدة ساقيه أبو شعره ومن الوحدة الريفيه التى يعمل بها د.فؤاد ، وفعلاً اشترينا جهاز تعقيم صغير وآلات جراحيه و ثلاثة اسره للمرضى بالاضافه إلى تجهيزات العياده ولم تكن الكهرباء قد وصلت بعد لهذه المنطقه فكنا نعمل على ضوء الكلوب وتطور الأمر فتشجعنا ، و بدأنا فى اجراء عمليات جراحيه ابتدأت بأشياء بسيطه و انتهت بعمليات كبرى مثل استئصال الرحم وقام صديقى د.محسن خطاب بإجراء عمليات فى الجراحه العامه مثل إستئصال الغده الدرقيه وغيرها وكان طبيبا التخدير هما د.على خليف وهو الآن طبيب تخدير فى ولاية تكساس الأمريكيه والآخر د.منير شلبى استاذ التخدير بالقصر العينى وحين أذكر هذه الأيام لا يمكن أن أتخيل حجم المخاطره التى قمنا بها بإجراء هذه الجراحات الكبرى على ضوء الكلوب وبأجهزة تخدير بسيطه ولكن الله سلم وكانت النتائج جيده. ويبدو أن خوفى الشديد لم يكن له مبرر لأن الكثير من العمليات الجراحيه فى مصر تجرى فى أماكن هلى هذا المستوى حتى الآن ، و ذلك بإستثناء دخول الكهرباء فى كل مكان وعموماً كانت أيام نتقاضى فيها عشرون جنيهاً أجر عملية إستئصال الرحم أو الغده الدرقيه وكان أجر الكشف على المرضى ثلاثون قرشاً ومرت هذه الأيام وقررنا إغلاق العياده حين استلمت عملى فى الجامعه وبدأ فى نفس الوقت الدكتور فؤاد عبد الستار يجهز نفسه إلى هجره دائمه بالخارج.

زيارة سارتر

- ارتفع نجم جان بول سارتر فى الخمسينات والستينات من القرن العشرين، وترجمت الكثير من أعماله للعربية، وشاركت الصحف والمجلات الثقافية فى نشر أبحاث عنه، حتى أصبح معروفا فى عالم الثقافة المصرية، وحتى من لم يقرأه سمع عن هذا المفكر الوجودى. واهتم رجل الشارع بأمر هذا الرجل الذى يعيش فى

(الحرام!!) سنوات طوالا مع رفيقة عمره سيمون دى بوفوار التى لم يتزوجها، وقد أفاضت فى ذلك بعض المجلات المصرية. وفى ربيع ١٩٦٧ أعلن الأهرام أنه قد وجه دعوة لسارتر للحضور للقاهرة للالتقاء بالمثقفين المصريين ومشاهدة الشعب المصرى والحديث معه على الطبيعة مع تنظيم رحلة له يطوف فيها بوادى النيل. وأعلن أن هذه الزيارة ستكون لمدة أسبوعين وسوف تصحبه فيها السيدة سيمون.

وعلمنا بعد ذلك أن تلك الرحلة كانت جزءاً من اتفاق يقضى بأن يزور سارتر مصر، ثم يزور إسرائيل، ويكتب كتابا عن رحلته كمحاولة لعرض وشرح وجهتى نظر الطرفين، وربما محاولة للتقريب بينهما. وعلمنا بعد سنوات أن لطفى الخولى كان مهندس تلك الرحلة، وأنه قابل سارتر فى باريس، وظهرت الفكرة وعرضت على عبدالناصر ووافق عليها، على ألا تقوم الدولة بدعوته، وإنما يقوم الأهرام بذلك، حتى يبدو الأمر كأنه دعوة أهلية وليست حكومية. وفعلا تم ذلك وحضر سارتر إلى مصر وطاف بها من أقصاها إلى أدناها فى لقاءات ثقافية وشعبية كنا نتابعها على صفحات الأهرام وفى مجلة الطليعة الشهرية. وكان من ضمنها اجتماع فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة مع رجال الجامعات. وحاولت الحصول على دعوة بصفتى معيدا بالجامعة ولم أتمكن من ذلك. ولم يفكر أحد أنه ربما كان هناك الكثيرون من أعضاء هيئة التدريس والطلبة الذين قد يهتمون بالاستماع لسارتر أكثر من معظم الحاضرين الذين ينامون فى هذه الاجتماعات ويتعذبون عذابا أليما على كراسيهم، ويضطرون للضغط على أعصابهم وإظهار ابتسامة كبيرة عند ظهور أى مصور صحفى أو تليفزيونى. وأنا عندى ثقة كبيرة أن من أسباب إصابة كثير من المسئولين المصريين بمرض ضغط الدم المرتفع هو الكبت الشديد الذى يعانونه خلال الساعات الطويلة المتتالية من عمرهم فى الاستماع لكلمات وخطب مملة وممجوجة، يعلم المتحدث والمستمع أنها كلام لامعنى له ولايهم أحدا، والمعروف أن لحظة نقل هذه

الاجتماعات على الهواء فى التليفزيون هى نفس اللحظة التى يتحول فيها المشاهد المصرى إلى قناة أخرى. عموما فشلت فى الحصول على دعوة وسلمت أمرى لله، وبعد يومين قرأت في الأهرام أن سارتر سوف يلتقى بالفلاحين المصريين فى قرية كمشيش بالمنوفية، وهي القرية التى قتل فيها المرحوم صلاح حسين واتهمت بقتله عائلة الفقي، وكانت بداية لما سمى بلجنة تصفية الإقطاع. واتصلت بصديق لى فى المنوفية أطلب منه مساعدتى فى الحضور فأخبرنى بعد ساعة بأنه على أن أحضر قبل اللقاء بساعة للقرية، وأعطانى اسم ضابط البوليس الذى سوف يكون فى انتظارى. وسافرت فى الصباح من القاهرة بسيارتى الفيات متجها إلى كشميش، ورفض جميع أصدقائى وزملائى الذهاب معى. وعندما تركت الطريق الزراعى الكبير وانحرفت فى الطريق الموصل إلى كشميش وجدت صفوفا متراصة من تلاميذ المدارس الابتدائية، صبيانا وبناتا، بمرايلهم النظيفة (حين كان الأطفال فى المدارس الحكومية فى الريف يرتدون زيا مدرسيا) وكل طفل يحمل معه علما صغيرا لمصر وعلما آخر لفرنسا. وعندما مرت سيارتى الصغيرة سمعت هتافات الأطفال Vive Sartre Vive Simon وترجمتها يعيش سارتر تعيش سيمون، وابتسمت بسخرية من سذاجة المنظمين التى لن تنطلى حيلهم على مفكر مثل سارتر. ووصلت كشميش ووجدت الضابط وأدخلنى بسهولة إلى المسرح المعد لاستقبال سارتر ومرافقيه، وكان المسرح مقاما داخل دوار عائلة الفقى، وأمامه رصت أعداد هائلة من الكراسى، فجلست فى الصفوف الأمامية، وبمرور الوقت امتلأت القاعة عن آخرها بالفلاحين من القرى المجاورة بملابسهم الريفية النظيفة المميزة والتى يلبسونها فى الأعياد. وبدأنا نسمع أصوات همهمة عند الباب الخارجي تحول إلى صياح منخفض، ارتفع بعد قليل، وفهمنا أن بعض الفلاحين يريدون الدخول، والأمن يحاول أن يفهمهم أنه لا مكان لأحد. وفجأة سمعنا أصوات صفافير سيارات الشرطة تزأر، وفتح الباب الخارجى، ودخل منه الوفد القادم من القاهرة يتقدمه كبار ضباط الشرطة، وخلفه سارتر وبجواره لطفى الخولى وسيمون

دى بوفوار، ثم مسئولو الاتحاد الاشتراكى فى القاهرة والمنوفية، وجلس الجميع على المنصة. وقبل أن تبدأ الجلسة فوجئنا بأصوات عالية وهرج ومرج خارج القاعة، وفجأة انفتح الباب فاندفعت أعداد من الفلاحين إلى الداخل ووقف الجميع ينظرون خلفهم للفرجة على منظر تقليدى للبوليس المصرى حين يخلع الجنود القايش (الحزام) ويضربون الجماهير فى أى زحام حتى حول استاد القاهرة قبل وبعد مباريات كرة القدم. وكالعادة انتصرت الشرطة وطرد الفلاحون، وأغلق الباب، بعد أن شاهد سارتر على الطبيعة العلاقة بين الحكومة والشعب.

وبدأت جلسة حوار سارتر وسيمون مع الفلاحين المصريين بكلمة قصيرة للطفى الخولى بالعربية، ولخصها هو بالفرنسية، وطلب الخولى من سارتر إلقاء كلمته، وطلب سارتر أن تكون الكلمة على هيئة حوار بينه وبين الفلاحين. وبالطبع كان السبب هو أنه قد عرف من أول وهلة أن أى كلمة سوف يلقيها سوف تذهب هباء ، وبدأت الأسئلة التى ألقيت بالعربية وترجمها الخولى، كما ترجم إجابات سارتر أيضا إلى العربية. وكان واضحا أن أمين الدعوة والفكر بالمنوفية قد قام بأعمال مجيدة من وجهة نظره فى حبك مسرحية فكاهية ثقافية وتراجيدية فى آن واحد، فوقف الفلاحون الواحد تلو الآخر يقرأ من ورقة سؤاله عن الديناميكية والمرجعية وأنواع الوجودية ومقارنة فلسفة سارتر بالفلاسفة الوجوديين الأولين. ولم تسلم سيمون من أسئلة قرأتها الفلاحات والوجوديات المصريات عن روايتها الأخيرة والحبكة الدرامية. وعلت الابتسامة وجهى سارتر وسيمون أثناء الإجابة على الأسئلة باقتضاب شديد ليقينهما أنهما مشتركان فى رواية رديئة. وربما كان الوحيد الذى أدرك هول مايحدث هو لطفى الخولى، الذى اصفر وجهه من الخجل وحاول أن يعالج الأمر، لكنه اكتشف أن الزيارة من أول هتافات التلاميذ ومرورا بضرب الشرطة للفلاحين ونهاية بمهزلة الأسئلة لايمكن أن تعالج، وأن ماحاول لطفى الخولى أن يصنعه من أجل تجميل وجه الحكومة المصرية أطاحت به ساعتان فى كشميش.

وخرج الجميع بسرعة وانفض المولد، وبقيت نصف ساعة أتحدث مع الفلاحين من دخل منهم ومن لم يسمح له بالدخول، ولم يسأل أحد منهم عن سارتر ومن هو هذا الزائر الغريب، لكن السؤال كا ، أين المسرحية، أين المزيكة وأين المشاريب؟.

وطبعاً عرفنا بعد ذلك أن اكتبه سارتر عن نظام الحكم فى مصر كان سلبيا للغاية مقارنة بما كتب عن إسرائيل، وقامت حرب ١٩٦٧ ولم يصدر الكتاب المنتظر عن الرحلة لأن التاريخ والجغرافيا كانا قد تغيرا.

الزواج وحرب ١٩٦٧

فى أوائل الستينات بدأت تدور حرب اليمن التى انتقل فيها آلاف من الجنود والضباط المصريين لليمن حيث خاضوا حربا ضروسا ضد القبائل اليمنية المؤيدة للنظام الملكى والمدعومة من السعودية. وطالت الحرب وإزدادت الإصابات بين أفراد الجيش المصرى، وعاد المئات منهم وهم فى أشد الحاجة لإعادة تأهيلهم وتدريبهم وتركيب أطراف صناعية لهم. ولم يكن هذا الفرع من الطب ـ وقد كان فرعا حديثا آنذاك ـ موجودا فى مصر، فسارعت القوات المسلحة إلى إنشاء مركز تأهيل المحاربين القدماء بالعجوزة، ولم يكن معهد العلاج الطبيعى قد أنشئ بعد، فأعلنت القوات المسلحة فى الصحف الأوروبية عن رغبتها فى تعيين أعداد كبيرة من إخصائيى العلاج الطبيعى بالجيش، وقد عين مايقرب من خمسين إخصائيا وإخصائية عام ١٩٦٥ فى مركز العجوزة. وقد عين فى وظيفة طبيب مقيم اثنان من زملائى، رضا الصاوى الذى هاجر إلى كندا بعد ذلك، ومحمد شرف الذى أصبح رئيسا للمؤسسة العلاجية فى مصر. وكان والد رضا يعمل بشركة السكر بالحوامدية، وكان لهم ناد أنيق هناك. وقرر رضا الصاوى عمل حفلة ساهرة دعا لها عددا كبيرا من إخصائيات العلاج الطبيعى بالمركز وبعض الأصدقاء من زملائه، وكنت واحدا من المدعوين. وحيث إننى كنت أمتلك سيارة، كان على أن أساهم فى نقل أربعة اختارهم رضا

الصاوى لى من المدعوين إلى الحوامدية عن طريق الصعيد. وقد شاءت المصادفة أن تكون إحدى المدعوات فتاة سويدية الجنسية تدعى كريستينا. واستمرت الحفلة الصاخبة حتى الساعة الثانية صباحا بين الرقص والهرج والمرج. وتبادلنا الحديث لبضع دقائق وكان الحديث بالمصادفة عن الكاتب الإنجليزى جراهام جرين، والذى كنت أقرأ له كتابا فى ذلك الوقت، وعلمت أن أباها من أشد المعجبين بهذا الكاتب ويعتقد أنه ظلم لأنه لم يحصل على جائزة نوبل للآداب. وفى طريق العودة اتفقنا على أن نتواصل تليفونيا. وتم الاتصال ثم اللقاء، وتوالت اللقاءات، واكتشفت أن هذه الفتاة السويدية على مستوى عال من المعرفة والثقافة العالمية وعلى دراية بأمهات الكتب والدراما الإغريقية، وكان شغفنا بالأدب والتاريخ أحد العوامل الرئيسية التى قاربت بيننا، وكانت حافزا قويا لى على بدء القراءة فى آفاق جديدة من كلاسيكيات الأدب العالمى و التى لم تكن أبدا ضمن أولوياتى أو برنامجى. وكنا نخرج سويا حيث نجلس داخل السيارة أو سور الكورنيش تحت كوبرى الجامعة من ناحية الجيزة، وكان عم عبدالله بائع البيرة بثلاجته الكبيرة وباعة السميط والجبنة هم المصدر الأساسى لغذائنا وشرابنا بما يتناسب مع دخلنا المحدود. وحتى ذلك الوقت لم يكن الأدب المصرى الحديث قد ترجم بعد للغات الحية باستثناء الأيام لطه حسين وبعض أعمال الحكيم للفرنسية وبعض القصص القصيرة المختارة للإنجليزية. وأردت أن أقدم لها نجيب محفوظ الذى لم يكن يعرفه أحد فى الخارج فى ذلك الوقت، فقمت بترجمة فورية لرواية القاهرة الجديدة قدر استطاعتى خلال رحلة القطار لمرسى مطروح فى رحلة قمنا بها سويا.

وعند بدء العلاقة لم يخطر ببال أحد منا أنها سوف تنتهى بالزواج، وبهجرة نهائية لها من السويد إلى القاهرة. وفى خلال تلك الفترة كانت مصر تمر بفترة حرجة وصعبة من تاريخها، فبينما كان الجيش المصرى يحارب فى اليمن كان الصراع بين

عبدالناصر والولايات المتحدة على أشده، ووصل النظام إلى أقصى درجات القمع، وكانت المعتقلات تمتلئ بالآلاف من جميع الاتجاهات، وكان الخوف الشديد يسيطر على الشعب المصرى بأكمله، فكان الحديث الدائم بأن الحيطان لها آذان وأن السماعات مخبأة فى البيوت وأن جميع التليفونات مراقبة، وكنا نسمع عن زوار الفجر وعن الكاتب الذى فصل بسبب كلمة أو جملة فى مقال وجد فيه أحد الرقباء مايعتقد أنه يمس النظام.

وكان الأجانب المقيمون فى مصر قد ترك معظمهم البلاد فى هجرة دائمة فى الفترة بين عامى ١٩٥٦ و١٩٦٢، وكان عدد الأجانب من الغرب قلة قليلة، ويقال أن إخصائيى العلاج الطبيعى من الأجانب كانوا مراقبين من الحكومة، فربما كان أحدهم عميلا أو جاسوسا، لذا كنا غاية فى الحذر عندما نتحدث فى التليفون خوفا من أن نقول جملة تؤخذ على أنها نقد للنظام أو الرئيس. ومر عام كامل ازددنا فيه اقترابا ومعرفة ببعضنا، وبالطبع كان هناك دائما الفرق بين الغرب والشرق، فمهما كان تأثير الغرب على أفكارى فإن الفجوة فى الفكر بيننا كانت قائمة، لكنها ربما كانت فى بعض الأحيان أقل من الفجوة بينى وبين بعض زملائى وزميلاتى من المصريين، ومرت الشهور حتى كان مايو ١٩٦٧ حين أغلق عبدالناصر مضيق العقبة، وبدأت حملة هستيرية دعائية حركت مشاعر الشعب المصرى فى موجة عدائية ضخمة ضد الرعاة الغربيين فى مصر، خاصة من الدول المؤيدة لإسرائيل وصدرت الأوامر للأجانب فى مركز التأهيل بأن سيارات القوات المسلحة سوف توصلهم لمنازلهم وتحضرهم كل يوم لعمل، وطلب منهم عدم الخروج خوفا من احتمال الاعتداء عليهم. وقد أعلنت السويد حيادها تجاه هذه المشكلة ولم تقم بإدانة إغلاق خليج العقبة، بعكس الدنمارك التى أدانت إغلاق الخليج، وكتب ذلك فى الصحف وأذاعته الإذاعة المصرية، لذا قررت السفارة السويدية توزيع بوستر يعلقه كل خواجة سويدى على باب

بيته من الخارج بأن قاطن هذا المكان سويدى الجنسية، حتى يعلم المصريون أن من يسكن هنا من بلد صديق، وقد استعار الدنماركيين بعضا من البوسترات السويدية وعلقوها عى أبواب بيوتهم. وكنت أمر على كريستينا بعد الظهر ونخرج بعض الوقت، وكان الجو مليئا بالتوتر، لكن نبرة الشارع تسودها هيستيريا سببها أن هذا الشعب الذى أخذ يستمع لسنوات طوال عن العدو الإسرائيلى الظالم الذى سحق الشعب الفلسطينى وقتل العرب والمصريين والذى كنا نستعد له طوال سنين بتحضير أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط، وذلك كما قال المشير وكما قال أهرام هيكل فى مانشيتات ضخمة متعددة على مدى سنوات، وكانت تظهر بقوة أثناء الاحتفالات بعيد الثورة ٢٣ يوليو- أخيرا وجد الشعب فرصة للأخذ بالثأر وتحرير فلسطين المغتصبة، وكانت ثقة الشعب فى قيادته وجيشه كبيرة جدا. وكان الشارع المصرى يغلى والمسيرات التى نظمها الاتحاد الاشتراكى تملأ شوارع القاهرة طوال اليوم رافعة لافتات كبيرة كتب عليها عبارات استهانة واحتقار لأمريكا وإسرائيل.

اجتماع الكلية قبل الحرب وبدء حرب ١٩٦٧

فى أول يونيو دعى جميع الأطباء بالقصر العينى لحضور مؤتمر شعبى دعا إليه عميد كلية الطب ولجنة الاتحاد الاشتراكى بالكلية، وحضر إلى الكلية الدكتور حسن صبرى الخولى المتحدث الرسمى باسم رئيس الجمهورية لحضور المؤتمر الحاشد، وامتلأت قاعة الاحتفالات بالكلية عن آخرها، وبدأت الخطب الحماسية من ممثلى الاتحاد الاشتراكى ومنظمة الشباب من الكلية ومن خارجها. وكان التصفيق الحاد المتواصل يلى كل خطاب، وكان أعضاء منظمة الشباب يحتلون بعض الصفوف وكانوا يرددون هتافات تمجد الجمهورية العربية المتحدة ورئيسها عبدالناصر ومليئة بالشتائم لإسرائيل. ثم وقف صبرى الخولى متحدثا وشارحا للموقف السياسى، فقال إن كل العالم يؤيدنا ماعدا أمريكا وربيبتها إسرائيل وإن جيشنا هو أكبر وأعظم قوة ضاربة

فى الشرق الأوسط ، وإن صواريخنا ـ القاهر والظافر ـ تستطيع أن تطول إسرائيل. ثم بدأت الأسئلة والنقاش، وكانت كلها عبارة عن أكلشيهات محفوظة بين السائل والمجيب، حتى وقف أستاذ الأمراض الباطنية القديم الدكتور حليم دوس يسأل صبرى الخولى عن تخوفه من القدرة العسكرية للجيش الإسرائيلى ومدى استعدادنا فنيا وقتاليا لها، فزمجر الخولى قائلا إن عمق إسرائيل عند نقطة معينة لا يتعدى بضعة كيلومترات، ونحن لو خرجنا إليهم كما يفعل الصعايدة بالنبابيت لقضينا عليهم. وارتفع التصفيق الحاد، وظهرت الابتسامة العريضة عى وجه الخولى والتى ملأت وجهه كله حتى كادت أن تغطى على صلعته اللامعة، ومال على صديقى د. محمود حسين قائلا هو صحيح فيه حد بيحارب بالنبابيت اليومين دول ، ولم أعلق، وخرجت الأغلبية سعيدة والبعض مهموما.

وفى مساء ٢ يونيو كنا مجموعة من الأطباء نسهر فى العجوزة فى شقة أحد الأصدقاء واضطررت للنزول إلى الشارع لشراء علبة سجائر وسمعت إذاعة القاهرة تقول ضمن الأخبار إن ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل صرح إثر خروجه من اجتماع مجلس الوزراء بأن قرار عبدالناصر بإغلاق خليج العقبة بمثابة إعلان الحرب، وعندما عدت إلى زملائى وأخبرتهم بما سمعت لم يصدق أحدهم أن هذا من الممكن أن يحدث فعلا.

وفى مساء ٤ يونيو ذهبت كريستينا مع صديقة يونانية مصرية تدعى روكسانا، والتى لعبت دورا فى مساعدة الماركسيين المصريين فى الستينيات ومعهم الكاتب الصحفى رؤوف مسعد لسماع أوركسترا القاهرة السيمفونى والذى عزف فى تلك الليلة السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، والتى تسمى المصير، فى مسرح سيد درويش بالهرم، وفى الاستراحة قدمتها روكسانا إلى الصحفى الكبير والكاتب المصرى المخضرم الأستاذ محمد عودة. وبعد حديث قصير قال لهما إن الحرب سوف تبدأ غداً، وبالطبع

كان هذا القول مجرد تخمين، لكن كريستينا أخذتها على محمل الجد وذهبت لمحاولة الاتصال بى تليفونيا لتخبرنى بأن الحرب بكرة، وكان يوجد تليفون وحيد فى غرفة مدير قاعة سيد درويش بالهرم فساعدها الأستاذ عودة على الوصول إليه واستعماله، واتصلت بى فى المنزل ولم أكن هناك، وفى المساء اتصلت بها وأخبرتنى بأن الحرب سوف ستبدأ غدا وأن صحفيا مهما على اتصال وثيق بأجهزة الحكم أخبرها بذلك. لكننى قلت لها إن هذا كلام فارغ وإنه لا أحد يعلم متى تبدأ الحرب، وطلبت منها أن نتوقف عن الطريقة السويدية فى تصديق كل مايقال. وحدثت الواقعة وصدق عودة ولاقت مصر مصيرها ليلة أن عزفت سيمفونية بيتهوفن العظيمة المصير، وفى الصباح كنت متوجها إلى القصر العينى كالعادة وكان عندى درس للطلبة، وبينما انا فى طريقى سمعت بعض الأصوات المكتومة لانفجارات، لكنها لم تكن عالية بحيث تقلق وأثناء محاضرتى فى القصر العينى جاءت الممرضة لتعلن أن الحرب بدأت وأننا أسقطنا عددا من الطائرات أخذ يتزايد فى البيانات مصحوبا بتوغل قواتنا داخل اسرائيل وصدر الأمر من عميد الكلية بأن على جميع المدرسين والمعيدين تسليم أنفسهم فى التعبئة العامة، وكانت فى شارع التحرير قريبة من ميدان الدقى وذهبنا إلى هناك وطوال الطريق سمعنا هتافات الشعب للقائد وهتافات بالنصر للجيش وصيحات التشجيع مع كل بيان عسكرى لسقوط أعداد من الطائرات وهى مماثلة لأصوات الجماهير عند تسجيل الأهداف فى مباريات كرة القدم ووصلنا لمبنى جهاز التعبئة العامة، فوجدنا آلافا من المصريين وجهت لهم نفس النداءات، فوقفوا فى الشارع وعلى السلالم حوالى ٤ ساعات، ثم قيل لنا أن ننصرف كل إلى عمله، فعدت إلى القصر العينى وعلمت أن مستشفى أمراض النساء قد تم تحويله إلى قسم لاستقبال إصابات المدنيين. وأخلينا القسم من المريضات، وجلسنا مع الجراحين وأخصائيى العظام فى انتظار المصابين، ولم يصل أحد طوال اليوم، والراديو مفتوح على إذاعة صوت العرب، وحوله الأطباء والممرضات والكل صامت يستمع، وعند إذاعة كل

بيان بأعداد الطائرات الإسرائيلية التى أسقطت، كان الكل يهلل ويهتف، وعندها يهدر صوت أحمد سعيد معلنا الانتصارات المصرية الكاسحة بصوته الجمهورى وحماسه الفائق، تهتز وترتجف قلوبنا جميعا، وفى الساعة التاسعة مساء انتهت ورديتى وذهبت للمنزل، وجلست بجوار الراديو أستمع إلى الأخبار مع أبى وأمى وإخوتى، والنور مطفأ. وكانت أمى تقرأ القرآن، ونحن جميعا فى أشد التوتر والقلق والخوف.

وانسحبت إلى الداخل واتصلت بكريستينا لأطمئن عليها، فلم يرد على أحد. وفى منتصف الليل اتصلت بى وهى فى غاية الخوف والانزعاج، وأخبرتنى بأنها عند سيدة سويدية تسكن فى الزمالك بالقرب من شقتها، ولم تكن تعرفها معرفة جيدة، لكنها أرادت أن تجد صحبة لها فى هذه الظروف الصعبة، فاتصلت بها، ولما رأتها السيدة خائفة دعتها للحضور لها ومعها بيجامة لتنام عندها حتى الصباح. وكانت هذه السيدة تعمل رئيسة عمليات مستشفى القوات المسلحة بالمعادى، ومتخصصة فى جراحات الأعصاب، وكانت تساعد الخبير العالمى السويدى أوليفر كرونا الذى كان يزور مصر عدة مرات فى السنة لإجراء عمليات جراحية فى المعادى. ولم أكن أعرف هذه السيدة معرفة شخصية، لكننى سمعت أنها كانت غريبة الأطوار، وقد حدث ذلك مع كريستينا حيث احتسيا سويا بعض الكؤوس من النبيذ، ووقفت فى البلكونة فى الدور الثانى عشر المطل على نيل الزمالك تحاول أن تشاهد الطائرات والمدافع المضادة للطائرات وأصوات القنابل فى غير مبالاة، وكأنها تشاهد فيلما للمغامرات. وأحسست من الاتصال التليفونى مع كريستينا أنها لاتدرى أين تذهب، وأنها لاتطيق هذه السيدة التى قالت إنها مجنونة، وإنها خائفة فى نفس الوقت من أن تعود لشقتها وتبقى وحدها.

وبعد أن أغلقت التليفون ذهبت لأمى رحمها الله، وكانت الشقة تغوص فى ظلام دامس، وضغطت على يديها، وطلبت منها بصوت هامس أن تحضر لحجرتى،

أخبرتها بأن لى صديقة سويدية تعمل في مصر فى مستشفى القوات المسلحة، وقبل أن أكمل الجملة قالت طبعا أنا عارفة، هوة أنا نايمة على روحى، ماإنت قاعد كل يوم ترطن فى التليفون، ماهو طبعا بتكلم واحدة، ولايعنى إنت بتكلم السفير الإنجليزى ولم أعلق على جملتها الساخرة، لكننى تذكرت وأنا أكتب هذه السطور أن أكبر وأهم شخصية أجنبية فى ذهن جيل أمى كان السفير الإنجليزى، والتى تحولت فى عصرنا وعصر أولادنا إلى السفير الأمريكى. وقلت لأمى إن اسمها كريستينا وإنها وحيدة فى شقتها وإننا أصدقاء منذ حوالى عام وإننى قلق عليها، ومن الواجب أن تنتقل فى هذه الفترة الحرجة إلى عائلة تعيش بينها. وكان الرد الفورى التلقائى السريع: طبعا يابنى تيجى تعيش معانا زى بناتنا، أمال يعنى هنسيبها لوحدها، دى تبقى قلة أصل، وفوجئت برد أمى الذى كنت لا أتوقعه، كيف تقبل أن تعيش فى بيتها فتاة أوروبية غير متزوجة، وهى تعلم جيدا أن ابنها على علاقة عاطفية بها؟ لم تفكر فى العيب والأصول، وهو ماكانت أمى دائما حريصة عليه، ولم تفكر أيضا فى خطورة إيواء أجنبى داخل منزلها أثناء الحرب فى ظروف كان الأجانب عموما يعتبرون خطرا على أمن الوطن. كنت أتوقع الرفض والمحايلة والإقناع من جانبى، لكن ذلك لم يحدث. ثم قامت أمى وقالت سوف أتحدث مع أبيك وفى دقائق قليلة جاءت الموافقة، وكنت فى غاية السعادة بقرار أمى وأبى الذى نم عن فهم إنسانى عميق لأهمية استضافة الغريب فى وقت الأزمات، ومراعاة شعور ابنهم فى هذه الظروف الشديدة الصعوبة. وانطلقت إلى التليفون لأتصل بكريستينا عند صديقتها النصف مجنونة وأخبرتها بأنها ستكون ضيفتنا اعتبارا من الغد. وكانت العائلة كلها مجمتعة بالإضافة إلى طنط أمينة التى أرسلت أمى فى طلبها، لأنه ليس من الأصول أن تبقى وحيدة فى شقتها الصغيرة. وذهبت إلى حجرتى، وكانت الساعة نحو الثانية مساء وذهب الجميع لمحاولة النوم، واستطعت بالمصادفة أن أستمع إلى صوت إسرائيل، ففوجئت بالبيان الذى يقول إنه فى اليوم الأول للحرب استطاعت إسرائيل أن تحطم أعدادا هائلة من

الطائرات المصرية، ذكرت أعدادها ونوعها، بالإضافة إلى ممرات الطائرات فى سيناء وفى الوادى كله، وأن خسائر إسرائيل كانت طفيفة للغاية. ذهلت من البيان ولم أصدقه وعدت لإذاعة القاهرة فوجدت نفس إسطوانة الصباح مستمرة، وحاولت أن أستمع إلى لندن، لكننى لم أستطع، ولم يغمض لى جفن طوال الليل وأخذت أتقلب يمينا ويسارا، قلقاً على الوطن، ولا أدرى ماذا أفعل. وفى الساعة السابعة صباحا ذهبت للقصر العينى، وجلست مع نوبتجية المساء الذين لم يذهبوا بعد لمنازلهم، فأخبرنى أحدهم أن لندن أيدت ماسبق أن سمعته من إذاعة إسرائيل، فأصابنى وجوم شديد وشعور بالإحباط ربما لم يحدث مثله فى حياتى. وأصبت بحالة من التبلد الغريبة، وتحدث إلى بعض الزملاء محاولين أن يخرجونى من وجومى الشديد، وقال أحدهم إن إذاعة لندن استعمارية كاذبة فلا تقلق، وجلسنا فى القصر العينى، لا حوادث ولا مصابين ولا مرضى ولا شيء ولا عمل، نستمع الى الراديو الذى خفت حدته عن اليوم الأول، لكن حماس الانتصار كان لايزال مستمرا. وفى المساء ذهبت لكريستينا فى شقتها وأخذت حقيبة صغيرة بها ملابسها واتجهنا إلى شقتنا فى شارع الدقى لتقابل أمى وأبى وإخوتى وطنط أمينة على أضواء الشموع وفى ظلام دامس تم التعارف. وكانت لغتها العربية فى ذلك الوقت تساوى صفرا، واستطاعت أن تتحدث مع أبى بالإنجليزية ومع إخوتى بإنجليزيتهم المتواضعة وهم خريجو كليات التجارة، وتحدثت مع أختى الكبرى بالفرنسية، أما مع أمى وطنط أمينة، فكان الحديث بلمس الأيدى والابتسامات. وقبل أن تستقر فى كرسيها، انطلقت طنط أمينة تحكى لها بالعربية بعض الحكايات عن الخواجات الذين عاشرتهم منذ أربعين وخمسين عاما. وبالطبع لم تفهم كريستينا كلمة واحدة. ثم قامت أمى فوزعت حجرات النوم بحيث تنام كريستينا فى حجرة مع اثنتين من إخوتى البنات، وانتقل أخى لينام فى حجرتى، وتمت حركة التنقلات التى تضمن فك أى اشتباك بينى وبين كريستينا داخل المنزل.

وفى الصباح حضرت سيارة الجيش لأخذ كريستينا من عنوانها الجديد فى شارع الدقى للذهاب للعمل، وذهبت أنا للقصر العينى، وكانت المأساة قد بدأت فى الظهور وكانت نغمة الإذاعة قد أصبحت واضحة بأنه لايوجد انتصارات ولاشىء من هذا القبيل، وبدأت الحكايات عن بعض من وصلوا إلى الضفة الغربية للقنال فى يوم السابع من يونيو فتكلموا عن الأهوال التى حدثت، لكن حتى تلك الحظة لم نكن نعلم حجم المأساة بالكامل، وكان عندنا أمل فى أن تكون الأمور ليست بالسوء الشديد. وبينما نحن فى القصر العينى بدأت تصل الأنباء من الإذاعات الأجنبية بأن الجيش الإسرائيلى وصل إلى قناة السويس فى الضفة الشرقية، وحدثت حالة شديدة من البلبلة واليأس وعدم التصديق، وذهبت إلى المنزل لا أستطيع الكلام ولا الحراك، واتجهت إلى حجرتى لا أكلم أحدا وأحاول الاستماع إلى المحطات الأجنبية لعلى أجد بصيصا من الأمل هنا أو هناك. وفجأة ورد فى إحدى الإذاعات خبر يقول إن السفير عوض القونى مندوب مصر الدائم فى الأمم المتحدة قد وافق على قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، وعرفت وفهمت المعنى الكامل لهذه الجملة التى تعنى أن جيلا بأكمله قد هزم هزيمة قاسية، وأن شعب مصر العظيم بآماله العظيمة وتضحياته الكبرى قد فقد كل شىء فى بضع ساعات.

وجرت الدموع أنهارا من عينى، ولم أستطع التوقف عن البكاء داخل سريرى، ووقفت فجأة تجاه النافذة أحدث نفسى قائلا إن الحياة لاتساوى شيئا بعد ماحدث، وأنا أكاد أخجل من مصريتى. وجلست طوال الليل أفكر غير مصدق لما حدث. ها أنا شاب عمره سبعة وعشرون عاما فى بدء حياته العملية، يعمل معيدا بالجامعة، فيجد أن مستقبل أمته بالكامل قد ولى وأن جرح كبريائها عميق جدا بحيث لايمكن أن يلتئم. لم أخرج من حجرتى ولم أتكلم كلمة واحدة مع أبى أو مع ضيفتنا كريستينا. وفى الصباح خرجت من المنزل واجما مذهولا لا أصدق ماحدث، ورأيت القاهرة كلها

واجمة مظلمة تخيم عليها أعظم أحزان التاريخ، فالمدينة التى تعودت على الأحزان والكوارث فى تاريخها الطويل أصابها الحزن الأكبر، وبعثرت كرامتها وعزتها التى طالما تغنى بها الشعب وتغنت بها جوقة الحكومة الرسمية على مدى ثلاثة عشر عاما، فتوقفت السيمفونية عن العزف، وانهار المسرح، وتعرى المايسترو من ملابسه السوداء الأنيقة فى لحظة واحدة رهيبة من أحداث التاريخ. ووصلت للقصر العينى وأنا لا أكاد أرى أمامى، وجلست فى مكتب إدارة قسم أمراض النساء، وسمعنا أصواتا عالية مزعجة، ظن البعض أنها أصوات انفجار قنابل ، وأكد البعض الآخر أنها طائرات اخترقت حاجز الصوت على مستوى منخفض. وفجأة دخل باشكاتب، وكان يدعى شمس أفندى مهرولا وهو يلهث ليخبرنا بكل ثقة أن اليهود قد هبطوا بالمظلات على كوبرى الجامعة بجوار القصر العينى. وسألته من أخبرك بذلك، فقال على الملأ بأعلى صوته إنه رآهم بعينيه من أعلى سطح المستشفى. فأصابنا جميعا الهلع، وكنا نظن أن الحرب انتهت وأن اليهود لن يعبروا قناة السويس، فصعدت فورا ومعى اثنان من الزملاء إلى سطح المستشفى، وكنا نرى كوبرى الجامعة بوضوح من هناك، فلم نجد شيئا، ووجدنا بعض السيارات العادية تعبر الكوبرى فى هدوء، وذهلت، ونزلت بسرعة واستدعيت شمس أفندى وأعدت السؤال عليه وأكدت له أننى لم أجد شيئا على الكوبرى، فتنصل من مقولته الأولى وقال إنه سمع الخبر من فلان، وبسؤال فلان قال إنه سمعه من فلان، وهكذا. حقا إن الأوقات الحرجة هى التى يمكن لأى إشاعة فيها أن تنتشر فى دقائق معدودات من شخص لآخر، وعبر التليفونات من مدينة لأخرى، واليوم فى عصر الإنترنت قد تصل إلى أقصى مكان فى الكرة الأرضية فى ثوان معدودات. ومكثت فى القصر العينى حتى الغروب، وكان الصمت مطبقا على الجميع والراديو مغلقا ولا أحد يتكلم أو يعلق، والكل يغلى من داخله، ولم يكن قد حان ميعاد السؤال المهم: كيف؟ ولماذا؟ وأين المصير؟.

وعند وصولى إلى المنزل عرفت أنهم أذاعوا أن جمال عبدالناصر سوف يلقى بيانا مهما للأمة. وحضر لمنزلنا اثنان من أعز أصدقائى المرحوم د. كمال زكرى الذى توفى بسرطان المعدة، وكان يعمل جراحا للعظام بولاية نيويورك، والدكتور فؤاد عبدالستار أستاذ أمراض النساء فى شمال ولاية نيويورك فى الوقت الحالى. وكان كمال زكرى يكن كراهية شخصية شديدة لجمال عبدالناصر، بسبب الحكم بالسجن على أخيه الأكبر فى إحدى القضايا التى كان لها طابع سياسى فى منتصف الستينات. وبدأ خطاب التنحى الشهير واستمعنا إليه، جميعا: الأسرة والأصدقاء وبحضور كريستينا، التى كان والدى يترجم لها الخطاب، لأننى كنت مشدودا وفى نفس الوقت محطما تماما بسبب ، حدث. وكان كمال يسب ويلعن عبدالناصر طوال الوقت، متهما إياه بأنه السبب الأول والوحيد لما حدث. وبنهاية الخطاب مرت أمام منزلنا سيارتان لورى تحملان بعض الشباب يهتفون لعبد الناصر وأن يبقى فى منصبه. ونزلنا إلى الشارع أنا وكمال وفؤاد لنرى ماذا يحدث. وكالعادة تركنا كريستينا فى البيت مع العائلة ومشينا فى شارع الدقى نجتر أحزاننا متجهين إلى الأورمان، فوجدنا نفس السيارتين تحضران مرة أخرى من الشارع الموازى لمديرية أمن الجيزة، ووضح أنهم أصلا خرجوا من مبنى الاتحاد الاشتراكى فى شارع الجيزة المقابل لمديرية الأمن، والذى يشغله الآن الحزب الوطنى فى الجيزة. واستمرتا تطوفان لمدة نحو ثلاث ساعات لكن لم يخرج أحد من منزله فى المساء لتأييد المظاهرة أو الهتاف. ثم اختفت السيارات وعدنا للمنزل.

وكان الهدوء يخيم على المنزل، وفجأة صدرت أصوات رهيبة اعتقدنا أنها قنابل ألقيت فى الشارع. وانطلقت صفارات الإنذار، وكانت هناك نداءات من الشارع بأن هناك غارة. ونزلنا جميعا من المنزل إلى الشارع، ثم إلى الجراج مع بقية الجيران. ولم تكن هناك قنابل، ويبدو أنه لم تكن هناك غارة جوية أصلا، وإنما بعض الطائرات المصرية المتبقية قد اخترقت حاجز الصوت ولا أدرى لماذا.

وفى صباح يوم ٩ يونيو، ذهبت للقصر العينى، وعلمت أن المظاهرات العارمة ـ والتى اشترك فيها عشرات الآلاف ـ تجوب القاهرة وتطالب عبدالناصر بالبقاء فى الحكم. ورأيت بعينى أحد الأطباء النواب وهو قادم يلهث وملابسه ممزقة من كثرة الزحام، وكادت أن تدوسه الأقدام. وقال لى إن الشوارع بها أمواج عاتية من البشر. وسألته كيف نزلت إلى الشارع، وكيف اشتركت فى المظاهرة، فأخبرنى بأنه كان فى طريقه مشيا على الأقدام متوجها للقصر العينى، فوجد المظاهرة تهتف لعبد الناصر بأن يبقى وألا يتركنا، ووجد نفسه دون أن يدرى عضوا مشاركا فيها، يهتف مع الجميع بنفس القوة حتى كاد أن يصرع تحت الأقدام من الهيستيريا التى أصابت المتظاهرين. وكشاهد عيان من الدقى والقصر العينى أجزم بأن وحدات الاتحاد الاشتراكى نظمت مسيرات احتجاج على الأقدام وبالسيارات مطالبة عبدالناصر بعدم التنحى، لكن كل هذه التنظيمات والترتيبات والخطط التى رتبها الاتحاد الاشتراكى لم يكن لها أثر فى المشاعر الجارفة التى أطلقت مئات الألوف إلى الشوارع تطالب الأب والزعيم والقائد عبدالناصر بالبقاء. وأنا واثق أشد الثقة بحكم علاقتى الوثيقة بالمجتمع بأن الاتحاد الاشتراكى ومن قبله الاتحاد القومى ومنظمة التحرير ومن بعدها حزب مصر والحزب الوطنى غير قادرين جميعا فى أية لحظة على أن يحركوا مظاهرة واحدة فى الشارع، باستثناء المظاهرات المدفوعة الأجر والتى تحفظ أناشيد وهتافات مسبقة يتدرب عليها قادتهم مثلهم مثل أطفال المدارس الابتدائية. وهذه المظاهرات، ليست كذلك بالمعنى المفهوم وإنما هى مسيرات ترى فيها الطوابير تسير، فيتكلم المشارك مع جاره فى أحاديث ليس لها علاقة بمضمون المظاهرة، ويتوقف عن الكلام حين ينظر إليه أحد المراقبين من المنظمين، وهم فئة غير الهتيفة الذين يهتفون بأعلى صوت وبأقوى حنجرة لكن ليس بها رنة واحدة من الحماس أو الإيمان، وإنما هى مهمة يؤدونها بتمثيل غير متقن، وجميع المارة فى الشارع يتندرون على المسيرة

حتى تنفض تدريجيا. والحقيقة أن الشعب المصرى هو الذى انطلق فى الشارع يملأ المدينة كلها يطالب ببقاء عبدالناصر. وقد حلل المؤرخون من جميع الاتجاهات حقيقة هذه المظاهرات، فهناك من قال إنها لعبة نظمها الاتحاد الاشتراكى، ومن قال إن الشعب خرج عن بكرة أبيه، وليس للاتحاد الاشتراكى يد فى ذلك ، أما السؤال عن السبب الحقيقى لخروج ملايين البشر، فلا أحد يستطيع الإجابة عليه. وأعتقد أن السبب الرئيسى لهذه الهيستيريا الجنونية التى أخرجت الشعب يوم محنته الكبرى وهزيمته العظمى هو أن مصر منذ عام ١٩٥٦ قد سلمت أمرها برضاها وقسرا عنها فى آن واحد إلى قائدها عبدالناصر الذى لم يأخذ رأى أحد من هذا الشعب سواء كان عاملا صغيراً أو وزيرا فى أى أمر له أهمية أو له علاقة بحاضر هذا الشعب أو مستقبله. وكان هذا التوكيل على بياض من شعب مصر كله راجع فى بعض الأحيان إلى الإيمان بالقائد أو الثقة فى عدالته تجاه الفقراء، أو انجذابا إلى شخصيته الساحقة، وفى أحيان أخرى بسبب الاستفادة الشخصية من نظام الحكم بالعمل كترس صغير أو كبير فى قيادته. وفى أحيان أخرى كان خوفا من بطش النظام وطغيانه وتحسبا لعقاب شديد قد يناله إذا لم يوقع الصك. أما من تردد فى التوقيع أو رفض الإمضاء، فقد اختفى من خريطة مصر الإنسانية، إما ملقى فى المعتقلات والسجون، أو مفصولا مشردا أو هاربا خارج بلده تاركا أحبابه ووطنه. وقد خرج معظم الناس للشارع فى ذلك اليوم يطلبون من صاحب التوكيل الأعظم الأسطورة عبدالناصر ثقة منهم فى أنه المسؤول والوحيد القادر على إصلاح الكارثة، وأعتقد أن الشعب المصرى بكافة طوائفه كان حزنه على الهزيمة عميقا وأليما، وربما كانت الشخصية الوحيدة التى أعلنت فيما بعد أنها لم تكن حزينة لما حدث لمصر فى ذلك اليوم هو المرحوم الشيخ الشعراوى الذى صرح بأنه صلى لله واعتبر أن هذه الهزيمة هى الطريق الوحيد للخلاص من حكم ونظام عبدالناصر وذلك فى حديثه مع طارق حبيب.

وذهبت للمنزل في نهاية اليوم مهدود الفكر والعقل، يعتصر الحزن قلبى ونفسى على حبيبتي الغالية مصر التى طالما فكرت فيها، وسوف أظل أفكر فيها عمرى كله. ودخلت حجرتى لا أحدث أحدا ولا أكلم أحدا، والعائلة كلها تبكى بحرقة شديدة وكريستينا وسطنا أصابها الوجوم.

وفي مساء ٩ يونيو تلقيت تليفونا من القصر العينى بأن أحضر فى تمام الساعة الثامنة صباحا. في اليوم التالى وبعد ليلة من الأرق جلوسا ووقوفا وصلت الى المستشفي قبل الثامنة فوجدت جميع الأساتذة يتقاطرون الواحد بعد الآخر، وعلمت أن الإشارة التليفونية وجهت من العميد بأمر الجامعة لحضور الجميع. وفى الساعة الثامنة والنصف اتصلت إدارة الكلية بنا وطلبت من جميع أعضاء هيئة التدريس التواجد بقاعة الاحتفالات الكبرى فى حرم جامعة القاهرة، وغادرنا القسم، وطلب منى أستاذى صادق فودة أن أصحبه فى سيارته عبر كوبرى الجامعة إلى حرم الجامعة. وعندما وصلنا وجدنا الجامعة مزدحمة بالسيارات واتضح أن أعضاء هيئة التدريس بجميع الكليات قد تمت دعوتهم لهذا الاجتماع. وامتلأت القاعة، ومكثنا نضرب أخماسا فى أسداس، والكل مطرق فى الأرض ومذهول لما حدث للأمة والجيش. وفى الساعة العاشرة صباحا، دخل الدكتور رفعت المحجوب وكان يشغل منصبا قياديا مهما فى الاتحاد الاشتراكى وفهو أمين الفكر والدعوة ، واعتلى خشبة المسرح، وجلس بجواره بعض الأساتذة القياديين من الاتحاد الاشتراكى، وخطب المحجوب خطبة عصماء، تحدث عن الحرب وأن أمريكا خدعت مصر، وأن الهجوم الجوى جاء من الغرب، ونحن كنا نتوقعه من الشرق، وأن أهم شيء الآن هو الالتفاف حول الزعيم، وأن بقاء عبدالناصر هو الأهم، بل وكل شيء. ولم يصفق أحد، وكان الجميع فى حالة ذهول، وفجأة رأينا هتافات منظمة من طلائع الاتحاد الاشتراكى من الشباب الذى كان يملأ الجزء الخلفى من بلكون قاعة الاحتفالات، ولم يلحظهم معظم الناس، فبدأوا

يصفقون ويدبون بأرجلهم على الأرض ويهتفون عبدالناصر.. عبدالناصر ولا.. لا للتنحى. ثم أكمل رفعت المحجوب خطابه المهم والمصيرى بأن علينا أن نتوجه إلى قصر القبة الرئاسى للتوقيع فى دفتر التشريفات ومطالبة عبدالناصر بالبقاء، ولتنظيم الذهاب والعودة سوف نخرج الآن صفا واحدا، والأتوبيسات الكبيرة فى انتظارنا، وسوف تأخذنا وترجع بنا مرة أخرى للجامعة حتى نأخذ سياراتنا الخاصه للعودة لمنازلنا.

وانتهى الاجتماع التاريخى وخرج مايزيد على ألف عضو هيئة تدريس، وركبنا الأتوبيسات التى اتجهت بنا إلى قصر القبة، وكان ذلك يوم ١٠ يونيو صباحا، وقد كان شعورنا ونحن نركب الأتوبيسات شعور قطيع كبير ليس له مخ يفكر به ينساق فى طابور طويل ككومبارس فى مسرحية مأساوية.

وكنت من أصغر الحاضرين، فلم يمض على تعيينى معيدا أكثر من أربعة أشهر قبل الحرب ومشيت فى الطابور مطاطئ الرأس أخجل من نفسى، وجلست بجوار أستاذى الدكتور صادق فودة وامتلأت الأتوبيسات بأساتذة من مختلف الكليات، وكانت الطرق مزدحمة ببقايا مظاهرات اليوم السابق. وخلال الطريق بدأت بعض الأحاديث تعلو احتجاجا على رحلة العبيد التى نساق إليها، وكان المحتجون ثلاثة أو أربعة، وبدأت فى الاشتراك معهم وتأييدهم وإذا بصادق فودة يضغط على يدى، ثم يهمس فى أذنى أن بألا أشترك أو أؤيد هذه الكلمات التى تحتج على المهانة التى نحن فيها، وقال لى إنك لاتضمن أحدا من هؤلاء، ربما هم جواسيس الحكومة. وارتفع صوت يقول إن من واجبنا الالتفاف حول القائد فى هذه المرحلة. وبعد طول عناء من زحام الطريق وصلنا إلى قصر القبة الذى كانت أبوابه مفتوحة، ودخلت الأتوبيسات إلى حوش كبير، وكانت دفاتر التشريفة موضوعة على مناضد كبيرة فى الهواء الطلق، تحت سلالم القصر الخارجية. ووقفنا طوابير للتوقيع، وحدثت فى تلك اللحظة

بعض الحركات المعارضة لذلك، والتى تركت الصف وعادت للأتوبيسات فى انتظار العودة. وكما حضرنا عدنا، لم يفتح أحد فمه طوال رحلة العودة.

عندما أفكر فى تلك الحادثة التى لم أقرأ عنها شيئا فى أى من الكتب التى تحكى أحداث ٥ يونيو وتوابعها أجد نفسى مذهولا وفى حالة شلل تام: مصرنا الحبيبة مهزومة أكبر هزيمة فى تاريخها الحديث وقطعة غالية من أرضها قد تم احتلالها وجيشها ممزق وأشلاؤه ملقاة على رمال سيناء، وفلول الجيش المنسحب تحاول عبور القناة، والمصابون بالآلاف والجيش يلملم بقاياه. فهل يعقل أن يدعى فى مثل هذا اليوم العصيب جميع أساتذة الجامعة المصرية لمثل هذا الاجتماع المخزى وتلقى عليهم أكاذيب فجة بأن المشكلة هى أن العدو قد جاء من الغرب كأنهم أطفال فى الدراسة الإبتدائية؟. هل يعقل أن تضيع الهيئة السياسية لما يسمى بالحزب الحاكم وقتها الثمين فى إحضار عشرات الأتوبيسات لتحمل أساتذة الجامعة للتوقيع على أوراق يعلم الجميع أنها لاتساوى شيئا؟. هل يأخذ الحزب الأتوبيسات التى كان من المفروض أن تساعد فى نقل العائدين من سيناء إلى القاهرة أو إلى مدنهم وقراهم؟. هل من المعقول أن يمرح مايريو على عشرين أتوبيسا مكيف الهواء فى شوارع القاهرة يوم ١٠ يونيو ذهابا وإيابا من الجامعة إلى القبة معطلة ومربكة المرور الذى تسير فيه عربات الإسعاف أو نقل الأدوية أو المعدات؟.

لايمكن لأحد أن يتصور هذا الهزل الذى قام به هذا الأستاذ الجامعى الكبير ورجل كل العصور من الاتحاد الاشتراكى إلى حزب مصر والحزب الوطنى حتى أصبح رئيسا لمجلس الشعب إلى أن اغتيل، وهو يقود هذه المسرحية الرديئة التى تتمتع بكل الاحتقار من الشعب المصرى الذى سحق من الجيش الإسرائيلى من ناحية، ومن بذاءات رفعت المحجوب وأمثاله من ناحية أخرى.

وبدأت مصر عصر ماسمى بالنكسة وبدأت الأخبار تتوالى عن حجم الهزيمة وانفرط عقد نظام الحكم وضاعت هيبته، وأفلت الزمام من القيادة، وأصبح الحديث

الذى كان يعتبر خطراً إذا قيل فى غرفة مغلقة حديثا عاديا يقال من الجميع فى كافتيريا كلية الطب، وكانت كريستينا مازالت تعيش معنا فى الدقى، وفى ذلك الوقت اتخذنا القرار بأن نعلن خطوبتنا فى المنزل بدون حضور أحد، وفى جو النكسة الكئيب اشترينا دبلتين من الذهب وقررنا أن نتزوج فى أقرب فرصة، وكان الزواج بأجنبية خاصة إذا كانت غير عربية به بعض العقبات التى تتطلب إحضار أوراق من السويد ليتم ترجمتها وختمها فى السفارة المصرية باستكهولم، وقد علمنا أن هذا سوف يستغرق وقتا، واقترح أحد الأصدقاء أن يتم الزواج عرفيا حتى تتم الأوراق، وفعلا حضر المحامى وكتب العقد، وأصبحنا زوجين، وأصبحت الفتاة التى كنت مترددا فى تعريفها بأمى وأبى زوجتى فى غضون أسابيع قليلة.

وبعد نحو ثلاثة أشهر وصلت الأوراق من السويد وأصبحت جاهزة للزواج الرسمى، وذهبنا إلى الشهر العقارى حيث إنه لا يمكن الزواج من أجنبية أمام المأذون، وكان الشهر العقارى المخصص للزواج من الأجانب فى شارع الجلاء بالقرب من باب الحديد، واتفقت مع صديقى د. محسن خطاب للحضور معى للشهادة على العقد وصعدنا سلالم ضيقة تعلوها كمية هائلة من الزبالة، وقد تآكلت درجات السلم من صعود ونزول الآلاف عليه يوميا، ووصلنا إلى الدور الخامس بعد جهد جهيد، وقام الموظف المختص بكتابة وثيقة الزواج التى كان المهر فيها ٢٥ قرشاً، وتم دفع مثلها لشاهد ثان مع محسن خطاب تم استئجاره من على باب الشهر العقارى ودفعنا الرسوم وخرجنا مسرعين بعد أن تم هذا الزواج فى عز النكسة.

وبدأت شهور الضياع الكامل الذى شاركنا فيه كل الأصدقاء فكنا نعمل قليلاً ونخرج يومياً تقريبا إلى حديقة النادى الأهلى لشرب البيرة المثلجة مع عشاء خفيف، وكان الحديث كله عما حدث مع مجموعة كبيرة من الأصدقاء، وبدأت أعداد هائلة من النكات تتداول طوال الوقت، وحيث إن معظم مجموعتنا كانت من الأطباء وكانت

سبل العمل فى الخارج فى ذلك الوقت مفتوحة أمامهم بسهولة بالغة فى إنجلترا وأمريكا فقد كان الحديث يدور على أنه لا أمل فى هذا البلد ويستحسن السفر لمن استطاع ذلك وأن يترك السفينة الغارقة، ويبرر الكثيرون ذلك بأنهم لم يستشاروا فى أى شأن من شؤون الوطن حتى يبقوا فيه بعد ما حدث، وبدأت الصدمة العنيفة تأتى بمفعولها تدريجيا حيث بدأ التسيب يدب فى أركان النظام وأرخيت القبضة القوية للنظام الذى تفرغ لإعادة تنظيم الجيش وجمع أشلائه بعد أن ثبت بالدليل القاطع أن الجيش المصرى كان أكبر نقطة ضعف فى النظام من ناحية الكفاءة الفنية والتنظيم، وكانت تلك الكارثة العسكرية ظلماً فادحاً للجنود والضباط الصغار وبعض الضباط الكبار الذين لم يتوانوا عن عمل كل شىء ممكن، لكن اتضح أن القيادة كانت فى واد والفنون العسكرية الحديثة فى واد آخر.

واستمرت حالة التفسخ وانعدام الوزن فى المجتمع ككل، لم نكن نعمل شيئاً بالجامعة غير الجلوس فى الكافتيريا للحديث عن الكارثة وآثارها، وفى المساء نخرج إلى النادى الأهلى، نعيد الحديث نفسه، وبدأت نغمة أن هذا ليس بلدنا وإنما بلد الشلة التى تحكمها، تعلو وترتفع بدون خوف أو رهبة من النظام الذى لم يكن فى مقدوره سجن الشعب كله، وفى تلك الفترة بدأ الهبوط الحاد فى الذوق العام، وكان المثل الصارخ لذلك أنواع رديئة من الموسيقى والأغانى والمطربين الجدد الذين حازوا الإعجاب وانتشروا انتشاراً كبيراً وأصبحوا الصوت المعبر عن الشعب فى حالة فقدان الوعى التى كنا نعيشها.

وبدأ التخطيط فى الهروب الاختيارى الكبير لمجموعة كبيرة من التكنوقراط المصريين من فنيين ومهندسين ومدرسين وأطباء، والذين كافحت مصر لتربيتهم وتعليمهم وتدريبهم فى مصانعها ومعاهدها ومستشفياتها مجاناً. وكان الشعور العام هو نحن نحب مصر لكننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً لها، وكان هذا القرار وهذا الإحساس

محصلة خمسة عشر عاماً أصبحت فيها مقدرات الشعب كلها فى أيد معدودة على الأصابع، وفقدت مجموعة المثقفين والرواد دورها فى المجتمع، والذى أصبح محصوراً بين أن تكون بوقاً من أبواق السلطة بطريقة أو بأخرى أو أن تختفى من خريطة البلد وتجهل تماماً، واستطاع قليل من المفكرين المحترمين أن ينجو من هذا المأزق الصعب، بعضهم استعان بالفن الروائى أو القصصى واستطاع أن يضع بعض الأفكار والآراء على لسان الشخصيات المختلفة، لكن تم ذلك بحذر شديد، والبعض كتب ما يعتقد أنه صحيح وتفادى الكتابة فيما يعتقد أنه خطأ ، كانت بدايات الهجرة مع بداية السماح بالسفر إلى الخارج ، فلقد كان مطلوباً للخروج من البلد تأشيرة خروج تحصل عليها بعد إجراءات طويلة، وخفضت القيود بعد ٦٧، فهاجر د. رضا الصاوى زميلى لإنجلترا ثم إلى كندا، وزميلى كمال إلى إنجلترا ثم الولايات المتحدة، ثم فؤاد عبدالستار إلى إنجلترا ثم أمريكا، ونشطت هذه الهجرة الدائمة للغرب أو المؤقتة إلى البلاد العربية خلال العقد التالى لحرب ٦٧ نشاطاً كبيراً. وكنت أعيش فى تلك الفترة فى شقة صغيرة فى باب اللوق تتكون من حجرتين وصالة ، وكان مرتبى أربعين جنيها وكان مرتب كريستينا فى الجيش مائة جنيه شهرياً، وكنا نعيش بهذا المبلغ حياة معقولة نخرج ونأكل ونلبس وعندنا سيارة فيات، ونستطيع أيضاً شراء الكتب وبعض اللوحات الفنية للفنانين المصريين، وأذكر أننى اشتريت لوحة تمثل وجها على حرير فى برواز أنيق للفنان المعروف عمر النجدى بمبلغ سبعة جنيهات من عند روكسانا فى شارع حسن صبرى بالزمالك ، وربما كانت هذه اللوحة أول مقتنياتى الفنية.

وفى تلك الفترة بدأت تكثيف قراءاتى السياسية التاريخية، فكنت أقرأ أحيانا عشر ساعات كل يوم، وعرفت الكثير عن الفكر اليسارى بأنواعه المختلفة وقرأت الكثير عن تاريخ مصر وتاريخ العالم ، لكننى لم أصل فى النهاية إلى قناعة عن النظام الأمثل للتطبيق فى مصر.

و ساعدتنى كتابات الناقد المخضرم محمد مندور و أثنان من النقاد الشبان هما رجاء النقاش وفاروق عبد القادر.

لقد ازددت اقتناعاً بأن الاشتراكية نظام مهم خاصة فى البلاد الفقيرة وأن محاولة عبدالناصر فى تطبيق نظام اشتراكى بالرغم من الأخطاء الكبيرة فى الفكرة والتطبيق خطوة على الطريق الصحيح، لكننى كنت متأكداً أن كل كوارث نظام عبدالناصر جاءت من التخلى الكامل عن الديموقراطية فى كافة مراحلها ومستوياتها، وأن كل اللجان والمؤتمرات ومنظمات الاتحاد الاشتراكى وغيرها كانت هيئات واجتماعات صورية لا تعنى شيئا وكلفت مصر أموالاً ومجهوداً لاطائل منه وكانت ديكوراً لمسرحية سيئة عن الديموقراطية فى مصر، وأعتقد أيضاً أن الذى قام بحماية أوربا الغربية من المد الشيوعى فيها هو النظام الاشتراكى الذى كفل الضمان الاجتماعى للعمال والفقراء وحد من شعبية الأحزاب الشيوعية القوية فى بلاد كفرنسا وإيطاليا، وقد أثبت التاريخ بانهيار الاتحاد السوفيتى والنظام الشيوعى فى أوربا الشرقية أن أوربا الغربية كانت أكبر المستفيدين من النظرية الماركسية والحكم الشيوعى، لأنها استطاعت أن تطبق العدالة الاجتماعية وكفالة الدولة للطفل والضعيف والفقير والمعاق والمريض مع وجود نظام ديموقراطى، فكان الإسراع فى تطبيق الضمان الاجتماعى فى أوربا الغربية قبل الحرب العالمية الثانية والتوسع فيه بعدها هو الحاجز الأساسى فى كبح جماح الشيوعية ومدى تقبلها لدى الشعوب فى أوروبا الغربية، ومن الناحية الأخرى لم تستفد الدول الشيوعية من النظام الغربى ولم تطبق نظاماً ديموقراطيا، ربما كان بوسعه أن يحمى الاتحاد السوفيتى من المشاكل والمعوقات التى انتهت بكوارث اقتصادية وسياسية قضت على النظام السياسى وعلى النظام الاشتراكى فيه وفى العالم كله لفترة طويلة من الزمان لا يعلم أحد مداها، وفى وسط تلك الظروف القاسية فى مصر حملت كريستينا طفلنا الأول وكان ميعاد ولادتها فى أكتوبر ١٩٦٨، وقررنا أن

نسافر للسويد وكنت قد عقدت السفر على الذهاب لإنجلترا للعمل حتى أتم إجراءات الهجرة للولايات المتحدة والتى كانت فى طورها النهائى.

وفى تلك الأثناء ارتفع الغليان الشعبى والذى نتجت عنه مظاهرات عارمة فى القاهرة والإسكندرية قام بها طلبة الجامعات، وقد قابل نظام عبدالناصر المظاهرات بعنف بالغ وصل لدرجة أنه قيل إنهم ضربوا الطلبة بالطائرات فى الإسكندرية وساد الشعب كله الحزن والقهر واستمر الغليان ، وقام عبدالناصر سعيا وراء تهدئة الجماهير بإعادة محاكمة قادة الطيران، وقام فى نفس الوقت بإصدار ما سمى ببيان ٣٠ مارس الذى زعم فيه النظام أن الديموقراطية سوف تكون هى طريقة الحكم بعد ذلك، وتم إلقاء البيان وصاحبته ضجة إعلامية وصدق الكثيرون وأنا من بينهم ما جاء فيه إلا أنه ثبت بعد شهور قليلة أن البيان فصل جديد فى مسرحية قديمة ليست لها علاقة بالديموقراطية.

رحلة السويد وإنجلترا و مشروع الهجرة

غادرت القاهرة فى ١٥ يونيو ١٩٦٨ متجهاً للسويد فى أول زيارة لى هناك، وفى نيتى ألا أعود لمصر ثانية، وكانت معى كريستينا حاملا، فى الشهر السادس، وركبنا طائرة مصر للطيران طراز كوميت، وهو نوع إنجليزى قديم وكان خط السير من القاهرة إلى الدنمرك، وقد صادفت الرحلة مطبات هوائية شديدة حتى هبطنا بسلام فى مطار كوبنهاجن وكان فى انتظارنا حموى وحماتى، وركبنا السيارة إلى ميناء قرب كوبنهاجن، حيث عبرنا بالعبارة المضيق الذى يفصل السويد عن الدنمرك ثم اتجهنا شمالاً حوالى مائتى كيلو متر حتى وصلنا إلى القرية التى تعيش فيها العائلة وتسمى ألفستا، وخلال الرحلة كنت مذهولاً من كمية الأراضى الشاسعة غير المزروعة وكمية المياه الضخمة فى البحيرات الهائلة ومن الأمطار المستمرة، وسألت حماى رحمه الله فقال إن مساحة السويد سدس مساحة أوربا وإن معظم الأراضى بها غابات

ما عدا الجنوب حيث الزراعة قد تكون مجزية اقتصاديا، لأن أجور العمال مرتفعة جداً لذا فإن الفلاحين فى السويد يكونون خمسة بالمائة فقط من السكان.

وأخيراً وصلنا إلى ألفستا وكان يسكنون فى فيلا بها حديقة مساحتها نحو فدان قريبة من بحيرة كبيرة، وكانت الفيلا مكونة من دورين بالإضافة إلى حجرتين صغيرتين فى دور ثالث صغير، وكان حموى يعمل طبيباً للأسنان فى عيادة خاصة منذ زمن طويل فى هذه القرية، وبدأت التعرف عن قرب على النظام السويدى فى الحياة الذى تحكمه الاشتراكية الليبرالية حتى يومنا هذا وحتى بعد اتجاه العالم كله لليمين.

المرتبات فى السويد مرتفعة جداً، لكن الضرائب أيضاً مرتفعة جداً، والضرائب تصاعدية تصل إلى أكثر من ثەبمثد على الدخول المرتفعة فى ذلك الوقت ، لكنها الآن انخفضت إلى بن‌بمتد، والملكية فردية أو جماعية فى بعض المنشآت التعاونية، وعدد المليونيرات غير كبير، أما كبار الأغنياء ممن يمتلكون مئات الملايين فهم قلة من العائلات القديمة الغنية، ومستوى المعيشة مرتفع ودخل الفرد فى ذلك الوقت كان يمثل أعلى مستوى معيشة فى العالم، لكنه انخفض الآن بحيث أصبح ترتيب السويد السادس أو السابع على العالم ، لكن جودة ورقى الحياة لهما مواصفات أخرى ، فبجوار مستوى دخل الفرد فإن السويد وكافة الدول الإسكندنافية تحتل قمة الهرم دائماً ، وبخلاف الطبيعة الخلابة والمساحات الشاسعة من الأراضى الخضراء والغابات والبحيرات فإن الإنسان هناك له كل الاحترام والتقدير، فعند الحديث بين أصغر عامل وصاحب أكبر مصنع أو بين رئيس الوزراء ورجل الشارع لا يوجد لفظ حضرتك ولاسعادتك ولا معاليك ولا أفندم، وإنما يخاطب الجميع بعضهم بكلمة أنت وكنت فى أول الأمر أجدها غريبة عندما يتحدث طفل إلى رجل فى عمر جده ويقول له أنت لكننى تعلمت أن هذا أحد مبادىء الديمقراطية، فلا العمر ولا المركز ولا الوظيفة أو

المال تعطيك الحق فى أن تلقب بشيء مختلف. وكانت أولى ملاحظاتى هى أين الناس؟ و أين الشعب؟ فالشوارع خالية، والسوبر ماركت الضخمة بها أفراد قلائل والمصانع بها أعداد قليلة من العمال والآلات تقوم بمعظم العمل؟ فهذه القرية مساحتها أكبر من مدينة متوسطة فى مصر قد يقطنها نصف مليون مواطن، لكن هذه القرية يقطنها خمسة آلاف نسمة فقط.

ولما كانت كريستينا سوف تضع مولودها بعد بضعة أسابيع كان لابد أن تذهب للمستشفى حيث تم تسجيلها والكشف عليها وأخذت كارتا للمتابعة فى مستشفى على أعلى مستوى عالمى فى المدينة التى تبعد ٢٠ كيلو مترا عن ألفستا ولم تدفع شيئاً فى كل الفحوصات والفيتامينات التى أخذتها من صيدلية المستشفى، ولما سألت عن الطبيب الذى سوف يتولى عملية الولادة نظروا إلى باستغراب، وأخبرونى أن الطبيب النوبتجى سوف يكون مسئولا، أما الذى سيقوم بالولادة فهى الحكيمة المدربة على ذلك، وإذا حدثت مصاعب أو مشاكل فالطبيب موجود، ومعظم الحوامل يلدن على أيدى الحكيمات، وعندما فكرت فى الأمر وجدت أن الأمر كله يتعلق بالحافز المادى وليس له علاقة بغنى الدولة أو فقرها، ففى دول أوربا الغربية التى تطبق نظام التأمين الصحى مثل إسكندنافيا وإنجلترا وهولندا وبلجيكا الجميع يتقاضون مرتبات ثابتة ،لذا ليس من اهتمامات الأطباء أن يقوموا بعملية الولادة أما فى البلاد التى يتقاضى الأطباء فيها أجراً على الولادة فلا يهم إن كان البلد غنيا أو فقيراً ، فيقوم الطبيب بإجراء عملية الولاده مثلاً فى الولايات المتحدة وألمانيا ومعظم دول العالم الثالث، وهكذا يظهر بوضوح أهمية الحافز المادى حتى فى مهنة يقول الجميع إنها إنسانية.

وسألت عن بعض التفاصيل من المستشفى، فعلمت أن الولادة والإقامة بالمستشفى ستكون كاملة بدون أجر، وأن النظام أن تنتقل المريضة بعد الولادة إلى معهد تابع للمستشفى للإقامة فيه نحو أسبوع بجوار المستشفى، حيث تأخذ فيه دروسا نظرية

وعملية عن كيفية العناية بالمولود ورضاعته والتدريبات الرياضية، وتتسلم الأم والمولود جميع الملابس والأدوية وحفاضات الأطفال مجاناً، وفوق ذلك تأخذ الأم هدية من الحكومة عبارة عن ألفى كرونا، وهى نحو ثلاثمئة دولار فى ذلك الوقت ثم يأخذ المولود ما يوازى ثلاثين دولاراً شهرياً حتى يصل إلى عمر سبعة عشر عاماً. الجميع يأخذ نفس الخدمة فى نفس المستشفى وفى نفس الحجرة، المليونير الكبير كالعامل البسيط لا فارق إطلاقاً، ولا يستطيع الغنى أن يدفع أكثر ليأخذ حجرة أو خدمه بها تميز أكثر.

وعندما كنت أقارن المرتبات فى السويد بالمرتبات المصرية كنت أصعق من الفارق ، ففى ذلك الوقت كان قد مضى على تخرجى فى كلية الطب ست سنوات وكان مرتبى خمسة وأربعين جنيها، على حين كان الطبيب السويدى فى مثل عمرى يتقاضى عشرة آلاف جنيه يدفع نصفها ضرائب.

وكان نظام التعليم فى السويد أيضاً معجزة فى ارتفاع المستوى مع تطبيق العدالة الاجتماعية فالمدارس التى زرتها فى القرية غاية فى الأناقة والنظام وبها جميع أدوات التعليم الحديثة، بالإضافة إلى الأماكن والأدوات اللازمة للرياضة البدنية وتنشيط المهارات الفنية والهوايات المختلفة، ولا يوجد ما يسمى بالمدارس الخاصة فالجميع فى نفس المدرسة، ولا توجد فروق بين مدارس العاصمة ومدارس المناطق النائية فى أقصى الشمال، فالجميع سواسية وبالطبع لايوجد ما يسمى بالدروس الخصوصية، أما الدخول للجامعات فيحدده المجموع فى الثانوية العامة، لكن كل طالب يستطيع تحسين مجموعه بدراسة مواد أخرى حتى يصل للمجموع الذى يسمح له بدخول الجامعة والكلية التى يرغب فيها، وفى أثناء هذا يعمل الكثيرون على كسب بعض المال الذى يساعدهم على الحياة أثناء الدراسة. والجامعات كلها مجانية مثل المدارس وعند حصول الطالب على الشهادة الثانوية يتوقف صرف الأسرة عليه ويصبح

مستقلاً ، فيأخذ قرضاً من البنك مخصصا للتعليم ليصرف على نفسه خلال التعليم العالى ويشترى كتبه ، وغالباً ما يسكن فى المدينة الجامعية أو فى حجرة فى مدينة أخرى، ويعمل الطالب فى فصل الصيف عاملاً فى أى مكان ويكون ذلك مصدر دخل كبيرا له، لأنه سوف يتقاضى مرتب العامل وهو نحو سبعة آلاف جنيه شهرياً فى ذلك الوقت قبل دفع الضرائب، وهو لن يدفع ضرائب لأن إيراده السنوى سيكون مرتب شهرين فقط، وهو أقل من الحد الأدنى السنوى لدفع الضرائب، ويكون هذا المبلغ فائضاً يساعد الطالب على السفر والترحال، وقد يشترى سيارة قديمة صغيرة، وبعد التخرج يسدد الطالب قروضه للبنك على مدى عشرين عاماً.

وكل المحلات يملكها القطاع الخاص أو القطاع التعاونى ، والمحلات الوحيدة التى تملكها الدولة هى محلات بيع الخمور، والتى تستورد جميع الأنواع من جميع البلاد وتبيعها وتحاول أن تحدد الحد الأقصى للكمية المباعة لبعض الأفراد حفاظاً على الصحة، لكن بالطبع لم يمنع ذلك أى فرد من الحصول على أى كمية عن طريق أصدقائه.

وكان ذلك الصيف حارا نسبياً فى السويد، فكنا نذهب للبحيرة للاستحمام وللغابة للمشى، وكانت هناك ملاعب للتنس مفتوحة ومغطاة وكل ذلك مجاناً. وبعد أسبوع شعرت بالراحة من عناء السنوات الأخيرة فى مصر وهول الأحداث التى مر بها الوطن ، ثم بدأت أفكر فى مصر مرة أخرى، وماذا يحدث فيها، وكنت أحاول أن أستمع إلى الإذاعة البريطانية حيث إن الاذاعات العربية لم يصل إرسالها هناك، وكان التليفزيون السويدى ـ ولا يزال ـ له قناتان فقط ويذيع ست ساعات فقط فى اليوم وباللغة السويدية فقط. وبدأ الحديث فى السياسة وبالطبع عن الشرق الأوسط مع حمى وهو قارىء نهم موسوعى الثقافة ومعرفته بالتاريخ والأدب عميقة، ويتندرون عليه فى القرية بأنه حين يقف فى إشارة المرور الوحيدة بالبلدة لمدة دقائق يكون كتابه

مفتوحا بجواره فى السيارة فينكب على القراءة حتى تفتح الإشارة، وذهلت عندما أحسست من حديثى معه أنه متعاطف مع اليهود ومع دولة إسرائيل، وتحدثت معه ساعات طوالا لمدة أيام متتالية أشرح له وجهة نظرى وبعض حقائق التاريخ، وبالرغم من أنه كان متقبلاً كلامى إلا أننى أعتقد أن هذا كان تأدباً منه ولم يصل إلى قناعة حقيقية إلا بعد نحو أربع سنوات من التفاهم والمراسلة والحديث حتى أصبح نصيراً حقيقياً للقضية الفلسطينية، بل وسفيرا ومدافعاً عنها فى مجتمعه الصغير، ولقد اتضح لى أن المجتمع الأوربى حتى كبار مثقفيه ليسوا على علم كامل بتاريخ وأحداث القضية، وأن كتب التاريخ الحديثة حتى المحترم منها فى معظمه مكتوب من وجهة نظر إسرائيلية، وفى ذلك الوقت كانت كل وسائل الإعلام الأوربية تؤيد وجهة النظر الإسرائيلية والتى تغيرت الآن لأسباب كثيرة والشىء المهم جداً هو وجود عقدة ذنب شديدة جداً عند الأوربيين تجاه اليهود سببها عدم المبالاة وعدم مساعدتهم بما يكفى فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية وفى أثنائها. وبالنسبة للسويد فقد كانت على الحياد رسمياً ولم تدخل أى حرب خلال مائتى عام لكن الشعب كان منقسماً، فالبعض خاصة كبار الرأسماليين قلوبهم مع الألمان، وعامة الشعب المهنيون والمثقفون مع الحلفاء اضطرت الحكومة السويدية تحت ضغط هتلر إلى أن تستمر فى بيع الصلب السويدى الشهير والضرورى للإنتاج الحربى طوال فترة الحرب، وكذلك السماح للقوات الألمانية بالمرور فى شمال السويد عندما بدأت الحرب على النرويج.

وكانت طلائع حرب الاستنزاف فى ، مصر و عندما بدأت كان قلبى وعقلى وروحى فى مصر ، فكنت أسترق الأخبار من أية إذاعة ، وكانت خطتى هى أن أذهب إلى إنجلترا لترتيب عمل مناسب لى أعود إليه بعد أن تضع كريستينا مولودتنا الأولى، وفعلا ذهبت بالباخرة من جوتنبرج فى غرب السويد إلى ميناء صغير فى إنجلترا يسمى إيمنجهام فى شرق إنجلترا، وكان على المركب حوالى ألف شاب وشابة من

السويد فى رحلة لإنجلترا لقضاء الإجازة الصيفية ، وعند نزولنا من المركب وقفنا صفاً طويلاً فى الجوازات، وكان الصف يتحرك بسرعة فائقة، ولم تكن هناك أوربا موحدة فى ذلك الوقت ، لكن لم يكن هناك فيزات بين معظم أوربا الغربية لمواطنيها، فكان موظف الجوازات الإنجليزى يلمح طرف الجواز فى يد صاحبه و دون أن يمسك به يشير له بالمرور، حتى ظهر الباسبورت الأخضر العتيد للجمهورية العربية المتحدة ، وهو اسم مصر فى ذلك الوقت بالرغم من أننا لم نكن متحدين مع بلد آخر آنذاك. وأحسست بأن الرجل أصابه ذعر فأمسك بجواز السفر وفتحه من الناحية اليسرى فلم يجد شيئاً ، وأخذ يقلب فيه حتى وصل إلى غايته، وأخذ يقرأ ويقلب، والطابور واقف خلفى وبدأ التذمر، ولماذا لا يتحرك الصف، وأخيراً طلب منى ضابط الجوازات أن أجلس على كرسى بجانبه لأنه لايستطيع التصرف فى هذا الجواز الغريب، ولما أشرت إلى الصفحة التى بها فيزا المملكة المتحدة قال لى إن موظفى جوازات لندن هم الخبراء بهذه الجوازات، لكن فى هذا الميناء الصغير فإن سفن الركاب الوحيدة تحمل سويديين ودنمركيين فقط ، واتصل تليفونيا برئيسه ليحضر ولينقذه من هذه الورطة غير المتوقعة، وحتى يتصرف المسئول الأكبر فى هذا الباسبورت العجيب وصاحبه، وبعد ٢٠ دقيقة حضر رئيسه الذى أخذ يقلب فى الجواز بخبرة أكثر، وربما كان يعمل فى يوم ما فى مطار أو ميناء أكبر وسألنى عن سفرى لإنجلترا عن هذا الطريق، فحكيت له الحكاية، وقال لى لو كان دخولك من لندن لما كان الأمر يستغرق أكثر من دقيقة واحدة، وأخيراً ختم الباسبورت، وخرجت من الميناء آخر راكب فى المركب، وعند باب الخروج وجدت نفسى على رصيف القطار فى محطة صغيرة تحمل الركاب إلى محطة جريمزى القريبة، وكان القطار قد غادر المحطة بجميع ركاب المركب وسألت عن موعد القطار القادم، فقيل لى لا يوجد ، لأن القطار يحضر لنقل ركاب السفن خصيصاً، ويمكن أخذ الأتوبيس ، وعندما وصلت إلى جريمزى، وجدت أن القطار الذى كان من المفروض أن ينقلنى إلى مدينة مانشستر قد غادر جريمزى

ووجدت قطاراً آخر سوف يتحرك بعد ساعتين أخذته إلى مدينة شفيلد حيث كان على أن أقضى الليلة هناك، لأنه لم تكن هناك قطارات أخرى قبل الصباح، وبصعوبة بالغة وبعد المشى بشنطة سفر مليئة بالملابس وجدت حجرة فى بنسيون نمت فيها من الثانية مساء حتى السادسة صباحاً، لأنه كان على أن ألحق بقطار السابعة والنصف المتجه لمانشستر، ومنها إلى شمال ويلز محطتى الأولى لأقابل أصدقائى المصريين، وأخذت أتقلب على سريرى أفكر فى الباسبورت المصرى الأخضر وما حدث لى فى الطابور وتخلفى عن القطار، وأحسست بأن أول القصيدة كفر، وبالرغم من أننى عوملت بأدب شديد إلا أننى قادم من بلاد الواق الواق الذين هم بالتأكيد جنس آخر يجب معاملتهم بحذر شديد وقد كان ذلك فى زمن الفيزات سهلا ولا يوجد خوف من إرهاب أو غيره ، وقد كانت هذه الحادثة سبباً جوهرياً فى اتخاذى قراراً مبدئيا بتأجيل موضوع الهجرة حتى تتضح الصورة أكثر ، وحتى أتاكد من أننى سوف أتكيف مع المجتمع الجديد وربما أذوب فيه، هل يمكن ذلك، إننى من ناحية المظهر الخارجى قد يعتقد الكثيرون أننى أوربى، ربما من إيطاليا أو اليونان وأنا أجيد الإنجليزية وزوجتى سويدية لكننى فى حقيقة الأمر مصرى حتى النخاع، فها أنا تركت مصر منذ أربعة أسابيع، لكن فكرى وعقلى وروحى هناك. هل إذا تركت مصر نهائياً سوف أقف فى مثل هذا الطابور أو ما شابهه مرات ومرات؟ أعتقد أننى لا أستطيع ذلك ولو كنت ذاهباً للسياحة أو الزيارة لما كنت شعرت بهذا القلق، لأن لكل بلد نظاما أحترمه كزائر، أما أن أذهب للبحث عن وظيفة مناسبة عدة شهور قبل القفز فوق المحيط إلى العالم الجديد فالموقف مختلف تماماً.

وصلت إلى بانجور وهى مدينة صغيرة فى شمال ويلز بها طبيعة جميلة وأهلها ـ مثل شعب ويلز عموماً ـ طيبون، وقابلت أصدقائى من الدفعة رضا الصاوى وكمال زكرى وقمنا ببعض الرحلات السياحية وتحدثنا كثيراً ، وكان كمال فى طريقه

للولايات المتحدة ورضا فى طريقه لكندا، وكان كل الكلام عن مصر ومستقبلها، وحقيقة لم يشجعنى أحدهما على قبول وظيفة فى إنجلترا كانت متاحة فوراً وبسهولة، وتركوا لى تقدير الموقف من الهجرة ،ومن هناك ذهبت إلى لندن وعشت أسبوعاً فى بنسيون صغير فى وسط المدينة، كنت أدفع فيه ٣٠ شلنا تساوى جنيها ونصف جنيه إسترلينى شاملة الإفطار، وكان الجنيه الإنجليزى يساوى أقل من جنيهين مصريين فى ذلك الوقت ، وكان ذلك هو الأسبوع الثقافى الأكبر فى شبابى، حيث طفت بجميع المتاحف والأماكن السياحية ومكثت بها ساعات وساعات، وشاهدت مسرحية لأجاثا كريستى اسمها مصيدة الفأر استمر عرضها أكثر من ربع قرن ، وكان ذلك الأسبوع هو الانبهار الكبير، واشتريت بعض الكتب التى سمحت بها ميزانيتى المحدودة، وفى آخر يوم ذهبت إلى مدينة بورتثموث على الساحل الجنوبى لإنجلترا لزيارة صديقى وزميلى على خليف، الذى كان يعمل طبيباً للتخدير هناك قبل سفره لأمريكا، وكل الأصدقاء يعرفون قصة خروج على من مصر، حيث كان مطلوباً للتجنيد فى ذلك الوقت وكان المهاجرون يعفون من التجنيد وكانت إجراءات الهجرة لأمريكا وأستراليا تأخذ عدة شهور، فذهب للسفارة البرازيلية طالباً الهجرة وأخبروه بأن الأطباء تقبل هجرتهم فوراً، وتتم الإجراءات فى غضون شهر واحد بشرط إتقان اللغة البرتغالية فدفع ٢٠ جنيها إلى معهد برلتيز فى شارع فؤاد (٢٦ يوليو الآن) وأخذ شهادة بأنه يجيد البرتغالية وضمها للورق وانتهت إجراءات الهجرة وأعفى من التجنيد، لكن الجوازات أصرت على أن يشترى تذكرة ذهاباً وإيابا للبرازيل كشرط للسفر، وقد دبر هذا المبلغ بصعوبة بالغة وسافر عن طريق لندن التى توقف فيها واشتغل لمدة عام ثم هاجر للولايات المتحدة.

وعدت بعد إنتهاء زيارتى للدنمرك بالمركب من هاريش بجوار لندن إلى ميناء إيسبرج فى غرب الدنمرك، ومن هناك أخذت القطار للسويد، وعند العودة أعلنت

كريستينا بقرارى غير المتوقع وهو العودة لمصر وعدم قبولى وظيفة فى إنجلترا والتوقف عن السير فى إجراءات الهجرة للولايات المتحدة، ومكثت معها عشرة أيام طفنا فيها بجنوب السويد، وكنت أذهب لمكتبة القرية وأستعير بعض الكتب المكتوبة بالإنجليزية، وكان أروع ما قرأت رواية من أربعة أجزاء فى أربعة كتب للكاتب السويدى فيلا موبرج عن تاريخ عائلة من ثلاثة أجيال هاجرت ضمن مئات الآلاف من الشعب السويدى فى القرن التاسع عشر إلى أمريكا، وكانت العائلة تقطن جنوب السويد وكانت الأحوال الاقتصادية سيئة جداً فى هذه المقاطعة، ووصف الكاتب أهوال الرحلة بالسفن البدائية والحياة القاسية للمهاجرين الأوائل والمخاطر التى تعرضوا لها فى زراعة الأرض ورحلة البحث عن الذهب، والكتاب يحكى القصة حتى الجيل الرابع، وتنتهى الرواية بآخر خطاب كتبته العائلة للسويد قبل أن تفقد جذورها واتصالها تماماً بالوطن الأم. وقد قدمت السينما العالمية هذه الرواية فى فيلم طويل مدته أربع ساعات فى الثمانينات، وبالرغم من الانتاج المهم والقيم لهذا الكاتب إلا أنه لم يحصل أبداً على جائزة نوبل للأدب، لأنه كان دائما يوجه نقداً لاذعا وساخراً للأكاديمية السويدية التى تمنح الجائزة خاصة أعضاء لجنة الآداب، وقد قيل إنه يستحق الجائزة، لكن لهذا السبب لم ينلها.

وعدت للقاهرة وكريستينا لا تزال حاملاً ومعى كتبى وكثير من أشيائى الخاصة التى أخذتها، ظناً بأننى أغادر ربما للأبد. ووصلت إلى مصر وكانت حرب الاستنزاف فى عنفوانها.

وكانت العودة فى وقت من أصعب الأوقات فى تاريخ مصر الحديث، فمنطقة قناة السويس قد فرغت من أهلها الذين هاجروا هجرة إجبارية خارج بيوتهم، وأصبحت الحياة غاية فى الصعوبة فى موطنهم الجديد، حيث سكنوا فى المدارس والمستشفيات والمصايف وتدهورت الأحوال الاقتصادية إلى أقصى حد، وبدأت البنية التحتية للدولة

تتفسخ، وأصبحت معظم التليفونات معطلة، وقائمة الانتظار قد تطول إلى خمسة عشر عاماً لتحصل على خط تليفونى، ناهيك عن مشاكل الكهرباء والمجارى، وكان الجميع صامتا، لأنه لا يعلو شيء فوق صوت المعركة، وشاهدنا بأعيننا أقاربنا ومعارفنا، ومن ضمنهم محسن أخى الأصغر الذى جند فى القوات المسلحة لمدة سبع سنوات كاملة، وأصبح الجيش يعتمد على المتعلمين أساساً، وسمعنا أن التدريبات تدور بجدية شديدة وأن الفوضى السابقة فى الجيش قد انتهى أمرها.

وتوقفت النكات ، لكن حل محلها إحساس كامل بالضياع، أثناء بناء الجيش من جديد كان الناس لا يصدقون جدية الحكومة وكان الإحساس بالضياع عارماً، وفى تلك الفترة تعلمت لعب البريدج و أصبحت عضواً فى فريق النادى الأهلى، وهى لعبة مسلية تحتاج لتفكير و تركيز ، لكنها تستهلك أوقاتاً طويلة. وكان ذلك جزءاً من عمليه الضياع التى تعرضت لها.

وقررت أنه لابد أن أستجمع قواى وتركيزى للتحضير لامتحان الدكتوراه الذى يجب على أن أجتازه وفعلاً أخذت الاستعداد لمدة عام بالمذاكرة ساعات طويلة طوال كل يوم حتى حصلت على الدكتوراه فى نوفمبر ١٩٦٩ ، وكان عمرى تسعة وعشرين عاماً، وأثناء المذاكرة جاءت الأنباء من السويد أن كريستينا وضعت بنتاً سميناها هنا ، وهو اسم يصلح للسويد ، فجدة كريستينا اسمها هنا وفى مصر الاسم موجود ومعروف، وعادت كريستينا إلى مصر مع المولودة الصغيرة. انتقلنا فى ذلك الوقت إلى شقة صغيرة مفروشة فى الزمالك إيجارها ٥٥ جنيها وكان هذا مبلغاً كبيراً، حتى استطعنا أن ندبر مبلغ خمسمائة جنيه مقدم إيجار لشقة فى مدينة الأوقاف بين الدقى والعجوزة، عشنا فيها مدة طويلة بعد ذلك، وكان العمل فى القصر العينى يأخذ معظم الصباح بين التدريس للطلبة والعمليات ثم بدأ بعض الطلبة يتصلون بى لإعطائهم دروساً خصوصية. والدروس الخصوصية فى القصر العينى ليست وليدة اليوم لكنها

قديمة جداً منذ أوائل القرن وكانت دائماً موجودة، لكنها كانت مختلفة عن هذه الأيام، فكان عدد مجموعة الطلبة للدرس لا يزيد على خمسة طلبة، ويدفع الطالب أربعين جنيها، ويستمر الدرس ستة شهور بمعدل حصتين فى الأسبوع ، كل واحدة مدتها ساعتان وكانت مواعيد الدروس فى الظهر وفى المساء، ولم يكن لمن يعطى دروساً خصوصية أى علاقة من قريب أو بعيد بأعمال الامتحان. وكان عدد الطلبة الذى يأخذون دروساً خصوصية لا يزيد على عشرة بالمائة من الطلبة، وكان معظم المتفوقين لا يأخذون دروساً خصوصية، لأن التدريس بالكلية كان عظيماً وكان جميع المدرسين حتى الذين يعطون دروساً خصوصية يبذلون أقصى جهد للتدريس بالكلية، وكان هناك تنافس شديد بين المدرسين فى تحضير الدروس وإضافة الجديد، لأن الدرس كان يعطى فى ستة أماكن مختلفة فى نفس الوقت، وكان الطلبة يقبلون على المدرسين الممتازين ، وكان ذلك مشابهاً لما كان يفعله أساتذة الأزهر الذين كانوا يدرسون فى نفس الوقت، كل حول أحد أعمدة المسجد، وكانوا يتنافسون فى جذب الطلاب. وكان القصر العينى مفتوحاً لطلبة الأزهر وبعض الجامعات الإقليمية التى كانت فى بداياتها فكانوا يحضرون الدروس فى القصر العينى. وقد أعطيت بعض الدروس الخصوصية لمدة عامين حتى سافرت مرة أخرى للخارج فى بعثة للدنمرك وعدت لأعمل فى عيادتى.

وتختلف الدروس الخاصة فى هذه الأيام عن سابق عهدها فى عدة أمور أولها أن مجموعة الطلبة أصبحت عشرين أو ثلاثين أو أكثر، أى نفس العدد الذى يحضر الدرس فى الكلية، وأصبحت الدروس تعطى صباحاً فى مواعيد التدريس بالكلية، لذا تكاد قاعات القصر العينى تخلو من الطلبة ويقال إنه فى بعض الأقسام يوجد من يقوم بإعطاء الدروس الخصوصية وله علاقة بالامتحانات، وأصبح التدريس الخاص الآن مهنة يتفرغ لها البعض ويكاد أن يستمر فى مزاولتها طول العمر.

نأتى هنا إلى نظام التدريس والامتحانات بكلية الطب. وحتى سنوات قلائل كان التدريس فى كلية الطب مستواه معقولا جداً، وكانت نسبة الحضور مرتفعة، وكانت المدرجات مليئة بالطلبة، وكان التدريس الإكلينكى معقولاً، ومستوى الكتب التى يذاكر فيها الطلبة معقولاً، نعم أصبحت الكتب والمراجع العالمية نادرة وغير معروفة للطالب، لكن الأساتذة المصريين ألفوا كتباً ومذكرات مستواها ممتاز من ناحية المعلومات، إلا أنها مكتوبة بطريقة مذكرات الدروس فى المدارس الثانوية، والتى تعود الطالب أن يحفظها عن ظهر قلب ، أما التفكير ومحاولة الوصول للحلول وتعلم كتابة البحوث وطرقها فهى غير موجودة للأسف على مستوى الطلبة وأيضاً على مستوى الكثير من أعضاء هيئة التدريس الذين فقدوا الطموح العلمى والتفوق فى المعرفة أو البحث، وهى الأدوات الحقيقية لأستاذ الجامعة وأصبح العمل الروتينى هو الشغل الشاغل لأستاذ الجامعة.

وخلال السنوات التى تلت النكسة بدأ التفسخ فى نظام التدريس والعمل والالتزام فى القصر العينى. أصبح أمراً عادياً أن يتخلف المدرس عن درسه للطلبة، على حين كان هذا أمراً غير وارد ولا يمكن حدوثه فى الخمسينات أو الستينات، وازداد الأمر فى السبعينات، ولولا وجود عميد قوى مثل هاشم فؤاد له احترام ويد نظيفة وسمعة طيبة واتخذ من القصر العينى قضية شخصية له لحدث الانهيار فوراً، لكنه حافظ على الهيكل العام ونظام العمل حتى الثمانينات ثم حدث الانهيار الكبير ، وفى القاهرة رزقنا بابنتنا الثانية منى فى فبراير ١٩٧١ .

بعثة الدنمرك

بعد أن عينت مدرساً لأمراض النساء فى نهاية ١٩٦٩ أحسست بالضياع، فها أنا أعمل مدرساً فى كبرى الجامعات المصرية وفى كلية الطب العريقة، وأشعر أن المستقبل محاط بالشكوك على المستوى الشخصى وعلى مستوى الوطن، ولا أدرى

ماذا أفعل هل أحاول فتح عيادة لممارسة المهنة ؟ وأنا أفكر فى ذلك استدعتنى إحدى الممرضات لمقابلة الدكتور فياض، وكان أستاذا مساعداً بالقسم، وذهبت اليه فتحدث معى وأخبرنى بأن عمله الخاص قد ازداد وتوسع، وأنه لا يمكن أن يقوم بالعمل إلا فى وجود طبيب مساعد له، وهو النظام الذى أصبح روتينياً بعد ذلك مع كل الاطباء. واختارنى للقيام بهذا العمل.

وأخبرنى بأننى لن أتقاضى مرتباً، وإنما خمسة جنيهات عن كل حالة أساعده فيها قد تستغرق ساعة أو ساعتين أو تكون ولادة أجلس بجوارها خمس عشرة ساعة أو ربما طوال الليل ، وكنت سعيداً جداً بهذا العرض الذى أتاح لى فرصة دخل إضافى قد يصل من مائة إلى مائة وخمسين جنيها شهرياً، وقد كان مبلغاً كبيراً يمثل أكثر من ضعف مرتبى الحكومى، ولقد كانت الساعات الطوال التى أقضيها فى حجرة الأطباء لا أعمل فيها شيئاً إلا الاطمئنان على المريض كل ساعة فرصة كبيرة لقراءات واسعة فى مختلف فروع المعرفة والطب.

وكنت أقوم بعملى فى القصر العينى كمدرس وأحببت وظيفة التدريس، وحاولت أن أتقنها وأنمى قدراتى فيها، فكنت أقوم بتحضير محاضرات الطلبة بعناية وجدية وقرأت فى طرق التدريس الحديثة، وحاولت أن أطبق الممكن منها، وبدأ الطلبة من جميع الأقسام يحضرون دروسى الإكلينيكية، وطلب منى اتحاد الطلاب أن أعطى محاضرة إضافية فوافقت على ذلك، وكانت محاضرة مفتوحة للجميع ألقيها مرتين أسبوعيا فى الفترة بين انتهاء الدروس الإكلينيكية صباحاً والمحاضرات العامة ظهراً، ولاقت هذه المحاضرات نجاحاً كبيراً بحيث أصبح يحضرها طلبة من الكليات الأخرى واستمرت سنوات طويلة حتى عام ١٩٧٧ .

وقد قامت هذه المحاضرات بتنمية العلاقات الخاصة بينى وبين الطلاب من جميع الفئات والطبقات والأفكار، وكانت مصر تموج فى تلك الفترة بتيار أساسى هو التيار

الاشتراكى بجميع روافده، وكان من بين هذا التيار أعداد كبيرة من الطلبة الوطنيين لهم كثير من المواهب الحقيقية فى الفن والتمثيل والرسم والكتابة والشعر، وأصبح الكثير منهم من الأسماء البارزة بعد ذلك، وطلب منى الطلاب تكوين أسرة جامعية وكان نظام الأسر الجامعية منتشراً فى ذلك الوقت، وفعلاً بمجهود الطلاب تكونت الأسرة التى قامت بعدة نشاطات فنية وترفيهية وعدة رحلات إلى أسوان والغردقة ومرسى مطروح، وكانت الاشتراكات والمساعدات الجامعية تجعل هذه الرحلات فى متناول الجميع، وخلال تلك الفترة توثقت الروابط بينى وبين مجموعة من أجمل وأرق شباب مصر، ومن بينهم كانت مجموعة ضمن القيادات التى قادت المظاهرات الطلابية ضد نظام أنور السادات فى أوائل السبعينات وحتى حرب ١٩٧٣، ظناً منهم أنه لن يحارب وإنما يقوم بخداع الشعب. وقد استمرت علاقاتى الوثيقة مع هذه المجموعة من الطلبة ، وكان ذلك سبباً فى توتر العلاقات بينى وبين إدارة الجامعة بعد أن عدت من الخارج عام ١٩٧٢، وكانت الجامعة مشتعلة فى ذلك الوقت، وحين أعدت اتصالى بالطلبة الذى انقطع أثناء سفرى اعتبرت الجامعة أننى متعاطف مع الطلبة المشاغبين، وقد كان ذلك صحيحاً، لكننى لا أعتقد أبداً أنهم كانوا طلبة مشاغبين، بل كانوا طلبة وطنيين غيورين على الوطن لكن الدولة لم تستطع أن تحتويهم وتوظف طاقتهم الثورية لصالح الأمة، بل على العكس من ذلك قامت بقمعهم قمعاً شديداً وسجنهم وهم لم يفعلوا شيئاً سوى المطالبة بإجلاء المحتلين سلماً أو حرباً.
وكنت أخشى أن أدور فى حلقة مفرغة بالنسبة لمستقبلى العلمى ، لذا سعيت للسفر إلى الخارج وعلمت من الجامعة أنه نظراً لضيق ذات اليد فقد ألغيت كل البعثات الخارجية على نفقة الجامعة، وأقصى ما يمكننى عمله هو أن أبحث عن مهمة علمية باتصالاتى الشخصية وتصرف لى الجامعة مرتبى فى الداخل خلال فترة سفرى، وقد علمت أن مؤسسة دانيدا وهى مؤسسة تابعة للخارجية الدنمركية تقدم منحاً للدراسات العليا فى الدول النامية فتقدمت لإحدى المنح وأخذت خطاب تزكية من أساتذتى صادق فودة

وإبراهيم كمال وعبدالفتاح يوسف، وفعلاً حصلت على المنحة، وكانت البعثات تدفع تذكرتى الذهاب والإياب ، وسافرت إلى كوبنهاجن ، وقد سبقتنى عائلتى إلى جنوب السويد حيث أقاما مع العائلة، وعند وصولى إلى كوبنهاجن كانت مؤسسة دانيدا قد حجزت لى حجرة لمدة ثلاث ليال فى بنسيون صغير بالقرب من الجامعة، وفى الصباح ذهبت لمقابلة المسؤولين فى المؤسسة، فوجدت جميع أوراقى جاهزة وتم شرح حقوقى وواجباتى وأعطونى أوراقاً بالإنجليزية بها كل المعلومات المطلوبة وخطاباً وموعداً مع رئيسة القسم الذى سوف ألتحق به فى المستشفى، وكذلك عدة عناوين بجوار الجامعة لزيارتها واختيار المناسب لسكنى، وكلها عبارة عن حجرة مؤجرة مفروشة داخل شقة، ثم أعطتنى مبلغاً يساوى مرتب شهر كمنحة لمساعدتى على السكن وشراء بعض الضروريات وذلك بالإضافة إلى مرتب أول شهر ، ونصحتنى بأن أفتح حساباً فى البريد، وسوف ترسل أول كل شهر مرتبى عليه، وقد زرت الأماكن المرشحة للسكن واخترت السكن مع سيدة عمرها تعدى السبعين تسكن بمفردها وتؤجر إحدى الغرف وبها سرير ومكتب، أما الحمام فهو للشقة كلها، ويوجد تليفون فى الصالة عليه حصالة يمكن أن تتكلم منه بعد دفع العملات المعدنية المطلوبة، وهو يماثل التليفونات الموجودة فى الشوارع، أما المطبخ فيمكننى استعماله لعمل شاى أو قهوة أو سلق البيض أو تسخين الخبز، أما استخدام الزبدة أو الزيت لقلى أو طبخ أى نوع من الطعام فهو ممنوع، وامتثلت للقواعد والنظام، وأخبرتنى صاحبة الشقة بأننى ربما لن أراها لمدة طويلة لأنها تسكن شقة أخرى تعيش فيها مع صديقها الشاب الذى تعدى أيضاً السبعين ، وطلبت منى أن أترك مظروفا به الايجار أول كل شهر بجوار التليفون ، ولم أر هذه السيدة الا مرتين فقط بعد ذلك، الأولى حين حضر صديقى د. فؤاد عبدالستار من إنجلترا لزيارتى فاتصلت بها آخذ الإذن بأن يقيم معى، فوافقت وبالطبع كان على أن أدفع مقابلاً لذلك بالرغم من أنه سوف يقيم فى نفس الغرفة، وأثناء

المقابلة سألتها بأننى لا أراها أبداً فأخبرتنى بأنها تركب مع صديقها كل يوم إحدى السفن التى تعبر الخليج بين الدنمرك والسويد ، وتستغرق الرحلة ساعتين وتستمر ذهاباً وإياباً على المركب عدة مرات طوال اليوم ثم تذهب للنوم مع صديقها، وأثناء الرحلة يتناولان المشروبات الروحية بأسعار السوق الحرة بدون الضرائب ويدفعون نصف ثمن تذكرة المركب لأنهما تعديا الخامسة والستين من العمر.

وكان العمل بالمستشفى فى كوبنهاجن رائعاً والنظام جميلا ، والملاحظة الأولى أن ساعات التعليم والتدريب للجميع تشكل خمسين بالمائة من الوقت، فكل يوم يشمل اجتماعا علميا ومحاضرة ثم قراءة فى آخر التطورات فى المجلات الطبية ويشترك الجميع بحماس شديد ولا يستطيع أى طبيب مهما كان كسولاً إلا أن يتابع الجديد ويتعلم ويناقش فلا يترك الأمر -كما هو عندنا وحتى يومنا هذا- للمزاج الشخصى للطبيب ومدى اهتمامه ، ونحن نعلم أن هناك أساتذة للطب فى مصر يماثلون إن لم يفوقوا زملاءهم من الخارج، لكن أيضاً نعلم أن هناك أعداداً ضخمة من الأساتذة توقفت معلوماتهم تماماً بعد امتحان الدكتوراه فلم يقرأوا أو يسمعوا شيئاً بعد ذلك، وهذا النوع من الأساتذة لا وجود له فى أى جامعة فى العالم المتقدم، لأن عضو هيئة التدريس الذى لا يقدم أبحاثاً متميزة يفقد وظيفته فى الجامعة. وكنت أتناول غذائى فى كافتيريا المستشفى بسعر مخفض معقول ، لذا لم أكن فى حاجة حقيقية للطبيخ الذى لم أكن أجيده على أية حال.

وفى وسط مدينة كوبنهاجن وفى أرقى شوارعها وأجمل مبانيها يوجد دور كامل تابع لوزارة الخارجية الدنمركية، وهو مقر لنادى طلبة الدراسات العليا والمبعوثين إلى الدنمرك والعضوية فيه مجانية بكارنيه يسلم لنا، وبه مطعم و بار والأسعار بسيطة ، وبه قاعة محاضرات وسينما، وبه عضوية لعدد من الدارسين الدنمركيين حتى يتم اللقاء فيه بين الأجانب والدنمركيين ، وفى هذا النادى التقيت بعدد من المبعوثين

المصريين ، معظمهم فى مجال الزراعة والإنتاج الحيوانى موفدين من وزارة الزراعة والمركز القومى للبحوث وكلية الزراعة.

وبالرغم من أن سفرى للدنمرك كان فى فترة صعبة من تاريخ مصر، لكن فكر وعقل وروح كل المصريين الذين قابلتهم هناك كانت متعلقا بالوطن، ولم تكن تكنولوجيا الأقمار الصناعية لنقل الأخبار فى التليفزيون قد وجدت، وكان سماع راديو القاهرة شبه مستحيل بأجهزة الراديو العادية، وكانت الأخبار المهمة عن مصر فقط هى التى نسمع عنها، وذلك بالإضافة إلى الضرب الإسرائيلى الأهوج للمصريين والذى كان يتم أثناء حرب الاستنزاف، إلا أن الخبر الذى اهتم به الأطباء جميعاً بالمستشفى واستقبلونى بحزن وأسى يعزوننى فيه فقد كان يوم الحريق الذى دمر دار الأوبرا المصرية العظيمة بالكامل، وتصدر هذا الخبر بالصور صدر الصفحات الأولى فى جميع الصحف ونشرات الأخبار واعتبروا أن حريق هذه الدار كارثة ثقافية للعالم كله.

أما أخبار مصر العادية فكنت أستقيها من جريدة الأهرام التى كنت أطالعها متأخرة أسبوعاً من المكتبة العامة فى كوبنهاجن، وكانت هذه المكتبة كنزا عظيماً، وبسهولة بالغة و دون دفع أى مبلغ من المال أصبحت عضواً فى المكتبة بواسطة البطاقة الشخصية التى حصلت عليها من الخارجية الدنمركية ، وأصبح لى حق استعارة أربعة كتب بحد أقصى فى كل زيارة لمدة شهر، وكانت تلك الفترة هى بداية اهتمامى بمصر الفرعونية، وفى هذه المكتبة قرأت الكثير عن تاريخ مصر القديم الذى كانت معلوماتى عنه تتعدى بقليل ما درس لنا فى المدارس وما عرفته فى بعض الرحلات القصيرة للأماكن الأثرية. ففتنت بهذا التاريخ الجميل الرائع ومازلت حتى هذه اللحظة مهتما به ومتابعاً لاكتشافاته ،وكنت أيضاً أستعير ما كتب عن مصر سواء سياسياً أو تاريخياً أو جغرافياً وأذكر كتاباً عنوانه مصر مجتمع عسكرى استعرته وقرأته

بالإنجليزية مترجماً من الفرنسية للدكتور أنور عبدالملك، وقد انبهرت بهذا الكتاب وطريقة السرد والكم الهائل من المعلومات التى لم أكن أعرف عنها شيئاً فى أحداث عاصرتها، وقد تأكدت بعد قراءة هذا الكتاب أولا من حجم المأساة التى نعيشها فى مصر، وثانيا من قدرة النظام الهائلة على منع هذه المعلومات من الوصول إلى الشعب، بل وإلى الكثير من المثقفين المصريين، فلم تكن هناك أقمار صناعية ولا صحف أجنبية، وكانت معظم المحطات الأجنبية مشوشا عليه، وأعتقد أن ثورة الاتصالات فى العالم كانت شيئا عظيماً فلم يعد هناك سر الآن فالإذاعات ومحطات التليفزيون الأجنبية تعلن فى التو والساعة آخر الأخبار وأدق التفاصيل، وبنظرة على شبكة الإنترنت يمكنك أن تعرف كل المعلومات من مختلف وجهات النظر.

وقد تعرفنا على الجالية المصرية فى الدنمارك، وكانت فى معظمها عمالا مصريين مهرة كانوا يعملون فى شركة قناة السويس ومتخصصين فى إصلاح وتجهيز السفن واللحام تحت الماء، وقد سافروا للدنمرك بعد إغلاق قناة السويس عام ١٩٦٧ ثم دعوا أقاربهم الذين حضروا للعمل فى المطاعم والمقاهى، وكان الحصول على فيزا للعمال المصريين البسطاء يعتبر سهلاً، وكان المستوى الثقافى لهؤلاء العمال بسيطاً، لكنهم كانوا كما يقولون أولاد بلد وشطار نجحوا فى العمل وتزوج الكثير منهم فتيات دنمركيات بسيطات.

وكان لهذه الجالية مشاكل كبيرة جداً مع السفارة المصرية فمعظمهم خرج من مصر بفيزا خروج للزيارة، وبعد أن استقر بهم الحال انتهت مدة جوازات السفر ورفضت السفارة تجديدها ، بل ومنعتهم من دخول السفارة وعاملتهم بقسوة شديدة، وفور وصولى وقعت حادثة كبرى بين المصريين وبين السفارة، فقد كان السفير المصرى ضابطا سابقا بالجيش، وكان مديراً للسجن الحربى وشارك فى إذلال وتعذيب الكثير من المعتقلين السياسيين قبل النكسة وأبعد بعدها إلى وزارة الخارجية، وعندما

عين سفيراً لمصر فى كوبنهاجن صحب معه صولا من الجيش يبدو أنه كان مساعده فى عمليه التعذيب، وجعله المتصرف الأساسى فأصبح هو كل شيء فى السفارة، ولم يعد للدبلوماسيين المصريين بالسفارة أية صفة، وكان هذا الصول يمنع المصريين من الدخول للسفارة، وينعتهم بأقبح الألفاظ ويحاول حتى الاعتداء عليهم بالضرب، وبعد أن فاض الكيل بمجموعة من هؤلاء العمال انتظروا السفير والصول المرافق له فى أكبر ميدان فى كوبنهاجن وهو ميدان البلدية -وتحتل السفارة المصرية شقتين فى إحدى العمارات الكائنة به- أثناء نزوله من السفارة متجهاً لسيارته وانقضوا عليه وعلى الصول وأوسعوهما ضرباً وأحدثوا بهما إصابات وانطلقوا هاربين ،وكانت فضيحة كبرى نشرت فى صدر الصحف الدنمركية وخاضت الصحف فى تاريخ السفير المشرف!! والذى لم يعرف عنه شيء قبل ذلك فى الدنمرك ونشرت الصحف الكثير عن طريقة معاملة السفارة للمصريين.

وعلى أثر ذلك قررت القاهرة استدعاء سفيرها من كوبنهاجن واستبدلت به سفيرا دبلوماسيا وبتعليمات واضحة من الخارجية المصرية لإرضاء المصريين وتلبية مطالبهم، وفعلاً أقام السفير الجديد حفل شاى كبيرا فى حديقة منزله، وهو عبارة عن فيلا أنيقة ذات حديقة واسعة فى إحدى ضواحى كوبنهاجن، وقد تلقيت دعوة مع بقية المصريين المقيمين فى الدنمرك، وخطب السفير قائلاً إنه يريد أن يفتح صفحة جديدة وإن مكتبه مفتوح لكل المصرين، وفعلاً جددت جميع الجوازات وتغيرت المعاملة تماماً، وكانت المفاجأة الكبرى أن هذا السفير المنقول لم يحل إلى المعاش أو يبق فى القاهرة وإنما تم نقله إلى مدريد سفيراً لمصر هناك.

وكان من ضمن نشاطات النادى الاجتماعى للخارجية إقامة ندوات ثقافية ، وكانت الدعاية الصهيونية كالعادة فى أعتى صورها وقوتها، فقررنا نحن المصريين- وعددهم نحو عشرة كلهم يدرسون الزراعة ماعدا أنا- إقامة ليلة مصرية فى النادى

وضعنا لها برنامجاً ثقافيا وسياسيا، ونظراً لأننى كنت أكثر المبعوثين المصريين دراية باللغة الإنجليزية فقد قرروا اختيارى لإلقاء الكلمة الثقافية والسياسية ، ولعدة أسابيع كنت أفكر فى هذه الكلمة فسوف اتكلم فى مكان تفتح فيه المناقشة والتعليق للجميع، وأعلم أنه ليس هناك سقف لنوعية وطريقة المناقشة وتواجد اليهود الدنمركيين من الطلبة المقاطعين مع إسرائيل وكذلك الطلبة الاسرائيليين أمر محتم حدوثه.

واحتاج الجزء التاريخى والثقافى مجهوداً لصياغته فى وقت محدود ، أما ما يتعلق بالقضية الفلسطينية والصراع العربى الإسرائيلى فالجزء التاريخى لجذور القضية كان سهلاً، أما كيفية معالجتنا للصراع وأسباب الهزيمة وقضية الديموقراطية المعدومة فى بلادنا فكانت مشكلة، فالوضع صعب وأنت لا تريد أن تقول كل ما فى قلبك وعقلك، لأننا لم نأت هنا لنتهم الحكومة المصرية بالدكتاتورية والغباء والفساد وهى التى خسرت الحرب ودمرت الاقتصاد فى لحظات، وفى نفس الوقت لا أستطيع أن أقول إن حكومتنا عظيمة وشاطرة وديموقراطية ولايمكن أن أقول هذه الكذبة الكبيرة ولو قلت شيئاً مشابهاً فسوف أبدو بالمظهر الغبى الفاضح المماثل للمتحدث الرسمى المصرى عند حدوث الأزمات، ولقد وجدت فى أحد الكتب فى مكتبة الدنمرك حواراً تم -فى نيويورك- بين أحد كبار الصهاينة وبين أحد الفلسطينيين الذى لا أذكر اسمه الآن وقد اجاب فيه على جميع الأسئلة التى من الممكن أن تكون محرجة أو صعبا الإجابة عليها بالنسبة للجانب العربى. وكان ذلك الحوار مفيداً للغاية وأعطانى ثقة شديدة فى قدرتى على المواجهة العلنية.

وقامت الدكتورة عقيلة صالح الأستاذة بمعهد البحوث الزراعية مع اثنتين من زميلاتها بطبخ العدس والطعمية والفول والبيض ومأكولات مصرية أخرى، واتفقنا مع محل بيع عاديات خان الخليلى فى كوبنهاجن عل عرض بعض المنتجات المصرية التقليدية ، وقام بالعزف على العود أحد المصريين ، ودعونا السفير المصرى وأعضاء

السفارة وحضر مندوب منهم، وكانت الليلة ناجحة حتى المناقشات كانت حامية فيما يخص الأوضاع السياسية ، واستطاعت المجموعة المصرية أن تقدم آراء معقولة ومنطقية.

وفى ذلك الحين كنت أتلقى خطاباً من والدى كل أسبوع يحكى فيه عن أخبار العائلة وأخبار مصر وكنت أرسل خطاباً له أيضاً كل أسبوع، ولم تكن الاتصالات التليفونية سهلة في ذلك الوقت، وكانت أسعارها بالنسبة للدخل المتاح كبيرة ، لذا لم نكن نستخدمها إلا فى القليل النادر، وفى أحد الأيام عندما كنت أستعد للخروج للعمل فى السابعة والنصف صباحاً وجدت طرقاً على باب الشقة ففتحت لأجد البوسطجى الذى سلمنى خطاباً بعد أن تعرف على شخصيتى ووقعت باستلام الخطاب، ومضيت مسرعاً للمستشفى وحينما كنت فى الأتوبيس تذكرت الخطاب الذى وضعته فى جيب البالطو ففتحته وقرأته ووجدت السلامات المعتادة من الأهل والأخبار الروتينية عن العائلة، وفجأة تذكرت أننى وقعت باستلام هذا الخطاب، وهذه أول مرة يحدث فيها ذلك، تصلنى الخطابات بصفة مستمرة وأجدها فى صندوق البريد على باب الشقة، فأخرجت الخطاب مرة أخرى وأخذت أتصفحه، ونظرت للظرف الخارجى فوجدت اسمى مكتوباً وأمامه كوبنهاجن- الدنمرك فلا اسم شارع ولا حى ولا رقم بريد ولا شيء، لقد سهى على والدى أن يكتب تفاصيل العنوان، لكن ها هو الخطاب يصل وفى نفس ميعاده الأسبوعى ، وأخذت أفكر كيف عثروا على عنوانى وأنا أسكن فى حجرة مفروشة فى شقة فى أحد أحياء كوبنهاجن، وأثناء فترة تناول الغداء فى المستشفى اقتربت من سكرتيرة القسم وهى موظفة مسؤولة عن جميع الأعمال الإدارية وأخبرتها بموضوع الخطاب وعبرت عن دهشتى فى كيفية العثور على عنوانى، بالإضافة لهذا الاهتمام الفائق بالبحث عن صاحب هذا الخطاب وتوصيله له فى الميعاد والتأكد من وصوله، وذلك بطلب توقيعى على الاستلام فأجابتنى هل أنت مهتم لهذه الدرجة

بموضوع الخطاب؟ فأجبت بالإيجاب فذهبنا إلى مكتبها واتصلت بمصلحة البريد للاستعلام عن هذه الواقعة فأعطوها رقماً للسؤال عن البريد المفقود أو الذى يحمل عناوين غير مضبوطة أو غير دقيقة وكانت الإجابة فى غاية البساطة، وهى أن هذا اسم غريب وأجنبى ويوجد سجل بمكان إقامة جميع الاجانب وبسهولة بالغة فى عصر ما قبل الكومبيوتر وجدوا عنوانى وأرسلوا لى الخطاب على أنه مسجل بعلم الوصول للتأكد من وصوله لصاحبه. حقاً كانت تجربة مذهلة توضح الاهتمام الشديد بحقوق المواطن حتى لو لم يكن من أهل البلد. وتذكرت قصة بسيطة حدثت لى بالفعل فقد كنت فى العام الماضى (صيف ٢٠٠١) أبحث عن كتاب للشيخ محمد عبده طلبه منى صديقى نصر أبو زيد لأحمله معى أثناء زيارتى القادمة له فى هولندا، ولما كان البائع يعرفنى شخصيا سألنى لماذا تشترى نسختين من هذا الكتاب؟ فقلت له إن نصر أبو زيد طلبه منى فقررت أن أشترى نسخة أخرى لنفسى لتصورى أنه لابد أن يكون كتاباً مهما وتقدم منى مواطن بسيط الحال كنت أراه يتجول بين رفوف الكتب، وسألنى هل معك عنوان نصر فإننى أريد أن أراسله فأعطيته العنوان، وطلبت منه عنوانه لأن نصر ربما يريد أن يكتب له، وكان العنوان فى بولاق الدكرور بجوار ترعة زنين، ولما كان العنوان غير واضح فى تقديرى طلبت منه تفصيلات أكثر، كأن يكتب بجوار كذا أو أمام كذا حيث إن المنازل هناك بدون أرقام ويبدو أن كثيرا من الشوارع أيضاً بدون أسماء. وبعد أن عدت من زيارتى لنصر أبو زيد كتبت لهذا المصرى الجميل الذى يقضى وقته فى المكتبات يقرأ شيئاً أو يحاول أن يشترى شيئاً تسمح به ميزانيته الضعيفة، وحرصاً على وصول الخطاب أرسلته مسجلا بعلم الوصول وعاد لى الخطاب لعدم الاستدلال على العنوان والشخص المرسل إليه ، فتحسرت على أن هذا المصرى المثقف ليس له عنوان يمكن الاستدلال عليه، وتعجبت من قدرة الحكومة فى الوصول إليه بسهولة لأخذ غرامة منه أو للقبض عليه فى تهمة غامضة المعالم على حين لا يصل إليه خطاب مسجل. بعد مدة طلبت منى الأستاذة سناء البيسى رئيسة تحرير

مجلة نصف الدنيا أن أكتب لها موضوعاً طريفاً بالصفحة الأخيرة فكتبت حكاية هذا الخطاب، والتي من ناحية قد تبدو طريفة، لكنها في الحقيقة مبكية على حالنا والمهانة التي وصل إليها الإنسان المصرى الذى أصبح فعلاً بدون عنوان ، وفوجئت بعد أسبوع من نشر الحكاية بأن بوسطجى الحي يحضر مع رئيسه لمقابلتى بالعيادة ويقول لى إنهم (سوف يروحوا فى ستين داهية) فاستغربت لهذا، فأخبرنى بأن ما نشر فى نصف الدنيا قد وصل إلى رئيس هيئة البريد ووزير المواصلات وطلبا التحقيق فى الموضوع، وتقدما برجاء بأن أسحب الشكوى وأفهمتهما أننى لم أتقدم أصلاً بشكوى ، وكل الحكاية هي مقالة اعتقدت أنها تجمع بين الطرافة والتهكم على ما آلت إليه أحوال الفقراء في بلدنا بسبب التصرفات السيئة للحكومات المتعاقبة، وسألته ولماذا لم يصل الخطاب ؟ فقال إن هذه المنطقة (يابيه هى الصين الشعبية، لا يمكن الوصول لأحد فيها إلا بالمصادفة ، وعموماً هات الجواب وسوف أبذل جهداً خاصاً لتوصيله وسوف أحضر صاحبه لك علشان تنبسط) . وأخبرته بأننى لا أريد أن أشحطط هذا الإنسان الجميل ، وكل ما كان بالخطاب هو جملة تشجيع له . وبعد أن شرح لى أنه معرض لخصم ١٥ يوما من مرتبه بسبب مقالى البائس أعطانى رقم تليفون الرئيس الأعلى له، واتصلت به فى وجوده وأخبرته أنه لا شكوى لى أصلاً وأن البوسطجى مظلوم، وأن المشكلة يقع عاتقها على من هو أعلى من ذلك بكثير، بل هى فوق مستوى الوزير إلى النظام نفسه وقدرته على إدارة وحل مشاكل الوطن.

وحل شهر رمضان وأنا فى كوبنهاجن فى شهر ديسمبر، وكان البرد قارساً ودرجة الحرارة تحت الصفر بصفة دائمة والثلج ينهمر واليوم قصير جداً، لذا كان صيام رمضان سهلاً للغاية، فكانت الشمس تشرق فى الثامنة صباحاً وتغرب فى الثانية ظهراً، فكنت تتناول إفطارك صباحاً قبل الذهاب للمستشفى وغداءك عند العودة الساعة الخامسة مساء ، وقد ذكرنى رمضان هناك برمضان القاهرة وأنا طفل عند

جدتى فى السيدة زينب حين كان الأطفال يغنون فى الشوارع بالفوانيس ويمرون على الشقق فى البيوت يقرعون الأبواب وهم يغنون (إدونا العادة) وهى ما يعنى قروشا بسيطة كهدية ليشتروا الحلوى احتفالاً برمضان، وكانت العائلة كلها تجتمع عند جدتى للإفطار أول يوم من رمضان. وحين ذهبت لأشاهد لأول مرة على مسرح العرائس رائعة صلاح جاهين وسيد مكاوى الليلة الكبيرة تذكرت ميدان السيدة زينب فى رمضان و العيد و أيام مولد السيدة ، وأعتقد أن جاهين لم يبالغ أو يتخيل و إنما كتب ما رآه بعينيه. أما فى شبين الكوم حيث كنت أقضى أحياناً بضعة أيام من رمضان هناك فلا أزال أتذكر المسحراتى وهو ينادى على كل فرد داخل بيته بالاسم ولا يغادر مكانه حتى يسمع الرد بالإيجاب بأنه قد استيقظ ، فهناك كان السحور وجبه مهمة يتلوها أداء صلاة الفجر لكل من فى المنزل بعكس القاهرة التى لم يتناول فيها أحد فى منزلنا وجبة السحور ، وإنما يكتفى بأكلة بسيطة قبل النوم. واختلف رمضان بعض الشىء عندما انتقلنا إلى باب اللوق ثم الدقى، فلم تعد هناك طقوس وأطفال فى الشوارع تغنى وإنما استمرت طقوس الإفطار ولم يصح أحد من العائلة للسحور ، واختلف نظام رمضان بدخول التليفزيون الذى حل محل السهرات العائلية واجتماع الأصدقاء فى البيوت أو المقاهى وأصبحت الفوازير والمسلسلات هى أهم ما يميز رمضان فى عصرنا الحالى.

وفى أول أيام رمضان اتصل بى تليفونيا شيخ جامع كوبنهاجن وكان قد أخذ عناوين وتليفونات المسلمين المصريين من السفارة وأرسل لى إمساكية رمضان بالبريد وطلب منى الحضور للمسجد للصلاة، ووعدته بالزيارة وفعلاً ذهبت لزيارته يوم السبت صباحاً، وهو يوم إجازة، ويقع المسجد خارج المدينة فى أحد ضواحيها ونزلت من محطة المترو ومعى الخريطة التى استخدمتها للوصول للمسجد الذى لم يكن له مئذنة لأن قوانين البناء فى هذا الحى تمنع أى مبنى أكثر من طابقين،

وبمواصفات معينة لم يكن بينها المئذنة ولم يوافق مهندسو الحى على ذلك، لكنى تعرفت على المسجد عن طريق طفلين يلبس كل منهما جلباباً فوقه بالطو ليحميه من البرد فتأكدت أننى قريب من المسجد، وفعلاً وصلت إلى المسجد وهو صغير به مكتبة وحجرة مكتب وملحق به سكن لشيخ الجامع الذى كان مصرياً أزهرياً حضر مع زوجته وستة أطفال، وقال إن عدد المصلين عنده قليل لأن الحى الذى به الجامع لا يوجد به مسلمون ، وأنه بعيد عن وسط المدينة حيث يسكن معظم المسلمين وأن يوم الجمعة يوم عمل فلا أمل فى أن يحضر أحد لصلاة الجمعة، وحاول أن يقيم الصلاة جماعة يوم الأحد ودعا المسلمين للحضور، لكنهم لم يحضروا وكانت تلك الفترة هى التى سبقت المد الدينى الكاسح فى بلاد المسلمين، والتى امتدت بعد ذلك للمسلمين فى المهجر، وعلمت من الشيخ أن حكومة السعودية قررت أن تستأجر قاعة البلدية فى كوبنهاجن لتقيم صلاة عيد الفطر، وهى قاعة كبيرة لها تاريخ قديم، وهى أيضاً تحفة معمارية رائعة وتقع فى وسط أهم ميادين العاصمة وأكبرها، ويوجد للقاعة دور علوى على هيئة شرفات دائرية تطل على ما يحدث فى القاعة، وقررت الذهاب لصلاة العيد ونظراً لاستحالة خلع الأحذية وتخزينها فقد قامت السعودية بإعطاء كل مصلى عند الدخول للقاعة كيس بلاستيك له رباط بحيث تدخل القاعة وتمشى على السجاد وأنت مرتد حذاءك، خاصة أن الثلج كان كثيرا والبعض منه قد ذاب قليلاً، ودخلت القاعة الكبيرة وكانت مزدحمة بالمصلين، وكما هو المعروف فإن صلاة العيد تقام أولاً ثم تتلى خطبة العيد بعد ذلك، وبعد الصلاة نظرت لأعلى لأرى عدداً كبيراً من الدنمركيين فى الدور العلوى حضروا لكى يشاهدوا على الطبيعة المسلمين وهم يؤدون الصلاة، ولم يكن الإسلام والمسلمون والصلاة والصيام لها الشهرة الموجودة حالياً بعد انتشار المد الإسلامى والاهتمام الذى تعاظم بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وكان الإسلام بالنسبة للإنسان الدنمركى العادى عقيدة وديانة غريبة وطريقة تدعو للتأمل وللفرجة، وقد ألقى خطبة العيد خطيب المسجد -وهو المصرى الجنسية باللغة العربية-

وبعد بدقيقتين على أقصى تقدير لاحظت أن المصلين يكلم بعضهم البعض بصوت عال واكتشفت بسرعة أن الأغلبية العظمى من المصلين أتراك وباكستانيون وإيرانيون، والقلة من العرب الذين يفهمون العربية، وفجأة وقف شخص فى وسط الأتراك يخطب بالتركية وآخر يخطب بالأردو للباكستانيين، واختلط الحابل بالنابل وأصبحت الفوضى عامة وتدعو للأسى، بعد قليل انتهى الخطباء من إلقاء خطبهم وغادر الجميع قاعة البلدية العظيمة ، واكتشفت أنه بالرغم من المبالغ التى دفعت من السعودية لتنظيم الدخول وشراء غطاءات الأحذية إلا أن الموقف كان غريبا، وهناك على الأقل ثلاثة خطباء كل يزعق بأعلى صوته في نفس الوقت وتأكدت من أن هناك شيئا ما خاطئا لابد من إصلاحه ، فالكثير من هؤلاء المسلمين قد عاشوا فى كوبنهاجن سنوات طوالا وتعودوا على نظام دقيق فى كل شىء ، فلماذا يفقدون هذا النظام فجأة حين يجتمع المسلمون وحدهم كما حدث فى صلاة العيد؟.

واستمرت حياتى فى حجرتى أذاكر معظم الوقت وأتدرب على البحث العلمى فى المستشفى، وبقية اليوم أقضيه بين المكتبة العامة والنادى الثقافى للخارجية، وبالطبع كلما جاءت الفرصة زرت المتاحف والمعالم المهمة كلها، وكانت التجربة عظيمة وخطيرة وكاسحة أثرت فى وجدانى وطريقة تفكيرى وطريقتى فى العمل والبحث طيلة حياتى.

وكان سكنى أمام مصنع الشركة الشهيرة للبيرة الدنمركى كارسلبرج ، وهى من أشهر الأنواع عالمياً وتصدر منها الدنمرك للخارج بمئات الملايين من الدولارات سنوياً، وعندما جاء صديقى د. فؤاد من إنجلترا لزيارتى ومعه صديق فلسطينى يدعى رفعت يدرس الدكتوراه فى الأحياء المائية فى لندن -وكان من ضمن معالم كوبنهاجن فى كتب السياحة البريطانية مصنع كارسلبرج- طلبا أن يزوراه، وفعلاً ذهبنا نحن الثلاثة لزيارة المصنع ووجدنا زحاماً من السياح الذين جاءوا من أنحاء

العالم وكانت هناك جولات سياحية بمختلف اللغات العالمية، واشتركنا فى جولة باللغة الإنجليزية، وكان الدليل رجلاً ضخم الجثة طويل القامة له كرش كبير للغاية، وأثناء الجولة كان يسأل المجموعة عن جنسية كل منهم، وعندما عرف أننا من مصر اهتم بنا اهتماماً كبيراً، وعند نهاية الجولة بعد أن شاهدنا كل مراحل صناعة البيرة جلسنا فى حجرة كبيرة وقدموا لمن يريد بيرة مجانية وأخبرنا الدليل السياحى أن زوجته مصرية من أصل مالطى، وقد تعرف عليها فى القاهرة عندما كان جنديا دنمركيا فى جيوش الحلفاء، وكانت وحدته العسكرية فى القاهرة فتعرف عليها عام ١٩٤٤، وكانت تقطن فى حى الأزبكية وتزوجها ، وبعد انتهاء الحرب سافرت معه عام ١٩٤٥ للدنمرك حيث أقاما بصفة دائمة ، وأخبرنا بأنها مازلت تعرف العربية حيث إنها مولودة بالقاهرة وغادرتها للدنمرك، وكان عمرها خمسة وعشرين عاماً وأخذ يتحدث عن الملوخية والحمام المحشو والأكلات المصرية التى يعشقها.

وكنت أذهب لزيارة زوجتى وابنتى فى السويد كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، فكنت أركب الهيدروفيل لمدة ٣٥ دقيقة يعبر فيها البحر بين الدنمرك والسويد، ومن هناك أركب القطار إلى المدينة الصغيرة ألفستا وكانت الرحلة سلسة ، وفى العادة لم يكن يطلب احد من البوليس أو الجمرك الاطلاع على أية وثائق عند عبور الحدود من الدنمرك للسويد حيث إن الدنمركيين لا يحتاجون إلى فيزا لدخول السويد وكذلك الأجانب المقيمون بها. وفى أحد الأيام فوجئت بأحد ضباط البوليس يطلب جوازى وفحصه بعناية شديدة ثم طلب منى دخول حجرة جانبية وقام بتفتيشى تفتيشاً ذاتيا ثم فتح الحقيبة الصغيرة التى لم يكن بها شيء غير بعض الكتب و الملابس التى كانت زوجتى تغسلها وتكويها فى السويد توفيراً للمصاريف ، وكان بالشنطة أيضاً ٣ كيلو من اللحم المفروم طلبتهما حماتى ، وذلك لأن ثمن اللحمة فى الدنمرك كان أرخص بكثير من السويد ، وفوجئت بالبوليس يطلب تفتيش اللحم وأحضروا أسياخاً طويلة مثل إبر

التريكو وغرزوها فى اللحم من كافة الاتجاهات وبعد الانتهاء من التفتيش الدقيق الذى استمر أكثر من ٢٠ دقيقة انطلقت للمحطة لألحق بالقطار المتجه إلى ألفستا، وكنت فى غاية الغضب، ولم أدر سببا لذلك التفتيش غير العادى ، ولما وصلت شعرت زوجتى بأننى غاضب فأخبرتها بما حدث، وقلت لها إننى لن أحضر مرة أخرى فى إجازة نهاية الأسبوع، وعندما علم حموى بذلك وكان الوقت مساء اتصل بجمرك مدينة مالمو الذى مررت منه ، واستغربت أيما استغراب حين طلب الدليل وأخذ نمرة الجمرك وطلب الضابط النوبتجى ، وقدم نفسه مجرد طبيب أسنان فى قرية لا نفوذ له ولا اتصالات ولا شىء، لكنه مواطن سويدى، وحكى الحكاية وطالب بتفسير، وقال إنه سوف يقدم شكوى رسمية فأخبره الضابط أن ذلك حدث فى النوبتجية السابقة، ولا يدرى عن الواقعة شيئاً، لكنه سوف يترك خطاباً لمدير الشرطة ليقرأه فى الصباح، وفى اليوم التالى وكان السبت وفى الساعة الحادية عشرة صباحاً اتصل مدير جمرك مالمو بحماى وتحدثا معاً قرابة عشر دقائق ، وقال إنه حقق فى الواقعة وإن الشرطة كانت تلقت بلاغاً بأن شخصاً من إسرائيل سوف يهرب مخدرات فى هذا اليوم عن طريق المركب القادمة من الدنمرك للسويد ، وقد اشتبه الضابط فى أن سماتى لاتبدو إسكندنافية فطلب الجواز ، ولما رأى الكتابة بالعربية ظنها عبرية ولم يدقق فى اسم البلد والشخص، واعتبر أنه عثر على صيد ثمين يحمل المخدرات، واعتذروا له ووعدوه بأن ذلك لن يحدث مرة أخرى وكنت فى أشد العجب كيف يمكن الاتصال بجمرك ومدير شرطة بلدة أخرى بهذه السهولة وبساطة؟ وكيف يمكن لمواطن عادى أن يشكو للبوليس شفاهة بالتليفون فيحقق فى شكواه ويتكلم المدير شخصياً ويرد على الشكوى فى اليوم التالى صباحاً؟ وكمصرى أعرف أحوال بلدى وكذلك البلاد العربية كلها أعرف أن ما حدث خيال يصعب تصديقه، لأن مثل هذه الشكاوى عندنا فى الأغلب لا يحقق فيها إلا إذا كان وراءها شخصية لها اتصالات أو أن الجهات العليا تحركها أو أنها بالمصادفة أصبحت قضية رأى عام.

ما هى محصلتى فى بعثة الدنمرك وماذا تعلمت؟ فى الطب لم أتعلم الكثير فى أصول المهنة، لأنه حتى ذلك الوقت كان مستوانا بالنسبة للأطباء الأوروبيين والأمريكيين ممتازا، وكان كم المعلومات الذى نعرفه بعد امتحان الدكتوراه فى مصر كبيرا، وللحق فإن معظمها كان معلومات نظرية لم نطبقها ولا نستطيع تطبيقها لظروف كثيرة، وقد قمت بتطبيق الكثير مما كنت أعرفه فى مصر هناك فى الدنمرك، لكن لا يمكن تطبيقه لأسباب مختلفة فى مصر، وما تعلمته واستفدت منه حقيقة كان طرق البحث العلمى وأهميته وضرورة أن يكون الطبيب على علم بكل جديد فى كل لحظة ، وعرفت أن الطبيب الأكاديمى الذى لا يقدم جديداً فى البحث العلمى لن يحتفظ بهيبته وكيانه كأستاذ وطبيب ومعلم ولن تصبح له أهمية فى الأوساط العالمية المحترمة ،أما إذا كان ذلك فى أمريكا فسوف يفقد الطبيب وظيفته فى الحال، وحفظت هذا الدرس ووعيته تماماً، وكان سبباً أساسياً فى تغيير مسار حياتى نحو البحث العلمى الجاد، أما عن الحياة فقد تعلمت الكثير والكثير وقرأت الكثير وشاهدت الكثير وعدت للوطن بكم هائل من المعرفة والثقافة والإيمان بحرية التفكير والاعتقاد والاختلاف. أيها البلد الصغير الدنمرك الذى لايتعدى عدد سكانك الخمسة ملايين نسمة لم يزيدوا أو ينقصوا طيلة نصف قرن أحبك وأحترم شعبك البسيط الطيب المثابر والمثقف. ولقد استمرت علاقاتى مع المجموعة المصرية التى تعرفت عليها فى الدنمرك سنوات طوالا، وكل حين وآخر أقابل د.عقيلة حمزة من بحوث النباتات بوزارة الزراعة، لكننى فقدت الاتصال تماماً بإحدى الشخصيات الغريبة الأطوار التى تعرفت عليها هناك، وكان مبعوثاً من الطاقة الذرية اسمه إسماعيل وقد كان دائم الشكوى من الحياة فى كوبنهاجن بالرغم من أنه سعى لمد البعثة عدة مرات حتى وصلت ثلاث سنوات، وكان كثير الضجيج، لكنه كان طيب القلب وكان يشرب البيرة ويفتح قلبه ويحكى بصوت عال ويدق بيده على المنضدة، وتعرف على فتاة دنمركية وكانت علاقتهما غريبة الاطوار فكان العراك بينهما مستمراً طوال الوقت وفى كل مقابلة، غير أن

الأمور عادة تعود إلى مجراها الطبيعى بعد ساعة لتبدأ معركة كبرى مرة أخرى، وبعد عودتى لمصر انقطعت أخباره عنى حتى دعتنى د. عقيلة بعد عودتها من الدنمرك لزيارتها بالمنزل ووجدته هناك، وكان قد تزوج من الفتاة الدنمركية التى يحبها وعاد إلى مصر واستلم العمل، ويبدو أنه كان فى حالة نفسية سيئة بعد عودته، وبعد أن شرب زجاجتين من البيرة فوجئت به ينهال على بالشتائم وأنا مبتسم ولا أدرى السبب، فلم يكن هناك خلاف أو حتى نقاش بخصوص أى قضية، وكانت عقيلة صاحبة الدعوة فى بيتها غاية فى الحرج حتى هدأ ثم غادر المنزل بسرعة ومعه زوجته الدنمركية التى لم تفهم ماذا كان يقول بالعربية، لكنها تعودت على هذه المعارك بالإنجليزية، وعلمت بعد عدة شهور أنه هاجر إلى كندا ولم أسمع عنه شيئاً خلال الثلاثين عاماً الماضية، أما مجموعة العمال الفنيين المصريين فقد تعرفت على الكثير منهم، وكان لكل منهم صديقة دنمركية تزوجها بعد ذلك واستقر كمواطن دنمركى. المشكلة الكبرى التى كانت تواجهنى ليل نهار ـ وأنا هناك ـ وتؤرقنى هى التفكير المستمر فى مصر، فلم أكن أتخيل أننى أعشق مصر لهذه الدرجة، فهذا البلد التى طالما لعنت طريقة الحياة والمعيشة فيه ونظامه و حكومته سنوات طوالا وكنت أتوق للخروج منه وأحلم بالهجرة خارجه وكان ذلك حلماً بعيد المنال، فجأة أجدنى خارج مصر وفرص العمل أمامى مفتوحة تماماً فى السويد والدنمرك أو إنجلترا وأوراق الهجرة لأمريكا قد قبلت، وكان ذلك يتم فى ذلك الوقت بالنسبة للأطباء فى أسابيع أو شهور، وها هو الغرب الذى طالما حلمت به واعتبرته المثل الأعلى والنموذج الأمثل يفتح يديه ويقول لى مرحباً لشاب عمره واحد وثلاثون عاماً متحمس للعمل والكفاح، لكننى وجدت نفسى للمرة الثانية وأنا فى الخارج وأمامى فرصة الهجرة لا أستطيع أن أتخذ هذا القرار بترك مصر نهائيا، وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى فكرت فيها فى ترك مصر. لقد أيقنت أنه لا مكان لى فى العالم إلا فى مصر بجمالها وأهلها وتاريخها وقذارتها وبؤسها ومشاكلها التى لا يبدو أن هناك حلا لها ، فأهلا ببلدى الذى لا أعلم

ماذا سوف يكون مصيره وماذا سوف يكون مصيرى فيه، هل أنجح فى الحياة؟ هل سوف أدخل السجن كما حدث للكثير من المصريين من كافة الأفكار والاتجاهات؟ لست أدرى ماذا سوف يحدث لى؟ هل سوف تتأقلم كريستينا على الحياة فى مصر فى ظروف من المتوقع أن تكون صعبة ، وكلما فكرت فى مصر أعدت قراءة بعض الروايات العربية التى صحبتها معى من القاهرة إلى الدنمارك، وأذكر أننى عشت مع الطيب الصالح فى موسم الهجرة للشمال بكل جوانحى ولست أذكر بقية الكتب العربية، لكننى أعتقد أن بعضاً من مجموعات يوسف إدريس كانت معى ، وأننى أعدت قراءة بيت من لحم عدة مرات ، و كذلك ديوان إبراهيم ناجى الشاعر الحالم الجميل.

القاهرة و غليان ما قبل حرب أكتوبر

عدنا إلى القاهرة معاً ومع البنتين لنسكن فى شقتنا فى الحى الهادىء: مدينة الأوقاف. وكنت أشد الحماس للعمل وكنت مقتنعاً تماماً بأن الحل الاشتراكى هو الأمل الوحيد لبلد كمصر فى ذلك الوقت، ووجدت القاهرة تموج بالتيار الطلابى الشبابى الاشتراكى ووجدت الجامعة مشتعلة بالحماس، والطلاب كلهم يريدون أن يموتوا فداء للوطن، ولا أذكر طيلة حياتى أننى وصلت إلى هذه الدرجة من الحماس فى حب الوطن والاستعداد الحقيقى للفداء بالروح والدم فعلاً، وهو شعور أعتقد أنه يختلف عن شعورى الآن الذى اصيب بإحباطات متتالية من الحكام المصريين وتصرفاتهم ،وأصبحت أشعر باللامبالاة وأنا أسمع الأغانى والهتافات الجديدة التى تنادى بحب الوطن معتبراً أن هذا أصبح جزءاً من مسرحية سخيفة لجمع التأييد للحكام. وهذا يختلف تماماً عما كنت أحس به حين تدمع عيناى وأنا أستمع إلى الأغانى الوطنية القديمة عام ١٩٥٦ وعام ١٩٧٣، صحيح أن حب الوطن والتفكير فيه وفى مستقبله وفى مشاكله يجرى فى الدماء دائماً أبداً وأن المشكلة المصرية تؤرقنى دائماً، لكننى لا

يمكن أن أقارن شعورى فى ذلك الوقت بشعورى الآن، ولا استعدادى للتضحية بكل شىء دون تفكير أو تردد بموقفى الحالى الذى أعتبره أضعف ما يكون. وبالرغم من ذلك يقول الكثير من زملائى إننى متهور ومندفع وإننى واجع دماغى على الفاضى.

بعد عودتى بأسبوع من الدانمارك اتصل بى صديقى د. محسن خطاب مدير مستشفى المعلمين الآن ودعانى لزيارة قريب له اسمه صلاح فاضل، وهو شخصية تجمع الكثير من المتناقضات فهو سليل عائلة غنية، وقد كان عنده الكثير من المال، لكنه صرف معظم ما يملك على النساء وأصبح مدمناً للخمر، يشرب طوال اليوم أردأ أنواع البراندى من الصباح للمساء وكانت تعمل على خدمته سيدة عمرها نحو ستين عاماً، وهى قصيرة ومدكوكة الجسم تبتسم ابتسامة جميلة وكانت تدير كل شىء فى المنزل، وكان لصلاح عدة شلل مختلفة من الأصدقاء إحداها شلة الأطباء ، ومن بينهم د. محسن وكان صلاح قد تعدى الستين عاماً فى ذلك الوقت، ويحكى أنه فى شبابه كان نجماً من نجوم المجتمع، ولم يقم بأى عمل حقيقى فى حياته غير صداقة عدد من الفنانين والفنانات، وعندما كان فى الثلاثين من عمره تعلم كتابة السيناريو، وكتب سيناريو فيلم الخرساء لسميرة أحمد وعدة سيناريوهات أخرى ناجحة، لكنه كان كسولاً وكانت الخمر تطير بعقله دائماً أبداً.

وقد دعيت لزيارة صلاح فاضل وعلمت أن الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم ومعهما الفنان التشكيلى محمد على سوف يحضرون هذه السهرة، وكنت متشوقاً للقائهم لأول مرة وحضروا نحو الساعة العاشرة والنصف مساء، وبعد أن دخنوا أنفاس الحشيش الذى أحضره لهم أحد المدعوين فى سجائر ملفوفة وأكلوا الكباب الذى طلب بالتليفون، بدأوا فى الغناء وتدريجيا ارتفع الصوت واشتد الحماس بالجميع، وكان باب شقة صلاح فاضل كالعادة مفتوحاً طوال اليوم، البعض يدخل والبعض يخرج وكان يسكن فى الدور الأرضى، وجذب صوت الغناء والحماس بعض السكان والجيران فامتلأت

الردهة المقابلة لباب الشقة وكذلك مدخل العمارة بالناس يستمعون بحماس شديد وفتحت الشبابيك على المنور وعلى الشارع وسرعان ما امتلأ الشارع بالناس تحت الشباك وفتحت النوافذ من الأدوار العليا، وتدلت الرؤوس تستمع للغناء واستمر الغناء حتى الساعة الثانية صباحاً، والحماس يشتد والجماهير تصفق بحماس شديد، وكان لهذا النجاح الجبار لنجم وإمام أسباب كثيرة أهمها موهبة نجم فى إبداع قصائد بسيطة اللغة عميقة المعنى فيها سخرية عظيمة من حكام مصر وتهكم على أحوال مصر المتردية والتناقضات الكبيرة فى المجتمع، وكانت ألحان الشيخ إمام البسيطة القوية سهلة التقبل، لكن النجاح الساحق كان سببه أن إمام ونجم عبرا عن مكنون الشعب المصرى وعن كل ما تضيق به صدورهم بلغة قوية وبسيطة يفهمها الجميع، وكانت هذه الأغانى هى صوت الضمير المصرى وروحه التى كانت تغلى بالأحاسيس المختلفة تجمع بين الهوان والإهانة وتشم رائحة الغدر وخيبة الأمل فى القيادة ، جاءت هذه الكلمات والألحان لتقول ما يريده وما يحس به المصريون جميعاً، واستمرت هذه الظاهرة لفترة تجاوزت العشر سنوات عبرا فيها عن التطورات التى حدثت فى مصر وكانت لسان حال الغالبية من المصريين. أذكر أننى عندما عدت للبيت فى تلك الليلة فى الثالثة صباحاً كنت مملوءاً بمشاعر وأحاسيس غريبة، ولم أنم طوال الليل وأخذت أغنى لنفسى وأتقلب على سريرى وأنا ملتهب المشاعر بحب الوطن العزيز الغالى الذى انحدر به الحال ليدنس بجنود إسرائيل، وشعرت أنه من الأكرم أن يموت الشعب المصرى كله على أن نظل فى هذه الحالة، وفى الصباح ذهبت للجامعة لألقى درسى الإكلينيكى على مجموعة من الطلبة فتكلمت معهم قليلاً عن الطب وكثيراً عن مصر الوطن، ووجدت فى الطلبة استجابة رائعة وصدى مذهلا لما أقول، وكان التيار والفكر الاشتراكى واليسارى غالباً فى ذلك الوقت ولم تكن التيارات الإسلامية لها وجود ظاهر بعد.

فى هذا اليوم استمرت حالة انعدام الوزن من أثر ما سمعت فى الليلة السابقة واتصلت بصديقى د. محسن أطلب منه أن يساعدنى فى السماع لإمام ونجم مرة أخرى، وفى أقرب فرصة ، وفعلاً أخبرنى أن أحد أصدقائه يعرف مكانهما وطريقة الاتصال بهما ، وطلبت أن تكون القعدة القادمة عندى بالبيت ، وذهبت أنا ومحسن خطاب لحى الحسين العتيق حتى وصلنا إلى حوش قدم، وهو زقاق ضيق امتدت فيه الشرفات من البيوت المتقابلة حتى تلاحمت وبنيت الحجرات امتداداً لشقق الأدوار الأرضية حتى قارب الزقاق أن ينسد تماماً، وإذا نظرت لأعلى كنت ترى حجرات زاحفة للأمام وحبال ممتدة من منزل للمنزل المقابل لنشر الغسيل وفتحت البيوت من الداخل بعد هدم بعض الجدران لتصبح بيوت حوش قدم بيتاً واحداً كبيراً، تدخل من باب وتصعد بضعة سلالم ثم تمر من حجرة إلى أخرى ومن بيت إلى بيت وأنت لا تدرى موقعك فى الداخل. دخلت أنا ومحسن حوش قدم وشاهدنا المنظر الذى لم يخطر لنا على بال، ونحن لسنا خواجات أو لا نعرف مصر وأحياءها الشعبية والعشوائية، لكن ما شاهدته كان شديد الوقع على نفسى، ولم أشعر بأن هناك حياة أسوأ من ذلك إلا بعد أن قرأت وكالة عطية للعبقرى خيرى شلبى وحديثا رواية لصوص متقاعدون لحمدى أبو جليل عن حى منشية ناصر. دخلنا البيت وسألنا عن الشيخ إمام فقيل اصعد السلم وامش على طول، فمشينا ووجدنا حجرات مليئة بالبشر النيام منهم النساء والأطفال والبعض جالس يقرأ كتاباً والآخر يقرأ القرآن والآخر يستمع للراديو، وفى أحد الأركان توجد ملاية مثبتة فى الحائط بمسامير حتى تكون عازلا بين هذا الجزء وبقية الحجرة ، وفى أحد الأركان كان أحدهم يوقد وابور الجاز استعدادا للطبيخ، وأخيراً وصلنا لعمنا الكبير الشيخ إمام وكان مستلقيا على سرير يرتفع عن الأرض بضعة سنتيمترات ورأسه مسنود على الحائط ويجلس بجواره نجم، أما محمد على فكان يجلس على الأرض واستقبلونا بترحاب، وقمنا فى رحلة العودة نخطو فوق النيام ونتفادى قلة ماء أو طبق الطعام على الأرض أو طفلا يحبو حتى خرجنا إلى الشارع

العمومى ثم ميدان الحسين الفسيح، وركبنا السيارة إلى منزلى، وكان محسن قد اتفق مع أحد أصدقائه ليشترى لهم الحشيش وطلبنا الكباب، أما غير المدخنين من أمثالى فكانت البيرة المثلجة هى مشروبنا. وذهبنا للبيت وبدأ الغناء فى حضور مجموعة من الأصدقاء الذين يملؤهم الحماس بحب مصر، ودعوت بعض الطلبة للحضور، وكانت ليلة جميلة سمعنا فيها مجموعة منتقاة من ألحان الشيخ إمام الحماسية وبعض الأغانى العاطفية، وكان الجميع مقتنعاً بأنه لا توجد وسيلة للخلاص غير الحرب، وكنا نعلم القدرة الجبارة للآلة العسكرية الإسرائيلية، لكن الجميع كان مقتنعا أنه بالتصميم والاستعداد يمكن أن ننتصر، وفى جميع الحالات كان الموت أهون من استمرار هذا الوضع المهين.

وفى ذلك الوقت توطدت علاقاتى مع أعداد كبيرة من الطلاب، وكانت مظاهرات واعتصامات الطلبة مستمرة بصفة دائمة، وكانت الشرطة تحاصر الطلبة وتقبض عليهم، وللحق لم تكن تستمر فترة السجن والاعتقال سنوات كما كان يحدث فى الستينات، وإنما عدة أيام أو أسابيع، والقليل من الطلبة استمر اعتقالهم عدة شهور، وكنت أرى فى عيون هؤلاء الطلبة الحب الجارف لمصر وانتماءهم الشديد للوطن، وكان ضغط الاحتلال الإسرائيلى على أعصابهم يجعلهم يحترقون ليل نهار، وكانوا يتوقعون الخيانة والجبن فى أى قرار سياسى أو تصرف يصدر عن أى مسؤول، وكنت شديد التعاطف مع هؤلاء الطلبة وفى الواقع فإن شعورى كان مطابقا لشعورهم فقد كنت مدرساً بالجامعة فى شرخ الشباب تخطيت الثلاثين بعامين، وكانوا فى أوائل العشرينات من العمر، ودعيت لبيوت البعض منهم وعندما قبض على بعضهم كنت أشارك فى جمع تبرعات بسيطة لمساعدتهم ، وكان الطلبة يعبرون عن مشاعرهم الجارفة بقصائد الشعر والقصص، وانتشرت مجلات الحائط فى الجامعة والتى كانت تعلق على الحائط وتمزق بواسطة مخبرى المباحث بعد وقت قصير، وشاهدت علاقات عاطفية جميلة بين الثوار من الطلبة والطالبات انتهى البعض منها بالزواج والعيش فى

تبات ونبات، والبعض بالطلاق بعد أن تعددت الطرق والمسالك بتغير الظروف والأحوال بعد حرب ٧٣، وفى أحيان أخرى كانت العلاقة حبا جارفا مكتسحا استمر شهوراً وتراجع مع بداية الفتور السياسى، وانهزم الحب بهزيمة حرية المواطن فى التعبير عن نفسه، وشاهدت لحظات الانفصال وما تلاها من اتهامات وحاولت قدر استطاعتى أن أساعد فى حل بعض المشاكل أو على الأقل فك الاشتباك. كانت الحركة الطلابية الرائعة التى جمعت مجموعة رائعة بينها الكثير من الفتيات مثالاً عظيما لقدرة المصريين على الحركة والحماس للدفاع عن الوطن وتستحق هذه المجموعة الكبيرة من الطلبة والطالبات والتى من بينها أسماء معروفة، وبعضهم لم يسمع عنه أحد أن تكتب أسماؤها وأعمالها فى سجل الشرفاء الذين ساعدوا وحركوا وضغطوا على أنور السادات ليجمع شجاعته ليصبح أكثر تصميماً على بدء العبور العظيم.

وتستحق أيضا هذه المجموعة الجميلة من المصريين كتباً وروايات ومسرحيات تحكى تاريخها وماذا فعلت وماذا آل إليه حالها وكيف تفرقت بينهم السبل وكيف تغير تفكيرهم، ومنهم من أصبح رائداً فى الفكر، ومن أصبح من زعماء المعارضة، ومن انضم للحزب الحاكم ، ومنهم من ظل ينادى باسم مصر ليل نهار حتى الآن يدافع عن طهارتها ، ومنهم من اشترك فى التدليس والسرقة وقام بتغليف بضاعته بأفكار وكلمات ثقافية مترهلة، ومنهم من دخل عالم المال والعمل بجد واجتهاد وأصبح من كبار رجال الأعمال. ولقد ساعدتنى ظروف وعلاقات خاصة مع بعض هؤلاء الشباب على أن أقابل عدداً كبيراً منهم بعد أن تعدوا مرحلة الشباب فى مناسبات مختلفة فى نهاية القرن العشرين وبعد نحو ربع قرن على الحركة الطلابية. لقد كانت علاقتى المستمرة مع صفاء زكى مراد ومنير مجاهد وهشام عبدالقادر وهشام السلامونى وحسام سعد الدين وحازم الرفاعى وماجد الصاوى.. وآخرين كثيرين لم أذكر أسمائهم أو تعرفت عليهم بعد ذلك ــ عاملاً مهما فى استمرار الاتصال ومعرفة أحوال هذه المجموعة. وانتقلت مصر من مرحلة اليأس التى تلت عام ١٩٦٧ إلى مرحلة الاستعداد

للحرب، وكانت الشعبية البسيطة التى نالها أنور السادات بعد تنفيذ بعض الإجراءات شبه الديمقراطية قد بدأت تتآكل بسرعة بعد أن اتضح أن كل ما حدث كان إجراءات مؤقتة، وعاد الرئيس يتحدث بأن الديموقراطية لها أنياب وتم نقل بعض أعضاء هيئة تدريس الجامعات إلى خارج الجامعة وعادت ريمة لعادتها القديمة التى لم ولن تتركها أبداً إلا بالقوة.

فى تلك الفترة بدأت سياسة السادات فى تشجيع الحركة الإسلامية بين الشباب وبدأ القصر العينى يشهد زيارات ومحاضرات من بعض الشيوخ والدعاة أذكر منهم الدكتور عبدالحليم محمود وتدريجيا بدأ هذا التيار فى الانتشار السريع، ومن المؤكد أن الطبيعة الدينية الكامنة فى الشعب المصرى منذ قديم الأزل قد لعبت دوراً مهما فى ذلك الوقت، وكانت الهزيمة المفزعة عام ١٩٦٧ قد أصابت الجميع بالإحباط من كل السياسات والمذاهب الفكرية الموجودة على الساحة، وكان الدعم الخارجى الهائل من السعودية وأمريكا قد ساعد على انتشار الأفكار الإسلامية التى خرجت من الجلباب التقليدى للإخوان المسلمين إلى الجماعة الإسلامية بمذاهبها واتجاهاتها المختلفة، وبدأت ملامح التغيير تظهر على الشباب المصرى، وأصبح لبعض شيوخ المساجد فى بعض الأحياء السكنية شعبية ضخمة، وكان للكثير منهم حضور قوى وقدرة على الإقناع والبساطة فى التعبير، فاستولوا تدريجيا على الشارع المصرى وتعاظم الأمر بعد حرب ١٩٧٣ حتى وصل الأمر فى نهاية القرن العشرين إلى أن أصبح الصوت الإسلامى هو الصوت الوحيد الحقيقى الموجود فى الشارع المصرى وتلاشت كل الأحزاب الأخرى لتصبح مجرد صحف عديمة القيمة بالإضافة إلى بعض المثقفين المشتتين بين هنا وهناك ، أما حزب مصر ومن بعده الحزب الوطنى فلم يكن لهما وجود أو قيمة فى الشارع المصرى فى أى وقت من الأوقات، وتتمتع بعض رموزه هذه الأحزابكراهية عميقة من جموع الشعب لم يسبق لها مثيل فكيف يمكن ان يكون لهذه الأحزب أى رصيد بهذه القيادة؟.

حرب أكتوبر ٧٣ وتوابعها

فى غمرة اليأس المطبق والظلام الكالح وعدم الثقة المفرط فى الرئيس السادات بدأ شهر رمضان فى أواخر سبتمبر ١٩٧٣ وكان العمل فى قسم أمراض النساء ينتهى فى الساعة الثانية عشرة ظهراً، ونجتمع فى كافتيريا أعضاء هيئة التدريس لمناقشة الوضع السياسى ونعيد ما نقوله يوماً بعد يوم والبلد يغلى، والطلبة فى بدء العام الدراسى يستعدون للتظاهرات والمسيرات استكمالاً لما قاموا به فى العام السابق، فقد كان الغضب من النظام عارماً وشديداً. وفى يوم السادس من أكتوبر وأثناء عودتى للمنزل سمعت فى إذاعة القاهرة بياناً مقتضباً بأن إسرائيل قد قامت بالاعتداء على القوات المصرية فى منطقة القناة وأن القوات المصرية تقوم بالرد عليها، ولم أول هذا البيان أية أهمية فقد كانت الاعتداءات الإسرائيلية مستمرة وكنا قد فقدنا الثقة فى بيانات الحكومة المصرية، وأين هو الرد الحقيقى على هذه الاعتداءات؟ وذهبت إلى المنزل لأستريح قليلاً حتى ميعاد مدفع الإفطار ، وقبل الإفطار استمعت مرة أخرى إلى الإذاعة المصرية التى قالت إن القوات المصرية تعبر قناة السويس للرد على الهجوم الإسرائيلى، وبالطبع لم نصدق، فنحن أولاً تعودنا على الكذب الواضح الصريح والمفضوح من حكوماتنا المتعاقبة، ونحن أيضاً كنا على يقين من أن خط بارليف هو أعظم حاجز فى العالم ولا يمكن عبوره، ولم تكن هذه المعلومات من مصادر إسرائيلية

بل كانت من مصادر مصرية يكتبها كبار المحللين العسكريين وكبار الكتاب والصحفيين المصريين، فكيف يمكن أن تعبر قواتنا هذا الحاجز المنيع، وبعد الإفطار استمعنا إلى بيان مصرى محدد يعلن إتمام عبور القوات المصرية فى ست ساعات إلى الضفة الشرقية للقناة ورفع علم مصر هناك، وأن القوات المصرية تخوض معارك ضارية فى شرق القناة ، وكان شعورى غريباً وغير مصدق، وفى نفس الوقت ليس من المعقول أن تعلن مصر كل ذلك وهو لم يحدث، لكن لقد سبق لهذه الحكومة أن أعلنت فى ١٩٦٧ أننا أسقطنا مئات الطائرات الإسرائيلية وثبت أن ذلك لم يحدث، واستطعنا أن نلتقط إذاعة لندن بسهولة نسبية والتى أكدت أن الخبر صحيح وأن العلم المصرى قد رفع فعلاً على الضفة الشرقية للقناة، فارتديت ملابسى وذهبت فوراً إلى القصر العينى لعلهم يحتاجوننى فى شىء، وجلسنا هناك والجميع ينصت لأجهزة الراديو، وعدت إلى المنزل فى الثانية صباحاً لأكتشف أننى لم أتناول إلا الشاى وحساء فى وجبة الإفطار، ومن فرط القلق على الجيش المصرى وعلى نتائج الحرب لم أستطع تقريباً أن أتناول أى طعام حقيقى لمدة ٣ أسابيع، وكان وزنى قد زاد عشرة كيلو جرامات خلال عام واحد قبل الحرب من فرط الإحباط واليأس وفقدان الهمة وقوة العزيمة، وخلال الثلاثة أسابيع الأولى بعد ٦ أكتوبر فقدت اثنى عشر كيلو جراما من وزنى بسبب القلق وعدم القدرة على الأكل وأصبحت جميع بنطلوناتى واسعة لا تصلح وتحتاج إلى عملية جراحية قبل أن أستطيع ارتداءها مرة أخرى.

وجلست طوال الليل بجوار الراديو أنتقل من محطة إلى أخرى، وقد لاحظت أنه لا يوجد تشويش على المحطات الأجنبية وأن الإذاعات المصرية والأجنبية تقدم أخبارا ومعلومات متشابهة ولا توجد فروق جوهرية بينها، بل كانت إذاعة مصر سباقة فى إذاعة بعض الأخبار، ولم نكن نصدق ما يحدث، هل هى حقيقة أم حلم أم خيال؟. هل يمكن قهر أسطورة الجيش الإسرائيلى المزود بكافة الأسلحة الأمريكية المتطورة؟.

إنه الإنسان المصرى الذى حمل كل تاريخه وحضارته المخزونة وكرامته المهدرة وخرج ليرفض الهزيمة من إسرائيل. ولست أدرى لماذا يقف الشعب المصرى موقف المتفرج من الأحداث اليومية والظلم المستمر والقهر العنيف حتى تصل الأحداث إلى أقصى مداها قبل أن يصمم على فك القيد؟ لماذا لا يقاوم الكارثة قبل أن تحدث ويمنع الاحتلال قبل أن يصبح حقيقة؟ إنها حقيقة تاريخية: أن الشعب المصرى رضخ لظلم الحاكم والمستعمر فترات طويلة ورضى بالظلم والقهر ولم يثر إلا عندما يصل الأمر إلى منتهاه، وقد علمت التجارب التاريخية الحكام فى مصر وكذلك جحافل المستعمرين ابتداء من نهايات الدولة الفرعونية الحديثة وحتى الاستعمار الأمريكى أن الضغط على الشعب المصرى يجب أن يتوقف عند حدود معينة بما يضمن الهدوء فى الشارع المصرى ويمنع ثورته.

وكانت ليلة السادس من أكتوبر لا تنسى، فقد كنت سعيداً ، لكننى كنت أرتعد من الخوف ، ولم أصدق حتى ما أعلن فى إذاعات العالم كله ، وأخذت أتذكر ما حدث فى الليلة الخامسة من يونيو ١٩٦٧ ، وبعد ليلة لم يغمض لى فيها جفن توجهت للقصر العينى لأجد أن المستشفى قد أعلن حالة الطوارىء لاستقبال الجرحى من المعركة، لكننا لم نستقبل أحداً، وكانت القرارات الصادرة من إدارة الجامعة والمستشفيات هادئة لا تشنج فيها ولا هستيرية، وكان القلق والخوف على مستقبل المعركة يسيطر على الجميع فلا رقص ولا تنطيط كما حدث فى الساعات الأولى من ٥ يونيو ٦٧, أما الشارع المصرى فكان الانضباط الغريب غير المعروف عنه يسود كل شىء، فالطوابير منتظمة للحصول على المواد الغذائية وطوابير السيارات فى صمت وهدوء وانضباط شديد للحصول على البنزين، والشارع المصرى لاضجيج فيه ولا عراك وحتى اللصوص والشحاذون أعطوا أنفسهم إجازة اختيارية بمناسبة العبور. وكان الإحساس العام للشعب أن القيادة منضبطة وعلمية فى تحديد مسار المعركة وارتفعت شعبية أنور

السادات من الحضيض إلى السماء فى غضون أيام قلائل، وأصبح الكثيرون يعتقدون أنه قائد ماهر وخبيث بعد أن اعتبروه لا يصلح لشيء منذ توليه الحكم ، وبالرغم من تطورات الحرب ومساعدات أمريكا الرهيبة لإسرائيل وحدوث الثغرة فإن الشعب قد اعتبر المحصلة النهائية للحرب انتصارا لمصر. صحيح أنه ليس انتصاراً عسكرياً كاملاً لكنه بالتأكيد انتصار لمصر، فالمحصلة النهائية هى انسحاب إسرائيل من المضايق وفتح قناة السويس وما زلت أذكر أول صفحة فى جريدة الأهرام وكلمة توفيق الحكيم القصيرة بعنوان عبرنا الهزيمة ثم قصيدة نزار قباني الجميلة فى تحية مصر وجيشها وشعبها والتى وضعها الأهرام داخل برواز يوم ٧ أكتوبر وأخذت مكانها على الحائط فى منزلى، وكان يوم ٧ أكتوبر هو عيد الميلاد الخامس لابنتى هنا ولم تكن هناك فرصة للاحتفال به ، وفى تلك اليوم قمت بعمل لا يزال ضميرى يؤنبنى عليه حتى الآن، فقد كنا لا نملك حجرة طعام وإنما منضدة مستديرة صغيرة وأربعة كراسى اشتريناها من صالة مزادات أمام سينما أوديون بالقرب من شارع طلعت حرب بمبلغ خمسة وخمسين جنيهاً عند زواجنا عام ١٩٦٧ ، وبعد أن انتقلنا إلى شقة أكبر فى مدينة الأوقاف بدأت فكرة شراء حجرة طعام حقيقية ، وكنا قد شاهدنا غرفة إيطالية الصنع عند سيدة إيطالية كانت تسكن وسط البلد تبيع شقتها بالكامل بالمزاد العلنى الذى حدد له مسبقاً يوم ٧ أكتوبر قبل ذلك بأسبوعين، وكان المثمن يدعى كوليللا وهو إيطالى عجوز، ويبدو أن السيدة قد أصبحت بمفردها بعد وفاة زوجها وهجرة أولادها خارج مصر وقررت الهجرة أيضاً، وكنت متردداً فى الذهاب للمزاد يوم ٧ أكتوبر. هل يحارب الجيش المصرى ويعبر القناة ويموت افراده دفاعاً عن الوطن فى هذا اليوم المجيد الذى كنت أنتظره وأحلم به ولا أصدق أنه سوف يحدث يوماً ما وأنا أذهب إلى مزاد فى نفس اليوم؟ لكنه الضعف البشرى، ذهبت للمزاد فى السابعة من مساء السابع من أكتوبر وأنا أعرف ما أريد لأجد شقة السيدة الإيطالية التى يباع كل شيء فيها قطعة قطعة، وبدأ المزاد بمائة جنيه لحجرة السفرة كاملة، واكتشفت أن تجار الأثاث

يرفعون السعر تدريجياً واقترب أحدهم منى بعد أن اكتشف أننى مصمم على شراء الحجرة قائلاً: هل تنوى شراء شىء ؟ آخر فأجبت بالنفى، عندئذ قال سوف نتركها لك ولا تشترى شيئاً آخر، وفعلاً اشتريت الحجرة الكاملة الإيطالية الصنع بمائتين وعشرين جنيها وهذا السعر يدعو للتأمل، لأن كل شىء فى مصر كان رخيصاً حتى عام ١٩٧٤ عندما ارتفعت الاسعار فجأة مع بداية ما سمى بالانفتاح، وعدت للمنزل سعيداً بشراء الغرفة وحزيناً على ضعفى البشرى، وأخذت أبرر لنفسى أن ما فعلته لا يسىء للوطن ولا للجيش المحارب، لكن قلبى لم يكن يستريح لهذا التصرف، وضاعف من ذلك فى اليوم التالى أننى ذهبت للعيادة وبالطبع لم يكن هناك مرضى، لأن هناك حالة حرب والكل فى بيته، وثانيا للأننى كنت حديث العهد بالعيادة ولم يكن عندى فى جميع الأحوال عدد كبير من الزبائن، وكنت أجلس مهموماً أفكر فى الحرب ومستقبل مصر وفى تصرفى فى اليوم السابق، وحضرت مريضة واكتشفت بعد سؤالها أن مشكلتها أنها متزوجة منذ أربع سنوات ولم يحدث لها حمل، فما كان منى الا أن قلت لها إن هذا ليس الوقت المناسب لعلاج مشكلة الإنجاب، يمكنها أن تنتظر أسبوعين حتى انتهاء الحرب وبعد أن قلت ذلك وانصرفت المريضة شعرت بأن الخجل من نفسى ومن تصرفاتى يتضاعف، فها أنا قد اشتريت حجرة طعام ثانى يوم الحرب واعتبرت أن هذه السيدة غير محقة فى علاج العقم أثناء الحرب على حين كان شراء الحجرة مناسباً.

وانتهت فترة مهمة من تاريخ مصر، وتغيرت الحياة فى جامعة القاهرة ، وانقضت الحكومة على اليسار بكافة أجنحته وأطلقت الجماعات الإسلامية من الأسر، وكانت المهمة الأساسية هى تحويل الرأى العام المصرى من اليسار إلى اليمين والذى تم فى سهولة ويسر خلال بضعة أعوام حتى اختفى اليسار تماماً، باستثناء بعض المفكرين، وفى الثمانينات أصبح الفكر الماركسى بصفة خاصة واليسارى بصفة عامة تاريخاً فى

جامعة القاهرة، فالطلبة إما جماعات إسلامية أو طلبة غير منتمين لأى فكر، وانعدم الاهتمام بالسياسة وبالعمل العام، حتى الانتماء للوطن حل مكانه شعور باللامبالاة ، وأصبح التفكير فرديا شخصيا ،وتخلى زعماء الاتحاد الاشتراكى فى الجامعة عن موقعهم الاشتراكى بسهولة ويسر وبساطة شديدة إلى موقعهم الحقيقى فى اليمين المحافظ، وهم الذين كانوا قد انضموا إلى معسكرات الاتحاد الاشتراكى وانتظموا فى اجتماعاته حتى يكونوا جزءاً من نظام الحكم ويستفيدوا منه أو على الأقل لا تصيبهم أضرار منه.

كانت البنية التحتيه عصر فى تلك الفترة قد أصابها التآكل والانهيار الطبيعى بسبب القدم وعدم تجديدها لمدة طويلة مع تضخم عدد السكان، فمثلاً كنت لا أملك تليفوناً فى بيتى وأنا طبيب ولادة ، وكنت قد اتفقت مع خفير مخزن خلف المنزل أن يتم الاتصال به فى الحالات العاجلة ، فكان ينادى بأعلى صوته من مسافة نحو ١٠٠ متر (يا دكتور إلحق المستشفى عايزينك) وبالطبع كان يسمع النداء الجيران فى كل اتجاه ، وعندما استطعت بعد عناء كبير وكم هائل من الوساطة تركيب تليفون بخط هوائى كان دائم الأعطال ، وكان على أن أدفع إتاوة شهرية لعمال التليفونات لصيانة الخط الهوائى وإصلاح أعطاله المتتالية ، ولم ينصلح حال التليفون إلا بعد أن أعيد بناء شبكة تليفونات القاهرة الكبرى، وفى تلك الفترة كان تليفون عيادتى بباب اللوق معطلاً لفترة قاربت ثمانية عشر شهراً، وكانت شركات السياحة والطيران – وكلها مركزة فى وسط المدينة – تعانى من مشاكل كبرى فى حجز الأماكن فى الطائرات فأنشأوا وظيفة جديدة لشباب صغير السن يشترط أن يكون خفيف الوزن وسريع الحركة فيأتى صباحاً للعمل مرتديا حذاء بسيطاً من الكاوتشوك ليبدأ عمله بالجرى فى شوارع القاهرة بسرعة فائقة من مكتب شركة السياحة إلى مكتب شركة الطيران لحجز تذكرة والعودة بسرعة فائقة ، ثم ينطلق إلى البنك ويعود منه إلى شركة طيران أخرى

ثم إلى مكتب شركة السياحه لتوصيل التذاكر ، واستمر العمل بهذه الوظيفة لمدة عامين حتى انتهت مشكلة التليفونات ،ويامصر يا أم العجائب واختراع الوظائف بما يناسب الحاجة.

وخلال تلك الفترة حدث تغير جذرى فى ملابس المرأة المصرية ، فعندما تخرجت عام ١٩٦٢ قبل عشر سنوات تقريبا من ذلك التاريخ كان فى دفعتى أربعون طبيبة لم تكن واحدة منهن ترتدى الحجاب، وكانت بينهن بنت شيخ شهير جيد يطلبون منه الرأى والمشورة على الصفحات المنشورة فى الجرائد والمجلات، ولم تكن هناك ممرضة واحدة محجبة بين آلاف الممرضات ، ولم أعرف قريبة لى أو صديقة لنا ترتدى الحجاب، وفى ليلة وضحاها انتشر الحجاب، وفى سنوات قلائل أصبحت الأغلبية العظمى من السيدات والفتيات المصريات يرتدين الحجاب. وهناك فى تقديرى عدة عوامل لهذه الظاهرة الفريدة أولها أن الشعب المصرى بطبيعته شعب متدين منذ أيام الفراعنة مع تغير الدين الذى كان يؤمن به عدة مرات، لكنه كان شديد الإيمان فى جميع الأحوال، وكان يحب أن يؤدى الطقوس الدينية فى جميع العصور، ومثال لذلك أننى اعتقد أن الأقباط المصريين هم أشد طوائف المسيحيين تمسكاً بالدين وطقوسه المختلفة واحتراماً وانتماء لكنيسة الإسكندرية، وكانت حملة السادات التى قادها بعض السياسيين ورجال الدين قوية وموجهة لتغيير الهوية المصرية، ولم يكن الغرض منها توجيه الشعب المصرى إلى مزيد من الإيمان والالتزام بالدين وإنما ضرب الأفكار الليبرالية واليسارية ، وساعد على ذلك الكم الهائل من الأموال التى دخلت مصر لمكافأتها على الانضمام الصريح والتبعية الكاملة للإمبراطورية الأمريكية ولمساعدة السادات فى توطيد نظام حكمه، وصاحب دخول رأس المال الضخم تسيب شديد فى نظام الحكومة والتخلى التام عن الالتزام، وأصبح الفساد والاستفادة المباشرة وغير المباشرة من الأموال الحكومية أو التسهيلات

الحكومية شيئاً عاديا لا يعاقب عليه، بل تم تشجيع البعض على الفساد وكان موقف الحكومة واضحاً، وهو عدم معاقبة أحد ونتج عن ذلك ظهور فروق شاسعة غير مبررة بين الطبقات المختلفة في وقت قصير للغاية، ولم يكن سبب ذلك زيادة فى الإنتاج الزراعى أو الصناعى، بل صفقات تجارية مشبوهة وغير مشبوهة، واستخدم الدين بمهارة شديدة، وتمت الاستعانة بشيوخ لهم جاذبية وحضور فى إقناع الشعب بأن هذه إرادة الله ، وبأن الفروق بين البشر من الطبيعى أن تكون كبيرة، والحساب الحقيقى والحياة الحقيقية هى الحياة الآخرة، وحدثت هزة كبيرة حقيقية غيرت المجتمع المصرى تماماً وأدت إلى ما وصفه بدقة الدكتور جلال أمين فى كتاب ماذا حدث للمصريين.

كانت نتيجة حرب أكتوبر مذهلة فى إحداث بعض التغيرات ، فقد انهمر سيل السياحة العربية التى لم يكن مسموحاً لها بزيارة مصر فى عهد عبدالناصر لأسباب أيديولوجية، وبين ٦٧ و٧٣ بسبب حرب الاستنزاف والاستعداد للحرب ، وكانت مصر لا تزال فى غاية الرخص فى كل شيء، وصاحب ذلك الانتعاش الكبير التدفق الهائل فى الأموال من دول الخليج بعد ارتفاع أسعار البترول الذى تلا حرب أكتوبر فحضرت الآلاف المؤلفة من أبناء الخليج لقضاء إجازات طويلة فى الصيف وإجازات قصيرة فى الشتاء وفى رأس السنة، وانتعش نوع جديد من الاقتصاد لم يكن موجوداً من قبل ، فانتشرت مكاتب السمسرة ، وأصبح المشروع الناجح هو مشروع الشقة المفروشة ومكاتب السيارات، وأصبح التاكسى عملة نادرة للمصريين ، لأن سائقى التاكسيات لم يكونوا- فى معظم الأحوال- يسمحون للمصرى بالركوب، لأن التاكسى كان مؤجراً بصفة دائمة لأبناء الخليج لأنهم يدفعون أكثر، وانتعشت كباريهات شارع الهرم التى كانت حكراً على طبقة الصنايعية وأصحاب الورش الصغيرة ليصبح الشارع المفضل للسياح العرب، وامتلأت مسارح القطاع الخاص على آخرها بالرواد

وأنشئت الفرق المسرحية الهزلية الجديدة وتوارى المسرح الجاد، وبتغير القوانين الجامعية بدأ الاختلال الشديد فى نوعية أعضاء هيئة التدريس يطفو على السطح، وبدلاً من أمثلة ممتازة فى البحث العلمى فى قسم أمراض النساء مثل إبراهيم كمال وعبدالفتاح يوسف وأمثلة ممتازة فى القيادة الحكيمة والخلق كصادق فودة ومحمد الصادق، وأمثلة متميزة فى كيفية القيادة واختيار الأفراد المناسبين والسعى إلى تدريبهم كفؤاد الحفناوى، أصبح المثال الجديد بعض الأساتذة الذين لا يتمتعون بأى قدر من الكفاءة العلمية ولا أى قدرة على البحث العلمى ولا على إدارة مؤسسة علمية، وأصبح التيار الأساسى هو: كيف تكسب أكثر بلغة السوق، واما أخلاقيات المهنة فلا تهم ولا توجد مشكلة فى إهدار كل القواعد الأكاديمية التى تبنى عليها الجامعات، وقد تعلمت هذا الدرس جيدا ، فالتميز العلمى لم يعد يكفى ولابد أن أحقق نجاحاً فى عملى الخاص يعطينى قدراً من الاستقلال الاقتصادى حتى لا أكون كلية تحت رحمة الحكومة ، وفى تلك الفترة بدأ أعضاء هيئة التدريس بكلية الطب فى التخلى بالتدريج عن العمل فى القصر العينى، وأصبح هو المكان الذى يعطيك المكانة العلمية والوجاهة الأكاديمية ويمكنك أن تستغله فى رفع أسهمك فى العمل فى القطاع الخاص، وقد كان ذلك صحيحاً فيما مضى ، فقد كان كل من يعمل بجدية أكثر فى القصر العينى ويدرس للطلبة بكفاءة ويدرب النواب على الجراحات وينظم مرور المرضى للطلبة بانتظام وجدية، كان فى معظم الأحيان ينجح فى عمله الخاص ويبنى سمعته واسمه على رأى الأطباء والطلبة والمرضى والممرضات فى القصر العينى، لكن الأمر تغير الآن ودخلت لغة الإعلام، واصبحت الشهرة فى العمل الخاص تأتى من الصحف ومن التليفزيون ومن العلاقات العامة، وأصبح هذا الطبيب أكثر شهرة، لأنه يجيد هذا الفن الإعلامى و سمعنا عن قضايا دفع فيها الأطباء رشوة ليظهروا فى البرامج التليفزيونية ، وبالتدريج تطور الأمر، فبعد أن كانت لافتة الطبيب لها حجم معين ، وممنوع عليه الإعلان فى الصحف أصبح الإعلان فى الصحافة شيئا عادياً

للغاية، وأصبحت الصفحات المدفوعة الأخرى للإعلان عن الأطباء شيئاً متعارفا عليه، والقارىء لا يعرف أن هذا إعلانا مدفوع الأجر ويعتقد أن الصحف قد أكتشفت فى هذا الطبييب مهارة خاصة، وانتشر البحث العلمى على صفحات الجرائد وفى برامج التليفزيون بالرغم من انعدام الوجود الحقيقى له فى المجلات العلمية المحترمة، وأصبحت الصحف تطالعنا بصورة لهذا الطبيب وذلك العالم الذى حصل على جائزة معهد كذا أو مؤسسة كذا ومعها صورة للطبيب ، والأمر كله فبركة يعلمها جميع العلماء الحقيقيين وأنشئت بعض المؤسسات ـ معظمها أمريكى ـ خصيصاً للنصب على شعوب العالم الثالث فتختار أى عدد من الأطباء وتعطيهم جائزة رجل هذا العام فى العلم ويصدر كتاب به أسماء الحاصلين على الجائزة ونبذة عن علمهم وخلفيتهم، وثمن النسخة نحو خمسمائة دولار يدفعها الطبيب سعيداً ويرسل ما يريد أن يكتب عنه مع صورته ويحتوى الكتاب الفاخر على أسماء وإنجازات الأطباء كما كتبوها هم، أى أن شركة النصب الأمريكية تجمع نصف مليون دولار ليصدر كتاب طبع منه ألف نسخة يتكلف فى مجموعه نحو خمسة آلاف دولار، ويشترى كل محظوظ نسخة واحدة، وربما نسخة أخرى لأصدقائه حتى يقرأ الجميع أنه رجل هذا العام فى العلم وتنهال الإعلانات والتهانى والحفلات، ووثيقة الإثبات كتاب فاخر الطباعة، ومنشور فى الولايات المتحدة أكبر دولة علمية فى العالم، ولا مانع من أن يقوم نفس الناشر بإصدار كتاب آخر تصدره الأكاديمية الدولية أو الأكاديمية العالمية أو أكاديمية نيويورك وغيرها من المسميات الهلامية التى لا تعنى شيئاً فى أمريكا وأوربا، وإنما هى للضحك على ذقون العالم الثالث ويكسبون الملايين بدون مجهود، والطبيب المصرى سعيد بأنه قد تم اختياره من ثلاث أكاديميات وهمية بالإضافة لرجل هذا العام بعد دفع ألفين من الدولارات ثمنا لذلك، وتنشر الصحف المصرية اسمه والتليفزيون يجرى أحاديث معه تروج اسمه، ويربح من ورائها أموالا طائلة على حساب المرضى الذى لا يعلمون أن كل هذا نصب فى نصب، وأنا لا أقول إن الأطباء

عليهم ألا يكتبوا فى الصحف أو يجيبوا على أسئلة الصحفيين، ولا أن يظهروا فى التليفزيون لكن لابد، من إعطاء الفرصة لأى هيئة علمية محايدة فى حق الرد على أشياء غير حقيقية، وعلى الصحافة أن تنشر ذلك، لأن هذه الكتابات غير الحقيقية تعطى آمالاً كاذبة للمرضى وتعرضهم للنصب.

وفى سنوات بسيطة فى تلك الفترة تم تفريغ القصر العينى من معظم أعضاء هيئة التدريس، أصبح الأمر لا ضابط له ولا رابط، وأصبح الحضور منعدماً، فهناك مدرسون وأساتذة يذهبون للقصر العينى مرة كل شهر أو شهرين أو أكثر ، وأحيانا لايذهبون إطلاقاً، وفقد العلم أهميته، وبالتالى فقد القصر العينى مكانته كمؤسسة علمية، فيجد المدرس أنه لا عمل له إذا حضر ولابد أن يكون عنده من المواهب والإصرار ما يجعله يخلق ويبتكر عملاً يفيد الأطباء النواب والمرضى والعلم، وللأسف فقدت الأكاديمية قيمتها فأصبح مدرس الجامعة موظفاً فى مكان متسيب لا أحد يسأل عنه فيه.

ولم يعد يهتم العميد أو رئيس القسم بأى مجهود علمى، وتدريجياً تم إلغاء المرور الإكلينيكى لهيئة التدريس على المرضى وفى بعض من الأقسام، وتدريجيا اختفى الاجتماع العلمى الأسبوعى، وبالتدريج توقف البحث العلمى، ونبقى بعض الأبحاث التى تنشر فى المجلات العالمية فى القليل النادر ومن أفراد معدودين على الأصابع يقومون بمجهودات فردية لوضع اسم مصر على الخريطة العالمية، وقد نجح بعضهم فى ذلك، وربما كان الدكتور محمد غنيم هو الصورة الناصعة فى البحوث العلمية العالمية المشهورة فى مجال أمراض الكلى، وهناك أمثلة أخرى معدودة، وتفككت أوصال الجامعة ووصل إلى منصب الأستاذية عدد كبير لم يحقق معظمهم الحد الأدنى من المستوى المطلوب عالميا للحصول على هذا المنصب، وبالرغم من حصولهم على هذا المنصب –المفروض أن يكون رفيعاً– وذلك بعد القيام بأبحاث متواضعة للغاية

وهم فى أوائل الأربعينات من العمر إلا أن الجميع باستثناءات محدودة يتوقف تماما عن البحث العلمى بقية حياته الجامعية ولا يستمر حتى فى إنتاج الأبحاث المتواضعة التى كان يقوم بها، وتحولت الجامعة إلى مدرسة لا يدرس فيها حتى الأساتذة متواضعو المستوى، ويترك الأمر للمعيدين، وصاحب ذلك الفوضى فى نظم الامتحانات، ونحن نعلم أن الامتحان الشفهى والإكلينيكى فى كلية الطب عليه نسبة مرتفعة من الدرجات، وقد كان هذا الامتحان محترماً إلى حد ما باستثناءات محدودة إلا أن الأمر أخذ فى الانحدار السريع لتتحرك الوساطة، والتى كان معناها أن يمتحن الطلاب أمام لجنة معروفة عن أساتذتها أنهم رحماء ومتساهلون فى إعطاء الدرجات أو اعطاء الطالب بضع درجات أكثر مما يستحقه إلى أن أصبح الواقع أن يحصل الطالب الذى له وساطة على الدرجة النهائية فى جميع الامتحانات الشفهية، على حين كانت الوساطة محصورة فى أعداد قليلة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة انتشرت تدريجيا لتشمل أولا جميع أساتذة الطب وأساتذة الكليات الأخرى وأولاد جميع الشخصيات المهمة ثم وصلت إلى أولاد كل أغنياء مصر، حتى أصبحت نسبة الطلبة الذين يحصلون على الدرجة النهائية فى الامتحان الشفهى تصل إلى أكثر من عشرين بالمائة من أعداد الطلبة ، وقد وصل الأمر أخيراً إلى الامتحان التحريرى، وقد عرض الأمر على المحاكم .. وتدريجيا أصبحت الامتحانات هى الحدث الأساسى للحياة داخل الجامعة، ففى كلية الطب يعقد امتحان البكالوريوس والدبلوم والماجستير بجزئيه الأول والثانى والدكتوراه، وكذلك مرتين فى العام وتقارب مدة الامتحانات حوالى ثمانية أسابيع فى كل مرة، وهى الفترة الحقيقية التى يلتقى فيها أعضاء هيئة التدريس ، لكن للأسف هى أيضاً ــ الفترة التى ينحدر فيها مستوى علاج المرضى ويتوقف جزئيا إجراء العمليات الجراحية وينحدر فيها التدريس للطلبة، وذلك لانشغال الجميع بالامتحانات ، والتى تغير نظامها فى العالم كله وأصبحت طرق التقييم سهلة وأكثر عدالة وأقصر وقتاً، وهكذا سيطر نظام الوساطة والتسيب على كل شىء فى الجامعة

وأصبحت جامعة القاهرة وهى الأكبر والأقدم والأعظم على هذا المستوى من الانحدار، وأصبح تعيين رئيس الجامعة ليس له علاقة بالكفاءة الإدارية أو المقدرة العلمية أو التنظيمية، وكل ما فى الأمر أن له وساطة صنعها بعلاقته الشخصية وتملقه للأكابر أو وضعتها له الأقدار عن طريق القرابة أو المصاهرة، أما فى فيما عدا ذلك فلا شىء يهم فقد سمعنا عن رئيس للجامعة لا يحضر لمكتبه قبل الظهيرة، وهو رجل أعمال يهتم برجال الأعمال قبل اهتمامه بالعمل الأكاديمى والأكاديميين وترك الفساد يعشش فى كل مكان، وسمعنا عن العميد الذى كان يمارس عمله طيلة عمره فى البلاد العربية وعاد ليصبح عميداً ، بل وترك المنصب شاغراً لبضعة شهور حتى تكتمل المدة القانونية لتوليه منصب العمادة، وهكذا انهارت الجامعة طلبة وأساتذة وعلماً وأبحاثاً.

وفى فترة السبعينات تغيرت جنسية الطلبة الوافدين، والذين كان معظمهم فى الستينات من السودانيين و الفلسطينيين مع بعض اليمنيين والليبيين إلى طلبة معظمهم من الخليج: السعودية والكويت والإمارات حضروا إلى مصر فى فترة الرواج المالى الضخم المصاحب لارتفاع ثمن البترول فى السبعينات ، حضروا ومعهم الأموال الضخمة والسيارات الفارهة والكماليات بأنواعها ، فساهموا فى إفساد ضعاف النفوس من أعضاء هيئة التدريس والإداريين، وكذلك أفسدوا بعض الطلاب المصريين الذين صادقوهم للمنفعة والاسترزاق بالفتات، وكانوا مثلاً سيئاً ومهيناً، وما حدث فى الجامعة حدث مثله فى المجتمع المصرى الذى أخذت قيمه تتغير بسرعة فائقة، ولما كانت حرب أكتوبر لم تؤت ثمارها الكاملة على الأقل بالانسحاب الإسرائيلى الكامل من الأراضى المصرية فقد أخذ الشارع المصرى يتململ ، وأخذت الفروق بين الطبقات تزداد والأسعار فى ارتفاع مستمر، وكان الحديث المستمر عن نتائج حرب أكتوبر ومسارها بين معارضى السادات الذين بالغ بعضهم فى تطرفه إلى درجة أنهم ادعوا أن السادات قام بهذه الحرب كمسرحية بالاتفاق مع الأمريكان، وهو تصور

مريض يفوق كل منطق أو عرف أو معرفة بالسياسة الأمريكية التى لا يمكن أن تتخلى عن إسرائيل لحظة واحدة، على حين كانت الأغلبية من المعارضين تعتبر أن السادات لم يستغل نتائج حرب أكتوبر كما يجب، وأنه كان عليه بعد النتائج الباهرة للأيام الأولى من الحرب أن يجعل الجيش المصرى يتقدم ويستولى على المضايق حتى يكون فى موقف أكثر قوة عند التفاوض وأنه كان يستطيع أن يحصل على أكثر مما حصل عليه. وأنا أعتقد أن السادات كانت عنده استراتيجية واضحة رتب لها ونفذها بدقة، وهى العبور ثم التوقف وتحريك المفاوضات، والتحول من سياسته الموالية للشرق إلى سياسة جديدة موالية فقط للولايات المتحدة، وكان منطق السادات وفكره واستراتيجيته تتركز فى تحريك القضية وعبور القناة وفتحها للملاحة، ولا يهم أين يقف الجيش المصرى: هل وصل إلى المضايق أو لم يصل، وقد طبق هذه السياسة لآخر مدى، وعندما وجد أن زيارته لإسرائيل يمكن أن تحقق الانسحاب الإسرائيلى فعلها، واستطاع أن يقنع الرئيس الأمريكى والكونجرس الأمريكى بمجلسيه بأنه رجل أمريكا ومحقق أغراضها والمحافظ على مصالحها فى الشرق الأوسط، وكانت خطته فى ذلك منظمة للغاية بعكس ما يروجه معارضوه فقد قابل جميع أعضاء الكونجرس فى القاهرة فرداً فرداً، واجتمع معهم الساعات والساعات، أما الأعضاء المهمون ورؤساء اللجان فقد زاروا القاهرة عدة مرات، وكذلك كبار الصحفيين والمذيعين اللامعين، وقد كان نتيجة ذلك أن أصبح للسادات بشخصه لوبى فى الولايات المتحدة، وكان أكبر مصادر قوة هذا اللوبى هو زيارته لإسرائيل واستعداده للصلح الكامل معها. واستمر السادات فى استراتيجيته التى خطط لها ونفذها بدقة من قبل بدء الحرب إلى توقيع معاهدة السلام والانسحاب الإسرائيلى من سيناء.

ولا يستطيع أى مصرى وطنى من الذين لا يوافقون على معظم سياسات السادات إلا أن يعترف بأن السادات قد حقق أمنية غالية مهمة، هى استعادة سيناء من فم الأسد الذى كان قد بدأ يبنى فيها المستوطنات، وربما كان قد غطاها بالمستوطنات إذا

لم يتم الانسحاب منها، ويجب أن نعرف أنه من الصعوبة بمكان تصور احتمالات تطور الأحداث التاريخية لو كان التصرف المصرى كان مختلفاً، فالكثير من المعارضين الأشداء للسادات يعتقدون أنه كان بالإمكان تحرير سيناء بالقوة أو بالمفاوضات أو بالاثنين معاً مع الحصول على شروط أفضل لمصر وللقضية الفلسطينية. لا أحد يستطيع أن يدعى أن الآراء المعارضة كانت فعلاً قادرة على ذلك، وأعتقد أن التطورات العالمية وانهيار الاتحاد السوفيتى والكتلة الاشتراكية وسحق حركة عدم الانحياز والصعود غير المتناهى للولايات المتحدة فى الحقبة التالية، كانت ستكون فى غير صالح الوسائل والبدائل الأخرى لاسترجاع سيناء، وربما كانت استراتيجية أنور السادات التى دبر وخطط لها عدة سنوات ونفذها بدقة وصبر أمام الغرور والوقاحة الإسرائيلية هى الطريقة التى عادت بها سيناء الآن فى حضن مصر، لكن ذلك لا ينفى أن سيناء مازالت فى خطر وأن إسرائيل تستطيع أن تعيد احتلالها فى بضع ساعات، وهذا يعنى أننا يجب أن نكون على حذر وأن نقوى من أنفسنا ما استطعنا وأن نملأ سيناء بالبشر، وهى صمام الأمن الحقيقى والأساسى لحمايتها.

أول رحلة للولايات المتحدة

فى تلك الفترة انفتحت أمريكا تماماً على مصر وظهرت المعونات الفنية التى كان بعضها جيدا ومعظمها مظهرى لا فائدة حقيقية منه. فى تلك الفترة حضر الدكتور تيودور برامكى، وهو فلسطينى الأصل من القدس هاجرت عائلته إلى القاهرة عام ١٩٤٧ هرباً من إسرائيل وتعلم فى كلية طب قصر العينى وهاجر إلى أمريكا فى أوائل الخمسينات ، حيث وصل إلى منصب أستاذ بجامعة جون هوبكنز الشهيرة، وكان برامكى يعمل مستشاراً لهيئة أمريكية دولية وحضر لتدريب أعضاء هيئة التدريس المصريين على مناظير البطن وكانت مازالت فى أول عهدها، وبعد ذلك اختار مجموعة للسفر لأمريكا للتدريب لمدة ثلاثة شهور، سافرت لأمريكا لأول مرة فى

حياتى لمستشفى جامعة واشنطن فى سانت لويس فى ولاية ميزورى، وكانت فرصة طيبة للتعرف على المجتمع الأمريكى من الداخل والتعرف على الطب الأمريكى، وكان مجموع المبعوثين فى تلك الدورة عشرة أطباء غيرى، منهم طبيب مصرى من عين شمس وطبيبان من العراق بالإضافة إلى بعض الأطباء من أمريكا الجنوبية وطبيب واحد من جزر تاهيتى.

وبدأت الدورة بامتحان تحريرى لمدة ساعتين تجيب فيه على أسئلة بنعم أو لا على ثلاثمائة سؤال ولم نعرف نتيجة الامتحان ونسيناه، ثم فى نهاية الدورة فوجئنا مره ثانية بامتحان آخر، وأعتقد أنه كان يحتوى على نفس أسئلة الامتحان الأول ، وذلك ليكتشفوا مدى استفادتنا من هذه الدورة ولتقييم طرقهم فى التدريس ومدى فائدتها ،والدورة كانت أكثر من ممتازة من الناحية العلمية، فقد قام بالتدريس لنا أساتذة تم اختيارهم بعناية فائقة فى فروع كثيرة من أمراض النساء والتكاثر البشرى، وبعضهم أصبح من ألمع الأسماء فى العالم بعد ذلك بسنوات، وقمنا بالتدريب العملى بإجراء المناظير على الحيوانات حيث لم يسمح لنا بالتدريب على البشر.

وتمثل مدينة سانت لويس التى قضيت بها ثلاثة شهور إحدى المدن الأمريكية الكبيرة التعداد والتى يمر بها نهر الميسسيبى العظيم، وكعادة المدن الكبرى كانت نسبة الجرائم مرتفعة، وقد نصحونا بألا نخرج فى المساء، وأن نغلق الغرفة بالمفتاح والسلسلة فى الفندق، وألا نفتح لأحد واكتشفت ما حدث للمدن الكبرى فى أمريكا، فباستثناء نيويورك وسان فرنسيسكو وبعض المدن الصغيرة هجر الجميع وسط المدينة الذى كانت به كل الفنادق الكبرى والمطاعم والمحلات الكبيرة، والذى كان يمتلئ بالحياة حين كان المشاة يسيرون وينتقلون من شارع إلى آخر، وانتقل الجميع فى حقبة الستينات والسبعينات إلى خارج المدن تماماً، فالمحلات والمطاعم، وكل شىء انتقل إلى المجمعات الضخمة التى تسمى مول تبعد عن المدينة عشرات الأميال وينتقل

الجميع لهناك بالسيارة لشراء الأكل أو الملابس أو مجرد الفسحة والتجوال، ومطاعم الوجبات السريعة منتشرة هناك لكن لا يوجد أتوبيس أو حتى سيارة أجرة أو أى وسيلة عامة للمواصلات، فالكل يتحرك بالسيارة ، وإذا لم يكن عندك سيارة فأنت غير موجود وحياتك جحيم إن لم تكن مستحيلة، أما وسط المدينة فهو مهجور انتقلت إليه الطبقات الفقيرة والعاطلون عن العمل ونسبة الجرائم فيه مرتفعة للغاية، ولما كان المستشفى والفندق فى وسط المدينة القديم كانت حركتنا شبه ممنوعة، وجاء الإنقاذ على يد زميل وصديق قديم من طب قصر العينى د. على خليف الذى هاجر بعد التخرج بسنتين بعد أن تخصص فى التخدير وكان يعمل إخصائيا فى أحد المستشفيات الكبيرة هناك، فكنا نقضى سويا عطلة نهاية الأسبوع وشاهدت معه بسيارته المدينة المتهالكة الضائعة، وشاهدت المبانى والقصور الجميلة خارج المدينة، وتعرفت على المول لأول مرة، والتى هى الموطن الأساسى الحالى للشعب الأمريكى، وكنت أبيت فى منزله الجميل وأذهب معه للنادى فى عطلة نهاية الأسبوع حيث نلعب التنس ونسبح سوياً.

كانت هذه التجربة هى الأولى لمشاهدة المجتمع الأمريكى الذى كنت أمقته بسبب ما ذقنا منه وما سمعنا عنه من تعسف ومساندة ظالمة لإسرائيل أيام حرب ٦٧ وما قبلها وما بعدها.

وقد اكتشفت أن المجتمع الأمريكى بصفة عامة وباستثناء نسبة محدودة لا يعرف عن العالم شيئاً ، وربما لا يعرف شيئاً خارج الولاية التى يعيش بها المواطن، وكل ما يهم المواطن هو وضعه الاقتصادى وهل أموره المالية تتحسن أم تسوء، والانتخابات المهمة بالنسبة له هى الانتخابات المحلية للقضاة والعمد وربما حاكم الولاية، أما انتخابات رئيس الجمهورية فتأتى فى المرتبة التالية ، والصحافة الأمريكية القوية الكبيرة التى نسمع عنها كثيراً ونقرأها أحياناً مثل نيويورك تايمز وواشنطن بوست لا

أحد يقرأها من عامة الشعب، وكثيرون لم يسمعوا بها ،وهى توزع أساساً فى نيويورك وواشنطن، ويقرأها فقط المهتمون بالشؤون العامة والدولية على مستوى الولايات المتحدة، وتباع فى محلات معينة، فهى جريدة ليست للقارىء العادى، فأنا لم أر نسخة واحدة من نيويورك تايمز خلال ٣ شهور قضيتها فى سانت لويس فى أى مكان عام أو خاص أو أى مكتبة، ولقد رأيتها مرة وحيدة فى منزل الأستاذ رئيس القسم بالجامعة حين دعانا لمنزله للعشاء.

وقد قابلت أمريكيين من ولايات كثيرة لم يخرجوا فى حياتهم خارج الولاية التى ولدوا فيها، والتليفزيون هو الذى يشكل الوجدان الأمريكى فى معظمه موجة أيضاً للأخبار المحلية، أما الأخبار والبرامج الإخبارية القومية والعالمية فيشاهدها ذوو الاهتمامات الخاصة ،وهم يكونون شريحة محدودة من المجتمع ،لكن هذه المجموعة هى التى تحدد وتوجه السياسة الأمريكية داخليا وخارجيا، وهذه المجموعة تلعب فيها بعض الأقليات والأعراق أدواراً كبيرة ولها قوة ضغط هائلة على الحكومة الأمريكية، وأبرز مثال لذلك المنظمات اليهودية الأمريكية، وإذا قارنت فارق الحياة بين أوربا وأمريكا ففى تقديرى أن جودة الحياة أرقى بكثير من أوربا، فأنت تستطيع أن تمشى على قدميك لترى مدينتك العريقة وتتجول فى أزقتها وتشاهد مبانيها وتجلس على مقهى صغير لتقرأ الجريدة التى يقرأها كل الشعب أو نصفه أو ربعه على أقل تقدير، وأنت آمن فى بيتك وفى شارعك تغطيك مظلة هائلة من التأمين الصحى ومظلة هائلة لتعليم أولادك مجاناً أو بقروض ميسرة، صحيح أنك سوف تسكن شقة فقط ولن يتضخم حسابك فى البنك، لكن إذا كنت أجنبياً مهاجراً فربما كانت أمريكا أحسن لك فسوف توفر لك فرصة هائلة متساوية إلى حد كبير إذا كنت مثابراً، وليس هناك سقف أو حدود لارتفاعك فى المجتمع الأمريكى الذى يتساوى فيه الجميع فى الجيل الثانى وعلى الأكثر فى الجيل الثالث.

وبينما كنت فى سانت لويس فجأة أذيع نبأ زيارة أنور السادات لإسرائيل وحدد توقيت الزيارة ليتناسب مع المجتمع الأمريكى فتمت فى يوم عطلة وفى الوقت الذى يتجمع فيه معظم الشعب الأمريكى أمام التليفزيون، وأعتقد أن التوقيت وطريقة عرض الزيارة تم تخطيطها لتكملة خطة السادات فى الوصول للشارع الأمريكى عن طريق نجومه ومؤسساته فى واشنطن، وجلست فى غرفتى فى الفندق لا أتحرك أشاهد زيارة السادات للقدس على الهواء مباشرة، وكانت تقام مباراة مهمة جداً فى البيسبول فى نفس توقيت الزيارة فوقف المذيع يسأل الناس عند دخولهم لمشاهدة المباراة عن زيارة السادات فلم يعرف الكثيرون من هو السادات أو بيجن وما هى المشكلة بالضبط.

وقبل عودتى لمصر قمت بعمل جولة فى نيويورك وواشنطن لزيارة معالمها ومتاحفها العظيمة ، وكان انبهارى بمتحف المتروبوليتان بنيويورك وكذلك متحف جوجنهيم عظيماً، وشاهدت المعبد الفرعونى الصغير الذى أعيد بناؤه داخل المتروبوليتان والذى أهداه عبدالناصر لهم مكافأة على مساعدتهم فى إنقاذ آثار النوبة ، وتدهش عندما تعرف أن البعثات الأمريكية للآثار كانت تنقب وتبحث وتكشف وتحمل إلى متاحفها الآثار المهمة لمدة ما يقرب من مائتى عام ، أما مجموعة متاحف سميسونيانز فى واشنطن فهى مجموعة رائعة تضم التقدم العالى فى البيولوجيا والبحث العلمى والاختراعات المختلفة.

وعدت من أمريكا للقاهرة بعد أن تعلمت الكثير في الطب والحياة لكن الحياة الأمريكية لم تبهرنى قط، فكل شيء عندهم موجود فى أوربا، لكنه فى أمريكا أكبر وأكثر وأضخم، أما عراقة الثقافة والفن وطريقة الحياة فى أوربا فتفوق أمريكا بمراحل، وعموماً هذه وجهة نظرى التى قد يختلف معها الكثيرون.

نقابـة الأطبـاء

وفى منتصف السبعينات تلقيت دعوة من د. محمد شعيب أستاذ الأمراض الجلدية الذى أصبح عميداً لطب المنوفية، وذلك للاجتماع مع اللواء عبدالمجيد لطفى رئيس الخدمات الطبية بالقوات المسلحة ونائبه اللواء محمد عبدالوهاب لأمر مهم، وفعلاً ذهبت للمقابلة فوجدت مجموعة من الأطباء من بينهم د. عوض تاج الدين وزير الصحة الحالى والدكتور محمد الحفناوى والدكتور خليل اللمعى عضو مجلس الشعب الحالى، وعلمت أن الدكتور عبدالمجيد لطفى قرر أن يرشح نفسه نقيباً لأطباء القاهرة، وأنه قرر أن يبحث عن وجوه جديدة تدخل معه الانتخابات بقائمة موحدة ، وكان الدكتور لطفى لطيف المعشر يتكلم بأدب وحساسية شديدة ، لم يكن سياسياً محترفاً وليس له اهتمامات خاصة بالنقابة ولا تطلعات ، وفهمت بعد ذلك أن المجموعة التى تريد أن تنجح فى الانتخابات وتسيطر على النقابة أرادت وجهاً جديداً له منصب كبير وفى نفس الوقت سمعته طيبة، يستطيع أن يقف أمام الجبهة القوية التى يرأسها الدكتور المعتز والذى كان وكيلا أول لوزارة الصحة وكان ينجح بصفة دائمة مع مجموعة معينة لمجلس النقابة.

وسألت عن عدد الأصوات التى حصل عليها المرشحون الفائزون فى الانتخابات السابقة فوجدت أن العدد كان ضئيلا للغاية ، وأنه لا أحد يهتم من الأطباء بالذهاب لصندوق الانتخابات. بدأت حملة انتخابية منظمة لم أشترك فى تنظيمها ، وإنما شاركت بالذهاب مع المجموعة والتحدث فى بعض الأحيان. وكان لوجود الدكتور لطفى على رأس القائمة والقدرات التنظيمية للدكتور شعيب وأعوانه من محترفى الانتخابات أهمية قصوى فى تنظيم اجتماعات فى جميع مستشفيات القوات المسلحة فى أماكنهم ومستشفيات التأمين الصحى والمؤسسة العلاجية والجامعات المختلفة، أما مستشفيات وزارة الصحة فقد اعتبرت أننا جبهة معادية، لأنها من المفروض أن تؤيد

قائمة وزارة الصحة، وقامت مجموعتنا بطبع لافتات دعائية وأوراق انتخابية كثيرة وزعت بالبريد وفى المستشفيات المختلفة، وسمعنا يوم الانتخابات أن عدد الأطباء المشاركين لم يسبق له مثيل من قبل، فحضرت أتوبيسات بأطباء القوات المسلحة و التأمين الصحى والمؤسسة العلاجية، وكانت النتيجة نجاح هذه الجبهة وسقوط وكيل أول وزارة الصحة وكل المجموعة المرشحة معه. ولأول مرة أعرف من الداخل أمور اللعبة الانتخابية وقواعدها، وكانت براعة محترفى الانتخابات من مجموعتنا أن وزعوا قائمة مطبوعة على الجميع قبل الانتخابات بيوم، وحضر الجميع لنقل الورقة داخل اللجنة، وكان اختيار المرشحين فى هذه المجموعة يوحى بالخبرة الانتخابية، حيث حرصوا على وضع اسمين من القوات المسلحة ومرشح من القصر العينى واثنين من عين شمس وواحد من المؤسسة العلاجية وآخر من التأمين الصحى بالإضافة لمرشحين من وزارة الصحة.

وبعد ظهور النتيجة واكتساح مجموعة اللواء لطفى اجتمع المجلس لانتخاب رؤساء اللجان وانتخبت مقرراً عن اللجنة العلمية، وبدأت فى إقامة ندوات علمية فى مستشفيات الصحة، لكن الأمور لم تسر حسب ما أبغى ، لأن وزارة الصحة اعتبرت أن مجلس النقابة الحالى معاد للوزارة ، لذلك لا يرحب بنشاط علمى له داخل مستشفيات الوزارة، وتطور الأمر من سيىء إلى أسوأ حتى وجدت أننى لا أستطيع أن أفعل شيئا وأن الأمور كلها مظهرية فقدمت استقالتى بعد سنة ونصف السنة، للدكتور لطفى ، لكنه وضعها فى الدرج ورفض الموافقة عليها ، أصررت على ذلك وتوقفت عن الذهاب للنقابة، وقد كان هذا المجلس الذى أكمل مدته وهى أربع سنوات هو آخر مجلس قبل اكتساح الجماعات الإسلامية جميع مقاعد النقابة على جميع المستويات فى الانتخابات التالية.

وبالرغم من عدم وجود ارتباط مباشر لى أو غير مباشر بالنقابة بعد ذلك إلا فى الاشتراك فى النشاطات العلمية ، وبالرغم من موقفى الواضح والمعلن بأننى أومن بأن

الدين لله والوطن للجميع وأن كل أفراد الشعب بطوائفه المختلفة يجب أن يمثلوا فى كل التنظيمات الشعبية والحكومية وأنه لا فارق عندى بين مسلم وقبطى ـ ولم يكن فى أى وقت عندى هذا الشعور فكلهم مصريون قد يكونون محترمين أو غير محترمين حسب تصرف كل فرد منهم ـ ولا أومن بالدولة الدينية وإنما بالدولة المدنية التى يحكمها قانون من صنع البشر ـ وبالطبع يمكن أن تكون بعض أجزاء منه مستمدة من شرائع سماوية ـ وبالرغم من عدم موافقتى ، بل وكراهيتى لكل حوادث العنف والإرهاب التى تمت بحق المصريين جميعاً من الجماعات الإسلامية تاريخيا وخلال حقبة الثمانينات والتسعينات خاصة، إلا أننى يجب أن أعترف أنه بالرغم من سلبيات وجود نقابة يتحكم فيها بالكامل تيار دينى إلا أن هذا المجلس كان له السبق فى القيام بخدمات كثيرة للأطباء من أهمها مشروع التأمين الصحى على الأطباء وعائلاتهم والذى حقق نجاحاً كبيراً، بل وكان المثال الذى طبقته باقى النقابات، وهذا النظام لم يخدم الأطباء وعائلاتهم فقط، بل منع المغالاة فى أجور الأطباء وحد من رفع أسعار العلاج بالمستشفيات الخاصة وأسعار التحليلات والأشعات، وإذا كان الطبيب يقبل أن يعالج بأسعار النقابة فإنه لا يستطيع أن يطلب أجراً مضاعفاً عشر مرات، وقامت النقابة أيضاً بعمل دورات تدريبية طبية وسلسلة من المحاضرات العلمية وكذلك مؤتمر علمى سنوى، وذلك بالإضافة إلى بعض الخدمات الأخرى كالمصايف والرحلات وغيرها. وفى الحقيقة لا يمكن إنكار أن النقابة قد فاقت كل المجالس السابقة على وصول الجماعات الإسلامية إلى قيادة النقابة.

وأعتقد أنه فى الآونة الأخيرة بدأت النقابة تتخلى عن بعض السلبيات التى أثرت على صورتها مثل فصل الطبيبات عن الأطباء فى المؤتمرات والاجتماعات العلمية، وهم يعملون جنباً إلى جنب فى العيادة والمستشفى ويساعدون بعضهم البعض فى إجراء نفس الجراحة.

وبدأت نغمة التشدد فى كل شىء تخف وأصبحت القرارات بها الكثير من العقلانية، وأرجو أن أرى مجلساً للنقابة به أطباء أقباط وطبيبات وأعضاء ليسوا من الجماعة الإسلامية. هذا التعدد فيه مصلحة للجميع، للنقابة ولمصر وحتى للجماعات الإسلامية نفسها.

النشاط الثقافى و الرياضى فى الجامعة

فى نهاية السبعينات انتخب هاشم فؤاد عميداً لطب القاهرة ، وكانت الجماعات الإسلامية فى عز عنفواتها داخل الحرم الجامعى ، والمعارك العلنية والسرية تدور بين إدارة الجامعة وبين زعماء الجماعات الإسلامية، وقامت الحكومة بتغيير قوانين الانتخابات الطلابية التى لم تصبح تحت سيطرتها بعد فوز الجماعات الإسلامية بمناصب الاتحاد، فجعلت وكيل الكلية لشئون الطلبة – وهو الدكتور عبدالمنعم حسب الله أستاذ الأمراض الباطنية – مسئولا ومشرفاً على اتحاد الطلبة الذى فقد سلطاته وأصبحت فى يد رائد الاتحاد، وقامت الجامعة باختيار رواد لكل نشاط بالكلية، وطلب منى هاشم فؤاد العميد أن أكون مسؤولاً عن النشاط الرياضى فى الكلية ، وقد كنت مهتماً بهذا النشاط متطوعاً لعدة سنوات قبل ذلك، وقبلت المهمة ، وكانت هناك مشاكل كبيرة اكتشفتها ولم أستطع أن أجد حلولاً لها ، فالميزانية الرياضية بالكلية معظمها موجه نحو ملابس ومعدات الفرق الرياضية التى تشترى بمناقصات عن طريق الجامعة، وكانت كبرى المشاكل توزيع الملابس والأحذية على الفرق الرياضية، ومن له الحق ومن ليس له الحق، وكانت هناك معركة أخرى تدور بين الاتحاد وبين الكلية، فالجماعة الإسلامية ترفض أن يستمر النشاط الرياضى للفتيات، والكلية ممثلة فى فؤاد هاشم وبصفتى مشرفاً على النشاط الرياضى كنا مصرين على استمرار النشاط للطالبات، وقد استنفدت هذه المعارك الجانبية وقتاً طويلاً ومجهوداً

ضخماً لا داعى له، وفى ذلك الوقت تم القضاء تماماً على كل الملاعب الرياضية بالقصر العينى بعد إقامة إنشاءات ومبان وانتقل النشاط الرياضى إلى ملاعب الجامعة ،وحاولنا قدر ما استطعنا أن نثير الحماس فى الطلبة والطالبات للاشتراك فى هذا النشاط، وأقمنا دورات اشترك فيها الأساتذة مع الطلبة لكن للأسف كان معظم الوقت والمجهود يضيع فى أشياء جانبية كطول الشورت أو نوع البنطلون وغير ذلك من الأشياء التى اعتبرها أعضاء الاتحاد من الجماعات الإسلامية أخطر وأهم الأشياء.

وفى تلك الفترة وصلنى خطاب من الدكتور صوفى أبو طالب وكان رئيسا للجامعة بأنه قرر اختيار عشرة مستشارين له للشئون الطلابية وأنه اختارنى نظراً لنشاطى فى الطب مستشاراً للشؤون الرياضية، وأذكر أنه اختار مصطفى السعيد مستشاراً للشؤون السياسية، وكان الدكتور على المرسى الأستاذ بالعلوم مسئولا عن المستشارين ، وفوجئت بأننى مسئول عن النشاط الرياضى بالجامعة كلها، واكتشفت بسرعة فائقة أن هذه مهمة لا يمكن أن أقوم بها، لأننى لست خبيراً فى ذلك وأن هناك هيئة كبيرة من المحترفين يرأسها وكيل وزارة للإشراف على النشاط الرياضى بالجامعة، فقابلت الدكتور صوفى وعرضت عليه إعفائى من هذا الأمر إلا أنه صمم على أن أبقى على الأقل ستة شهور، وقد علمت بعد ذلك أن نشاطى الرياضى فى كلية الطب لم يكن السبب فى اختيارى وإنما كان السبب هو وجود د. حسين ابن الدكتور أبو طالب فى الأسرة التى كنت رائدها فى الكلية، وكان طالباً نشيطاً وأنه رشحنى عند والده باعتبار أننى سوف أسعد بذلك، وحسين صوفى الآن أستاذ للمسالك البولية فى جامعة بنها.

وبدأ النشاط برحلة قررتها الجامعة للفرق الرياضية الفائزة ببطولة الجامعات و اشترك فى هذه الرحلة أعضاء اتحاد الطلاب ، وكان منهم رئيس الاتحاد حمدين الصباحى الناصرى عضو مجلس الشعب الآن و منهم المخرج الموهوب مجدى أحمد على وكان رئيساً لاتحاد كلية الصيدلة و كانت الرحلة إلى قبرص و استمرت خمسة

أيام و تعرفت على هذه المجموعة من طلبة الجامعات و التى ، زالت تربطنى بهم علاقة من الود حتى الآن.

وكانت أول مهمة رسمية هى الاشتراك فى بعثة يرأسها الدكتور على المرسى مع المنتخبات الرياضية فى جامعة القاهرة، وذلك لإجراء بعض المباريات الرياضية مع جامعة طهران.

وأصل الحكاية أن شاه إيران السابق أثناء زيارته لمصر قامت زوجته الشاهبانو بزيارة جامعة القاهرة، وتم التوقيع على اتفاقية إخاء بين جامعتى طهران والقاهرة وأن تكون بداية النشاط المشترك إجراء لقاءات رياضية بين الجامعتين وكانت الاتفاقية تحت رعاية الشهبانو.

وبالاضافة للدكتور المرسى رئيس البعثة كنت نائباً له ومعنا ممدوح مندور الذى كان رئيس اتحاد الطلبة فى ذلك الوقت، وكان على علاقة وثيقة بحزب مصر وساعدته حكومة السادات فى تولى منصب رئيس اتحاد طلبة جامعة القاهرة بعد أن تمت تصفية الاتحاد السابق الذى كان يرأسه الناصرى حمدين صباحى بالإضافة إلى مجموعة من الطلبة الذين يغلب عليهم الطابع اليسارى وفى مطار القاهرة اتضح أن رئيس البعثة وأنا نائبه نحمل جوازت سفر عادية على حين كان ممدوح مندور يحمل باسبورت أزرق خاصا بالمهمات الرسمية وكان لا يزال طالباً وكان ذلك يعنى أنه عضو مهم فى حزب مصر.

كانت البعثة كبيرة يقدر عددها بنحو ٢٠٠ فرد ثلثهم من الفتيات الرياضيات، واكتشفت أن حوالى ربع البعثة من طلبة وطالبات ليست لهم أى علاقة بالرياضة من قريب أو من بعيد وأنهم ذهبوا بالاتفاق مع المشرفين الرياضيين الذين كتبوا أسماءهم كأعضاء فى الفرق المختلفة.

وفور هبوطنا فى مطار طهران الدولى كان فى استقبالنا مندوب عن جامعة طهران علمت فيما بعد من ممدوح مندور أنه عضو فى المخابرات الإيرانية الرهيبة السافاك، وانتقلنا بعد ذلك بأتوبيسات إلى المدينة الجامعية وكانت خالية بسبب الإجازة الصيفية ، وحضر مندوب الجامعة والتقى بالمسئولين عن الرحلة وناقش معنا البرنامج المطبوع، والذى ليست فيه لحظة واحدة خالية من الصباح حتى المساء ما بين مباريات وزيارات للأماكن السياحية أو القصور الملكية ثم رحلة إلى أصفهان وشيراز، وكان برنامج الرحلة طويلاً لمدة ١٠ أيام، وبعد يومين من الوصول شعر الطلبة بالملل وأرادوا أن يخرجوا إلى الشوارع بعيداً عن البرنامج الموضوع، لكن المرافق الإيرانى كان مصراً على الالتزام بالبرنامج، وتحدثت معه كثيراً بأن من حق الطلبة أن يتفرجوا على المدينة ويتجولوا كما يتراءى لهم، لكنه رفض لأسباب واهية.

وقد اتضح أن السبب الحقيقى لرفضه هو الوضع السياسى المتردى فى الشارع الإيرانى، فيوم وصولنا لإيران علمنا أن اثنين من الدبلوماسيين الأمريكيين قد قتلا فى الشارع بالرصاص ولم يقبض البوليس على أحد، واستمر الحصار الإيرانى الرسمى للبعثة المصرية الضخمة داخل الأتوبيسات التى تنقلنا من مكان لآخر، وقد قابلنا مع بعض مندوبى الطلبة الشاهبانو التى بعثت بتحية خاصة للسيدة جيهان السادات، وعند ذهابنا لأصفهان انفك العقد وانطلق الطلبة والطالبات إلى الشوارع وأصبح جمعهم مرة أخرى غاية فى الصعوبة، خاصة

فريق كرة القدم الذى لم يلتزم بأى مواعيد حتى تأخرنا أربع ساعات كاملة عند مغادرة أصفهان فى انتظارهم، وأرسل المرافق الإيرانى سيارات بالميكروفونات للنداء عليهم فى الأسواق، وقد كان لاعبو كرة القدم معظمهم يلعبون فى الدورى الممتاز فى الأندية المختلفة، وهم فى نفس الوقت طلبة فى الجامعة، وفى الظروف العادية يرفضون تمثيل الجامعة ضد الجامعات الأخرى محلياً، لكن عند السفر طلبوا جميعاً

المشاركة فى البعثة الرياضية وجاءت بعثة كرة القدم كلها محملة بالسجاجيد الإيرانى، وفى شيراز لم يذهب إلا قلة من الطلبة معى لزيارة قبر حافظ الشيرازى أو بعض الأماكن التاريخية المهمة، والملاحظة العامة أن شوارع جميع المدن الإيرانية بما فى ذلك طهران كلها مليئة بالحفر والمطبات وتسودها الفوضى التى لا حدود لها، فالشارع المصرى المضطرب بفوضى السيارات التى تسير على هواها بدون روابط يعتبر منتظماً بالنسبة للشارع الإيرانى، وكانت إيران تعتمد على نظام المجارى المفتوحة، وهى عبارة عن حارات على جانبى الشارع مفتوحة تجرى فيها مياه صرف، وعدد الحوادث فى المدينة ضخم للغاية ، لكنها فى معظمها حوادث محدودة الخطورة بسبب الزحام الشديد وعدم القدرة على الإسراع، وقد قام أحد الأتوبيسات التى تقل الطلبة بالاصطدام بسيارة أخرى، وفى حادث آخر اصطدم أوتوبيس الطلبة بكوبرى صغير محدثا إصابات بالغة بالسيارة، لكن دون إصابات بشرية، أما الطريق الصحراوى بين طهران وأصفهان فهو طريق سيىء وتوجد به محطة واحدة للخدمة بها كافتيريا بدائية. فالواضح أن الشعب الغنى بالبترول كان فى حالة من الضنك الواضح على حين أن أمواله تصرف على الأسلحة والبذخ وأجهزة المخابرات والتعذيب. وقد قامت الثورة الإيرانية بعد بضعة شهور من انتهاء بعثتنا الرياضية لإيران.

ومن الغريب أننى زرت إيران حديثاً عدة مرات لحضور مؤتمرات طبية آخرها هذا العام ولم ألاحظ فارقا فى شكل المدينة، فشوارعها مثل شوارع أحياء القاهرة والفوضى فى المرور والزحام وعدم النظام لاتزال تفوق مثيلتها فى القاهرة. وفى الزيارة الأخيرة لإيران دعينا إلى منزل أحد الأطباء ، ومنزله من الخارج شكله عادى مثل آلاف العمارات الموجودة فى القاهرة، لكن من الداخل كان شقة فسيحة مفروشة بالسجاد العجمى الفاخر وبها من الأثاث القديم الفاخر والنجف والكريستيلات الشىء العظيم، وكانت السيدات يرتدين أحدث الملابس الأوربية، ولا أحد يلتزم بزى معين أو حجاب

ويعرضون على الحاضرين المشروبات الكحولية لمن أراد، وقد علمت أنه فى السنوات الأخيرة حدث اتفاق غير مكتوب بين الحكومة الإسلامية و الشعب على أن يرتدى الشعب فى الشارع الزى المحدد إسلاميا، أما فى البيت فالناس أحرار يفعلون مايشاءون ، وبالرغم من ذلك بدأت الكثير من الفتيات لايتقيدن بهذا اللبس تدريجيا فى الشارع ويكتفين بغطاء خفيف يغطى جزءاً من الشعر، وبدأت تظهر الألوان فى ملابس السيدات والرجال، بعد أن كان اللون القاتم الأسود أو الكحلى هو اللون الوحيد المسموح به ، لكن الزى الإسلامى مازال ضرورياً أثناء زيارة الأماكن الحكومية، فمثلا نظم أحد الأطباء باتصالاته الشخصية زيارة خاصة لى لمتحف طهران القومى وكانت الزيارة بعد ميعاد العمل الرسمى، وقد حضر من عيادته ليصحبنى للمتحف وعلى باب المتحف خلع رباط عنقه وألقاه داخل السيارة وقال لى إنه غير مسموح بارتداء رباط العنق فى الأماكن الرسمية، وطبعاً متحف طهران مكان رسمى إلا أنه فى عيادته الخاصة لا يقابل مرضاه إلا وهو مرتد رباط العنق.

وباستثناء بعض المظاهر الإسلامية لم ألاحظ فارقاً بين زيارتى أيام الشاه والزيارات الحديثة فى القرن الواحد والعشرين. تستطيع أن تحس بأن الشعب الإيرانى شعب عريق ذو حضارة قديمة من خلال بعض التصرفات البسيطة من رجل الشارع، وتحس بهذا أكثر عندما تقابل المثقفين الإيرانيين. وفى أثناء زيارتى الأولى لإيران مع رحلة الطلبة اتصلت تليفونيا بالسيدة ماهشيد ، وهى سيدة إيرانية متزوجة من أستاذ أمراض نساء مصرى هو عز الدين عثمان منذ زمن طويل وتقيم فى القاهرة. وكانت بالمصادفة تزور أهلها فى طهران وقد حددت لى يوماً لزيارتها أثناء تواجدى فى طهران، وفى ذلك اليوم اتصلت بى تليفونيا فى الصباح وأخبرتنى أنها مدعوة لحفل زفاف ابن أحد كبار تجار البازار الإيرانى الأغنياء وأنها اعتذرت عن الحضور لارتباطها بموعد معى فى منزلها، وعندما علم أهل العريس بذلك أصروا على حضورها وعلى توجيه دعوة لى لحضور الفرح، وفعلا مرت على ماهشيد بصحبة

والدها ووالدتها، وذهبنا نحن الأربعة إلى منزل عائلة العريس حيث يقام الفرح، صعدنا إلى هضبة عالية لأكتشف أننا فى حى راق كله قصور وفيلات والهدوء يخيم عليه والحدائق الغناء تحيط بالمبانى الجميلة ، فقد كان مكانا مختلفا تماماً عن طهران التى رأيتها فى الأيام السابقة، وفى هذا الحى الراقى يقع قصر إقامة الشاه وكبار الحكام والأغنياء، ويمكن أن تقارن هذا الحى بالمعادى أو جاردن سيتى فى الزمان الغابر، بينما بقية طهران بميدان السيدة زينب أو شارع الموسكى أو حى عابدين، ودخلنا القصر الكبير ذا الحديقة الضخمة لأكتشف أن عدد المدعوين نحو ألفين، والحديقة مليئة بالتماثيل المصنوعة من الثلج ينصهر الثلج تدريجيا وينساب الماء من حول كل تمثال، وكان عدد التماثيل يقدر بالمئات، وكانت الحديقة مقسمة إلى أربعة أو خمسة أقسام فى كل قسم منها نوع خاص من الغناء والموسيقى أحدها فيه غناء إيرانى قديم، والآخر فيه مطربة قيل لى إنها تماثل أم كلثوم عندنا فى الشهرة والقيمة، وركن للموسيقى الشرقية، وآخر لموسيقى الجاز أو الرقصات السريعة وآخر للموسيقى الهادئة، ولا تشوش الموسيقى فى مكان على الآخر رغم وجود الحفل فى الهواء الطلق، أما الطعام والشراب فمن كل صنف ومن كل لون يمكن أن تتخيله، البعض صنع فى طهران والبعض وارد باريس أو غيرها، والأغلبية ترتدى الأزياء الحديثة للنساء والرجال والأقلية ترتدى الحجاب أو العباءة.

لم أر ولم أسمع حتى فى الأفلام عن شىء من هذا القبيل أو هذا المستوى من البذخ وأنا واثق أن معظم من كانوا فى الفرح قد هاجروا بأموالهم إلى كاليفورنيا حيث الجالية الإيرانية الضخمة، ولتذهب إيران العريقة للجحيم. وأنا أعتقد أن أكثر الأفراح المصرية رفاهية وبذخا والتى تقدر مصاريفها بالملايين ـ لا ترقى لمستوى هذا الفرح.

وقد زرت إيران مرة أخرى لمدة أسبوعين بعد ذلك بفترة قصيرة وذلك لحضور ورشة عمل للتعليم الطبى تابعة لمنظمة الصحة العالمية لتدريب معلمى الطب على وسائل التدريس والتعليم الحديثة فى مدينة شيراز، وهناك شاهدت عن قرب طبقة

المتعلمين والمثقفين الإيرانيين الذين كانت لهم رحلات ثقافية بأوربا وخاصة ألمانيا وشاهدت الفقر والجهل فى الشارع الإيرانى، لكن الملاحظة الواضحة أن الكل كان يكره الشاه ويخاف منه ومن نظامه الرهيب ، وفعلاً بعد عودتى بثلاثة أسابيع انطلقت الثورة الإيرانية وحضر الخومينى وغادر الشاه إلى غير رجعة.

فى تلك الفترة من التاريخ دخلت مصر عصر الانفتاح من أوسع أبوابه وحدثت طفرات هائلة فى أسعار كل شيء بدءاً من ثمن الأراضى ونهاية بأبسط أنواع الأكل، ولم يشعر العامل أو الفلاح أو الموظف المصرى بتحسن فى أحواله الاقتصادية، بل بالعكس ساءت أحواله لارتفاع الأسعار مع ثبات الدخل، وزاد الطين بلة ظهور مواد وسلع استهلاكية كثيرة مع تقدم كبير فى فن الإعلان عنها صاحبه طلب على أشياء غير ضرورية، لكنها مكلفة وارتفعت أجور بعض العمال الفنيين، وأصبحوا نادرين لسفر معظم العمال المهرة إلى الخليج، وحدث رواج عند فئة من الشعب انضمت إلى رجال الأعمال ، بعضهم كان كبيراً والبعض كان أصغر، وحدث انتعاش فى الأحوال الاقتصادية لفئة من المهنيين كالأطباء والمحاسبين والمهندسين الذين يتعاملون مع الأغنياء الجدد بدرجاتهم المختلفة، وفجأة اتسع الفارق بين الغنى والفقير ، وتضاعفت ثروات بعض التجار عشرات المرات فى مدة قصيرة، وشجع ذلك على البذخ الشديد الذى كان يعلن عنه على الملأ، فأثار ذلك حفيظة الفقراء والطبقة المتوسطة التى أخذت تتآكل بسرعة فائقة، وانضم معظم أفرادها إلى الفقراء، وتسلق القليل منها جبل الأغنياء كبعض المهنيين أو الموظفين الذين صعدوا على كفوف الرشوة والفساد ومشاركة التجار فى الصفقات ليسهلوا لهم الإجراءات وتكونت شركات مقاولات كبيرة ، أصحابها كانوا مديرين ووكلاء وزارات فى الإسكان ، وشركات تجارة أصحابها كانوا مديرين فى التموين، وعلى نفس المنوال توالت سلسلة الفساد وانطلقت كالصاروخ لتقضى على مستقبل مصر نهائيا، وليعشش الفساد فى كل مكان من أرض مصر

المحروسة، والغريب أن أنور السادات لم يعتقد أن الفساد يعتبر مشكلة كبرى، وأذكر بعض التصريحات التى تقلل من أهمية الفساد وتعتبره مشكلة بسيطة ، فقد فوجىء أنور السادات بأحداث ١٧ و١٨ يناير ، وكنت أسكن فى مدينة الأوقاف وعندما كنت فى زيارة لوالدى فى شارع الدقى شاهدت اندلاع الأحداث وخروج المظاهرات فى الشوارع تهتف بسقوط الغلاء ومسببيه، وهم بالطبع يقصدون السادات ويقال إن السادات كان فى أسوان فى ذلك الشتاء ولم يصدق عندما سمع هدير الهتافات بأذنيه، وكان يعتقد أن كل هذا الأمر من تدبير الشيوعيين الذين كان يمقتهم، وفى حقيقة الأمر كان يكره كل ما هو اشتراكى أو يسارى أو يطالب بالعدالة الاجتماعية.

وكان السادات دائما يريد أن يظهر بمظهر الرئيس الديموقراطى وكانت عيناه فى كل قرار اتخذه منذ أن تولى الحكم وحتى أحداث سبتمبر ١٩٨٠ -على الولايات المتحدة وماذا تقول وما هو رأيها وهل سوف تعجب بقرارى، ولم تكن عيناه قط على شعبه ، وإنما كان دائماً ينتظر رد الفعل الغربى لقراراته و صيحات الأعجاب به و بنظامه لذا كانت صدمته كبيرة ولم يصدق أن الانتفاضة التى أطلق عليها اسم انتفاضة الحرامية موجهة ضد نظامه وضد الفساد الذى بدأ فى الظهور كالسرطان فى عصره.

وفى عهد عبدالناصر كانت الصحافة موجهة بالكامل وكان الأستاذ هيكل هو الصحفى الأكبر والأعظم وبقية الصحفيين فى مرتبة أخرى ، وكان الصحفيون لايمكنهم الكتابة إلا فى حدود معينة وبعد أخذ الإذن إذا أرادوا أن يتخطوا هذه الحدود. أما فى عصر السادات فكانت الصحافة فى مصر تقوم بالنقد بحرية أوسع عن عصر عبدالناصر ، إلا أنه أستخدم طرقاً مختلفة فى منع الكاتب أو إغلاق الجريدة بطريقة قد تبدو ديموقراطية لكنها فى الحقيقة غير ذلك. وترك المعارضين من الصحفيين والكتاب يخرجون من مصر وشجعهم على ذلك وقطع أرزاقهم فى العمل، وكان يملأ

الدنيا ضجيجاً بأن هذا هو عهد الحرية للشعب كله، وفى بعض الاحيان قام بالقبض على الصحفيين وسجنهم بالقانون كما كان يقول، لكن للحقيقة أن السجون كانت أرحم ومدة الحبس عموماً كانت أقصر، لكن الحقيقة المرة أنه لا حرية صحافة ولا حرية فكر حقيقية فى كلا العهدين.

فى تلك الفترة بدأ عملى بالعيادة ينتعش وأصبحت مشغولاً إلى حد كبير ، وأصبح عندى فائض من الإيراد، وتوقفت عن الاقتراض من والدى، وأصبح عندى فائض يمكننى من السفر للإسكندرية فى الصيف وتدبير مبلغ للسفر إلى الخارج كل عامين مع الأسرة. وفتحت حساباً فى البنك لأول مرة فى حياتى وأودعت فيه مبلغ خمسمائة جنيه، وكنت أواظب على عملى فى القصر العينى وإعطاء المحاضرات الإضافية للطلبة لأعداد تفوق المائتى طالب يملأون قاعة المرضى مرتين أسبوعياً.

وتذكرت أيام ١٩٦٧ عندما كنت معيداً بالقسم وعرض على عمل إضافى كإخصائى لأمراض النساء فى مستشفى مصانع الطائرات فى حلوان ، وكان فى الأصل فندقا تم تحويله إلى مستشفى تابع للعاملين فى مصانع الطائرات ، وكنا مجموعة من حوالى ثمانية أطباء فى تخصصات مختلفة، منهم د. سمير أبو زيد فى الجراحة وأحمد زعفان فى العظام وحسنى شاهين فى الباطنة وأنا فى أمراض النساء، وكنت أذهب بسيارتى إلى محطة باب اللوق وأركب القطار إلى حلوان ، وأقرأ كتاباً فى هدوء وأنظر من النافذة على الحقول فى مناطق كثيرة ، ثم نركب الحنطور بعشرة قروش من المحطة إلى المستشفى ، وكنت أكشف على المرضى لمدة ساعتين ، وكان أجرى عن العيادة جنيهين ، وكنت أحضر للولادة ، وكان أجرى عن الولادة خمسة عشر جنيها وعن القيصرية ثلاثين جنيها، وكنت أذهب فى منتصف الليل لإجراء الولادة من الدقى إلى حلوان ذهاباً وإيابا وأنتظر ساعتين أو ثلاثا وربما طوال الليل لأتلقى خمسة عشرة جنيها يخصم منها الضرائب. وكان الأستاذ عنانى رئيس هذه

الجمعية والمسؤول عنها عضواً فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى وأحد رجال على صبرى المخلصين ، وكان يهتم بأن يكون له علاقة شخصية مع الأطباء فى المستشفى التابع لجمعيته، واستمر عملى بالجمعية حتى عام ٧٢ عندما سافرت للدنمرك ، وعند عودتى عدت للعمل مرة أخرى بضعة شهور ثم توقفت، وقد كان عنانى أحد الذى قاموا بالشوشرة على أنور السادات أثناء إلقاء خطابه فى اللجنة المركزية قبل أحداث ١٥ مايو، وبعد ذلك حدثت تغيرات نتج عنها أن فقد عنانى كل مناصبه وأهميته وأصبح فرداً عادياً، لكنه استمر بشوشاً كعادته. كنت أعمل فى هذا المستشفى ساعات طوالا وأذهب إلى حلوان نحو خمس عشرة زيارة بين عيادة وولادة أو عملية، وكان إيرادى الشهرى منها لايتجاوز المائة جنيه وكنت سعيداً بذلك، فقد كان ذلك مبلغاً كبيراً وأذكر أننى ذهبت للتصييف فى فندق سيدى عبدالرحمن المعروف على الساحل الشمالى ، وكان أجر الغرفة نصف إقامة مبلغ ٤٨٠ قرشاً لفردين، وهى لوكاندة خمس نجوم وكان ذلك قبل اندلاع الأسعار عام ١٩٧٤ بثلاث سنوات فقط.

ليبيا وقطر : زيارات قصيرة

لقد سافرت فى تلك الفترة مرتين، الأولى إلى ليبيا وذلك لإجراء عملية جراحية لمريضة من أقرباء أحد رجال الثورة فى بنى غازى، وكانت الزيارة لمدة ٤٨ ساعة فقط، وكان ما أذكره عن هذه المرحلة أنه لم تكن هناك مجارى فى بنى غازى والشوارع كلها كانت محفورة وإقامتى فى الفندق الإيطالى الكبير على البحر استمرت يومين ولم يكن بالفندق أكثر من عشرة نزلاء.

أما الزيارة الأخرى للعمل فكانت إلى دولة قطر فقد اتصل بى طبيب استشارى بريطانى كنتَ أعرفه منذ زمن وأخبرنى أنه يعمل استشاريا ورئيسا لقسم النساء بدولة قطر ، وأنه نظراً لظروف عائلية اضطر للعودة إلى إنجلترا لمدة شهرين، ورجانى أن أحل محله مؤقتا خلال هذين الشهرين وأخذ موافقة دولة قطر على ذلك وذهبت إلى هناك فى منتصف السبعينات.

وكان لهذه الرحلة أثر كبير على تفكيرى فقد مكثت شهرين فى أكبر فندق فى قطر على الخليج اسمه فندق الجلف، وقد شعرت بحجم الضغط الهائل على أعصاب كل الذين يعملون هناك من العرب أو الآسيويين، فالكل خائف من أن يخطئ فينهى عقده ، والقطريون تقريبا لا وجود لهم فى المستشفى ، والأغلبية من الفلسطينيين وكانت

علاقتى جيدة بالجميع، ولا توجد أى ضغوط نفسية أو مضايقات بالنسبة لى، وعلمت أن السبب فى ذلك أننى قادم لمدة شهرين فقط، وأعلنت مراراً بأننى لن أبقى يوماً واحداً بعد ذلك، وكان معى الدكتور حازم ترك أستاذ المسالك البولية الشهير، وعندما وصلت إلى قطر تسلمت سيارة جديدة واستخرجوا لى رخصة قيادة، واكتشفت بعد ذلك أن موزع السيارات هو وكيل وزارة الصحة ، وبعد انتهاء المدة تباع السيارة وتشترى واحدة جديدة للطبيب القادم، وقيل لى إن تعاطى المشروبات الكحولية ممنوع فى قطر ، لكننى وجدت القائم بالأعمال الإيرانى يعطينى صندوقاً كاملاً من الويسكى هدية بعد أن أجريت لزوجته عملية استئصال للرحم بالمستشفى، وانهالت على الهدايا من صناديق البيرة والنبيذ ، فكان عندى فى حجرتى فى الفندق كميات لم أر مثلها فى حياتى ، فأخذت أوزعها وأهديها وتركت كميات كبيرة منها لأحد العمال المصريين الذين تصادف أن كنت أعرفهم من مصر ليسترزق من بيعها وكنت أتعجب من ذلك الأمر: هل المشروبات الكحولية هى الهدية الوحيدة الممكنة فى قطر؟ وعلمت أنها أثمن هدية من وجهة نظرهم. وفى تلك الفترة تقابلت لأول مرة فى حياتى مع الناقد الكبير الجميل رجاء النقاش ومع الأديب المبدع والإنسان الرائع الطيب الصالح، ونظراً لقصر مدة إقامتى هناك لم نتقابل سوى مرتين فقط. وكان مرتبى فى الشهر الواحد ما يعادل نحو ثلاثة آلاف جنيه مصرى، وكان سعر الدولار نحو جنيه مصرى على ما أذكر.

علمتنى هذه الرحلة القصيرة فى فترة مبكرة من هجرة المصريين أن السفر للعمل فى الخليج شاق من الناحية النفسية، وأن الضغوط التى يتعرضون لها والتهديد المستمر بالترحيل وإنهاء العقد شيء يفوق كل الوصف، وأن كمية المنافسة بين العاملين من الجنسيات المختلفة رهيبة وأن كل جنسية تود أن تضع العراقيل والمصاعب للجنسيات الأخرى، وكان الفلسطينيون يشعرون بالخطر الشديد من المصريين بالذات نظراً

لكفاءتهم وقدرتهم على العمل وقبولهم أى أجر مع رضوخهم التام لصاحب العمل، وبالطبع أنا لا أقصد بعض الكبار من المفكرين أو الأطباء، وإنما أقصد الفرد المصرى العادى الذى لا حول له ولا قوة والذى لا تحاول سفارته أن تساعده بأية طريقة عند حدوث أية أزمة. وهناك فى قطر سمعت من كثير من الفلسطينيين عن النظرية العرجاء التى تقول إن السادات اتفق مع الأمريكان على حرب ٧٣، وكل هذا كان مسرحية كبيرة ولم تكن رحلة السادات للقدس قد تمت ولم يكن هناك بعد مشروع واضح لاتفاق سلام.

أعتقد أن وضع المصريين فى البلاد العربية كان أفضل فى أيام عبدالناصر لأسباب عديدة أولها أن مصر كان لها نفوذ يخشى منه، وانعكس ذلك على المصريين هناك. وكانت أعداد العاملين قليلة، وكلهم من المتميزين فكانوا مطلوبين، ولم يكن غرور كثرة المال ووفرته قد أدى إلى هذه العنجهية التى يتعامل بها الكثير من أهل الخليج مع العاملين عندهم.

أما الآن وبعد أن سافر الملايين إلى هناك فإن معظمهم غير مؤهل للقيام بعمل ، ومنهم من يقومون بأى عمل وبأى أجر وينامون عشرة فى حجرة ليوفروا أقل القليل، فطبعاً أصبح موقف المصريين حرجاً.

ومرت فترة السبعينات والتى ارتفع فيها نجم السادات بعد حرب ٧٣ و استطاع أن يحقق سلاماً مع إسرائيل وأن تعود سيناء لمصر ، وذلك بالرغم من اختلاف وجهات النظر فى أمر هذا السلام اختلافاً جذرياً. وإذا كان عبد الناصر قد فقد الفرصة الأولى بفشل مشروعه لتعليم الشعب و محو أميته و عدم استطاعته تحديد النمو السكانى بالرغم من أنه كان واعياً بأهمية المشروعين من أول لحظة لكنه لم يعطيهم الأهمية الأولى لو فعل ذلك لكان الموقف مختلفاً تماماً عندما تكون مصر ثلاثين مليوناً فقط

كلهم من المتعلمين ولو كان عبد الناصر الزعيم الجبار و معبود الملايين قد ركز على هذين المشروعين فقط لكانت مصر الآن شيئاً آخر تماماً و قوة كبرى تقود المنطقة ، ولم يكن هذا محالاً فقد فعلته الصين فى ظروف أصعب و أقسى.

أما أنور السادات فلم يكن بالزعيم الذى له من الشعبية و الحضور ما يمكنه من تنفيذ هذه المشاريع ولم تكن أيضاً ضمن أولوياته. لكن السادات سنحت له فرصة كبرى لعمل طفرة اقتصادية صناعية فى مصر تقود المنطقة فقد تم ضخ كمية هائلة من الأموال العالمية والعربية و المصرية فى فترة السبعينات و أوائل الثمانينات كانت قادرة على دفع الاقتصاد المصرى لكن للاسف شجع أنور السادات مشاريع التجارة على حساب التصنيع وكان خطؤه الأكبر رعاية الفساد و المفسدين و تدليلهم و إعطائهم الغطاء و الحماية ، بل حتى تقنين أوضاعهم ، وهو ما أدخل مصر فى سلسة من الكوارث نرى آثارها اليوم.

الإنتخابات فى مصر

لقد حافظت طوال عمرى على حقى الانتخابى فكنت أذهب لجميع الانتخابات و الاستفتاءات للإدلاء بصوتى مع علمى بأن صوتى فى كثير من الأحيان ليس له أهمية لأن الصناديق الانتخابية يتم التلاعب فيها وفى ، معظم الاستفتاءات لا يتم فرزها أصلاً ، وبالطبع كنت أحافظ على صوتى فى الانتخابات التى يكون للصوت فيها قيمة ثم انتخابات النوادى والجمعيه الطبية و النقابة ، وقد حرصت كلا ابنتاى على حقهما الانتخابى منذ أكملا ثمانية عشر عاماً.

إرتبطت الإنتخابات بالتزوير فى مصر من زمن طويل !، فقبل الثورة كانت معظم الإنتخابات مزورة بإستثناء إنتخابات عامى ١٩٢٤ ، ١٩٥٠ ، وكانت نسبة التزوير و درجته تختلف من دورة إلى أخرى فبعض الإنتخابات كانت مزورة بالكامل مثل

إنتخابات صدقى باشا مخترع النظم الحديثه فى التزوير باستبدال الصناديق بأخرى مجهزة مسبقاً بأصوات الناخبين سلفا !، وفى بعض الدورات كانت الإنتخابات تزور جزئياً بإضافة بعض الأصوات أو بالتزوير فى عدد من الدوائر ، وبعد الثورة إستمر تزوير الإنتخابات بدرجة أكبر ففى عهد عبد الناصر لم يكن يسمح بنجاح أحد ضد مرشحى الحكومه ، وبعد ذلك فى عهد السادات قامت حكومة ممدوح سالم بإجراء الإنتخابات الوحيدة النظيفه تماماً منذ قيام الثورة ، و أتى برلمان فيه عدد من المعارضين مما إضطر السادات إلى حل البرلمان لإسقاط بعض رموز المعارضه ، وعاد إلى لعبة التزوير ، وقد اعتبر السادات أن إنتخابات ممدوح سالم كانت خطئاً تعلمت منه الحكومات بعد ذلك.

وهكذا أصبح تزوير الإنتخابات إجراء روتينى فى مصر !، و يقال أن بعض المرشحين كانوا يدفعون رشوى للحزب الحاكم مقابل ضمان نجاحهم ، و تطورت طرق التزوير من تزوير فى الصناديق إلى منع الناخبين من الوصول إلى الصناديق الإنتخابيه للإدلاء بأصواتهم!، ولم تكتفى الحكومات بتزوير إنتخابات مجلس الشعب بل إنتقل ذلك إلى الإنتخابات المحليه!.

وأصبحت الإنتخابات النظيفه الوحيدة هى إنتخابات النقابات وكذلك إنتخابات مجالس إدارات النوادى!.

نفط الخليج ومصر

قد يكون هناك تصور عام بأن ظهور البترول فى منطقة الخليج كان نعمه كبيره ، وذلك لوجود مصدر إقتصادى هائل يمكن أن يرفع المستوى العام لسكان الوطن العربى ،و بالفعل فإن البترول قد أدى إلى تغيير كامل و سريع فى كل شىء فى منطقة الخليج ، وكثير من أموال الخليج وصلت لمصر عن طريق العاملين المصريين

فى الخليج أساساً ، وعن طريق الأستثمارات الخليجيه ، ولكن هل كان ظهور هذا الكم الهائل من البترول فى الخليج نعمه لمصر ؟ ، وهل استفادت مصر من هذه الأموال؟!

عندى تصوراً آخر وهو أن ظهور البترول كان سبباً هاماً فى النكسة العلميه و الإقتصادية و الثقافية التى أصابت مصر !، فقد منع البترول التطور الطبيعى للإقتصاد ، وحد من الإبتكار ، و الإعتماد على النفس ، وذلك لوجود مصدر سهل و بسيط للربح وكانت أموال البترول الخليج وراء بناء كم هائل من القرى فى الساحل الشمالى لا تستغل إلا بضعة أسابيع كل عام !، وهذا الحجم الضخم من الأستثمارات كان كفيلاً ببناء قاعدة صناعية تصب فيها مدخرات المصريين.

وعملت أموال البترول على تصدير الثقافه البدوية السلفيه سواء بالتأثير على العمالة المصرية التى أقامت سنوات هناك ، أو بالتأثير الأعلامى داخل مصر ، وكان التأثير السلبى على الروح المصرية سبباً فى شرخ فى جدار الثقافه و الشخصيه المصريه سوف يحتاج وقتاً طويلاً حتى يلتئم.

وكانت أموال البترول السهلة من الأسباب الهامة لنشر الفساد فى مصر على جميع المستويات وفى جميع المجالات ، وبعد ذلك استشرى سرطان الفساد وأصبح مكوناً هاماً فى النظام السياسى و الأقتصادى فى مصر.

وكان ضمن الكوارث التى سببها البترول إننا قد أصبحنا بؤرة إهتمام الأمبريالية العالمية فبعد أن تخلصنا من الاستعمار البريطانى أصبحنا رهينة التبعية الأمريكية!

وضاعت على مصر فرصة إقامة قاعدة تكنولوجية متقدمة معتمدة على طاقتها و مواردها الذاتية ، وفقدت مصر دورها الرائد فى التقدم الصناعى و الأقتصادى ، و الذى بدأ مبكراً ليصبح إقتصادنا قائما الخدمات ، وليتم تهميش الدور المصرى بالكامل !.

الأندماج فى المجتمع العلمى

خلال فترة السبعينات بدأت أنخرط تدريجيا فى المجتمع العلمى الدولى محاولاً الانضمام له ببعض الأبحاث المتواضعة، والتى تقدمت تدريجيا بعد ذلك حتى أصبح لنا حضور قوى فى التسعينات بأبحاث مبتكرة، وأصبحت دعوة مجموعتنا العلمية للمؤتمرات الكبرى شيئا روتينياً.

وقد أعطانى حضور هذه المؤتمرات فرصة ذهبية لتثقيف نفسى ورؤية الحضارة الأوربية التى سمعت عنها كثيراً وقرأت عنها أكثر وشاهدتها على شاشة السينما وبين صفحات الكتب، فمنذ عام ١٩٧٥ وأنا أسافر مرتين أو ثلاث مرات لحضور مؤتمرات . صحيح أن هذا العدد من السفريات وصل لأكثر من ذلك فى التسعينات ، لكن الزيارات الأولى كانت هى الأهم لأننى كنت أقوم بجولة ثقافية أجهز نفسى لها بالقراءة المسبقة، فلقد شاهدت معظم بلاد أوربا من الاتحاد السوفيتى شرقاً مروراً بالمجر وتشيكوسلوفاكيا ثم النمسا وسويسرا ويوجوسلافيا السابقة فى وسط أوربا والبلاد الإسكندنافية كلها وإنجلترا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا واليونان وأسبانيا وهولندا وبلجيكا غربا، أما عن باقى العالم فقد زرت الهند و اليابان و بلدان الشرق الأقصى. وبالرغم من ظاهرة جموع الفقراء و الشحاذين التى يقع عليها نظرك عند زيارة الهند إلا أن ذلك لا يعطى انطباعاً عن الواقع الحقيقى لهذا الشعب الذى هو معجزة بين شعوب العالم الثالث فى استمرار الحكم الديمقراطى الحقيقى فيه و الذى استطاع أن يكتفى ذاتياً فى أكله وفى صناعته ، و أصبح المصدر الأكبر لتكنولوجيا برامج الكومبيوتر للعالم بما فيها الولايات المتحدة وقد زرت الهند عدة مرات و انشغلت لفترة بالفلسفة الهندية و التى هى قريبة من فلسفة غلاة الصوفيين الإسلاميين ، وبعد زيارتى الأولى فى السبعينات توقفت عن أكل اللحوم و الطيور اقتناعاً بأفكار هذه الفلسفة.

وقد زرت أيضاً أستراليا و نيوزيلاندة وهى بلاد شاسعة فيها طبيعة جميلة. وكان البلد الوحيدة الذى لم أزره فى غرب أوربا هو البرتغال، وفى شرقها بولندا، وقد أعطيت نفسى الوقت الكافى بعد نهاية كل مؤتمر لمعرفة البلد وشوارعه وناسه ومتاحفه ، وشاهدت فى إنجلترا المسرح الانجليزى الجاد وغير الجاد ، أما فى البلاد الأخرى فكانت اللغة عائقا ، فشاهدت الأوبرا والموسيقى الكلاسيكية ، ودونت بعض المذكرات البسيطة عن هذه الرحلات وقد عدت إلى هذه المتاحف والمنارات الثقافية مرات ومرات بعد ذلك لا أكِل ولا أمِل ، فربما أكون قد زرت متاحف باريس وهولندة أكثر من عشر مرات. وقد كان لذلك أثر فى حبى الشديد وارتباطى الوثيق بالثقافة الأوربية، وأعتقد أن الثقافة المصرية فى القرن العشرين فى مجملها لها ارتباط وثيق بالثقافة الأوروبية بدءاً من جيل الرواد ومروراً بجيل الستينات ونهاية بجيل الكتاب الحاليين ، فحين تقرأ الثقافة الأوربية التى أبدعت للعالم أعظم ماكتب فى الرواية والفلسفة والقصة القصيرة والمسرح والشعر والنظريات الاقتصادية لا تستطيع إلا أن تشعر بالعظمة والقدرة الهائلة لهؤلاء المفكرين والكتاب، وإذا انتقلنا للموسيقى أو الفنون التشكيلية بأنواعها المختلفة ترى الحجم الهائل من الإبداع الذى ملأ متاحف العالم وأسعده وسوف يسعده حتى نهاية البشرية، وحين ترى الإنسان الأوربى الذى تعامله الدولة برفق وحنان وحزم وتعطيه كل حقوقه، وتشاهد رجل الشارع الفرنسى يجبر ديجول أهم وأقوى رئيس جمهورية فى فرنسا على الرحيل من منصبه تشعر بعظمة أوربا الثقافية والسياسية. إن تأثير الثقافة الأوربية نتاج تطورات هائلة حدثت فى أوربا خلال قرنين من الزمان، لكن ما يدهشنى ويصيبنى بالفزع ويسبب لى أزمة مستمرة هو الازدواجية الرهيبة فى هذا الغرب العظيم الذى يذوب عشقاً فى الديموقراطية والفن والعدالة ، فى حين أنه هو نفس الغرب الذى قام باغتصاب دول الشرق فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، وقام باحتلالها عسكريا وأقام بها المذابح وسرق ثرواتها وسجن زعماءها ومفكريها ، فى نفس الوقت الذى كان

المؤلفون يكتبون رواياتهم الرائعة وفلاسفتهم يكتبون النظريات الكبرى ويتكلمون عن المساواة بين البشر ، والسياسيون يتكلمون عن الإخاء والديموقراطية، وبعد أن انتهى عهد الاستعمار التقليدى أقدموا على إعادة احتلالنا بنوع آخر من الاستعمار غير التقليدى، صحيح أنه ليس أوربياً وإنما أصبح أمريكيا وإسرائيليا ، لكننى لا أرى ولا أسمع شيئاً سوى همسات خافتة وكلمات قليلة عما يحدث فى فلسطين من مفكرى أوربا الغربية.

يبدو أن العنصرية تجرى فى دماء البشر أجمعين، لكن الرواسب الثقافية الأوربية استطاعت أن تغلفها بثوب رقيق وجميل ، الأوروبيون يؤمنون بالعدالة والمساواة وبالرخاء والديموقراطية فقط بالنسبة لشعوبهم وأهلهم، أما بالنسبة لبقية العالم ـ باستثناء إسرائيل التى هى جزء من نسيج الغرب ـ فيمكن إظهار بعض العطف عليهم فى صورة معونات أو كلمات لا أكثر ولا أقل.

إن هذا التناقض الكبير فى أوربا لا يمنعنى من حب فنهم وأدبهم وديموقراطيتهم وأتمنى أن نكون مثلهم. صحيح أن لنا ثقافتنا وتاريخنا الخاص، لكن الثقافة الأوربية هى خلاصة تقدم البشرية جميعا ، ونحن قد ساهمنا فيها عبر التاريخ ببعض المساهمات التى قد تكون ضئيلة وقد تكون كبيرة ، لكن هذا التراث هو تراث البشر أجمعين، ولا يمكن أن ننفصل عن الغرب والعالم بدعوى أنهم يكيدون لنا ويريدون السيطرة علينا. إن الحضارة الغربية مرتبطة بالثورة الصناعية الأوربية وبثورة التكنولوجيا والاتصالات ، ولا نستطيع الفكاك من التعامل مع التكنولوجيا الأوربية بدءاً من وسائل المواصلات والاتصالات إلى كل ما نستخدمه من أدوات منزلية، حتى الصحف التى نقرأها كلها رافد من روافد الحضارة الغربية، فليس من المعقول أن نقول إننا سوف نستفيد من نتاج التكنولوجيا الغربية ونرفض أفكار الحضارة الغربية التى يختلف حولها الأوربيون أنفسهم، وكلنا يذكر الشيخ الشهير الجهير الذى سئل عن سبب

تقدم الغرب غير المسلم وتأخر المسلمين مع أن الله مع المسلمين فأجاب بأن الله يسخرهم لتقديم الاختراعات التى يستعملها ويستفيد منها المسلمون. يجب أن نناقش هذه الفلسفات والأفكار وأن يأخذ كل منا ما يراه مناسباً ومقنعاً له ولبلده ، أما أن نقول إن كل الأفكار الغربية مرفوضة أصلاً أو إن علينا أن نطبقها كما هى أو نلقى بها فشىء غير معقول. إن الأصل فى الإنسان هو التفرد والاختلاف، وكل منا يجب أن يفكر ويناقش ويطور ويحاور ويقبل ما يقنعه وعليه أن يحترم رأى الآخرين فى أفكارهم المغايرة والمختلفة، وكل شىء فى هذه الدنيا متغير ومختلف إلا حقيقة واحدة هى الموت، فما كان النظام الأمثل من مائة عام لم يعد الأمثل الآن، وما كان يطرب المصريين من موسيقى فى القرن التاسع عشر يختلف عما يطربنا الآن، حتى لغة الكتابة ولغة الكلام اختلفت ، فنحن المصريين أمامنا معارك كبرى لتحديث الأمة والدفاع عنها أمام الهجمات البربرية، وهذا لن يكون إلا بالنظر للأمام والبحث فى علوم المستقبل وثقافة المستقبل حتى نخرج من هذا المستنقع الذى نعيش فيه.

البحث العلمى و عالم أطفال الأنابيب

لقد حصلت على وظيفة أستاذ وعمرى تسعة وثلاثون عاماً عام ١٩٧٩ بعد أن تقدمت بأبحاثى إلى اللجنة العلمية واعتبرت أبحاثاً جيدة، لكن معظمها كان محلى الصبغة ، وبها بحثان فقط منشوران فى مجلات دولية، وفى أول مؤتمر طبى حضرته بعد ذلك لم أستطع أن أقول إننى أستاذ فى أعرق جامعات مصر والعالم العربى، لأنه كيف أكون أستاذاً وكيف أحصل على هذا اللقب ولم يسمع أحد بى فى المجلات العلمية الكبرى؟ وفعلاً كنت أقول إننى مدرساً بالطب، وبدأت رحلة البحث العلمى وواكبها الاهتمام بمكتبة القسم والاجتماع العلمى للقسم الذى أصبح مسئوليتى لمدة تربو على العشرين عاماً. ووفقت فى نشر بعض الأبحاث فى مجلات دولية محترمة بالرغم من أن الجو العام لم يكن يشجع على البحث العلمى.

فى تلك الفترة كانت أول طفلة أنابيب قد ولدت فى إنجلترا بعد أبحاث مضنية قام بها العالمان البريطانيان إدوارد واستبتو ويوم أن طيرت وكالات الأنباء هذا الخبر قلت إن هذا هو حلم عمرى بالنسبة لمصر، وبدأت فى القراءة المستفيضة عن أبحاث أطفال الأنابيب، وسافرت لزيارة أحد المراكز فى السويد، ووجدت أن الخبرة الإكلينيكية يمكن التدريب عليها فى وقت معقول بالرغم من أن الأمور لم تكن بالبساطة. فى تلك الأيام كنا نلتقط البويضات عن طريق منظار البطن وهى عملية معقدة نسبيا، وكان لها مخاطرها فى ذلك الوقت ، خاصة لدى المرضى الذين أجريت لهم عدة جراحات لمحاولة تفكيك الالتصاقات حول الأنابيب ، وفى أحيان كثيرة كنا لا نستطيع الوصول للمبيض عن طريق المنظار بسبب شدة الالتصاقات، ولم يكن علم جراحة المناظير قد حدثت فيه الطفرة العلمية الأخيرة. وكانت متابعة التبويض مشكلة، فلم تكن الموجات الصوتية المهبلية متاحة ، وكانت المتابعة تتم عن طريق البطن بما فيها من صعوبات ، وكانت تحليلات الهرمونات معقدة وتستغرق وقتاً للحصول على النتائج، وكانت المشكلة الأكبر هى إنشاء معمل مجهز لإخصاب البويضة ورعاية الجنين فى الحضانة لمدة يومين أو ثلاثة. وقد وفقنا بعد صعوبة فى الاتصال بمعمل فى ولاية كاليفورنيا وافق على الاشتراك معنا، لكننا عند مناقشة التفاصيل لم نتنهى إلى اتفاق لأنهم كانوا يريدون أن يصبح المركز فرعاً من المركز الأمريكى، ويسمى بالاسم الأمريكى ونبقى نحن شركاء معهم، وصممت على أن يكون الخبير المعملى موظفا بعقد لمدة محددة يتكون بعدها الطاقم المصرى لتكملة المعمل، ورفضوا ذلك وغادروا مصر بعد أن تكبدنا بالطبع مصاريف سفرهم وإقامتهم فى مصر لمدة أسبوع هى فترة المفاوضات، وفجأة عام ١٩٨٤ وبعد فشل المفاوضات مع الأمريكان ببعضة أسابيع وصلنى خطاب على القصر العينى من طبيبة مصرية نابهه خريجة القصر العينى و كانت قد عملت طبيبا مقيما بقسم أمراض النساء معنا فى فتره سابقة وهى الدكتورة رجاء منصور ، وكانت قد سافرت للولايات المتحدة والتحقت بمركز أطفال الأنابيب بجامعة أوهايو

وكانت من ضمن المجموعة الأمريكية التى شاركت فى إنشائه من أول يوم، وبعد أن بدأ المركز فى العمل وأنهت تدريبها قررت أن الوقت قد حان للعودة إلى الوطن والبدء فى إنشاء مركز فى مصر، فأرسلت عدة خطابات إلى بعض أعضاء هيئة التدريس بالقصر العينى للمساهمة والاشتراك معها وكنت أنا من ضمنهم، لكن لم يرد عليها أحد رداً إيجابياً ، وللأسف فقد وصلنى خطابها بعد ستة شهور كاملة قضاها فى البريد داخل مصر بين أرشيف جامعة القاهرة وأرشيف كلية الطب، حتى وصلنى الخطاب وذهلت عندما قرأت تاريخ تصديره فاتصلت بها تليفونيا فى نفس اليوم، وأخبرتها برغبتى الشديدة فى أن نعمل سوياً لإنشاء هذا المشروع العلمى، وفعلاً حضرت إلى القاهرة وتباحثنا سوياً فى تفاصيل المشروع وقد أقنعتها بأن هذا المشروع صعب خاصة فى أوله ويحتاج إلى شريك ثالث يساندنا ويشد من أزرنا فى مواجهة صعاب كثيرة علمية وغير علمية متوقعة ، واقترحت اسم د. جمال أبو السرور أستاذ أمراض النساء بالأزهر، وقد كنا أطباء مقيمين فى نفس الوحدة بالقصر العينى فى الستينات.

ودعوت جمال للاجتماع معنا وبدأنا التخطيط وأكملناه سوياً نحن الثلاثة ،واشترينا شقة فى المعادى لبدء المشروع الذى افتتح فى مارس عام ١٩٨٦ ، وتولت الدكتورة رجاء مهمة تجهيز المكان من أعمال مقاولات إلى استيراد أجهزة وتخليصها من المطار وأشياء أخرى كثيرة أخذت الكثير من الجهد والعرق. وبعد أن تم تجهيز المكان بالأجهزة اللازمة وتدريب العاملين جميعاً على خطة المعمل كان علينا أن نواجه المجتمع المصرى ككل والمجتمع الطبى وكذلك المرضى.

وكان الانطباع العام لدى الناس أن الدين لا يوافق على إجراء هذه العملية ووجدنا فتوى من الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر فى ذلك الوقت منشورة فى مجلة الأزهر منذ كان مفتياً للجمهورية يجيب فيها على زوجين يريدان الذهاب إلى إنجلترا لإجراء عملية أطفال الأنابيب، فكانت الموافقة الإسلامية صريحة وواضحة بأن الدين

الإسلامى لا يمانع فى ذلك مادام أن الجنين الذى سوف ينقل إلى رحمها من السائل المنوى للزوج ومن بويضة الأم. و طلبت من الصديق الدكتور فتحى إسكندر أن يساعدنى فى الحصول على رأى كنيسة الإسكندرية، وبعد الاتصال بالكنيسة أعطانى كتيباً صغيراً مطبوعا بأناقة به شرح مبسط لعملية أطفال الأنابيب واتفقت الكنيسة المصرية مع الأزهر فى نفس الشروط المسموح بها ، وكانت الموافقة الدينية واضحة، وقد استغرق توضيح هذا الأمر للشعب المصرى عدة سنوات، وكان الشعب دائماً متوجساً من أن هذا النوع من العلاج غير مطابق لتعاليم الدين، ولم يصبح الأمر واضحاً وجلياً للجميع إلا فى منتصف التسعينات، أى بعد تسع سنوات من افتتاح المركز، وحتى هذه اللحظة لا يزال البعض يسأل عن وجود فتوى شرعية تسمح بهذا العلاج.

أما بالنسبة للوسط الطبى فقد مرت عدة سنوات وأقيمت الكثير من المؤتمرات حتى اقتنع الأطباء بأهمية هذا العلاج وإمكان نجاحه فى مصر، وبعد افتتاح مركزنا بثلاث سنوات بدأت المراكز الأخرى لأطفال الأنابيب تنشأ فى الإسكندرية والقاهرة وبعض مدن الوجه البحرى وفى أسيوط ، حتى وصل عددها إلى ما يزيد على ثلاثين مركزاً.

وفى ٧ من يوليو ١٩٨٧ بعد خمسة عشر شهراً من افتتاح المركز ولدت هبة الله أول طفلة أنابيب مصرية ، وكان خبراً مهما نشر فى الصفحة الأولى لكل الصحف والمجلات المصرية، والآن وبعد ولادة آلاف أطفال الأنابيب فى مصر أصبح الأمر عادياً، وفى عام ١٩٩٤ أدخلنا الإخصاب المجهرى كعلاج لعقم الرجال، وحقق نجاحاً باهراً ، وفى عام ١٩٩٩ أدخلنا التشخيص الوراثى للأجنة قبل نقلها لمنع الأمراض الوراثية.

وفى تقديرى أن النجاح الكبير للمركز المصرى لأطفال الأنابيب يرجع الفضل فيه إلى تفرغ وتفانى د.رجاء منصور والمجهود الإكلينيكى والمعملى لعدد كبير من الأطباء والفنيين الذين يعملون معى ومع د. جمال ومع د. رجاء فى جميع المراحل الفنية ، إلا أن النجاح الأكبر للمركز هو النجاح العلمى، فمنذ افتتاح المركز أنشئت

وحدة الأبحاث التى قامت بنشر عدد يتجاوز المائة بحث منها تسعة وستون منشوراً حتى الآن فى أهم المجلات العلمية فى العالم، وتشمل أبحاثاً مبتكرة أضافت لفرع التكاثر البشرى لمسات وإضافات مهمة، بحيث أصبحت أسماؤنا موجودة كمراجع فى كل الكتب العالمية الطبية فى أوربا وأمريكا ، وقد حصلت ببعض هذه الأبحاث على جائزة الدولة للتفوق فى الطب عام ١٩٩٩، وهو أول عام تنشأ فيه الجائزة. و حصلت الدكتورة رجاء بمجوعه من هذه الأبحاث على الدكتوراه من جامعة ماسترخت بهولنده وأصبحت دعوتنا لإلقاء بحوثنا فى جميع المؤتمرات العالمية أمراً روتينياً طبيعياً بجوار كبار العلماء من مختلف دول العالم، وشاركنا فى كتابة كثير من الكتب والمراجع الدولية، وقد أقام المركز عدة مؤتمرات علمية دولية آخرها عام ٢٠٠١ بمناسبة الاحتفال بمرور خمسة عشر عاماً على افتتاحه.

وانتقل المركز المصرى لأطفال الأنابيب إلى مبناه الجديد فى منتصف التسعينات، ونحن جميعاً نعتز بمجموعة الشباب من العلماء الذين يعملون معنا وبعضهم قد تخطى دور الشباب وأصبحوا جميعاً من رواد المعرفة فى التكاثر البشرى وأطفال الأنابيب.

وقد أخذت الأبحاث العلمية وقتاً ضخماً منى حد من نشاطى الثقافى وتسبب فى عدم وجود الوقت الكافى لقراءة كل الإصدارات المهمة الجديدة والتى تصبح مجال اهتمامى فقط فى إجازتى الأسبوعيه و أثناء الإجازة السنوية و خلال سفرى للخارج.

جمعية الشرق الأوسط للخصوبة

فى عام ١٩٩١ أقيم مؤتمر الجمعية الأوربية للتكاثر البشرى فى مدينة لاهاى فى هولندا ودعيت مع مجموعة من الأطباء الذين يرغبون فى تكوين جمعية عربية للتكاثر البشرى، كانوا قد اجتمعوا فى العام السابق للتحضير للجمعية، لكن لم يتم الاتفاق النهائى، وفى هولندا دعيت للاجتماع مع د. ميشيل أبى عبدالله من لبنان ود.

حسن يوسف المصرى المقيم آنذاك بالسعودية والدكتور كمال جارودى اللبنانى الأصل و السعودى الجنسية ، واجتمعنا ساعات طوالا تم فيها الاتفاق على تكوين جمعية الشرق الأوسط للخصوبة واختيار مجلس إدارة مؤقت لحين وضع قانون الجمعية، واختيرت لبنان مقراً دائماً بعد أن تعهد د. ميشيل بإحضار جميع الموافقات الحكومية اللازمة، وبدأت الجمعية نشاطها باجتماع فى العام التالى فى سالونيك باليونان، ثم بدأ نشاط الجمعية يتسع وعدد أعضائها يزداد، وعقدت مؤتمرات سنوية فى برمانة بلبنان والإسكندرية ودبى وعمان والبحرين وشرم الشيخ وبيروت والقاهرة، وفى عام ١٩٩٦ تم الاتفاق على تأسيس مجلة علمية للجمعية أتشرف برئاسة تحريرها ويشترك فى هيئة التحرير عدد كبير من الخبراء العالميين.

وقد انتخبت أول رئيس للجمعية لمدة عامين ثم توالى الرؤساء ، لأنه تم الاتفاق على أن مدة الرئيس تكون فترة واحدة لمدة عامين، والأعضاء لا يمكن أن ينتخبوا أكثر من مرتين لمدة عامين ضمانا للتغيير فى الرئاسة وفى أعضاء المجلس ، حتى لا نكون ونحن جمعية علمية مثل حكوماتنا العربية التى تريد أن تحكم أبد الدهر. وأصبح للجمعية وضع عالمى مهم ولها جلسة علمية خاصة ضمن برامج مؤتمر الجمعية الأمريكية للخصوبة ، وتم اعتماد المجلة رسمياً فى الاتحاد الأوربى، وأصبحت موجودة على شبكة الإنترنت ، وأصبحت الجمعية الثالثة عالمياً فى هذا المجال بعد الجمعيتين الأمريكية والأوربية، وأضاف ذلك لى ولزملائى ولنا جميعاً وضعاً علمياً مميزاً فى المجتمع العلمى الدولى.

وقد أخذت الأبحاث العلميه وقتاً ضخماً منى بالأضافه إلى الوقت الذى تأخذه رئاسة تحرير جمعية الشرق الأوسط للخصوبه. وزاد الأمر صعوبه أن أصبحت أحد نواب رئيس تحرير مجلة التكاثر البشرى وهى المجله الأولى فى العالم فى تخصصنا وأضيف إلى ذلك أننى أصبحت عضواً فى تحرير المجله الأمريكيه لأمراض النساء و

الولاده و محكماً فى كثير من المجلات العالميه. وحد ذلك من نشاطى الثقافى إلى حد كبير.

علاقتى بالفن و الأدب و الصحافة

تربطنى بالفن علاقة وثيقة منذ زمن بعيد ،فقد كانت زبوناً دائماً للمسرح الجاد فى الستينات، وكنت ما أزال طالباً فى السنوات النهائية لدراسة الطب ، ومازلت أذكر المتعة و الثقافة و السعادة التى كنت أحس بها عند مشاهدتى مسرحيات نعمان عاشور ،وأذكر جيداً بعض مشاهد من مسرحية الناس اللى تحت ،وقد كان نعمان عاشور هو مدخلى للمسرح الجاد، وأعتقد أننى شاهدت معظم أعمال مسرح الحكيم وسعد الدين وهبة وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف إدريس و محمود دياب و ميخائيل رومان و لاتزال مسرحية ليلى و المجنون الشعرية لصلاح عبد الصبور تمر كلماتها كشريط أمام عينى. أذكر أننا اشترينا طبعة دار المعارف الأنيقه للرواية . و كنا مجموعة من الأصدقاء نقرأها سوياً بصوت عال و يمثل أمامنا الشباب الجميل النقى والثائر على القهر و الاحتلال ، وكانت هذه المسرحيه بداية حب و تقدير لشاعر و إنسان عظيم. ومازلت أذكر مسرحية بعد أن يموت الملك التى شاهدتها مع صديقى د. فؤاد عبد الستار عام ١٩٧٢ ، ولم أكن أتخيل أن الممثلة برلنتى عبد الحميد لها هذه القدرة الفائقة على الإلقاء الشعرى الرائع دون أخطاء لغوية ، وكنت أظن أنها ممثلة تصلح فقط لدور المرأة اللعوب لكن تقديرى كان خاطئاً. وقد تعرفت على صلاح عبد الصبور شخصياً بعد ذلك عندما طلب منى بعض أعضاء الأسرة الطلابية الذين يقرضون الشعر أن يتعرفوا على أحد الشعراء ليطلعهم على قصائدهم و يطلبون منهم النصح و المشورة. و اتصلت بصلاح عبد الصبور الذى لم أكن أعرفه شخصياً وقدمت نفسى بأننى مدرس فى كلية الطب و أننى رائد لاحدى أسر الطلبة و طلبت موعداً مع الطلبة فأصر على دعوتنا لمنزله، و ذهبت مع سبعة من الطلبة و شربنا الشاى و قرأ

الطلبة أشعارهم و علق عليها صلاح و أبدى نقداً موضوعياً لأعمالهم و خرجنا من عنده و نحن فى غاية السعادة بهذا الشاعر الرقيق الذى خطفه الموت غدراً.

وكنت مواظباً فى تلك الفترة على مشاهدة مسرح الطليعة بميدان العتبة حيث كنا ندفع اشتراكاً قدره جنيهان و يصدر لنا كارنيه بصورة يسمح لك بحضور أى عرض طوال العام بعد أن تدفع الضريبة فقط وهى ثلاثة قروش ،وكان هذا المسرح يقدم عروضا رائعة من المسرح العالمى و المسرح التجريبى، وأذكر فى تلك الفتره مسرح المائة كرسى ، و الذى قدم عروضاً للفنون المسرحية العالمية التجريبية ،وكان الكثير من تلك الأعمال غير مفهوم لنا، لكنها كانت مصدرا للمناقشة و التفكير.

وبعد محاضرات د. حسين فوزى كان يأخذنا الحماس فنذهب أحياناً لسماع الموسيقى الكلاسيكية فى دار الأوبرا القديمة يوم الجمعة صباحاً ،وكان ثمن التذكرة خمسة قروش و كانت هذه الحفلات يعلن عنها فى الجامعات و المدارس وكانت أوركسترا القاهرة السيمفونى فى ذلك الوقت على مستوى عال وكان معظم عازفيها من دول أوروبا الشرقية.

أما الموسيقى الشرقية القديمة فكنا نستمع إليها فى قاعة سيد درويش بشارع الهرم.

وبدأت علاقتى بالفن التشكيلى فى الستينات ، وكان المعرض العام لفنانى مصر يقام فى قاعة الفنون التشكيلية المملوكة للدولة فى ميدان باب اللوق أسفل مبنى الغرفة التجارية ، وقد تحول إلى بنك فى نهاية السبعينات ، وكان ذلك نكسة كبيرة للفن التشكيلى فى مصر استمرت حتى أصبح وزير الثقافة فناناً تشكيلياً فأتاح الفرصة لازدهار الفن التشكيلى فى مصر. وكان المعرض العام فى الستينات يعرض لكل فنانى مصر العظام ، وكان شباب هذا الجيل من فطاحل الفنانين الذين تركوا بصمات قوية على الفن التشكيلى المصرى وقادوا ثورة فنية هائلة وكان منهم عبد الهادى الجزار وحامد ندا و السجينى وحامد عبد الله وغيرهم الكثيرون.

وبالرغم من رخص ثمن اللوحات لكبار الفنانين والتى كانت لا تتجاوز المائة جنيه للوحة الزيتية ، و معظمهم أقل من ذلك بكثير إلا أن هذا الثمن كان يعتبر كبيراً جداً ، ولم يكن فى استطاعتى أن أشترى لوحة واحدة وكان أول عمل أقتنيه عام ١٩٦٧ هو لوحة لوجه مرسوم على الحرير للفنان عمر النجدى واشتريته من أتيليه روكسانا وهو لزوجة المرحوم شهدى عطية الشافعى بالزمالك بمبلغ سبعة جنيهات ، وكان هذا يمثل ربع مرتبى الشهرى و بمرور الوقت بدأت فى تكوين مجموعتى الخاصة من اللوحات الفنية وأصبحت زبوناً لكل المعارض أتمتع برؤية الفن الجميل وأقتنى بعض الأعمال التى تعجبنى و اكتسبت خبرة فهم و تذوق هذا الفن الجميل وقمت بتصوير و تسجيل مجموعتى الخاصة منذ سنين ، وهى تضم أعمال لكبار فنانينا من الرعيل الأول وحتى جيل الشباب.

أما علاقتى بالأدب و التاريخ فهى علاقة قارىء محب لكل ما هو جميل و راق ، وقد زاد عدد الكتب غير الطبيه فى مكتبتى على ثلاثة آلاف كتاب اقتنيتها عبر أكثر من أربعين عاماً، أما علاقتى بالصحافة فهى علاقة وثيقة فأنا أتابع ما تكتبه معظم الصحف اليومية و الأسبوعية و أحياناً أرسل بعض المقالات لنشرها فى الصحف ،وقد نشرت لى مقالات كثيرة فى صحف الرأى للأهرام و مقالات أخرى فى بعض المجلات الأسبوعية و الشهرية.

خاتمـــة

عندما صدر كتـابى الأول عن إهدار استقلال الجامعات منذ عامين قرأته لأبى الذى كان قد تعدى التسعين من عمره وكان قد فقد بصرة و كانت سعادتى غامرة وأنا أراه يكاد يثب من الفرحة وهو جالس على كرسيه ، وكنت أتمنى أن يطيل الله فى عمره لأقرأ له هـذا الكتاب ، لكنه غادر الحياة منذ بضعة شهور ، وفى ذلك اليوم كنت قد كتبت هذه السطور عن تجربة الموت فأردت أن أختم بها كتابى:

كل إنسان يحب أباه و يعتقد أنه رجل عظيم ، وفى الحقيقة هـذا الشعور شعور حقيقى و صادق ، حيث إن كل الرجال و النساء بغض النظر عن سلوكياتهم و أخلاقهم عظماء على الأقل فى شىء ما أو فى ناحية معينة ،وقد يكون هذا الشىء بسيطاً ، لكنه فى نظر الابن شيئاً كبيراً و مهما وقد يكون الأب عظيماً من نواح كثيرة فتعتبره العائلة و المعارف وفى بعض الأحيان الأمة كلها رجلاً عظيماً. وهذه هى عظمة الإنسان فهو شىء عظيم دائماً وفى كل الأحوال و الظروف إذا نظرت إليه من زاوية معينة. لكن هذه العظمة صغرت أو كبرت تنهار أمام الموت عندما يرقد الإنسان لا حول له ولا قوة ينتظر الموت.

بحكم عملى شاهدت مرضى يموتون ببطء بسبب مرض مزمن ، و مرضى يموتون فى أسابيع قليلة وهم يعلمون أنهم إلى طريق الموت سائرون و شاهـدت من

مـــات فجأه و دون سابق إنذار. لكن التجـربة التى أريد أن أحكيهـا هى تجـربة أبى الذى أحب الحياة و أحب الموت و قرر أن يموت حين شعر أنه زهق و زهد فى الحياة ولم تعد الحياة كما كان يحبها أبى رجلا من أسرة متوسطة بمقاييس الأربعينات من القرن الماضى ،حين كانت الأسر المتوسطة فى بحبوحة من العيش ظل يعمل بجد و نشاط حتى تعدى الثمانين من عمره مدير بنك ثم محاضرا و مؤلفا فى مجال تخصصه ،وهو الائتمان التعاونى ،و توقف عن العمل مجبراً بعد أن فقد بصره تقريباً ، ووافق على إجراء جراحة فى عينيه ، وكانت نسبة نجاحها ضئيلة و نجحت العملية وأصبح يستطيع القراءة إلى حد ما ، فعاد للعمل و الكتابة وحتى إعطاء المحاضرات وقد تعدى الخامسة و الثمانين وكان يتمتع بذاكرة حديدية و قدرة على التركيز و معرفة واسعة بما يحدث فى العالم وفى مصر و تفاصيل دقيقة عن أحوال العائلة و الأقارب و المعارف ، و يتصل بالجميع تليفونياً و أصبح قليل الخروج ، لكنه كان يزاول رياضة المشى فى المنزل لمسافات طويلة ، وقد خرج لحضور أفراح أحفاده وقد تجاوز التسعين من العمر ، وكانت له فلسفة فى الحياة ألا يضغط على أحد أو يتدخل فى شئون الآخرين حتى لو كانوا أولاده أو أحفاده ، وكان يتفهم جميع وجهات النظر التى لا يوافق عليها بصدر رحب ، وكان دائماً بشوشاً ضاحكاً حتى عندما فقد بصره وهو القارىء النهم لكنه كان يسمع الراديو ، و يقرأون له الصحف بالتفصيل. وقد أصيب بصرة مرة أخرى بعد نجاح العملية الأولى ببضع سنوات ، وأصبح لا يرى فوافق على إجراء عملية ترقيع قرنية وهو فى الرابعة و التسعين من العمر و استطاع أن يرى بعض الشىء لمدة عام حتى أنتهى النظر تماماً.

وقد كان متوقد الذهن و الحواس مدركاً لكل شىء ، وفى العام الأخير قبل أن يبلغ عيد ميلاده السادس و التسعين أصيب بجلطة فى الجزء المسئول عن التوازن فى المخ ففقد توازنه و لكنه بإصرار استطاع أن يبدأ الحركة مرة أخرى بالمساعدة. وبعد عيد

ميلاده السادس و التسعين بدأ يفقد السيطرة على التبول وقد أصابه ذلك فى مقتل لأنه أعتبر أنه قد أصبح عالة على من حوله. وبعد فترة من التدهور البطىء أستمرت أسابيع قليلة فجأة قرر أن يموت بالرغم من أن صحته العامة كانت جيدة باستثناء النظر ، لكن عدم التحكم فى البول كان القشة التى قصمت ظهر البعير فأضرب عن الطعام و الشراب تماماً وبدأ جسمه ينحل و قواه تنحدر لكنه كان مصراً و مصمماً على إغلاق فمه لا يقبل ولا يتقبل نقطة من الماء ، و جلسنا بجواره أولاده وأحفاده نتكلم فى أذنه وهو يسمعنا و يشير برأسه أنه يسمع ، يفهم ولكن بيده يقول ما معناه عليكم أن تفهمونى ، لقد سئمت الحياة التى كنت أحبها و أعشقها و أضيئها للأولاد و الأحفاد و الأصدقاء و المريدين. لم تكن لى خبرة سابقه برؤية و معاشرة إنسان يرفض الحياة حتى يحافظ على احترامه لنفسه عندما شعر أن لا يصح أن يبول على نفسه.

كان المشهد مؤلماً و الجميع يتوسلون إليه أن يفتح فمه لنضع فيه ولو قطرة واحدة من الماء لكن هيهات ، واقتنعنا جميعاً أن علينا أن نحترم قراره و رغبته وألا نعطيه شيئاً عن طريق الوريد يتعارض مع ما قرره هذا الرجل الجميل الذى قرر أن يعيش كما يريد وأن يموت عندما يريد.

الفهرس

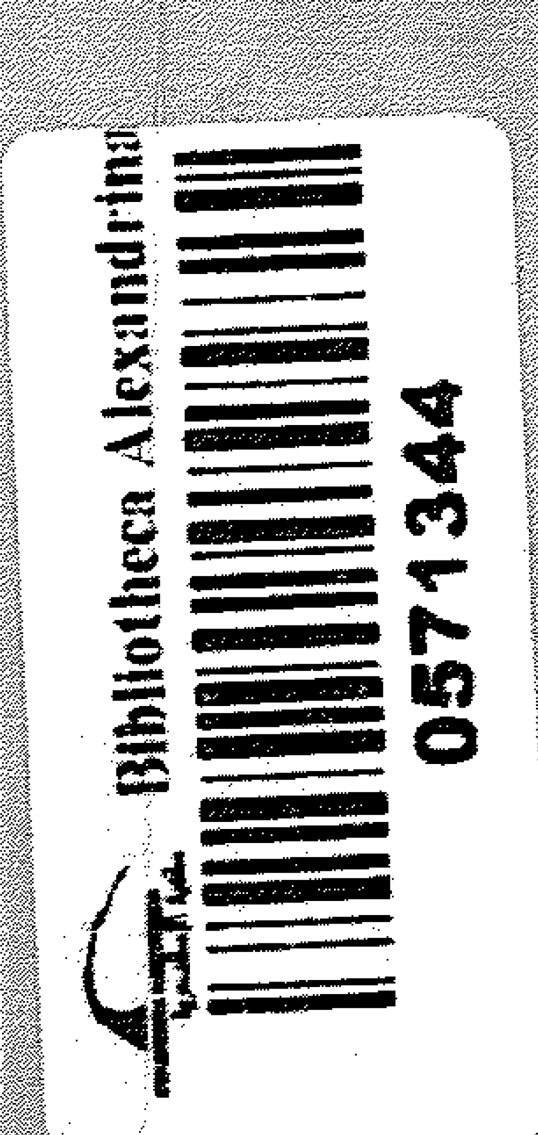
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٠٠٥ / ٢٠٠٣

I.S.B.N . 977 - 01 - 8369 - 5



هذه سيرة ذاتية، الوطن فيها البطل، يعود بها صاحبها إلى جذوره منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى نهاية السبعينيات من القرن العشرين، ويروى الكتاب ثلاث قصص رئيسية هى قصة عائلة من الريف وأخرى من المدينة بالإضافة إلى رحلة الكاتب عبر اربعين عاماً، ويطرح فيها قضية التفاعل الحضارى بين مجتماعتنا التقليدية وبين الأفكار الحديثة التى وفدت علينا مروراً بقضايا الحرية والديمقراطية والتنمية. كل هذا بروح ناقدة وعين لاقطة.



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٦٧٥ قرش